مكتبة

جوزيه رودريغيش دوس سانتوس

مكتبة
860

رجل القسطنطينية

المركز الثقافي العربي

إهداء لصديق مكتبة
خاسر التصويت ..
الذي قال أنه
سينتظر شهرين

مكتبة | 860
سُر مَن قرأ

جوزيه رودريغيش دوس سانتوس

رجل القسطنطينية

الكتاب

رجل القسطنطينية

تأليف

جوزيه رودريغيش دوس سانتوس

ترجمة

سعيد بنعبد الواحد

الطبعة

الأولى، 2021

الإيداع القانوني:

2021MO3510

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-11-2

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص. ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

José Rodrigues dos Santos

O Homem de Constantinopla

© José Rodrigues dos Santos/
Gradiva Publicações, S. A., 2013
All rights reserved

مكتبة
t.me/t_pdf

28 6 2022

جوزيه رودريغيش دوس سانتوس

مكتبة | 860
سُر مَن قرأ

رجل القسطنطينية

رواية

ترجمها عن اللغة البرتغالية
سعيد بنعبد الواحد

المركز الثقافي العربي

كل واحد يقضي ما كُتب له من قدر،
ويرغب إلى ما يصبو إليه من مصير؛
فلا هو يحقق أبداً ما يرغب إليه،
ولا هو يرغب فيما يحقق.

فرناندو بيسوا

إلى مؤسسة غولبنكيان،
على كل ما قدمتهُ لنا .

رغم أنها عملٌ تخييلي،
فإن هذه الرواية مستلهمة
من أحداث حقيقية.

الإمبراطورية العثمانية
القرن التاسع عشر
آسيا
أوروبا
أفريقيا
المحيط الأطلسي
لندن
برلين
باريس
فيينا
مارسيليا
صوفيا
البحر الأسود
بحر قزوين
تيفليس
باكو
القسطنطينية
تريبيزوندا
قيصرية
الموصل
كركوك
دمشق
بغداد
البحر الأبيض المتوسط
طرابلس
القدس
القاهرة

مكتبة
t.me/t_pdf

تصدير

ليس هناك من كائن بشري ينسى يوم موت أبيه. يُقال إنها اللحظة التي يصبح فيها المرء راشداً ويتم استئمانه على المستقبل كأنه يتلقى مفتاح بيت يرثه في النهاية. يتظاهرُ بأنه راض عن حياته وأنه صار سيّد مصيره، بيد أن اليُتم لا يقدم شيئاً آخر غير الوحدة لمن يكتشف نفسه مستسلماً لقدره.

عشتُ هذه المأساة الشخصية ذات يوم غريب، في ظهيرة من تلك التي يبدو أن كل شيء يجري فيها في الوقت ذاته، كأن الرّب يتلاعب بمصائبنا فيأخذ باليسرى ما يقدمه لنا باليمنى. نتعثر بالسنين كأننا مخدرون، وما نحن سوى مسرنمين نتسكع بين أحلام لا نميز حدودها بشكل واضح، تائهين في متاهة نسجتْها ألغازٌ تُخيّم على دروب مفتوحة أمامنا. فجأة، وبسرعة، أو ربما بفعل ساحر، تتسارع الأحداث وتتسابق الأمور.

هذا ما حدث يومَ ولجتُ فندقاً فاخراً يوجد في قصر صغير على تخوم أوروبا. تجاوزتُ ردهة البناية مثل حيوان محاصَر، قلق ومكتئب، يتلوّى من شر مستقبل يعرف بالحدس أنه مجهول. كانت الرحلة إلى لشبونة مرهقة، وعندما تركتُني أسقط فوق الأريكية، بعد أن تحدثت مع الطبيب وصعدت إلى الطابق الأول لألقي نظرة على

والدي المحتضر، كان لديّ انطباع بأنني لن أستطيع أن أنهض، فقد وجدتُ الوسائد في غاية النعومة وأنا في أقصى حالات التعب. نظرتُ من حولي فاستنشقت أجواء الفندق الهادئة. كانت القاعة الكبرى مزينة بكل أناقة، كما جرت العادة، لكن أكثر ما خلبني، أعترف بذلك، كان هو السجاد الرخو الذي تنغمس فيه قدماي بمتعة لا حدود لها.

وبينما أنا أتذوق كأس ويسكي مع قطعة ثلج ذهبتُ وأخذتها من حانة الفندق لأرغم نفسي على الاسترخاء، تركتُ ذهني يجول مع الأحداث التي تسارعت في الأربع وعشرين ساعة الأخيرة. بدأ كل شيء عندما توصلتُ ببرقية تخبرني بالوعكة الصحية التي تعرض لها والدي في لشبونة. رغم وعيي التام بأن أي وضعية كهذه، في ذلك السن، يمكن أن تحدث في كل لحظة وحين، شعرتُ كأن أحدهم قد أيقظني بصفعة على وجهي. فشتان بين أن نفكر بشكل مجرد في إمكانية حدوث شيء كهذا وبين أن يحدث هذا الشيء بالفعل. لحظتها، نكتشف أننا لسنا أبداً مستعدين بالفعل.

وما حدث مباشرة بعد وصول الخبر سرعان ما تحول إلى خليط مبهم من شظايا صور تطفو بشكل عشوائي في ذاكرتي، مثل أوراق يابسة في مهب ريح خريفية تعبث بها في دوامات متوالية تتعالى في الهواء. بالكاد أذكر أنني ذهبتُ إلى ميدان بيكاديلي لأقتني بسرعة تذكرة طائرة، وبعد ذلك رحلة سريعة على متن سيارة مورغان أخذتني إلى مطار كرويدون، ثم رحلة ست ساعات فوق المحيط الأطلسي، ونزول طائرة دي هافيلاند وهي تهتز فوق مدرج مطار لشبونة، وألوان المنازل التي صارت بهيجة بفعل الأضواء الصافية للمدينة، والوجوه المنقبضة التي استقبلتني في فندق أفيش، والسكينة المرتسمة على

وجه والدي لحظة رأيته ممدداً على السرير. كان يحتضر ويبدو كأنه يغفو.

شدّت يدٌ صديقةٌ على كتفي، وأعادتني إلى قاعة الفندق.

- Alors, mon cher ? - سألني صوتٌ نسوي بنبرة أمومية - Ça va ?.

التفتُّ فتعرّفتُ الجسد المقوس لمادام دوبري. كانت عيناها متعبتين كأنها لم تنم منذ أيام وتعطي الانطباع بأنها قد شاخت كثيراً منذ أن صادفتها لآخر مرة قبل ثلاث سنوات تقريباً. فهل كان ذلك من التعب أم من الصدمة؟ في الحقيقة، كانت السيّدة تتجاوز الثمانين، لذا فإن المفاجأة الحقيقية ربما تكون هي تلك الطاقة التي تحركها وهي في سن متقدمة جداً. لكن، مهما كان مصدر تلك الطاقة، فإن الحيوية قد انطفأت بشكل جلي، وبالكاد بقي منها بريق واهن، كأنه نَفَس الشمس في ذبولها المحتضر ساعة الغروب.

- إنني لم أستعد أنفاسي بعد - اعترفتُ - هل من جديد؟

حرّكت الفرنسية رأسها، وعيناها ترمشان بحزن ملأه الخنوع.

- لا شيء، لسوء الحظ.

جلست مادام دوبري على كرسي إلى جانبي، حركاتُها هادئة وحزينة، وجسمها واهن بشكل مرعب. تبدو كأنها شبح على وشك أن ينكسر.

- هل سبق له أن عاد إلى وعيه من قبل؟

- في البداية، نعم. قال الطبيب إن الأمر يتعلق بشكل نادر من أشكال الغيبوبة، كأن وعيه يشتغل ثم يتعطل بشكل متتابع. لكن لحظات يقظته أصبحت نادرة أكثر فأكثر، وصارت قصيرة ومتباعدة - ثم اخترقتْني نظرتُها وبدا كأنها تشتعل أحياناً، مثل شعلة خافتة

لشمعة تستيقظ على عطر نسيم مفاجئ - لذا فإنه لو استيقظ مرة أخرى عليك أن تغتنم الفرصة. اغتنم كل ثانية، استمتع بكل كلمة، واحتفظ بكل نظرة. لأنه من المحتمل ألا تكون هناك من فرصة أخرى، هل فهمت؟

وافقتُ بحركة من رأسي، وأنا على وعي تام بأنه، لو تحدثت ثانية مع والدي، فسيكون ذلك لا محالة كي أقول له وداعاً. كان الطبيب البرتغالي قد أخبرني بخطورة حالته، وشدد على أن المسألة تتجاوز المعرفة الطبية. وإذا كنت أتشبث ببعض الآمال بخصوص الحالة الحقيقة التي كان عليها والدي، فقد فقدتها نهائياً أثناء ذلك الحديث.

- هل تحدّثَ عني في الأيام الأخيرة؟ - سألتُها فجأة.

حركت مادام دوبري رأسها.

- كما تعرف، والدُك لم يكن كثير الكلام - همهمت بنظرة خاضعة - لكن، كن على يقين أن شجاركما الأخير تركه محبطاً. لم يعد أبداً كما كان من قبل.

إن صيغة الماضي التي استعملتْها وهي تتحدث عن والدي كان لها في نفسي صدى قُدّاس مبكر على روحه؛ كأنها قد تخلت عنه واستسلمت للأمر المحتوم. فأكثر الناس تأثراً كانت بالفعل هي مادام دوبري، ربما لأنها عاشت الوضعية عن كثب. ورغم أنني أنا الابن، فقد وجدتُني أحاول أن أواسيها وأشرح لها أن الحياة رحلة لها نقطة بداية ونقطة نهاية. لقد كان والدي في نهاية الطريق، لذا كان علينا أن نستعد ونتقبل النهاية المحتومة. بكت إلى جانبي هناك في قلب صالة فندق أفيش، قدماها غارقتان في ذلك السجاد الناعم، ويداها تغطيان وجهها المبلل بالدموع. لا أخجل وأنا أقول إنني قد بكيت

بدوري. بعد ذلك، انغمسنا في صمت مُقوّ ينتاب من يشعر بالخنوع ثم أخمدنا حزننا في طلبات أخرى من حانة الفندق، أنا وفيٌّ كالعادة لكأس الويسكي، وهي متمسكة بكأس نبيذ بورتو.

حدث كل شيء بسرعة مدوّخة. بدأت الأحداث حين دنا مني، بعد ساعة، خادم من خدم الفندق وأخبرني بمكالمة في مكتب الاستقبال. قال إنها «مكالمة من الخارج»، وهمّ يوضح الأمر بنبرة استعجال في صوته، كأن لا شيء أهم من «مكالمة من الخارج». استغربتُ الأمر، لأنه لم يكن هناك كثير من الناس على علم بمكان إقامتي وكانت المكالمات الدولية نادرة بالفعل، لكن الواقع كان يقول إن هناك مكالمة هاتفية تخصني فذهبتُ لأرد عليها، بطبيعة الحال.

- موسيو ساركيسيان؟ - سألني الصوت في الجهة الأخرى من الخط بلكنة غريبة، ربما تكون من أوروبا الشرقية - كريكور ساركيسيان؟

- أنا شخصياً. من معي؟

- معك مِحْمِتْ باي.

كان الصوت يُسمع بشكل رديء، الخط الهاتفي يصطك من الضجيج والصفير، والصوت في الجهة الأخرى يبدو كأنه قادم من عمق نفق طويل، لأنه كان ينطلق، على الأرجح، من مدينة بعيدة في الجهة الأخرى من أوروبا.

- من؟

- مِحْمِتْ باي. مُراسل والدك في إسطنبول.

تركيّ. منذ فترة شبابي تعلمت أن أتوجس من الأتراك. لطالما

عانيت من بطش هؤلاء الناس ولا أشعر بأدنى تعاطف معهم. لذا بقيت محترزاً.

- آه، كيف حالك؟ - حيّيتُه بصوت جليدي - فيما أستطيع أن أخدمك؟

- لقد وجدتُها! - صاح هو بصوت انتصار غريب، يكاد يكون حماسياً - لقد وجدتُها!

لن أنسى أبداً تلك الكلمات التي صرخ بها من بعيد جداً والتي بلغت مسامعي مثل مواء واهن. وما زلتُ إلى اليوم أسمعها في أذنيّ، مثل صدى عذب ظل سجين الزمن. أعترف، حتى أكون صادقاً، أنني لم أفهم شيئاً في البداية. لقد مرت سنون طويلة... بما أنني ظننتُ السيّد باي واحداً من الرجال الذي تعاقد معهم والدي كي يكتشفوا أعمالاً فنية في كل أرجاء أوروبا، فكرت أنه ربما يشير إلى قطعة ما حدد مكانها في سوق من أسواق إسطنبول. ربما تكون لوحة، قطعة نقدية قديمة، سجاداً فارسياً نفيساً أو مزهرية صينية.

- وجدْتَها؟ اعذُرني، ولكني الآن لا رغبة لي في الحديث عن مثل هذه الأمور.

في تلك اللحظة، كنا نصيح تجاه سماعة الهاتف، في محاولة سخيفة كي نجعل صوتنا يُسمع في طرفي ذلك النفق الذي تحولت إليه تلك المكالمة. كل واحد منا في طرف من أطراف أوروبا الجنوبية.

- أتذْكرُ أمْرَ والدك ووالدي، قبل أربعين سنة تقريباً، بالبحث عن سيّدة اختفت؟ - ألحّ الرجل في الجهة الأخرى من الخط - لقد وجدْتُها!

قفز قلبي من مكانه لحظة فهمتُ ما كان يقوله لي. شعرتُ بالتوازن يفلت مني وكان عليّ أن أستند إلى طاولة مكتب الاستقبال،

نظراً لقوة الصدمة وعمقها. بقيت لحظة طويلة دون أن أعرف ما أقول، عاجزاً حقاً عن النطق بأي كلمة، يدي على شفتَيّ وقد صدمني الخبر، أريد أن أصدق لكني أخشى القيام بذلك. هل يكون الأمر ممكناً؟ هل وجدوها بالفعل؟

- ألو، سيّد ساركيسيان؟ هل تسمعني؟

- نعم، نعم - أجبتُه بطريقة شبه آلية، وأنا ما أزال أحاول استجماع ذاتي من تلك المشاعر التي أثارها الخبر في نفسي - إنني أسمعك.

- هل فهمتَ ما قلتُه لك؟

- أنا. . . هل أنت متأكد أنك وجدْتَها؟ هل أنت على يقين أنها هي؟ ألا يمكن أن تكون شخصاً آخر؟

- إنها هي! - أكّد التركي بصيغة تشديد من لا يخامره أدنى شك فيما يقول - تحدثتُ مع السيّدة وما إلى ذلك. أمر أكيد جداً. إنها هي.

شعرتُ لحظتها كأنه انفتح بداخلي سدٌّ ظلَّ مغلقاً منذ تسع وثلاثين سنة بالضبط. وجدتني أنتحبُ، عاجزاً وبلا حماية، وبحرٌ مفاجئ من الدموع يُكدّر عينيّ. انتبهتُ إلى حضور مادام دوبري إلى جانبي فظننتُ أنها جاءت لتواسيني، لكن، وسط ذلك الموقف، كما لو أن القدر امتلأ خبثاً وأراد أن يُعقّد كل شيء، أدركتُ أنها جاءت تحمل أمراً مستعجلاً في عينيها. قاومتُ موجة من الأحاسيس التي شوشت على تفكيري، وقمتُ بمجهود لأتحكم في ذاتي.

- لقد استفاق والدُك - سمعتُها تقول - تعال بسرعة! تعال قبل أن يرحل!

- ألو سيّد ساركيسيان؟ - كان الصوتُ يسأل في الوقت ذاته في الجهة الأخرى من الخط - هل تسمعني؟

حدّقتُ إلى مادام دوبري فأدركتُ أن الأولوية لوالدي. نظرتُ إلى الهاتف الأسود فقررت أن التركي له أولوية أيضاً . فأين أتوجه؟ ماذا أفعل؟ كانت حيرتي شاملة، كأن أوركسترا قد بدأت تعزف سمفونية مشوشة، كل آلة تعزف لوحدها وأنا هناك تائه مثل رئيس فرقة فاشل، عاجز عن تنسيق النشاز الذي صارت عليه تلك اللحظة من التردد الخالص.

- أنا . . . أنا . . .

سحبتْني مادام دوبري من يدي.

- تعال بسرعة! - قالت ملحة - إنها الفرصة الأخيرة!

- سيّد ساركيسيان؟ - كان التركي يصيح - ألو؟ ألو؟

بكل تأكيد، واعتباراً للظروف، كان والدي قبل كل شيء آخر.

- سيّد باي - قلتُ بسرعة نحو سماعة الهاتف - لا أستطيع أن أتحدث معك الآن. أين يمكن أن نلتقي لاحقاً؟

- يوم الاثنين القادم، عند منتصف النهار، في بهو استقبال فندق بيرا بالاس، في إسطنبول - ردّ عليّ بأهبة مَن خطط لكل شيء سلفاً- هل يناسبك هذا الموعد؟

- نلتقي يوم الاثنين.

وضعتُ السماعة وجريت خلف مادام دوبري، التي كانت تصعد السلاليم رفقة الدكتور فونسيكا، الطبيب الذي تعاقد معه والدي ما إن استقر في لشبونة. بلغْنا الطابق الأول وتوجهنا نحو الجناح الذي كان يشغله.

تجاوزتُ الباب وانغمستُ في العتمة. كانت الستائر مسدلة، كأن حجاباً كامداً يُظلّل الغرفة، وفي الأجواء تخيم رائحة تميز عتبات الموت. كانت الملاءات تغطي السرير، بيضاء كأنها كفن معقم، تطفو على إيقاع التنفس الهادئ. لكن، عندما اقتربتُ من مقدمة السرير، انتبهتُ إلى أن عينيه كانتا مفتوحتين، مكدَّرتَين بالخدر، إلّا أن شرارة حياة ما زالت تشعّ منهما.

- أبي؟ - همستُ بكل ما أوتيت من عذوبة صوت - هل تسمعني؟

انزلقتْ عيناهُ السوداوان نحوي وتأكدتُ لحظتها أنه كان مستيقظاً بالفعل وأنه قد فهمني. تشجعتُ فسألتُه إن كان بخير. حاول أن يتكلم، فنطق بمقطع من كلمة، «كري... كري...» . خمّنتُ أنه كان يريد أن ينطق باسمي، لكن اتضح أن المجهود كان مؤلماً أكثر من اللازم، فتخلى عن الأمر بعد تنهيدة مُتعبَة. طلبتُ منه أن يرتاح وألا يشغل باله، وقلتُ له إن كل شيء سيكون على ما يرام. لا أعرف ما إذا صدّقني أو أنه كان متعَباً، لكنه، في الحقيقة، سرعان ما أغمض عينيه المُبلّلتين وبدا مطمئناً. تنحيتُ خطوة إلى الجانب وتركت مادام دوبري تهمس إليه بكلمات تشجيع لم يرد عليها مرة أخرى. حاولت الفرنسية أن تلح عليه، لكنها سرعان ما هربت من هناك وهي تئنّ. لم تقدر على رؤيته على تلك الحالة.

انتبهتُ، ربما بعد دقيقة، إلى أنه فتح عينيه من جديد وحاول أن يتكلم. دنوتُ من السرير ثانية، وأمسكت بيده الواهنة والباردة ثم انحنيتُ عليه، وقربتُ أذني من فمه المرتعش. ومرة أخرى، بدأ يهذي بمقاطع كلمات غامضة، وينطقُ بأصوات يبدو أن لا معنى لها تخرج أثناء فترات توقفه عن التنفس الخفيف. لكن، بشكل غير

منتظَر، خرجت من فمه جملة كاملة، وهي في حقيقة الأمر سؤال أطلقه في نَفَس واحد، كأنه يعكس جوهر حياته.

- ما هو الجَمالُ؟

هذه الكلمات الغامضة أثارت في نفسي أكبر دهشة. «ما هو الجَمالُ؟». يا إلهي، ما الذي كان يقصده بهذا السؤال؟ لماذا استنفذ والدي ما تبقى له من طاقة قليلة في شيء تافه كهذا؟ لا يمكن أن يكون هذا سوى نتيجة هذيان الحمى، أو نتيجة تفكير جنوني لشخص يحتضر، لذلك تجاهلت سؤالاً عبثياً كهذا وقررت أن أسأله عن حالته. أردتُ أن أعرف إن كان بخير، وإن كان يرغب في شيء ما أو ما الذي يمكن أن نفعل من أجله، لكنه أغمض جفنيه من جديد وتركني أمام حيرتي. وبينما أنا أفكر في ذلك السؤال الغريب، شعرتُ به يتقلّب في السرير. تصورتُ أن شيئاً ما يزعجه، فرفعت الأغطية بسرعة كي أتأكد من أن كل شيء على ما يرام. في تلك اللحظة، رفع ذراعه الواهنة وأشار بحركة من يده نحو المنضدة. بعد ذلك، سمعته يتنفس فسقطت ذراعُه، وظلّت معلقة لوحدها على حافة السرير.

اقترب منه الدكتور فونسيكا وفحص عينيه ونبضات قلبه. بعد ذلك، استقام الطبيب، تنفس بعمق، وتوجه إليّ.

- لقد عاد إلى الغيبوبة - قال - أخشى أن تكون النهاية وشيكة.

قبّلتُ والدي على جبينه ثم ابتعدت منه خطوة. أغمضتُ عينيّ، ثم همهمتُ وأنا أصلي باللغة الأرمنية. عندما انتهيتُ، انتبهتُ إلى أن مادام دوبري كانت قد عادت إلى الغرفة. كانت عيناها حمراوين،

لأنها كانت تبكي من جديد. حكيتُ لها ما جرى وسألتُها عن ذلك الشيء الخاص في المنضدة الذي استحق منه آخر حركة من حركاته.

- إنهما الكتابان - قالت - كان يريد الكتابين، بكل تأكيد.

- أي كتابين؟

علت ابتسامةٌ رقيقة الوجه المجعد للسيّدة العجوز.

- لقد قضى السنة الأخيرة في تأليف كتابين، ألا تعرف ذلك؟ يحكيان قصة حياته. وقصة حياتك أنت أيضاً، بالمناسبة.

- قصة حياتي أنا؟

نعم. كتب هذا الجزء اعتماداً على يومياتك التي وجدها في دولاب - قالت ثم ضحكت بعذوبة - وهل تعرف ما هو الأمر الغريب؟ حرّرَ كل شيء بضمير الغائب، كما لو أنه شخص آخر يحكي قصتكما. كان يفعل ذلك بحماس منقطع النظير حتى أنه خربش الصفحات الأخيرة من المجلد الثاني في أول مرة استفاق فيها من الغيبوبة، انتبهْ!

حوّلتُ انتباهي نحو المنضدة. كانت هناك أوانٍ خزفية صينية، مزهرية مزينة برسوم أزهار خزامى زرقاء وصورة له وهو جالس أمام تمثال مصري، ربما أخذت له في الأقصر، في معبد الكرنك على الأرجح.

- أين هما هذان الكتابان؟

اقتربت مادام دوبري من المنضدة وفتحت الجارور العلوي، وأخرجت منه رزمتَي أوراق؛ كلها مجموعة، أكثر من ألف ورقة، قطعة حجرية حقيقية. أخذتُها وتصفحتُها، مندهشاً أمام حجمها؛ كانت كلها مرقونة ومصححة بالقلم بخط والدي الذي لا تخطئه

العين. أدركت أنه كان لدي الكثير مما أقرأه في الأيام الموالية. بعد ذلك، قلّبتُ رزمتَي الأوراق المضغوطة ثم ألقيتُ نظرة على الصفحة الأولى من أوراق الرزمة الأولى، ورقة بيضاء تتخللها جملة وحيدة، كانت هي العنوان بطبيعة الحال.

رجلُ القسطنطينية.

الجزء الأول

الشرق

«الحياة هي طفولة خلودنا».

غوته

1

كانت قطرات المطر ترسم حلقات تتوسع فوق المرآة المتسخة للمياه الموحلة، وهي تَسقُط حُبيْبات بَرَد على الحُفر العديدة التي شقَّها الطقسُ الرديء في الشارع المترب. كان سكان تريبزوندا يسرعون بحثاً عن ملجأ، يقفزون من سقيفة إلى أخرى في لعبة غميضة منزعجة ليحتموا من وابل المطر الذي ينهار بغضب مروع.

- افسحوا المجال لأذكى شاب في تريبزوندا! - صاح صوتٌ وهو يكرر هذه اللازمة - افسحوا المجال لابن السيّد ساركيسيان العظيم!

قطع الرجل الذي كان يدندن بهذا الكلام الشارع بسرعة، حافي القدمين الملطختين بالوحل إلى حدّ الركبة، وطفلٌ صغير جداً فوق كتفيه. كان الصغير يلفّ رأسه في غطاء كبير ليحمي نفسه من المطر؛ فلم يكن يُرى وجهه، ولم يكن ذلك ضرورياً. حتى إن لم يعلن الخادم عن اسم والد ذلك الطفل الصغير، فإن الجميع كانوا يعرفون أنه ابن السيّد فاهان ساركيسيان، بائع السجادات الذي يُقال عنه بكل يقين إن لديه أصدقاء في بلاط السلطان نفسه.

- افسحوا المجال لأذكى شاب في تريبزوندا! - صاح الخادم

مرة أخرى، كما لو أن تلك كانت هي أنجع طريقة لشق ممر وسط ستار المطر والوحل، وسط عربات الخيل، والبغال، والمارة الهاربين الذين يختنق بهم الشارع - افسحوا المجال لابن السيّد ساركيسيان العظيم!

عادة ما يكون البحر الأسود هادئاً مثل بحيرة ضخمة، لكنه اضطرب قرب الشارع وبدا كأنه وحش معذب. حمل الخادمُ الطفل فوق كتفيه وتجاهل كتلة الماء الداكنة والضخمة التي تسوط الصخورَ بغضب أعمى وتهدد بغزو خط الساحل، ثم استدار يميناً ليصل إلى وجهته في النهاية. عبر بوابة، دخل مهرولاً إلى بناية صغيرة ولم يتوقف إلا عند ردهة معتمة، وسط حشد صغير من الأطفال وبعض الكبار الذين كانوا ما يزالون ينفضون الماء عن ملابسهم.

أطلق تنهيدة إرهاق، وضع الجسدَ الصغير على الأرض، ثم رفع الغطاء عن رأس الطفل وفحص شعره.

- ما بك أيها الصغير؟ - سأله وهو يلاحظ خصلة شعر مبللة - هل دخلت هنا بعض القطرات؟

وافق الصغير بحركة من رأسه.

- تبلّلتُ.

مرّر الخادم أصابعه على الخصلة، وسرحها إلى الوراء ليُخفي الخصلةَ المبللة وسط الشعر الجاف.

- حسناً، انتهينا! - صاح، كما لو أنه حل المشكلة بمعجزة - الآن، يمكنك أن تذهب إلى القسم، أيها الصغير! أسرع، وإلا . . .

نزلت يدٌ بدينة على كتف الصغير، ووضعت حداً لهذا الطلب الأخير.

- سيأتي معي الآن - أمر الشّخصُ الذي اقترب منهما - وأنت أيضاً، أيها القهوجي!

كان الخادم معروفاً بلقب «القهوجي». رفع عينيه بمزيج من الدهشة والرعب، وتعرّف الجسدَ الضخم المدوّر، جسد مُشغّله.

- سيّدي! - صاح وهو يخفض على الفور رأسه في حركة خنوع

- أنا... نعم، سيّدي!

أدار فاهان ساركيسيان ظهره وسحب ابنه نحو جدار به لوحة تغطيها بعض الأوراق. كانت الصفحات المشدودة إلى اللوّح تمثل لوائح بأسماء خُربشت بخط اليد وكتبت أمامها بحروف أرمنية بعض الأرقام.

- هل رأيت هذا الرقم هنا؟ - سأله فاهان، وهو يشير إلى السطر بإصبعه السمين - إنها نقطتك. حصلت على ثمانية عشر.

تحاشى الصغير إصبع والده وتفحص الترتيب.

- إنها... إنها جيدة، أليس كذلك؟

بحركة غير متوقعة، صفع فاهان وجه ابنه.

- لم تكن أحسن نقطة! - صاح، ووجههُ أحمر من الغضب المفاجئ - انظر هنا! - ثم أرغم الصغير على أن يدير مرة أخرى عينيه المغرورقتين نحو لوح النتائج وأشار إلى سطر آخر - هل ترى هنا ابن شاكيان، ستراك؟ ما هي النقطة التي حصل عليها؟ تسعة عشر! تسعة عشر، أرأيت؟ ووالدُه... والدُه مجرد تاجر بسيط يبيع الخضر! - ثم حدّق في الصغير بنظرة قاسية كأنه قاضٍ ساعة النطق بالحكم - إن كان ستراك قد حصل على هذه النقطة، فلماذا لم تحصل عليها أنت؟ أتريد أن تذلني أمام أهل المدينة؟ أتريد أن تجلب لي الخزي؟

بوجه يحترق من وقع الصفعة وذقن يرتعش من حمى في بدايتها، أخفض الصغير عينيه، مستعداً لينفجر في بكاء من يشعر بالظلم، لكنه قاوم الدموع التي ملأت جفنيه فرفع من جديد عينيه ليركز بعناد انتباهَهُ المشوش على السطر الذي أشار إليه والدُه. بالفعل، كان ستراك قد حصل على تسع عشرة نقطة، مما يعني أنه أحسن تلميذ في المدرسة. وكان، في الحقيقة، خصماً يصعب هزمه. لكن، مع ذلك، ثمانية عشر التي حصل عليها لم تكن نقطة سيئة جداً!

- تعال هنا!

سحب فاهان ساركيسيان ابنَهُ من أذنه، وأشار إلى الخادم أن يتبعه ثم عبر الفناء بخطى حازمة. توغل عبر الممر، وصل أمام باب مدير المدرسة، ولم يطرق الباب حتى. فتحه بعنف وداهم المكتب بشكل غير لائق، كما لو أنه صاحب المؤسسة الحقيقي.

- سيّد ساركيسيان! - صاح المدير باندهاش، وهو يرفع عينيه عن أوراق كان يكتب فوقها. - مرحباً... مرحباً بك!

كان المدير رجلاً نحيفاً ومتوتراً، بعظام بارزة في الوجنتين وتعبير خافت في العينين، لا تفلح النظارة الموضوعة فوق أرنبة أنفه في إنعاشه. كان جالساً وراء طاولة المكتب يعالج مراسلة إلى بطركيّة القسطنطينية. فاجأه الاقتحام غير المنتظَر، فظل قلمه معلقاً في الهواء.

- هل رأيت النقطة، يا رجل؟ - زأرَ المُقتحمُ - هل رأيت ترتيب ابني كالوست؟

نهض المدير من فوق كرسيه، وقد توزع انتباهه بين زائره المهم والطفل الذي كان يسحبه من أذنه. ويبدو أن الصغير كان يخضع للعقاب، فظل في حيرة من أمره.

- لكن. . . لكنه حصل على نقطة ممتازة، سيّد ساركيسيان! ممتازة! - ثم تخلّل نظرتَه طيفٌ من الشك - حصل على ثمانية عشر، ألم يكن كذلك؟ ألم يحصل على ثمانية عشر؟

- نعم، هذا ما حصل عليه.

ثم تهلل وجه الرجل بومضة ارتياح.

- آه، هذا ما كنت أظن - قال متنهداً - حسناً، هذا جيد! - لكن نظرة مُحاوره الغاضبة أربكتْهُ مرة أخرى، لتظهر له أن شيئاً ما كان غائباً عن علمه - هل. . . هل هناك من مشكلة؟

- المشكلة هي شاكيان. . . أو بالأحرى ابن شاكيان - زمْجرَ فاهان - هذا الطفل حصل على تسعة عشر! وابني حصل على ثمانية عشر! وهذا يعني أنه حصل على نتائج أحسن من نتائج ابني!

لوى المدير شفتيه في ابتسامة ترنو إلى التوفيق والمصالحة.

- آه، سيّد ساركيسيان! - صاح وهو يبسط يديه في حركة يهدئ بها مُحاورَه - بحقّ الرّب! ثمانية عشر، تسعة عشر. . . ما الذي يهم في كل هذا؟ إنها نقط ممتازة! ممتازة! ابنك يستحق الثناء! إنه من أحسن تلامذة المدرسة! سيّدي. . . ينبغي أن تكون فخوراً به! إنه الأحسن في مادة الفرنسية، والأحسن في الحساب! - ثم علت وجهه تكشيرة خفيفة - يعاني من صعوبات بسيطة في اللغة الأرمنية بسبب النحو، هذا صحيح، لكن هذا الأمر. . . حسناً، لا يبدو شيئاً خطيراً.

نظر فاهان ساركيسيان إلى الخادم خلفه وأشار بحركة إلى المدير.

- هيا، إليه!

لم يتردد القهوجي. قفز من وراء ظل مُشغّله وانقض على المدير بقوة حصان من خيول السباق، فلكمه في بطنه وسحبه فوق الأرض.

- سيّد ساركيسيان! - استعطف المدير وهو يئن ويجمع قدميه من الكرسي، في حركة رد فعل يحمي بها نفسه - من فضلك، سيّد ساركيسيان!

جلس الخادم فوق المدير ووجه إليه صفعة قوية جعلت رقبته تصطدم بالأرض.

- كفى!

بأمر من مُشغّله، نهض القهوجي وتراجع إلى الخلف نحو الباب، تاركاً مدير المدرسة ممدداً فوق الحجر البارد، شعرُه مشعث ووجهه أحمر كأنه فلفل حار في السوق، نظارته ملقاة في ركن من المكتب، وياقة قميصه مفككة.

- سيّد ساركيسيان! - قال الرجل باندهاش واضح وهو يتحسس الأرض من حوله في محاولة يائسة للعثور على نظارته الضائعة - ما الذي فعلتُهُ؟

تقدم فاهان ساركيسيان خطوتين ووقف جامداً أمام المدير، الذي لم يجرؤ على النهوض دون الحصول على الإذن الواجب.

- أنبهك، يا رجل، أنه عند نهاية الموسم الدراسي، سيكون أحسن تلميذ في هذه المدرسة هو ابني! - صاح بنبرة تهديد - ولا أريد ترتيباً فيه شيء من المحاباة، هل سمعت؟ سوف يحصل على أحسن النقط لأنه سيكون هو الأحسن بالفعل. الأحسن! إذا ارتأيت أنه بحاجة ليحسن مستواه، ستقوم بما تراه ضرورياً لبلوغ ذلك الهدف. هل فهمتَ؟

حرّك المدير رأسه موافقاً دون أن يتجرأ حتى على أن يرفع عينيه.

- نعم، سيّدي.

ظل فاهان مسمراً في مكانه فوق الأرضية.

- عند نهاية السنة، أريدك أن تسلمني فروض ابني وفروض ابن شاكيان - قال - سوف أتأكد بنفسي من أن أجوبة ابني هي الأحسن - ثم رفع إصبعاً، في حركة تنبيه - لا تسمح لنفسك بمخادعتي!

بعد أن انتهى من تنبيه المدير، استدار فاهان ثم أمسك ابنه من أذنه، سحبه، وخرج مسرعاً من المكتب.

كان فاهان ساركيسيان يحظى بشهرة كبيرة وسط «ملّة» الأرمن في تريبزوندا، حيث كان يهيمن العِرْقُ المسيحي، وكان بيته يتمتع بسمعة مستحقة لأنه كان أغنى منزل في المدينة بكاملها وأحسنها أثاثاً وزينة.

كانت جدران البيت الكبير مغطاة بسجادات استجلبت من بُخارى، وهي من أرقى سجادات الشرق وأكثرها أناقة، والقاعات مزينة بسجادات فارسية من شيراز وأصفهان. ومن الأمور المهمة أنها كانت كلها من الصوف؛ فلا مكان في ذلك المنزل للسجادات المصنوعة من القطن أو من جلد الغنم أو الماعز، التي تعتبر أقل جودة. وكان الاستثناء هو سجاد رائع من القوقاز من جلد الخروف، وهو رخو ناعم الملمس، كان الصغير كالوست يحب أن يجلس عليه ليدرس.

كان التأنق في اختيار السجادات لتزيين ذلك المنزل أمراً لا يدهش أحداً؛ لأن فاهان، في نهاية الأمر، كان قد بدأ حياته المهنية

بالفعل في دكان صغير للسجادات في بازار تريبزوندا. ازدهرت تجارته لدرجة أنها فتحت أمامه الباب ليقترن ببنت عمه فيرون، وهي البنت المفضلة لدى العم غريغوريس. وكان العم غريغوريس يراسل باستمرار أكبر البنوك الأوروبية في القسطنطينية، مثل «البنك العثماني»، الذي أنشأه البريطانيون، و«البنك الإمبراطوري العثماني»، الذي كان يملكه الفرنسيون، وهي القنوات التي استغلها فاهان ليوسع تجارته في العاصمة البعيدة.

لم تكن السجادات شيئاً نادراً في القسطنطينية، طبعاً، لكن فاهان انتبه إلى أن هناك منافذ تجارية ينبغي استغلالها. ولتنمية تجارته في تريبزوندا ربط علاقات بمُورّدين في تركستان. كانت سجادات هذه المنطقة من القوقاز، المصنوعة من الصوف الخالص، تحظى بشعبية كبيرة في العاصمة وفي أوروبا، لكن فقط تلك السجادات من نوع «ميرفي». بيد أن فاهان كان يتوصل بشحنات سجادات من نوع «جمود» و«تيكي»، التي نادراً ما كانت تستورد ولا يعرفها الناس تقريباً. وكانت القطع التي يبيعها تحفاً فنية حقيقية، كلها أصيلة وأنيقة. وكان التاجر على وعي بأنها قطع مستجدة وتشكل نجاحاً مهماً لتجارته المزدهرة. كان عليه فقط أن يتصرف في ذلك بحكمة.

وكذلك فعل. بنصيحة من زوجته، التي لم تكن تمزح في شؤون التجارة، استجمع عزيمته وما وفره من مال واستثمر في دكان فتحه في بازار القسطنطينية. وما إن بدأ المحل يشتغل حتى اتصل بمديرَي البنكَين الإنجليزي والفرنسي اللذين كان عمُّه يربط معهما علاقات تجارية. حجز قاعة في أرقى المطاعم الأرمنية في حي «بيرا» وأكرمهما بوجبة غداء تليق بالسلاطين. استعلم سلفاً عن اهتمامهما

بجمع التحف، فتوج الولية بإهدائهما أحسن السجادات من نوع «جمود» و«تيكي»، التي اقتناها من تركستان. ابتهج الأجنبيان أيما ابتهاج ولم يخفيا اندهاشهما أمام الزبائن أو الأصدقاء الذين كانوا يلتقون بهم في حفلات الكوكتيل التي تنظمها البعثات الدبلوماسية ويستعرضون أمامهم المستجدات القادمة من تركستان.

في الأسابيع الموالية، عرف دكان فاهان في بازار القسطنطينية توافداً منقطع النظير فتقاطر عليه الدبلوماسيون والتجار الغربيون المستقرون في المدينة، بعد أن أخبرهم أصدقاؤهم في البنكَين فأبدوا اهتماماً باقتناء قطع أصيلة من تلك السلع. طبعاً، أثارت تلك الحركة، في النهاية، انتباه الزبائن، وبعد بضعة أشهر، امتلأ الدكان بالأتراك، الذي حيرتهم تلك السجادات التي أثارت كثيراً فضول الأجانب.

عندما ولد ابنُه كالوست سنة 1869، عانق العمُّ فاهان واحتفل بتلك المناسبة بفتح قنينة من نبيذ الكونياك الأرمني القوي.

- هنيئاً! - صاح غريغوريس مبتهجاً ورائحة الكحول تفوح من فمه - جمعتَ ثروة وأصبحت من أغنى الناس في تريبزوندا! ابنك هذا، الذي هو حفيدي، سيكون له شأن عظيم في عائلتنا.

2

الكتاب الذي يظهر على غلافه عنوان **هاياستان** - أو أرمينيا، يحمل طابع البطركيّة وصار في المدة الأخيرة قراءة مقررة في المدرسة الأرمنية في مدينة تريبزوندا، كان مفتوحاً في الصفحة التي تحكي كيف اعتنق الملك تيريداتيس الثالث المسيحية واتخذها ديناً رسمياً للبلاد في السنة المباركة 301، مما جعل من أرمينيا أول أمة مسيحية على وجه الأرض، حتى قبل الحبشة أو الإمبراطورية الرومانية. وكانت هذه المعلومة تؤكد للصغير كالوست ما كان يسمعه من حين لآخر في أحاديث الكبار وفي القداس، لكنه لم يستطع لحظتها أن يتعمق في الموضوع لأن هدير صوت أليف قطع قراءته.

- فيرون!

كان والدُه وهو يلج القاعة. واستجابةً لأمر كان قد استنبطه منذ مدة، نهض كالوست بقفزة واحدة، جمع كعبيه وقام بانحناءة تجاه ربّ الأسرة، كما كان يفعل كلما ظهر في حضوره.

لم يرَهُ في البيت منذ مدة طويلة. أصبحت الأسفار إلى القسطنطينية متكررة في حياة فاهان ساركيسيان فتعوّد كالوست على رؤيته ذاهباً إلى العاصمة مع ما كان يصله من شحنات عبر القوافل

القادمة من القوقاز وبلاد فارس. يبدو أن السجادات حققت نجاحاً كبيراً في القسطنطينية، وبفضل إهداء نماذج رائعة وأنيقة منها، استطاع والده أن يحصل على اتصالات نافذة في البلاط، لدرجة أن السلطان شخصياً، باقتراح من مستشاره، عيّنه والياً على تريبزوندا وجابياً في ولايات بلاد الرافدين. وقبل أن تكون تشريفاً، اتضح أن هاتين المهمتين كانتا مُربحتَين جداً، لأنهما عززتا خزينة الأسرة بفضل ما يحصل عليه من بقشيش يقدمونه إليه على سبيل الهدايا مقابل خدمات شرعية إلى حد ما كان يمنحها أثناء ممارسة نشاطه العمومي البارز.

كان فاهان، هذه المرة، عائداً من سفر إلى العاصمة رفقة الجد غريغوريس، وكلاهما يضعان طربوشاً أحمر، يحملان العصا ويدخنان سجائر معطرة. عبَر الرجلان الصالة الكبرى وجلسا فوق كرسيَّين كانا قد وصلا السنة الماضية مباشرة من البندقية لتأثيث البيت.

وهي تسمع الصوت الذكوري يهدر في البيت، هبّت الأم مسرعة إلى الصالة.

- ما الذي يجري؟

- ما يجري هو أن زوجك قد وصل، يا امرأة - صرخ فاهان وهو يطلق قهقهة عالية - وجاء رفقة والدك.

رأت فيرون والدَها في الصالة، فتسمّرت في مكانها وقامت، بدورها، وانحنت في تحية.

- سيّدي.

لم يكن الرجلان مستعدَّين لكثير من الشكليات. كانا متحمسين حماساً كبيراً وسرعان ما أدركت سبب ذلك. فقد جلبا معهما

مستجدات كانت عبارة عن شيء غريب قاعدتُه معدنية وجزؤه الأعلى من زجاج على شكل قِمْع.

- انظري إلى هذا الشيء! - صاح فاهان وهو يستعرض الجهاز - هل لديك فكرة عما هو؟

حدقت الزوجة في الشيء بنظرة حائرة.

- هل يكون مزهرية؟

ضحك الرجلان بكل سرور ثم أدار صاحب البيت الشيء نحو ابنه.

- وأنت، يا كالوست، هل تعرف ما هو؟

ظل الصغير واقفاً، مثل حارس، يعرف أنه لن يستطيع الكلام إلا بإذن من والده. وهو ما حدث حينئذ. فحص ذلك الشيء المستجد بعناية، محاولاً الكشف عن وظيفته. كان يريد أن يتألّق أمام والده، يُظهر له أن معارفه تتجاوز ما يتلقاه في المدرسة، رغم أنه لم يكن يملك جواباً عن السؤال. كان الشيء يبدو مثل أي آلة غريبة، لكن، في الحقيقة، لم يسبق له أن رأى شيئاً كهذا في حياته القصيرة لذلك وجد صعوبة في تحديد طبيعته.

- يبدو أنه. . . إنبيق.

أطلق الرجلان قهقهات أخرى، وهما يتسليان معاً بما خلّفه من وقع ذلك الشيء الذي جلباه إلى البيت.

- إنه شمعة - أعلن فاهان بكل فخر - تُستعمل للإضاءة.

حدقت الزوجة وابنها بدهشة في الشيء، وهما يشكان إن كان صاحب البيت يمزح أو يتحدث بجدّ.

- شمعة؟ - سألت فيرون مندهشة بنظرة احتراز - أين هو الشمع؟

- ليس بها شمع - ردّ الزوج - إنها شمعة عصرية. يسمونها مصباحاً وتشتغل بزيت معدني.

- مصباح؟ زيت معدني؟ - همهمت الزوجة، وهي تكرر الكلمات الجديدة - ما هذا الشيء؟

فكّ فاهان أجزاء الشيء، وفصل الزجاج عن الجزء المعدني.

- سوف أريكما - قال وهو يعرض القاعدة المعدنية - هل تريان هذا السائل هنا؟

أحنت الزوجة وابنها رأسيهما وتفحصا السائل. كان محلولاً مصفرّ اللون تفوح منه رائحة قوية مقرفة، بل ومثيرة للاشمئزاز.

- أهذا هو السائل المعدني؟

- يُسمونه كيورسين - شرح الزوج - انْظُرا إلى هذا الخيط القطني، هل تريانه؟ يسقط الخيط فوق الخزّان فيتبلّل بالكيروسين. يبقى طرفه هنا في الأعلى. هل تريدان أن تريا ما يحدث الآن؟

سحب الزوج السيجارة من فمه ووضع طرفها المتوهج على الخيط الأبيض. انبثقت شعلة زرقاء من طرف الخيط وأخذت تلمع بقوة غير معهودة، ترقص في صمت مثل منارة بعيدة، مما أثار عبارات دهشة وتعجب في الصالة.

- أوه!

أمسك فاهان القطعة الزجاجية وشدّها إلى القاعدة المعدنية ليُركّب الشيء الأصلي من جديد.

- يقوم هذا الجزء الزجاجي بحماية الشعلة - شرح وهو يكمل مهمته. ثم رفع المصباح كما لو كان كأس فوز رياضي - مع هذا الاختراع ستنتهي حاجتنا لاستعمال الشمع في هذا البيت، هل سمعتما؟

- يا إلهي! والدخان؟

- الدخان؟ أي دخان؟ هذا المصباح لا يطلق دخاناً ولا رائحة، يا امرأة. وفوق هذا يعطي ضوء أقوى من ضوء الشموع. انظرا إلى هذا! - ثم قرب المصباح من ركن مظلم في الصالة ليقوم بتجربة - أرأيتُما؟ ضوء عجيب، أليس كذلك؟ إنه التقدم الذي وصل إلى هذا البيت، يا أهل داري! إنه التقدم!

أدهش ذلك المستجد الجميع، بمن فيهم الخدم الذين هبوا مسرعين ليشهدوا على وصول التقدم الذي تبشر به الشعلة الزرقاء المشعة من القمع الزجاجي، كما لو أن ضوءها المرتعش ينطوي على نبوءة مستقبل مشرق.

- إن زوجك لم يخبرك بكل شيء بعد - قال غريغوريس وهو يكسر الصمت - ما زال هناك المستجد الأكبر.

- هل هناك من مزيد؟ - قالت فيرون باندهاش، وهي ترفع أخيراً عينيها المُنوّمتَين تحت تأثير الضوء المتمايل - هل جلبتُما اختراعات أخرى من القسطنطينية؟

أشار صاحب البيت بحركة إلى الخدم الذين انسحبوا جميعاً بنظام.

- إن المستجد الأكبر - قال عندما بقوا لوحدهم - هو تلك الصفقة التي اقترحها عليّ سليم باي.

- من؟ مستشار السلطان؟

- نفسُه - أكد فاهان - كما تعرفين، أذهبُ دائماً لأتناول معه الغداء عندما أكون في القسطنطينية. إنه صديق جيد، سليم باي.

- كيف له ألا يكون صديقاً جيداً! - قالت فيرون وقطرة سُمّ

على طرف لسانها - مع كل تلك السجادات التي أهديته! هذا دون ذكر ما ناله من بقشيش! لا بد أن الرجل قد اغتنى على حسابنا!

- ونحن اغتنينا على حسابه! - صحّح الزوج، وهو يشدد تعابير وجهه ويزود كلماته بقدر واضح من الخشونة - لا تنسي، يا امرأة، أنه هو من أدخل سجاداتنا إلى البلاط! وبفضل ذلك تضاعف عدد زبنائنا مئات المرات! اليوم أصبح كل الناس يرغبون في اقتناء سلعنا! أصبحنا نزوّد البلاط بالسجادات وهذه أكبر دعاية توجد في الإمبراطورية بكاملها. لذلك لا ينبغي أن نعض اليد التي تطعمنا.

- هذا صحيح - اعترفت سيّدة البيت، التي لم يكن في إمكانها أن تشتكي من الفوائد التي جنوْها من تلك الصداقة المبنية على المصالح المتبادلة - اليوم، حتى السلطان أصبح يطأ سجاداتنا.

- وبنصيحة من سليم باي، يجب ألا ننسى ذلك، عيّنَني السلطان والياً على تريبزوندا وكلّفني بمهمة جباية الضرائب في بلاد الرافدين.

- مقابل كثير من البقشيش. . .

- لا يهم! - ثم قام بحركة من حوله، كأنه يشير إلى البيت - إن كنا نملك كل هذا فإننا ندين بذلك لسليم باي أيضاً، ولا ينبغي الكف عن التذكير بذلك أبداً! وما البقشيش إلا مكافأة مستحقة عن كل ما ندين له به من خدمات!

أحنت فيرون رأسها.

- أنت على حق.

بعد أن أدّب زوجته وبسط من جديد سلطته، أخذ فاهان نَفَساً عميقاً واستعاد رباطة جأشه بوصفه سيّد البيت. لم يكن من المألوف مناقشة مثل تلك المواضيع مع النساء، لكنه اعتاد على أن يضع ثقته

في رأي فيرون في مثل تلك المواقف. فزوجته الذكية كانت على ما يبدو تملك حاسة خاصة تجاه التجارة وقد يكون بليداً إن لم يطلب نُصحها.

- حسناً، لقد عرض عليّ سليم باي الطيب صفقة الكيروسين - أعلن - لأزود البلاط بهذه المادة، حصرياً.

قطّبت فيرون حاجبها، وهي تحترز فجأة؛ فهي تعلم جيداً كما يعلم زوجها أنه لا أحد في البلاط، بدءاً بصديقه سليم باي، يقدّمُ شيئاً دون التفكير في مصلحة شخصية.

- كم يريد مقابل ذلك؟

- خمسة آلاف ليرة ذهبية دفعةً أولى وخمسة عشر في المائة من الأرباح.

ران صمت في الصالة.

جالساً فوق سجادة من جلد الخروف، حاول كالوست أن يبقى متوارياً عن الأنظار وهو يتابع مجريات الحديث. كان معجباً بسماع الحديث عن التجارة، لكنه حاول بكل ما في وسعه ألا ينتبه إليه أحد، حتى لا يأمروه بالانسحاب كما فعلوا مع الخدم.

- خمسة آلاف ليرة ذهبية مال كثير - لاحظت الزوجة بتثاقل - أين سنجد هذا المبلغ؟

- نبيع ممتلكاتنا في كادي كيوي - اقترح فاهان - لدينا ألف ليرة ذهبية، أليس كذلك؟ وهذه الممتلكات سوف تذر علينا ألفي ليرة أخرى. أما ألفي ليرة المُتبقّية فنأخذها ديناً من أبناك القسطنطينية - ثم هزّ كتفيه، في حركة تنم عن الضعف - سنبقى من دون ريش، طبعاً، لكن هذا الأمر يستحق العناء.

تحوّل نظر فيرون نحو الشعلة التي كانت ما تزال تحرق طرفَ الخيط القطني.

- لست أدري - قالت مترددة - إنه مبلغ كبير. . .

- لكن، ألا تظنين أنها صفقة جيدة؟

شدّت الزوجة جفنيها وهي تفكر في الموضوع. كان ذلك قراراً مهماً وقبل أن تنطق بحكمها كانت بحاجة لمعرفة المزيد.

- بما تتعلق الصفقة بالضبط؟ - أرادت أن تعرف، وهي تقوم بإشارة نحو المصباح - هل سنحصل على الامتياز الحصري لاستيراد هذه البدعة؟ أليس كذلك؟

أطلق الزوج ضحكة تنم عن التوتر.

- ليس استيراد المصابيح - قال مصححاً - بل الكيروسين. منَحَني سليم باي حصرياً رخصة بيع الكيروسين للسلطان. ثم إن خمسة آلاف ليرة سوف تذهب إلى خزينة السلطان. ويكتفي سليم باي بخمسة عشر في المائة من الصفقة.

احتفظت فيرون بتعابير وجهها المتسائلة. لم تكن تتوفر بعد على ما يكفي من المعلومات لاتخاذ قرار أكيد.

- لكن، في نهاية الأمر، ما هو هذا الكيروسين؟ - سألت - من أين يأتون بهذا الشيء؟

- الكيروسين مشتق من الزيت المستخرج من الصخور. من هنا جاء اسمه، «زيت الصخور». فكلمة «بيترا» باليونانية تعني صخرة. زيت الصخرة. ومن هنا نشأ مصطلح حديث هو «بترول». يبدو أنهم اكتشفوا كميات كبيرة من هذا الزيت في أمريكا.

- وهل ستشتري أنت الزيت من أمريكا؟

- طبعاً! لو ازدهرت التجارة، سوف أصبح الممثل الرسمي لأكبر المصدرين الأمريكيين، ستاند أويل، التي...

- ستاندرد أويل - قال العم مُصحّحاً.

- حسناً، هذا - ثم وضع إصبعه تحت جفنه الأيمن وأضاف - ولقد وضعت عيني على روسيا أيضاً . وجدوا زيت الصخور بالقرب من هنا، في باكو - وأشار إلى الشعلة المرتعشة - هذا هو المستقبل، يا امرأة! عندما تصبح المصابيح متوفرة للبيع، سوف يكف الناس عن استعمال الشمع. سيرغب كل الناس في الحصول على مصابيح زيتية. يوم يحدث هذا الأمر... سنصبح أغنياء! - قال متردداً وهو يحاول أن يقرأ أفكار فيرون من خلال تعبير نظراتها - أم تظنين أن الأمر ليس كذلك؟

لم تكن نظرات الزوجة تفارق المصباح. وفي الحقيقة، كيف يمكن مقاومة غواية شعلة من دون رائحة ولا دخان؟ خمسة آلاف ليرة ذهبية مبلغ كبير حقاً، كان في حدود قدراتهم المالية بل يتجاوزها. كانت المخاطر تبدو لها ضخمة. لن يبقى لهم سنتٌ واحد من المدخرات المالية وقد يغرقون في الديون وربما يصيبهم الإفلاس، وهو ما كان احترازها الأنثوي يحذرها منه. لكن، حتى أكثر الناس غباء قد يدرك كل الإمكانيات التجارية التي تنطوي عليها تلك الشعلة الزرقاء العجيبة.

- ولماذا نحن بالذات؟ لماذا يعرضون علينا هذه الصفقة؟

- لأن سليم باي يثق بي.

أحنت فيرون رأسها في تعبير عن شكّ متأصّل في طبعها، كما لو أنها تطلب أن يعفوها من ذلك الحديث التافه.

- ماذا تعني بذلك؟

- لأننا في المكان المناسب - قال فاهان موضحاً - يكفي إلقاء نظرة على الخريطة. لدينا تجارة في القسطنطينية، حيث يمكن للأمريكيين أن يفرغوا منتوجهم. ونحن في تريبزوندا، التي توجد على مرمى حجر من باطوم وفي منتصف الطريق باتجاه باكو. وفوق هذا، سوف نجعلهم يربحون مالاً كثيراً. منذ الانهيار المالي أصبحت حسابات الإمبراطورية مكشوفة وصار السلطان بحاجة ملحة إلى المال.

- حسناً، هو يملك المال - لاحظت الزوجة بتهكم - ويملك منه الكثير!

- أنت مخطئة. إن ديون الإمبراطورية تجاه الخارج تجاوزت مائتي مليون ليرة، على ما يبدو. وأسوأ ما في الأمر أن مائة وعشرين مليون ليرة هي التي وصلت إلى هنا - ثم خفض صوته - يبدو أن ثمانين مليون ليرة حُوّلت إلى بعض الحسابات الشخصية.

- بقشيش - ترجم غريغوريس دون حاجة إلى ذلك، وهو يفرك الإبْهام والسبّابة - العمولات شيء عادي في القسطنطينية، كما تعرفان.

- نعم، إنه كذلك - وافق فاهان - إنه لأمر بئيس. وما تبقى من البقشيش أُنفق في «حرب القرم» العبثية تلك، وكذلك عملية كريت. أصبحنا بائسين.

- كيف تعرف كل هذا، يا رجل؟ - قالت فيرون مندهشة - من يحكي لك كل هذه الأمور؟

هزّ الزوجُ كتفيه.

- حسناً، هذا ما يتداوله الناس في القسطنطينية. من أصل المائتي مليون التي اقترضناها، هل تعرفين كم وصل منها إلى مجال

المال والأعمال؟ عشرة ملايين بئيسة، انظري إلى هذا الأمر! بعد ذلك، حصلت الأزمة. . . وفجأة! أصبحت حسابات الدولة العثمانية مكشوفة! - ثم خفض صوته - حكى لي صديق في البنك الإمبراطوري العثماني أن البنوك الدولية، عندما وضعت لجنة للتصفية وطلبت الاطلاع على حساباتنا أصيبت بالذعر. يبدو أن الإمبراطورية لا تتوفر على نظام للمحاسبة - ثم حرّك رأسه - لا أحد يعرف بالضبط ما يُصرفُ ولأي غرض، سوء تدبير معقد. لاحظ الأوروبيون أننا نطلب قروضاً جديدة من أجل تسديد القروض القديمة. شيء مخجل! هل تعرفان ماذا كان يفعل الصدر الأعظم عندما يضطر للقيام بعملية أداء فيهذب إلى الحساب ولا يجد به أي ليرة؟ كان يطلب قرضاً جديداً! - ثم رفع يديه في حركة تعبير عن الإحباط - آه، أمر يستحيل إصلاحه! إنها فوضى كبيرة!

تنهد غريغوريس وحرك رأسه.

- لا شك في ذلك، الإمبراطورية تتعرض للنهب.

- هكذا، أصبح السلطان بحاجة ماسة للمال وأخذ يبيع الامتيازات بثمن زهيد - استنتج الزوج - كل هذا لأقول إنه يمنحنا نحن امتيازاً حصرياً لتزويد الدولة العثمانية بالكيروسين مقابل خمسة آلاف ليرة ذهبية.

- ثروة حقيقية، أعرف ذلك جيداً - قال غريغوريس متدخلاً من جديد - لكن، باعتبار ما يوجد على المحك يمكن أن تكون صفقة رابحة. علينا أن نعترف أننا أمام فرصة كبيرة. إذا كان عدد كبير من الناس يغتنون من كل سوء التدبير هذا، فلماذا لا ننال نصيبنا نحن أيضاً؟

حكّت فيرون ذقنها كأنها تريد أن تستجلي ما تبقى لديها من

شكوك، لم تكن كثيرة في حقيقة الأمر. كانت تعرف، بالحدس وبالتجربة، أن أحسن الاستثمارات هي تلك التي تحدث عندما يشعر البائع أنه مضايق بالمُقْرضين فيستعجل البيع. وهذا، على ما يبدو، مهما بدا ذلك غير قابل للتصديق، هو حال السلطان في تلك اللحظة.

- أنت على حق - اعترفت أخيراً، وقد هزمها الأمر البديهي - يبدو أنها صفقة كبيرة، بالفعل.

مكتبة
t.me/t_pdf

3

كانت الأوحال حاضرة على الدوام خلال شهور فصل الشتاء في شوارع تريبزوندا، لكنها لا تمنع فاهان ساركيسيان من إكمال جولة يوم الأحد عبر الشارع الرئيسي في المدينة مرتدياً أحسن ملابسه. كان قد ذهب في تلك الصبيحة لحضور القداس في كنيسة القديسة آنا وهو يستعرض الآن في وسط المدينة بذخه ومكانته الاجتماعية. على أي، لم يكن في متناول أي كان أن يلج بلاط السلطان.

كان الوالي يتجول مرتدياً معطفاً طويلاً، ياقة قميص مكوي بعناية، يحمل في يدٍ عصاً يلوح بها وسيجاراً مشتعلاً في اليد الأخرى. يضع بافتخار طربوشاً على رأسه، وجهه متورد من الخيرات التي تذرها عليها الثروة. زوجته تمسك بذراعه وكالوست يتبعهما، وكلهم يرتدون ملابس مستجلبة من باريس. الصغير يمسك بيد القهوجي، والزوجة ترتدي تنورة من القماش القطني وخصرها يبدو نحيفاً وقد شدّتْهُ بمشدّ، وفق ما تقتضيه شروط الموضة في أوروبا.

- يا له من هواء منعش! - صاح ربّ الأسرة، وهو يستنشق

بقوة عطر البحر الأسود المالح واللاذع - آه، رائحة البحر هذه! إنها عجيبة!

كانت الأسرة تتنفس الثراء والغنى، وبذريعة القدوم إلى وسط المدينة «من أجل استنشاق الهواء» كان أفرادها يتعمدون استعراض أنفسهم أمام أبناء بلدهم. شكّل القداس فرصة أولى للقيام بذلك، طبعاً، لكن، في الكنيسة جلس آل ساركيسيان في الصفوف الأمامية فلم يرَ الغوغاءُ منهم غير ظُهورهم. أما تلك الجولة، التي يسميها فاهان «الجولة الدستورية»، فكانت مناسبة ملائمة لاستعراض الجسم بكامله.

ورغم أن ربّ الأسرة كان واحداً من أبرز وجوه «الملّة» الأرمنية في تريبزوندا فإن تجارة الكيروسين دفعت به دفعاً نحو أعلى المراتب. كانت المصابيح تُباع بوتيرة عالية في كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية والكيروسين المستقدم من باكو يعرف طلباً أكثر من الكيروسين الأمريكي لشركة ستاندرد أويل، نظراً لقرب المنتجين الروس، وما يوفره ذلك من أثمان في المتناول. واتضح أن استيراد هذين النوعين من الكيروسين معاً كان يعود عليه بفائدة كبيرة جداً. وعلاوة على ذلك، كان امتياز بيعه إلى السلطان، بالإضافة إلى ما يحققه من أرباح، أمراً يمنح الوكيل مزيداً من السمعة. صحيح أن السلطان العجوز قد توفي مؤخراً وأنه يعيش في القصر الآن سلطان شاب، عبد الحميد الثاني، لكن صديقه سليم باي، بشطارته المعهودة في فك متاهات البلاط، حافظ على وضعيته المؤثرة وسارع ليوضح له أنه بخصوص امتياز بيع الكيروسين إلى الباب العالي، فإن الأمور لم تتغير.

- سيّد ساركيسيان - همهم موثق المدينة، وهو يرفع طربوشه

وينحني مُحيياً حين صادف الأسرة المرموقة - إنه لشرف كبير أن أرى سعادتكم بصحة وعافية رفقة زوجتكم وابنكم.

كان الناس ينحنون لدى مرور آل ساركيسيان بل حتى العربات كانت تخفف من سرعتها، خشية أن تُلقي عجلاتها بالوحل على تلك الشخصيات المرموقة. كان فاهان يشعر أنه أقوى سيّد في تريبزوندا، لكن زوجته، المتشبعة بواقعية عملية، كانت على وعي بأنهم يعيشون في وهم.

لذلك، حين لمحت فيرون يومئذ ثلاثة جنود أتراك يمتطون الخيل ويمرون في الشارع، أمسكت بذراع زوجها وسحبته نحو الرصيف.

- كن حذراً - نبهته - هناك فرسان قادمون.

حرّك والي المدينة ذراعه، وتحرر من فيرون.

- ما هذا، يا امرأة؟ - قال محتجاً - هم من عليهم أن ينتبهوا، هم من عليهم أن...

لحظتها، طارت في الهواء رشقتان من الوحل وأصابتا فاهان في صدره ووجهه، وأخرستاه. كان هم الفرسان الأتراك الذين يمرون في الشارع.

- حذار! - قالت الزوجة.

غضب الزوج لما حدث فنهض ولوح بعصاه نحو الفرسان.

- ما هذا!؟ - صرخ في وجه الجنود - انتبهوا، هل سمعتم؟ احترام!

سحب الفارس المتقدم العنان وأوقف الحصان. استدار واقترب بتثاقل من فاهان، متفحصاً الأرمني من أعلى مطيّته. وبحركة سريعة وغير متوقعة، لوّح بالسوط الذي يمسكه في يده وأصاب عابر الطريق ملء وجهه، فجعل طربوشه الأحمر يطير من فوق رأسه.

- أنت من يجب أن يبدي الاحترام، أيها الأجنبي! - صاح مزمجراً بغضب يستحيل احتواؤه - مَن تظن نفسك؟ السلطان؟ أنتم المسيحيون تمشون الخيلاء برؤوس مزهوة. تريدون الاستقلال، أليس كذلك؟ تريدون حقوقاً!؟ لكن نحن والسلطان الجديد سوف نفرض النظام. هل سمعت، أيها الكلب؟

مرتبكاً بنبرة الفارس الحازمة والعدوانية، نظر فاهان من حوله كأنه يبحث عن مساعدة. وسرعان ما انتبه إلى أنه لا أحد هبّ لنجدته، أدرك عجزه المطلق، وطأطأ رأسه في خضوع.

- نعم، أفندي.

أشار الجندي إلى بركة ماء وسط الأرضية الموحلة.

- سوف نبدأ الآن. هيا! اركع على ركبتيك!

أمام تردد الأرمني، رفع الفارس مرة أخرى ذراعه المعاقبة فطقطق السوط من جديد على رأس الضحية. عاجزاً عن مواجهة أولئك الرجال، استسلم فاهان وجثا على ركبتيه والي تريبزوندا القوي، زعيم ملّة الأرمن، رجل الأعمال الناجح وصديق أصحاب النفوذ في الباب العالي.

وصلت المجموعة إلى البيت في خدر من الدهشة والإهانة وحالة من الاضطراب الشامل. حين انتبه الخدم للأمر هبّوا إلى الشارع يستقبلون مشغّلهم وأسرته. وسرعان ما وُضع الماء ليغلي فوق النار لتحضير الحمام وإعداد ملابس نظيفة. فهمَ كلهم بالحدس ما وقع، لكن لم يجرؤ منهم أحد على طرح السؤال.

- تعال من هنا، يا سيّدي - قالت الخادمة اليونانية، وهي تقوده عبر السلاليم - لقد وضعت الأملاح في الحمام والماء جاهز.

عمّ الاستياء وسالت الدموع على كرامة الوالي التي امتُهنت، لكن، إن كان هناك من شخص أثار فيه ذلك المشهد رعباً مطلقاً فقد كان هو الابن. رأى كالوست كيف تعرض والده لضربات السوط والإهانة من لدن الجنود وتأكد من أن أمه والقهوجي وبقية الحشد ظلوا عاجزين أمام ما وقع ولم يهبوا إلى نجدته إلا بعد أن ابتعد الجنود وهم يضحكون، كأنهم شاركوا في تسلية مع الحيوانات.

كان الفتى الصغير دائماً يرى والده مثل عملاق كبير، وبرج أمان يدور العالم في فلكه، وجه يحظى باحترام كل أهل المدينة. لذلك كان حادث ذلك الصباح بمثابة زلزال خلخل نظرته للنظام السائد. كيف يمكن لجنود بسطاء، بشكلهم القذر وتصرفاتهم المتعجرفة، أن يكونوا قادرين على أمر والده بالركوع على ركبتيه؟ من يكون هؤلاء الناس؟ ولأي سبب لم يتم إلقاء القبض عليهم فوراً؟ لماذا لم يقم أي أحد بأي شيء يذكر؟ لماذا تركوا والده يتعرض لضربات السوط بتلك الطريقة؟

تزاحمت الأسئلة في ذهن كالوست وازدادت حيرته. جلس في ركنه المفضل في البيت، فوق السجاد المصنوع من جلد الخروف، وهناك أخذ كتبه المدرسية، عيناه غارقتان في الصفحات المكتوبة بحروف أرمنية، وذهنه ما يزال مشدوداً إلى ذلك الحادث الذي وقع في الشارع. ومهما حاول، لم يكن يستطيع التفكير في شيء آخر.

- الغداء؟ متى ستقدمون لنا الغداء؟

كان والده هو من طرح السؤال وهو يدخل إلى الصالة، بعد أن اغتسل كما يجب وارتدى ملابس جديدة. نهض الفتى وجمع كعبيه، كما تستوجب القواعد هناك في البيت، دون أن يجرؤ على النظر إلى ربّ الأسرة.

- بعد نصف ساعة - أجابته الأم، التي قدمت من المطبخ على الفور - إن الطباخ بصدد تحضير بعض «الخوروفات» اللذيذة.

عادت الأم لتباشر أشغالها وجلس سيّد البيت فوق بعض الوسادات. بعد أن اتخذ لنفسه وضعاً مريحاً، جال بنظره عبر الصالة حتى استقرت عيناه على الابن. كان الفتى ما يزال واقفاً متصلباً، كما تقتضي آداب اللياقة، فأمره والده أن يجلس بحركة من رأسه. وحينئذ انتبه الأب إلى ذلك التعبير الحزين الذي يكسو وجه الابن بلون شاحب.

- ماذا حدث يا كالوست؟ ما بك؟

حرّك الصغير رأسه، لكنّ عينيه ظلتا مسمرتين في الأرضية.

- لا شيء، سيّدي.

لم يكن من الصعب إدراك سبب تلك الحالة النفسية. لقد تعرض ربّ الأسرة إلى إهانة أمام الملأ ولم يكن يشعر بأدنى رغبة في الحديث عما جرى في ذلك الصباح. من الأحسن التظاهر بأنه لم يقع أي شيء. كان يعي، مع ذلك، أن ما وقع يبدو غير مفهوم بالنسبة لفتى في التاسعة من عمره ترعرع في كنف أسرة تنعم بالامتيازات. لقد اعتاد كالوست على رؤية والده يعطي الأوامر ويحظى بالطاعة، لذلك يبدو من الطبيعي أن يشعر بالحيرة أمام ما عاينه. هل كان عليه أن يستمر في الصمت ويمدد حيرة الابن؟ كانت الرغبة في ذلك قوية، لكنه أعاد النظر في موقفه. فبدا له من الأحسن أن يطلعه على طبيعة العالم الذي يعيش فيه.

- إن الحياة ليست سهلة، يا كالوست - قال الأب، بعد تنهيدة استسلام - إن شعبنا عريق ويتشكل من أشخاص لهم موارد كبيرة وكثير من الإبداع، لكننا نعيش تحت أقدام الأتراك ونخضع لإرادتهم.

تجرأ الفتى ورفع عينيه.

- كنت أظن أننا جميعاً عثمانيون...

انتزعت هذه الملاحظة ابتسامة من فاهان.

- هذا ما يروج له الأتراك ليخدعوا الأوروبيين - ردّ عليه ربّ الأسرة - لكن، نحن الذي نعيش بين ظهرانيهم، لا يمكن أن يخدعونا - قال بنبرة تأملية، ربّما فيها شيء من الحنين - عندما كنتُ صغيراً، كان للأتراك الحقُّ في قتل الأرمن فقط ليروا إن كانت سيوفهم مشحوذة. والدي شخصياً، رحمة الرّب عليه، عاين شيئاً من هذا الأمر. وأذكرُ أننا كنا دائماً نمشي في الشارع نرتدي وشاحاً خاصاً، كان مفروضاً على كل المسيحيين. ذات مرة، وكان عمري خمسة عشر عاماً، أمرني أحد الأتراك أن أتوقف وطلب مني أن أُلمّع حذاءه. لهذا كان علينا أن نرتدي تلك الوشائح. كي نُلمّع أحذية الأتراك.

- وهل لمّعت الحذاء... يا سيّدي؟

عدّل فاهان وسادة كي يصحح وضعية جلسته.

- قبّلِ اليد التي لا تقدر أن تعضّها - ردّ - إنه مثل عربي لا ننساه نحن الأرمن الذي نريد أن نبقى على قيد الحياة ونزدهر في هذا البلد. هل لمَّعتُ حذاءه؟ طبعاً، لمّعتُه. لو لم أفعل لقتلني.

- ولكن... لماذا؟

- لأننا أرمن وهو تركي، يا بني - ثم أشار بحركة نحو النافذة، مشيراً إلى الفضاء الخارجي - هل تعرف، العالم هناك في الخارج مكان قاسٍ لا يرحم. هذا النظام الذي يحكمنا، الدولة العثمانية، يقمع كل من يعيشون فوق ترابه. جميعاً. لكن لا أحد يتعرض للإهانة والقمع أكثر مما يناله المسيحيون. نحن، واليونانيون، والصرب،

والبلغار، وأهل الجبل الأسود. . . نحن حثالة الناس، ويعاملوننا مثل أجانب في أرضنا. كل هذا لأننا اقترفنا جريمة أننا وُلِدْنا مسيحيين وعلينا أن نظل مسيحيين - ثم رفع عينيه، كأنه يغير مخاطبَهُ - آه، كيف يمكن للرّب أن يسمح بظلم كهذا؟

- لكن، كيف يمكن للأتراك أن يتحكموا في رقابنا؟ - قال الابن مندهشاً - نحن أكثر عدداً منهم!

تفحص ربّ الأسرة وجه كالوست. هذا الفتي سوف يذهب بعيداً. بالكاد يبلغ التاسعة من عمره ويطرح أسئلة تفوق سنه. لا شك في ذلك، سوف يذهب بعيداً.

- نعم، نحن أغلبية هنا في تريبزوندا - قال مُصحّحاً - هنا وفي أجزاء كبيرة من الأناضول وقيليقيا. لكنهم أغلبية فيما تبقى من الجزء الآسيوي من الإمبراطورية. ثم إن من يملك السيف هم الأتراك وهم أصحاب الأمر والنهي في القسطنطينية. نحن المسيحيون لا نملك أسلحة، ولذلك لا نستطيع أن ندافع عن أنفسنا.

- ولماذا لا نشتري أسلحة؟

طفل ذكي، تأكد الأب بكل سرور. حيوي جداً، ويطرح أسئلة دقيقة.

- لا يُسمح لنا بذلك في هذه الأرض- شرح قائلاً - نحن مواطنون من الدرجة الثانية. يقبلون بنا ما دمنا ندفع جزية ونرضى بتفوق الأتراك، وهو ما يُترجم بإهانات مثل تلك التي عاينتَها هذا الصباح. إنهم يسمحون لنا بأن ننظم أنفسنا في طوائف، أو «ملل»، لكنهم يعاملوننا معاملة الكلاب. يُحرّمُ علينا بناء الكنائس والمعابد بل وحتى إصلاح ما نملك منها، والتي صارت قديمة جداً، ونحتاج

لترخيص يكلفنا مبالغ كبيرة من البقشيش. لا يمكننا قرع الأجراس، ولكن هذا ليس هو الأهم. الأفظع من ذلك أننا لا نستطيع ركوب الخيل، لا نستطيع أن نحمل سلاحاً في الشارع ونحن مجبرون على أن نبتعد كلما مر شخص تركي. لا نستطيع أن نتزوج نساء تركيات، وبيوتنا يجب أن تكون واطئة أكثر من بيوتهم. وكما لو أن كل هذا ليس كافياً، لا تقبل المحاكم شهاداتنا ضد الأتراك.

- أوليس لهذا السبب سُجن خالي كفورك؟

- تماماً. سرق منه أحد الأتراك قطيعاً من الماعز فهبّ يبحث عنه. وبما أن التركي رفض أن يعيد له القطيع، فقد ضربه كفورك وجاء رجال الشرطة وألقوا القبض على خالك. أثناء المحاكمة، رُفضت كل شهادات الأشخاص الذين عاينوا السرقة لأنهم كانوا جميعاً مسيحيين. في النهاية، حُكم على خالك بالسجن بتهمة الاعتداء، بينما تخلص التركي من تهمة السرقة بل واحتفظ بالقطيع - قال متنهداً - هكذا هي حياة الأرمني في هذه الأرض.

ظلّ الفتى صامتاً لحظة، يفكر فيما سمعه للتو ويقارنه بحوادث بسيطة عاينها خلال حياته. على ضوء ما شرح والده، كانت واقعة ذلك الصباح تبدو أكثر وضوحاً. إن الأرمن، شأنهم شأن بقية مسيحيي الإمبراطورية، ليسوا سوى مواطنين من الدرجة الثانية. مهما جمعوا من أموال ومهما كدوا واجتهدوا، فإن حقوقهم لا تتساوى مع حقوق الأتراك.

- وعلينا أن نقبل بهذا الأمر؟

هزّ الأب كتفيه.

- لم يقبل الصِّرب بهذا الأمر - ردّ قائلاً - قبل ستّين عاماً، لم أكن قد ولدت حينئذ، ثاروا ضد الأتراك لأول مرة. بعد ذلك ثار

اليونانيون بدورهم، انفصلوا عن الإمبراطورية وأنشأوا بلدهم الخاص بهم. ومنذئذ، توالت الثورات المسيحية. في أوروبا، هناك حديث عن الحرية، والمساواة، والأخوة. وهذه الأفكار باتت اليوم تنتشر وسط طوائفنا مثل النار في الهشيم. نحن نريد المساواة ونريد الحرية، لكن الأتراك يردّون علينا بالسيف. حمداً للرّب، القوى الأوروبية كلها مسيحية وقد ساعدتنا كثيراً في حربنا ضد الأتراك وطالبتهم بحماية الأقليات. في سنة 1839، يوم اضطررتُ إلى تلميع حذاء ذلك التركي تقريباً، صدر مرسوم إمبراطوري يعد لأول مرة باحترام حقوق المسيحيين وتطبيق المساواة في معاملة كل العثمانيين.

- آه! إذاً. . . كلنا سواسية.

ضحك فاهان.

- إن وعد سلطان تركي هو مجرد كلام فارغ - شرح له - منذ ذلك الحين، لم تكف عن الصدور وثائق تعِد بمعاملة كل الناس بالمساواة. بل، قبل سنتَين، تمت المصادقة على الدستور العثماني، الذي ينص على المساواة بين كل رعايا السلطان، بغض النظر عن ملّتهم. لكن هذا لا يعدو أن يكون كلاماً لإسكات الأوروبيين. فالأتراك لديهم من الرغبة في تمتيعنا بالمساواة بقدر ما لدي أنا من رغبة في المعاناة من ألم الرأس. الأتراك لهم وجهان ومن يعيش تحت حذائهم يعرف الوجهين معاً. لهذا السبب، أعلنت رومانيا، وصربيا والجبل الأسود عن استقلالها هذا العام. إنها الطريقة الوحيدة للتخلص من هؤلاء الأشرار.

- ونحن؟ لماذا لا نفعل الشيء نفسه؟

أصاب السؤالُ بالذعر صاحبَ البيت فنظر من حوله ليتأكد من أنه لم يسمعهما أي أحد من الخدم. كانوا كلهم أرمناً ويونانيين،

لكن في بعض الأمور يكونُ التكتّم الضمانة الوحيدة لتجنّب المشاكل.

- اخفض صوتك - أمره والده بخشونة - لا ينبغي الحديث عن هذا الموضوع بصوت مرتفع كهذا، هل سمعتني؟ إنه أمر خطير! يمكن أن يوقعنا في مشاكل!

طأطأ كالوست رأسه، محرجاً وهو يدرك أنه قد ذهب بعيداً في حديثه.

- نعم، سيّدي.

قدموا الغداء بعد دقائق من ذلك. وخلافاً لعدد كبير من الأرمن، الذين يتبعون عادات أخرى، كانت أسرة ساركيسيان تتناول الطعام حول المائدة، على الطريقة الأوروبية. كانت تلك طريقة لإبراز علو مكانتها الاجتماعية.

هكذا، أحضروا قصعة «الخوروفات»، المليئة بقطع لحم مشوية شُيّطت بشكل خفيف، مصحوبة بسلاطة «أجيم جاجوك» المعروفة، جبنة يونانية، وخبز «لافاش» الأرمني التقليدي. مرّ الأكل في صمت لا تقطعه سوى جمل قصيرة عملية، من قبيل «أعطني الملح» أو «أين هو فلفل حلب؟».

فقط عند شرب القهوة، عندما رفع الخدم المائدة وبقي أفراد الأسرة لوحدهم في الصالة، قرر فاهان أن يستأنف الحديث الجوهري، بحضور زوجته هذه المرة.

- قبل قليل - قال وهو يكسر صمتاً طويلاً - سألْتني لأي سبب لم نقم نحن الأرمن بما فعله المسيحيون في الرّوملي ولم نعلن استقلالنا أيضاً

كانت الزوجة تضع فنجان القهوة على شفتيها، ففتحت عينين جاحظتين وغصّت بما تشرب.

- أي حديث هذا؟ - قالت مندهشة من الموضوع الذي اختاره الزوج ليتحدث مع الابن - انظر، إنه ما يزال صغيراً لفهم مثل هذه الأمور. . .

- إن كان يطرح أسئلة بخصوص هذا الأمر فقد بلغ سناً تسمح له بمعرفة بعض الأجوبة - ردّ صاحب البيت. ثم التفت نحو الفتى، كما لو أنه يريد أن يبرهن للزوجة عن صحة ما قاله للتو - تريد حقاً أن تعرف جواب سؤالك، أليس كذلك؟

- نعم، سيّدي - أكد كالوست، ثم قطّب حاجبيه - ما هي الرّوملي؟

تنهد ربّ الأسرة؛ أحياناً كان ينسى أن الابن، رغم ذكائه وحب اطلاعه، كان يجهل أموراً أساسية.

- الرّوملي هي الأراضي العثمانية الواقعة في أوروبا - قال موضحاً - صربيا، بلغاريا، البوسنة والهرسك، اليونان. . . كل هذه المناطق تشكل الرّوملي.

- لكن، أليس الأتراك الآن بصدد فقدان هذه الأراضي؟

- بالضبط - أكّد الأب - بعضها أعلنت استقلالها وبعضها الآخر ما يزال رسمياً تحت السيادة العثمانية، لكنها مستقلة أيضاً، في واقع الأمر.

- ونحن؟

- نحن لسنا في الرّوملي. تقع أرمينيا في الأناضول وقيليقيا، حيث يعيش أيضاً الأتراك، والأكراد والشركس. هنا، يبدو الانفصال أمراً أكثر صعوبة. هناك العديد من شبابنا، أبناء العائلات المرموقة،

يذهبون للدراسة في أوروبا، وعلى غرار مسيحيي الرّوملي، يعودون متشبعين بأفكار الحرية والمساواة. لكن، لا أحد يتحدث عن استقلال أرمينيا، طبعاً، حتى لا يثيروا حفيظة الأتراك أكثر من اللازم. يكتفي زعماؤنا بالمطالبة بالمساواة أمام القانون واستقلال ذاتي في الحكم الجهوي. لكن الأتراك، المستاؤون من فقدان الأراضي وحقوق السيطرة علينا، لا تروقهم مطالبنا. بعضهم يرى أنه ينبغي أن يستمروا في قتلنا فقط ليجربوا إن كانت سيوفهم مشحوذة، ولولا تدخل القوى الأوروبية، لعدنا إلى ذلك الوضع. لكن الأوروبيين يطالبون بوضع حد للتمييز، لذا فإن الأتراك، الذين يخشونهم ويتوقفون على قروضهم، يقومون ببعض الإصلاحات البسيطة هنا وهناك. وعندما تشتد الضغوطات الأوروبية، يقدم الأتراك بعض التنازلات. وحين تخف الضغوطات، ينكثون عهدهم ويستأنفون قمعنا.

- وما هي الضغوطات الأوروبية؟

- يمكن أن تكون أي شيء، أيها الفتى. حتى الحرب.

- مثل الحرب التي وضعت أوزارها للتو الآن؟

- تماماً. شهدنا هذه السنة الحرب بين تركيا وروسيا، التي انتهت بإعلان استقلال رومانيا، وصربيا والجبل الأسود. وقبل بضعة أسابيع، انتهى في برلين مؤتمر أجبر السلطان على القيام بإصلاحات جديدة تقر عملياً المساواة بين كل العثمانيين، بغض النظر عن ديانتهم. الأتراك غاضبون الآن، طبعاً. فأخذوا يرددون إن انحطاط الإمبراطورية يعود إلى تأثير المسيحيين وتفاهات أخرى من هذا القبيل. في بعض المناطق، أخذوا يقتلون أسراً أرمنية لأنها ارتكبت جريمة كونها تدين بالديانة المسيحية و . . .

- فاهان! - قاطعته الزوجة بنظرة لوم - إنك تفزع الطفل!

- يجب أن يعرف ما يجري.

- لكن، ليس بهذه الطريقة!

- إن لم يكن بهذه الطريقة، فبأي طريقة يمكن أن يكون؟ برؤية والده يتعرض للضرب على يد تركي يرتدي أسمالاً؟ صحيح أن عمره تسع سنوات، لكنه ليس غبياً - ثم أشار من جديد إلى النافذة - هناك في الخارج، الأمور تسير من سيء إلى أسوأ وحان الوقت ليكون على وعي بالعالم الذي يعيش فيه.

ساد صمتٌ مفاجئ في أرجاء الصالة.

- هل يقتل الأتراك أسراً أرمنية؟ - سأل كالوست بنبرة صوت ملأها الذعر - هل يعني هذا أنهم... سوف يقتلوننا؟

حدجت الأم الزوج بعينين لامعتين، ونسفتْهُ بنظرة لوم.

- أرأيتَ ما فعلت؟ - ثم استدارت نحو ابنها وعانقته بحنان. طبعت قبلة على رأسه وهمست في أذنه - لن يفعلوا أي شيء. هذه قصص يحكيها والدك، لا تعر الأمر أي اهتمام...

لكن فاهان كان محقاً بخصوص ابنه؛ كان كالوست يتمتع بكل الصفات إلا الغباء وقد تعلم كيف يميز متى يتحدث شخص من الكبار بجد ومتى يمزح. واتضح من دون شك أن والده كان يتحدث بكل جد وذهن الفتى يغلي بالأفكار بحثاً عن حلٍّ بحنق وذعر مَن يظن أن الأتراك كانوا في تلك اللحظة بالضبط عند باب البيت مستعدين لتصفية كل أفراد الأسرة بحد السيف.

- هل هناك من مكان يمكن أن نهرب إليه من بطشهم؟

- لا يمكن أن يكون هذا المكان سوى القسطنطينية - لاحظ فاهان - نظراً لكثر الأجانب هناك، لن يتجرؤوا على مسنا بالسوء.

فتح الابن عينين جاحظتين؛ كان الحل هناك.

- إذاً. . . إذاً - قال متباكياً وشفتاه ترتعشان - لماذا لا نذهب إلى هناك؟

تبادل فاهان وفيرون نظرة أخرى، لم تعد نظرة خلاف، بل كان كل واحد منهما يحاول أن يفهم رأي الآخر في الموضوع. فالذهاب إلى العاصمة كان أمراً يفكران فيه سراً منذ مدة طويلة. كانت تريبزوندا مكاناً جميلاً، حيث معظم الساكنة من الأرمن وحيث كانوا يشغلون مكانة متميزة وسط «الملّة». في نهاية الأمر، ألم يكن هو الشخص الذي يتقلد أسمى وظيفة في المدينة؟ ألم يكن هو الوالي؟ لكن، من جهة أخرى، لم يعد ثمة مكان لمزيد من التطور في هذه المدينة. فالأرض المحدودة تحد من طموحات أهلها، وآل ساركيسيان كانوا يريدون أن يكبروا ويصبحوا من العظماء. والقسطنطينية كانت هي مكان العظماء ومن يذكرهم التاريخ. وعلاوة على ذلك، صارت الظروف عصيبة بالنسبة لملّة المسيحيين في الإقليم لأن الأتراك كانوا ينتقمون من خلالهم لما لحقهم من خسائر في الرّوملي.

- هل نذهب إلى القسطنطينية؟ سأل فاهان زوجته بنبرة تأملية، وهو ما يزال يحدق فيها - ما رأيك؟

لمعت عينا فيرون السوداوان كأنهما جوهرتان متلألئتان.

- ولِمَ لا؟

4

كانت الشمس تشرق في الضفة الآسيوية، لكن عيْنا كالوست بالكاد تريان المدينة التي يضيئها النجم المتوهج. مغمورةً بضوء الشروق الصافي، الذي يمزق في الأفق خليطاً من الألوان الدافئة والناعمة، كانت منازل حي إسطنبول الأنيقة تتماوج وسط تلال الضفة الأوروبية لبحر مرمرة، أسطحها المنبسطة بلون الطوب تتخللها صوامع المساجد التي ترتفع شامخة، كأنها أشجار أرز عظيمة تريد أن تلامس عنان السماء. والصباح يبدو كأنه يرشح بقطرات الشِّعْر.

- لم تنس أي دفتر، أيها الفتى؟ - سأله القهوجي، المهووس دائماً بالتفاصيل - هل تحمل كل شيء في المحفظة؟

- نعم - ردّ الفتى دون أن يرفع عينيه عن المدينة الكبيرة التي كانت الباخرة تتجه إليها - معي كل شيء.

- وهل أنجزت الفروض المدرسية؟

- طبعاً.

- حتى تمارين الرياضيات؟

ضاق كالوست ذرعاً بهذه الأسئلة. كانت أسئلة كثيرة وملحة تزعجه وتفسد عليه حلاوة ذلك الصباح وتناغمه.

- كل شيء على ما يرام! - ردّ بغضب مفاجئ - كم أنت مزعج، يا غوغاس! اسكت!

قام القهوجي بطقطقة من لسانه.

- المشكلة أنه لو كان ينقصك شيء ما - قال غوغاس مبرراً - فأنا من سيحمله والدُك الذنب.

- حسناً، ولكني أبلغ من العمر إحدى عشرة سنة. أنا لست طفلاً صغيراً!

- مهما يكن، إنك تنسى أحياناً بعض الأشياء - ألحّ الخادم - في المرة الأخيرة، فقط كان ينقص محفظتك كتابُ مادة الفرنسية، فأمر والدُك بضربي - ثم ألقى نظرة تألّم، كأن مجرد ذكر ما حدث كان شيئاً مؤلماً.

تنهد الفتى. لم يكن يريد سماع مشاكل القهوجي، وخصوصاً في لحظة رفيعة مثل تلك اللحظة. كيف يمكن للمرء أن يظل غير عابئ أمام عظمة ذلك المنظر الذي يحيط بهما؟

مرت سنتان بين تلك اللحظة التي قرر فيها الأبوان أن يرحلا ليعيشا في القسطنطينية واللحظة التي استقرت فيها الأسرة في العاصمة، لكن ذلك اليوم جاء والدليل أنه كان هنا، على متن تلك الباخرة التي يتصاعد دخانها وهي تتوجه نحو عاصمة الإمبراطورية، يُحيط بها البحر وأجزاء من البرّ المأهولة بالمنازل. اقتنى آل ساركيسيان منزلاً في حي سكني راقي في سكوتاري، على الضفة الآسيوية من البوسفور، منطقة يقطنها الباشوات، والديبلوماسيون والمسيحيون الأغنياء، وخاصة اليونانيون والأرمن، مكان رائع بمنظره الجميل المطل على الجزء الأوروبي من المدينة.

وكان منظر القسطنطينية انطلاقاً من الباخرة التي تعبر القناة هو

ما أثار حيرة الشاب كالوست. أي شيء خاص يوجد هناك يسحره كل يوم؟ آه، إنه الجَمالُ! كانت عاصمة الإمبراطورية جميلة جمالاً يفوق كل ما يسمح به الخيال. برج غلطة، القنطرة فوق القرن الذهبي، صوامع المسجد الأزرق، قبة آيا صوفيا، الأشجار التي تحف البحر، انعكاس المنازل على مياه البوسفور المتراقصة. كان شيئاً مذهلاً كيف أن عينيه لا تفارقان ذلك المنظر، الذي كان تناسُقه يشُدّ أنفاس الفتى.

في الحقيقة، دائماً كان يشعر بالانجذاب نحو كل ما هو جميل. كان المنظر وراء النوافذ يتركه منتشياً، بل حتى الأشياء الصغيرة كانت تسحره، مثل ديكور الغرفة، ما يرتديه من ملابس، وكذلك المحفظة التي اختارها ليأخذها إلى المدرسة. كان يعيش رغبة قوية في الارتباط بما يراه جميلاً حتى أنه، في ذلك الصباح الذي شعر فيه من جديد بنشوة روعة القسطنطينية وهي تستيقظ، طرح لأول مرة ذلك السؤال الذي بدأ ينخره.

- ما هو الجَمالُ؟

كل صباح، منذ أن بدأت الدروس، كان الشاب كالوست يقطع المضيق على متن الباخرة ليذهب إلى المدرسة. كانت الرحلة تشكل أهم لحظة من لحظات اليوم، خصوصاً في تلك الساعة التي يتخذ فيها ضوء الفجر ألواناً ساحرة للغاية تترك أثراً لا يمّحي في تذوقه الناشئ لتناغُم الجَمال. وكان آخر شيء يحتاجه وهو يستمتع بتلك اللحظة الساحرة هو أن يقضي الرحلة بكاملها يتحمل شكاوى الخادم. كانت أسئلة القهوجي حول ما قد يكون نسيه تفسد عليه سحر رحلة الصباح.

- الأقلام؟ هل جلبت الأقلام؟

حرّك كالوست عينيه، على وشك أن ينفجر. قام بقفزة مفاجئة من مكانه، ووقف غاضباً.

- كفى! - صاح التلميذ بحركة جازمة - قريباً جداً، من سيلقّنك درساً ليس هو أبي، هل سمعت؟ - ثم جال من حوله بحركة من رأسه، ينظر إلى المسافرين فوق ظهر الباخرة كأنه يبحث عن مخرج - انظر، يا غوغاس، سأقوم بجولة، وأعود بسرعة! - ثم أشار إلى المحفظة الموضوعة قرب الكرسي - أتركها هنا. ابق لتحرسها، هل سمعت؟

قفز القهوجي مذعوراً.

- أين ستذهب، أيها الفتى؟

- حيث لا أضطر لتحمّلك! اللعنة!

دون انتظار اعتراض الخادم، انطلق كالوست بسرعة من هناك وأخذ يتسكع عبر الباخرة. ذهب إلى مقدّمها ليرى كيف كان الهيكل يقطع صفحة الماء ثم جاء إلى مؤخّرها ليستمتع بالشمس وهي تصعد فوق الضفة الآسيوية، بينما كان، في الوقت ذاته، يلمح واجهة بيتهم في حي سكوتاري. عندما سيعود من المدرسة، ساعة الغداء، سيذهب إلى هناك في الظهيرة رفقة معلمه الفرنسي. وكان الأمر دائماً كذلك طيلة الأسبوع بقرار من والده، ولذلك كان يحب الرحلات عبر البوسفور، ولا يريد أن يخضع لأسئلة الخادم المهووس.

ملّ من رؤية حي سكوتاري وفكّر أن يستمتع بمنظر القرن الذهبي، أرقى منطقة في القسطنطينية. لكن، وهو يعبر الباخرة باتجاه مقدّمها، جلب انتباهه صفّ من النساء التركيات اللواتي يرتدين

الخمار يدخلن عبر باب يؤدي إلى مقصورة. لقد رأى دائماً نساء يغطين وجوههن وهن يعبرن ذلك الباب، فازداد فضوله.

ماذا لو ذهب ليلقي نظرة خاطفة؟

تسلل خلسة عبر مقصورة مظلمة فوجد أمامه مجموعة من النساء المسلمات يجلسن على وسادات متفرقة فوق الأرضية والأطفال يلعبون أمامهن. لم يكن يظهر من وجوه النساء غير العيون، التي انفتحت جاحظة نحو المتسلل عندما باغتته هناك. كانت هناك امرأتان أكبر سناً، لكن الأخريات كن أصغر من ذلك بكثير، لا يتجاوز عمرهن الثامنة عشرة، بكل تأكيد.

- من تكون أيها الطفل - صاح صوت يزعق بشكل غريب - ماذا تفعل هنا؟

استدار كالوست فرأى رجلاً قوي البنية يمشي نحوه بعبارة تهديد على وجهه.

- أنا... أنا... أبحث عن القهوجي.

- اخرُج من هنا! - صاح الرجل بصوته المزماري - هذا المكان ليس للفتيان!

تسلل كالوست وخرج خلسة من هناك، لكن الغريب تعقّبه فلم يجد بداً من أن يحتمي بالقهوجي. انتبه غوغاس إلى الوضع وسرعان ما وقف في وجه العملاق، الذي كان يصيح بغضب شديد ويبتلع كثيراً من مقاطع الكلمات حتى أن الفتى وجد صعوبة في فهم ما يقول. حينئذ، هدّأ القهوجي من روع الرجل الذي استدار في النهاية ورجع إلى المقصورة التي جاء منها.

- لا تدخل إلى هناك مرة أخرى! - قال الخادم محذراً الطفل تحت حمايته - أبداً!

- لماذا؟ أي شيء خاص في تلك المقصورة؟

- إنها مخصصة للنساء فقط - شرح له القهوجي - بداخلها يسافر حريم أحد الباشوات الأتراك. لا يمكن للرجال أن يلجوا ذلك المكان.

- الحريم؟! - قال الفتى مندهشاً - لكن... لكن جُلّ النساء اللواتي هناك تقريباً لا يتجاوزن سني سوى بقليل.

رسم غوغاس ابتسامة ماكرة على شفتيه.

- إن الباشوات الأتراك لا يريدون سوى صغيرات السن من النساء - شرح له - يقولون إن معاشرتهن تطيل العمر. فشباب تلك الفتيات ينتقل إليهم، وشيخوختهم تنتقل إلى الفتيات.

ظل كالوست مندهشاً لحظة طويلة، بينما كان يستعيد في ذاكرته وجوه أولئك الشابات اللواتي فاجأهن قبل لحظات في المقصورة. لم تخطر قط على ذهنه فكرة أن يتشبع عجوز بشباب الحريم. فهل يكون ذلك صحيحاً؟

- ولكن هذا... هذا الوحش؟ إذا كان الرجال لا يستطيعون الدخول إلى المقصورة، فماذا يفعل هو هناك؟ هل يكون هو الباشا؟

- كلّا، إنه الخَصِيّ.

هذه المعلومة تركت كالوست في دهشة أخرى.

- الخَصِيّ؟ ذلك الوحش خَصِيّ؟

تنفس الخادم بعمق ثم وضع يديه على خصره، في حركة مَن لا يصدق أن هناك من يمكن أن يكون جاهلاً أو ساذجاً بهذا الشكل.

- ألم تسمع صوتهُ، أيها الفتى؟

ترك اختيارُ مدرسة تناسبُ الابنَ فاهان في شك مرهق. عندما استقرت الأسرة في حي سكوتاري طُرحت ثلاثة احتمالات لتعليم كالوست: مدرسة جيترونجان الأرمنية، ثانوية غلطة سراي الفرنسية ومدرسة روبرت الأمريكية. بعد استعلام قصير، استنتج فاهان أن المدرسة الأمريكية هي أحسن المدارس سمعة في القسطنطينية، فاستهوته سمعتها، وهناك سجل ابنه ليتابع دراسته وفق نظام خارجي.

لم يكن ولوج مدرسة روبرت بالأمر الهين، لأنها كانت مدرسة يتردد عليها أبناء الدبلوماسيين والنخب من الأقليات المسيحية في الإمبراطورية العثمانية. كان اختيار التلاميذ يخضع لنظام صارم ويقتضي اجتياز امتحان خاص بتميّز. لم يكن شيئاً يخيف فتى تريبزوندا، الذي اعتاد على العمل الذهني وتدرب رفقة معلمه الفرنسي، فحصل على أعلى نقطة في امتحانات سنة 1880. وحصل بذلك على حق ولوج تلك المدرسة التي أصبحت أعرق مؤسسة تعليمية في الإمبراطورية على يد مديرها الجديد، مستر جورج واشبورن، الخبير بشؤون التعليم.

لكن، بعد بضعة أشهر، سمع فاهان تعليقات لاذعة من أصدقاء أرمن، يقولون إن مدرسة روبرت تقدم دروساً في الديانة البروتستانتية وتتجاهل تعاليم الكنيسة الأرمنية. وعلاوة على هذا، بدأ يرى أن البرامج الدراسية للمؤسسة ربما تكون مثقلة أكثر من اللازم، بما أن ابنه يتابع مواد دراسية يبدو له أنها لم تكن ذات أهمية بالنسبة لحياته المهنية.

لذلك طلب لقاء مع المدير، أمريكي ذو جسم بدين عرض عليه انشغالاته.

- إننا لا نخفي أبداً أننا مدرسة بروتستانتية - أوضح له مستر واشبورن - لكننا لا نفرض أبداً على التلاميذ تأويلنا اللاهوتي. بل أكثر من هذا، نتحاشى أن نتناول في دروس الدين أو خلال الخطب الدينية أثناء القداس أي موضوع يمكن أن يفرق بين مختلف الاتجاهات الدينية. وكما تعرف، نحن نقدم دروساً خاصة باللغة الأرمنية وأيضاً مادة تسمى «أرمينيا القدمية والحديثة»، موجهة إلى التلاميذ الأرمن. لا تخش أي شيء.

- لكنكم، يا سيّدي، تُدرّسون مادة دينية تقدم وجهة النظر البروتستانتية وتجبرون كل التلاميذ على متابعتها...

- نعم، وماذا إذاً؟ في النهاية، نحن لم نعد نعيش في عصر الظلمات! إننا في القرن التاسع عشر، عصر الأنوار! إن الناس لا يغمضون عيونهم ولا يصمّون آذانهم خوفاً من تعلّم شيء مختلف عما يؤمنون به، ولا يقبلون بشكل أعمى كل ما يُقال لهم. في هذه المدرسة، نعلّم الأشخاص كيف يحكمون على الأمور بأنفسهم، وكيف يفكرون لوحدهم ويبحثون عن الحقيقة دون كلل.

لوى فاهان شفتيه.

- حسناً، كل هذا جيد جداً، لا شك في ذلك. لكن ما يبدو لي هو أنكم تثقلون كاهل الابن بمواد لا فائدة منها بتاتاً - ثم راجع الورقة التي كان يحملها في يده - كنت أنظر بإمعان إلى برامجكم الدراسية، وأعترف أنني وجدتها غريبة. صحيح أنكم تُدرّسون الفرنسية، والإنجليزية، والأرمنية واللاتينية، وهي أدوات ذات فائدة كبيرة في الحياة. كما يبدو لي جيداً أنكم تُدرّسون الجبر، والهندسة وعلم المثلثات - ثم عدّل صوته - لكن الآن... علم الحيوان؟ والفيزيولوجيا؟ والكيمياء؟ وعلم النبات؟ وعلم الفلك؟ والبلاغة؟

والفلسفة؟ فيما تفيد كل هذه المواد؟ أي فائدة سيجنيها التلاميذ من دراستها؟

عدّل مستر واشبورن نظارته المدورة وأطلق تنهيدة خفيفة وصبورة.

- سيّد ساركيسيان، إن البرامج الدراسية في مؤسسة روبرت تعتمد على البرنامج النموذجي في مدارس إنجلترا الجديدة. نعتبر هذه المواد أساسية لتعليم. . .

- هم يحتاجون فقط لتعلّم اللغات - قاطعه فاهان - وشيئاً من الحساب، طبعاً.

- أعرف أنه هنا في الإمبراطورية العثمانية فقط تعلُّمُ اللغات الأوروبية يعتبر شيئاً مفيداً. لكننا نظن أن الأمر ليس كذلك - ثم أشار بحركة إلى النافذة - انظر إلى هذا البلد وفكر إن كان هذا النوع من التعليم قد أوصلكم إلى أي مكان. لم يفعل، أليس كذلك؟ وانظر الآن إلى أمريكا، أو إلى فرنسا، مثلاً، حيث المدارس تقدم برامج دراسية تشبه برامجنا، وانظر إلى أين وصلت هذه البلدان. بعد مقارنة الفقر العثماني مع الغنى الأمريكي، هل أنت واثق من أنك تريد لابنك أن يدرس وفق نموذج البرامج التي أدت بالإمبراطورية العثمانية إلى ما آلت إليه من انحطاط؟

لم يكن اللقاء حاسماً وعاد ربّ أسرة ساركيسيان إلى البيت يحمل من الشكوك أكثر مما كان يخالجه في البداية. فكّر في الموضوع لمدة أسبوع، لأن تعاليق أصدقائه الأرمن لم تتوقف، لكن حديثاً سمعه ذات صباح بين تُركيَّين، على متن باخرة تقطع البوسفور، هو الذي أخرجه من شكوكه.

- أرأيْتَ تلك البناية هناك؟ - سأل أحدهما وهو يشير إلى بناية

داكنة تبرز فوق أعلى تلة على الضفة الأوروبية، قرب الأسوار القديمة لقلعة روملي حصار.

- مدرسة الأجانب؟ ما بها؟

- إنها أكبر إهانة للأتراك أراها في القسطنطينية!

ثم نظر التركي الآخر بانتباه إلى مدرسة روبرت.

- أتظن ذلك؟ كنت دائماً أرى أن البناية جميلة جداً. . .

- إنها فعلاً بناية جميلة، لكن الأهم من ذلك هو ما تعنيه. قبل بضع سنوات جاء إلى هنا أجنبي من أمريكا واندهش كثيراً لجهلنا حتى أنه استثمر كل ما جلبه من أموال في حقيبته لبناء مدرسة كي يساعد أشخاصاً غرباء عنه تماماً - ثم أشار إلى منازل فخمة وقصور صغيرة على ضفاف البوسفور - أليس لدينا مئات الباشوات الأثرياء الذين شيدوا هذه المنازل الجميلة جداً؟ هل أخذ أي واحد منهم قرشاً واحداً من حقيبته ليساهم به في تربية شعبه؟ - وحرّك رأسه - هذه المدرسة الأمريكية هي أكبر إهانة يمكن أن يوجهها لنا الأجانب. وهل تعرف لماذا تُخجلنا؟ لأنها تكشف عن الوجه الحقيقي لحكامنا!

في تلك اللحظة التي سمع فيه هذا الحديث بين التُّركيَّين اتخذ فاهان قراره. سوف يبقى ابنه في المدرسة الأمريكية.

قطع وابلٌ من الحجارة الجو ونزل في ضجة عالية على بوابة المدرسة. فزع كالوست وانحنى مختبئاً تحت القضبان، وما إن خفّ الوابل حتى تطلّع نحو الجهة التي تأتي منها القذائف. لمح بعيداً مجموعة من الأتراك، كلهم يسكنون في منطقة روملي حصار، يرفعون قبضات أيادي مغلقة.

- أيها الأجانب! - صاح أحدهم، ونبرة غضب في صوته - اذهبوا إلى الجحيم!

لم تكن تلك هي أول مرة تقع فيها مثل تلك الأحداث، ورغم ذلك قام الشاب الأرمني، بعد صلوات الصبح وقبل أول حصة من الدروس، بزيارة مكتب مستر واشبورن، في الطابق الثاني من «هاملين هال»، وحكى له ما جرى.

- لا تعرهم اهتماماً، يا فتى - قال المدير - سوف نعالج هذا الأمر. اذهب لتتابع دروسك.

لا يمكن القول إن كالوست كان يشعر بحماس كبير لمتابعة الدروس، ليس بسبب المواد، التي كان يدرُسها بما عهد فيه من حرص شديد، بل بسبب الأجواء التي كان يخيم عليها توتر مستمر، ليس فقط بسبب انتقام الأتراك من المدرسة، بل وحتى بين التلاميذ أيضاً.

كان العرق المهيمن بين تلاميذ المدرسة هو العرق البلغاري، يليه العرق الأرمني. ثم يتبعهم اليونانيون، الذين لا يحبون البلغار، وحفنة من الأتراك الذين يشعر آباؤهم بإعجاب تجاه القوى الغربية. وما تبقى كان عنصراً أو عنصرين من العرق العثماني المسيحي، مثل المنحدرين من الجبل الأسود، والدلماسيّين والمقدونيين، وبعض أبناء البعثات الدبلوماسية الأجنبية.

كان البلغار يشكلون ما يشبه موضوع تهكم، ليس فقط بالنسبة لليونانيين، الذين تجمعهم بهم عداوة غامضة، بل وخصوصاً بالنسبة للساكنة التركية. فقبل بضع سنوات فقط قام الأتراك بقتل عدد كبير من ساكنة بلغاريا. وعند أول فرصة، ردّ مسيحيو بلغاريا الصاع صاعَين وقتلوا آلاف الأتراك، ثم أرغموا حشوداً من مسلمي بلغاريا

على الهروب عشوائياً واللجوء إلى القسطنطينية، حيث كانوا يعيشون اليوم متسولين في شوارع المدينة. لذا كان الأتراك غاضبين أيما غضب من البلغار، وعلماً بأن هذه الجالية كانت هي المهيمنة في مدرسة روبرت، فإن سكان الجوار كانوا يهددون مراراً وتكراراً تلاميذ المدرسة.

ولحل المشكلة، أعطى مستر واشبورن تعليماته كي يبقى التلاميذ البلغار في المدرسة حتى أيام العطلة. وعلاوة على هذا، التقى برئيس الشرطة وقدم له مبلغاً مهماً من البقشيش كي يحمي البنايات والتلاميذ. ورغم سوء نيتها، تمكنت الشرطة في النهاية من إلقاء القبض على بعض من قاموا برشق المؤسسة بالحجارة وعاد الهدوء إلى جوار مدرسة روبرت.

ظلّ مستر واشبورن مسمراً عند السلاليم وهو يرى رجال الشرطة يقتادون المشتبهين، لكنه لم يكن يغذي آمالاً كثيرة.

- في أي يوم من الأيام، قد يموت أحدهم.

5

كان همسٌ صبور يملأ قاعة دراسة «هاملين هال»، البناية الرئيسة من مدرسة روبرت، عندما جلس آل ساركيسيان في المقاعد الأمامية ليتابعوا محاضرة افتتاح الموسم الدراسي. كانت بداية السنة الثانية لكالوست في تلك المدرسة ويعلم الفتى علم اليقين أن يوم الدخول يمكن أن يكون مضجراً حدّ الموت. لكن، ما الذي يمكن فعله؟ مثل عدة وجوه معروفة في المجتمع العثماني، استُدعي والداهُ لمعاينة الحدث ولم يكن أمامه من بد سوى أن يرافقهما.

خيم صمت مفاجئ على القاعة عندما ظهر مستر واشبورن من باب جانبي وصعد إلى المنصة حيث ثُبّت منبرُ الخطيب. أي خطاب فظيع سيأتي من هناك؟ تساءل كالوست وهو يستعد للأسوأ. في السنة الماضية، كان الخطاب محاضرة عن هوميروس مملة لدرجة أنه وجد صعوبة في البقاء مستيقظاً.

وضع مدير المدرسة أوراق خطبته فوق المنبر، عدّل ربطة العنق، تنحنح ليضبط صوته، ثم رفع وجهه، وواجه المدعوين الذي جاؤوا للمشاركة في يوم الدخول المدرسي.

- لأي سبب جئنا هذا الصباح نرتدي ملابس في غاية الجَمال؟

لم يكن السؤال منتظَراً وأثار كمّاً هائلاً من النظرات المتبادلة وعلامات الاستفهام والدهشة. وهل كان الخطيب فعلاً ينتظر جواباً؟

- لماذا نزيّنُ بيوتنا؟ - كان هو السؤال الثاني الذي طرحه مستر واشبورن - لماذا نعتني بحدائقنا ونغرس أزهاراً جميلة في المزهريات؟ لماذا نعلق لوحات على جدران بيوتنا ونبسط سجادات فارسية في صالاتنا وننبهر بالمنظر الذي يظهر من النافذة، ونحن نرى روعة القسطنطينية منعكسة على مياه بحر مرمرة؟ لماذا نشعر أننا نطير ونحن نستمع لقطعة **قُداس الموت** لموزارت أو **نشيد الفرح** لبيتهوفن؟ لماذا نندهش ونحن نقرأ هذين البيتين الشعريين لشكسبير؟

O, how this spring of love resembleth,
The uncertain glory of an April day.

لماذا نشعر بالانتشاء أمام قبة آيا صوفي أو لذة قطعة حلوة بقلاوة نشتريها في البازار؟ أي شيء هذا الذي يدفعنا للبحث عن الجمال في كل شيء نراه ونلمسه، من قطعة ثوب كاشمير بسيطة نضعها على أكتافنا إلى العظمة الكونية المنبعثة من مجرة درب التبّانة ونحن نراها تنسكب في فجوة سوداء ذات ليلة مقمرة؟ أي غريزة تجذبنا نحو ما هو جميل؟ أي رغبات ملحة تدفعنا دفعاً نحو التناغم وأي خلاص نجده فيه؟

منكمشاً في كرسيه، فاغر الفم من الدهشة، شعر كالوست أن تلك الأسئلة تستفزه وتعنيه بشكل مباشر؛ كأن المدير كان يترجم إلى أسئلة تلك التساؤلات التي ظلت تؤرقه في الآونة الأخيرة والتي لم يكن هو قادراً على صياغتها بتلك الطريقة.

- ما هو الجَمالُ - سأل مستر واشبورن بنبرة اتضح أنها تعلن على أن ذلك كان آخر سؤال يطرحه من بين أسئلة ذلك التقديم.

«Pulchra sunt quae visa placent»، قال القديس توما الأكويني: «الجَمالُ هو ما يُمتعُ حواسنا». لا شيء أكثر حقيقة من هذا. لكن، أين نجد الجمال بالضبط؟ هل في الأشياء في حد ذاتها أم في الشخص الذي يتأملها؟ - ثم ترك السؤال معلقاً قبل أن يجيب عليه بنفسه - إن الجمال يوجد طبعاً في الأشياء، في أشكالها وما تحتويه، في تناسقها وخصائصها المميزة. لكن، في الحقيقة، لا يمكن لشيء أن يكون جميلاً إن لم يتأمله شخص ما فيجده جميلاً، وهذا يدل بكل وضوح على أن الجمال يكمن أيضاً في الذات. فالوردة جميلة لأننا نراها جميلة. من دون رأينا تبقى الوردة وردة لا غير. هكذا، إذا كان الجمال يكمن أيضاً في الذات، فإنه ذاتي أيضاً. من جهة أخرى، ورغم هذه الذاتية المتأصلة في جوهره، فإن الجمال كوني أيضاً. فكل الناس، وكل الشعوب، وكل الثقافات تصبو إلى الجمال. فالنموذج الأسمى للمرأة الجميلة يمكن أن يكون أنثى بدينة في الثقافة الأوروبية وأنثى نحيفة في ثقافة من ثقافات أفريقيا، وهنا يكمن أصل ذاتية المفهوم، لكن في الحقيقة، إن الثقافتين معاً تبحثان عن المرأة الجميلة. هناك من يجد أشعار **الإلياذة** الملحمية غاية في الروعة وهناك من يفضل جمال النثر الحديث في رواية **كونت مونت كريستو**. وبغضّ النظر عن الآراء بخصوص ما هو جميل، أي قارئ يبحث عن الجمال فيما يقرأ، مع ذلك. وهنا تكمن كونية الجمال. عندما تزين المرأة الإفريقية كوخها، وترتب الأوروبية بيتها، فكلتاهما تعبران بطريقتين مختلفتين عن نظام جمالي غريزي وكوني. لكن، هل يكون الجمال خاصية حصرية على البشر؟ وماذا عن الحيوان؟ هل تملك الحيوانات أي مفهوم عن الجمال؟

سكت مدير مدرسة روبرت وجال ببصره عبر القاعة، كأنه ينتظر من أحدهم أن يجيبه. كان كالوست قد فكر مرار في ذلك السؤال وانتابته حينئذ رغبة في أن يقفز من كرسيه ويصيح «لا!»، «لا!»، «لا!»، لكنه تمالك نفسه.

- نعم ولا - كان هو جواب مستر واشبورن - يستطيع كلبٌ ما أن يميز مذاق أطباق مختلفة، مثلاً. لو قدمنا له قطعة لحم رديئة الجودة وشريحة لحم من النوع الممتاز، بأي واحدة منهما سيبدأ في نظركم؟ إن المتعة التي يشعر بها، حتى لو كان الأكل مسألة تتعلق بالبقاء على قيد الحياة، تعتبر شكلاً من أشكال ردود الفعل تجاه الجمال. المشكلة أن مفهوم المتعة لا يمكن تحديده، بل هو استجابة لشيء ما. فأكل الفراولة أو استنشاق عطر وردة نشاطان يقدمان المتعة، مما يدل على أن الإحساس بالمتعة شيء غريزي، بل وعضوي. فالاستماع إلى الموسيقى يمكن أن يقدم من المتعة ما يقدمه الاستمتاع بأكل قطعة بقلاوة أو رؤية امرأة حسناء تتجول في البازار. وهذا يقودنا إلى أن نستنتج أن الجمال يحتوي على درجات من المتعة. فمن المتع ما هو حسي خالص، مثل أخذ حمام ساخن أو أكل شريحة لحم، ومنها ما هو ذهني خالص، مثل لعب مقابلة في الشطرنج بشكل رائع. وبين هذين الطرفَين يمتد عالم كامل من الأشياء الجميلة الحسية في أجزاء منها والذهنية في أجزاء أخرى. والحيوانات يمكن أن تشعر بالمتعة الحسية، لكنها مُحصّنة ضدّ الجمال الذهني. فهذه ميزة بشرية بشكل حصري. فقط رجل أو امرأة يمكنهما أن يتوقفا ليتأملا مضيق البوسفور ساعة الغروب أو روعة قبة آيا صوفيا، أو الاستماع إلى موسيقى الدراويش الصوفيين، أو ترتيب قاعة الأكل بكل بساطة. إن البشر يرون في الجمال رمزاً للكمال بل ويمكن أن. . .

- السيّد هاريتون!

اقتحم صوتٌ زاعق لامرأة هستيرية القاعة وأخْرس الخطيب، الذي التفت نحو الباب بنظرة مندهشة.

- عفواً؟

- لقد قتلوا السيّد هاريتون! - صاحت المرأة وهي تجري مفزوعة عبر الممر الأوسط من قاعة الدرس حيث كانت تجري المحاضرة - آه، يا إلهي! لقد قتلوا السيّد هاريتون!

ثارت جلبة في بناية هاملين هال وفي كل أرجاء المدرسة. كان هاريتون مستخدماً أرمنياً عُرف بمهارته في إصلاح الأشياء المعطلة وصار ما يشبه رجل ثقة المدير. غادر مستر واشبورن على الفور المنبر الذي كان يلقي منه محاضرته يوم الدخول المدرسي وذهب ليتفقد الخادمة.

- ماذا تقولين؟ ما الذي حدث لهاريتون؟

أشارت عاملة التنظيف عبر النافذة إلى بوابة المدرسة، هناك في الأسفل.

- هناك - قالت متلعثمة ويداها ترتجفان خارج سيطرتها - أمام المدرسة بالضبط! قتله رجلان! رأيت ذلك!

عمّ الذعرُ بناية هاملين هال. رغم محاولات الأساتذة والآباء في فرض الهدوء، تهيج التلاميذ لما حدث، ووسط تلك الضجة رافقوا مستر واشبورن إلى البوابة. وهناك في الخلف، مستلقياً فوق العشب البري، لمحوا جسداً جامداً؛ وكان بالفعل هو جثة هاريتون، بعد أن تعرض لخنق بواسطة حبل ترك آثاراً عميقة في عنقه.

أُلغي حفلُ يوم الدخول فوراً وعاد كالوست إلى البيت خائباً. يا لسوء حظه! في ذلك اليوم، الذي كان موضوع المحاضرة يثير

اهتمامه، وجد الأتراكُ طريقة لمضايقة المدرسة ووضع حد لأنشطتها. يا له من انعدام لمراعاة إحساس شعور الآخرين! آه، ليتهم انتظروا حتى تنتهي المحاضرة على الأقل...

أثارت الجريمة كلاماً كثيراً، بل وظهر خبرها في الجرائد. ظلّ كالوست منتبهاً لما يروج من شائعات في الممرات وأثناء أحاديث الكبار، فعلم شيئاً فشيئاً بتفاصيل القضية. يبدو أن هاريتون قد تمكن من أن يرسل إلى اليونان بنتَيه، فتاتان تتمتعان بجمال رائع حاول ضابط من ضباط البلاط أن يخطفهما ويضمهما إلى حريمه.

بعد جهود جهيدة ومبالغ كبيرة من البقشيش، تمكن مستر واشبورن من الربط بين المجرمَين وهذا الضابط، الذي كان، على ما يبدو، هو المحرض على القتل، انتقاماً من هاريتون الذي رفض تسليمه تانك الشابتَين كي يضمهما إلى حريمه. لكن، رغم كل علاقات النفوذ التي حركها مدير مدرسة روبرت، لم يتمكن من إلحاق العقاب بالجاني.

بالنسبة لكالوست، كان الحادث أكثر عبرة وفائدة من موسم دراسي بكامله؛ فالحياة في الإمبراطورية كانت حقاً صعبة لمن يعيش تحت أقدام مَن يحكمون. لكن الأفظع، ما كان يبدو له في الحقيقة أكثر خطورة من أي شيء آخر، هو أنه أضاع فرصة الاستماع إلى مستر واشبورن وهو يميط اللثام عن أعظم لغز يبدو أن العالم ينطوي عليه.

6

كانت قطعة النقود الفضية تلمع على ضوء الشمس الذي يتدفق من النافذة المفتوحة على البوسفور، ببنيتها الرقيقة المتلألئة في أناقة تتناقض مع الأصابع الغليظة التي تمسكها.

- أرأيْتَ هذا المدجح - سأله والده وهو يدير القطعة بطرف أنامله - هل تعرف قيمته؟

لمعت عينا كالوست مثل الضوء المنعكس على صفحة الفضة.

- خمسة شلنات.

لمع سن من الذهب في الوجه الباسم لأبيه.

- هنيئاً لك بما حصلت عليه من نقط في المدرسة! - قال - من يحصل على نقط كهذه لا بد أنه يملك عقلاً يقدر به قيمة ادّخار المال وحسن تدبيره - ثم قام بحركة سريعة من أصابعه ورمى له بالقطعة النقدية - هذا المدجح ملكك.

يومئذ كان يبدو أن كل شيء يلمع: قطعة النقود الفضية، عينا كالوست، وسنُّ والده الذهبية. قضى الفتى وقتاً طويلاً وهو يفكر في المصير الذي سيقرره للقطعة وكان أول شيء استقر عليه قراره ألا يدّخرها، كما اقترح والده، بل سيذهب لينفقها في البازار. المشكلة

أن يعرف فيما ينفقها. هل في اقتناء قطع بقلاوة لذيذة؟ في شراء راحة الحلقوم الملونة؟ في الحصول على قطايف بالفستق؟

لكن، قبل اتخاذ هذا القرار، كان عليه أن يحل مشكلة أخرى: الفرصة السانحة للقيام بذلك. كان كالوست يقضي كل فترات الصباح في مدرسة روبرت. بعد صلوات الساعة الثامنة، تبدأ حصص الدراسة التي تستمر إلى غاية منتصف النهار. وبعد الغداء كانت هناك حصص أخرى بين الثانية والرابعة والنصف زوالاً، وهي الساعة التي يغادر فيها المدرسة تلاميذ النظام الخارجي، مثل كالوست. أما الآخرون، الخاضعون لنظام الداخلية، فيبقون في المدرسة داخل مساكن الطلبة في هاملين هال.

كانت حصص مدرسة روبرت تشغل كل أوقاته، وحين ينتهي يكون القهوجي في انتظاره عند الباب، الواقع جهة منطقة بيبيك روملي حصار ويأخذه عبر الشاطئ حتى رصيف المرفأ، حيث يأخذان باخرة العودة إلى البيت. وما دام الأمر كذلك، متى يستطيع أن يذهب إلى البازار؟ وسرعان ما أدرك أن الحل يكمن في الحصص المخصصة للأنشطة الرياضية، حوالي ثلاث ساعات كل يوم خميس تهيمن عليها تمارين الجري ورياضة الكريكت. بجسمه الصغير المدور، تعلم كالوست كيف يمقت المجهودات الجسدية فأقنع والده أن يحضر له شهادة طبية تمنع المدرسة من إجباره على اجتياز تلك الاختبارات، بدعوى أنه يملك «قلباً ضعيفاً».

نجح الذريعة وسرعان ما تحرر كالوست من ذلك الجحيم. ومع ثلاث ساعات يوم الخميس التي ينبغي ملؤها، سنحت له الفرصة للقيام بمغامرة مثالية. وعندما سأله والده ما الذي ينوي القيام به في وقت الفراغ، كان جواب الفتى جاهزاً على طرف لسانه.

- سوف أذاكر، طبعاً.

عند سماع هذه الكلمات، بدا فاهان ساركيسيان مرتاحاً بطبيعة الحال. إن الابن، فكّر، كان بالفعل فتى رشيداً يتمتع بحس كبير من المسؤولية؛ وإن واصل على هذا النهج، سيذهب بعيداً بكل تأكيد. كان محقاً في هذا الأمر، طبعاً. لكن ما لم يخبره به كالوست هو أنه سيذهب ليُذاكر في البازار.

- آه، يا لها من مدينة!

إن كان ثمة عيب يشوب ما صدر من تعجب عن كالوست أمام ما اكتشفه وهو يلج لأول مرة وسط القسطنطينية، فلا يمكن أن يكون سوى أن إطراءه لم يكن كافياً لوصف ذلك المنظر الذي رآه عندما وصل إلى هناك.

ما إن بدأت حصة الرياضة يوم ذلك الخميس حتى تسلل الفتى عبر حديقة مدرسة روبرت، متحاشياً السلاليم الرئيسة، حيث يمكن أن يراه القهوجي، وقفز إلى الشارع. وليتفادى الحشود من اللاجئين المسلمين الذين هربوا من بلغاريا، صعد حتى بلغ أعلى منطقة بيرا، الآهلة بالمقاهي التي يرتادها الأجانب، ثم أخذ قطار الأنفاق الذي أُنشئ مؤخراً ليربط بين تلك الجهة من المدينة ومنطقة القرن الذهبي، شيئاً ما في الأسفل.

- لا تقل لي إنك ذاهب إلى جحر الفأر هذا!؟ - سأله تركيٌّ أدْردٌ بعد أن بصق باتجاه باب قطار الأنفاق - أنا لن يضعوني تحت الأرض إلا عندما أموت!

لكن التلميذ لم يكن يخشى أن يذهب تحت الأرض. كان قطار

الأنفاق من المستجدات التي أثارت الدهشة في نفسه، رغم أن أقوى إحساس هو ما شعر به في الأخير وهو في محطة الوصول. خرج إلى الشارع، وهناك بالضبط، قرب القرن الذهبي، أصابه بهاء القسطنطينية مباشرة بقوة كبيرة جعلته يترنح من التأثر تقريباً.

- يا إلهي!

إن كانت الأرض هي السماء، فستكون القسطنطينية أكثر النجوم بهاء ولمعاناً، نظراً لروعة ضوئها الساطع. اكتشف التلميذ ذلك وهو يتجول قرب الشاطئ حتى بلغ جسر غلطة، حيث بقي زهاء ساعة منتشياً بالحياة التي تخفق من حوله. كانت طيور النورس ترفرف فوق سطح الماء، تنعق من الجوع وهي تشتم رائحة السمك المالحة في الساحة على الضفة. كان البحر بلون أزرق زيتي محير، ينثر ماءه في تموجات متوترة، والأمواج تتدحرج يعلوها زبد مالح هارب. قصباتُ صيد تملأ سياج القنطرة مثل سلسلة من الخيزران، بينما هناك في الأسفل كانت المراكب تنفث، تخرخر وتصفر، تملأ بحر مرمرة بالزوارق والبواخر على مدّ البصر.

- **فارداه!** - صاح صوتٌ فجأة - افسحوا الطريق! **فارداه!**

استدار كالوست حول ذاته فوجد نفسه أمام خصيّ ممتلئ الجسم فوق دابة يفتح الطريق أمام عربة مذهبة، تزينها أزهار ورسومات طيور، كانت تعبر سطح القنطرة يجرها حصانٌ أبيض جميل. تحولت كل الأنظار نحوها في تلك اللحظة. وجاءت عيون نساء يترقبن من النافذة، يغطين وجوههن بخمار من حرير، ثم ارتفعت بعد ذلك صيحات وسط الحشود.

- حريم! - صاح أحدهم - انظروا هناك! إنه حريم!

توغلت العربة القادمة من بيرا في أزقة حي إسطنبول ثم اختفت

جهة البازار، وسرعان ما تلاشت تلك الإثارة. وجد كالوست المنظر رائعاً فقرر أن يتوقف في ذلك المكان. اتكأ على السياج وظل يتأمل المدينة التي تمتد أمام ناظره.

كان مدهشاً منظرُ القسطنطينية وهي تعج بالحياة. من بين حشود الأتراك، والأرمن واليونانيين الذين كانوا يعبرون جسر غلطة، كان يميز هنا وهنالك وجوه ذات غرابة أخّاذة. رأى أمَةً تضع خماراً وتحمل سمكاً، زنجية ملفوفة في لحاف بألوان متعددة من القاهرة، يهودياً يضع طربوشاً أزرق فيروزياً وآخر بقبعة بيضاء، سورياً يرتدي معطفاً بيزنطياً وغطاء بخطوط ذهبية شدّه إلى رأسه، وأوروبية شقراء ترتدي فستاناً قشدي اللون به تخاريم حتى القدمين تحمل مظلة صغيرة، تحاول أن تفتح لنفسها ممراً وسط سيل من المسلمين الذين يضعون عمامات بيضاء فوق رؤوسهم.

كانت الوجوه كلها مختلفة، بعضها شاحبة وبعضها ذات لون أسمر، بعضها بشوارب دقيقة وأخرى بلُحى كثّة، خليط متنوع من الوجوه حاول كالوست أن يتكهن بأصولها. هناك كرواتي، أمامه ماروني، وهناك كردي، هنالك شخص من طائفة الدروز، وثمة شخص من كريت، وفي الجهة الأخرى قبرصي. بعض الرؤوس كانت مزينة بعمامات، وأخرى بطرابيش تختلف ألوانها حسب العرق والدين، بعضها غُطّيت بخرق وبعضها الآخر بشالات. كانت تُرى سراويل مملوكية، جُببٌ، مسوح كهنوتية، عباءات طويلة جداً تكنس الأرض، أحزمة شُدّت إليها الخناجر، قلائد ذهبية، سيقان سراويل على شكل بالونات، أثواب بها خطوط بألوان بهيجة، حرير، خرق وسخة، قطن معطر، ملابس من الخيش، أميرٌ، عدة متسولين وثلاثة مُقْعدين.

ترك هذا المنظرُ المذهل كالوست في نشوة، كما لو أن دَفَق الحشود القوي الذي يملأ أزقة القسطنطينية كان أقوى شراب مسكر.

- آه، يا لها من مدينة!

بازارُ التوابل، بناية مغطاة في قلب حي إسطنبول، على بعد خمس دقائق من جسر غلطة، كان عبارة عن رواق كبير تلتقي في الألوان والروائح، يهيمن عليها الزعفران من بين التوابل المتنوعة.

عندما زار كالوست يومها ذلك المكان، بدأ يعشق الحلويات، وخاصة راحة الحلقوم ذات الألوان المختلفة التي كان أصحاب المحلات يعرضونها دون رحمة بالناظرين، وهو متردد بخصوص مصير تلك القطعة النقدية التي أهداهُ والدُه. هل ينبغي أن ينفقها هناك؟ تساءل وهو يدير القطعة النقدية الفضية المخبأة في جيب سرواله. أو ربما يكون من الأحسن أن يحتفظ بها لأشياء أخرى؟

اختار أن يكون محترزاً ويحتفظ بالمال في جيبه. خرج من هناك وصعد عبر الأزقة الضيقة حتى وصل إلى البازار الكبير. كاد الفضاء الفسيح الذي اكتشفه أن يحبس أنفاسه. كان البازار الكبير عبارة عن مدينة داخل المدينة، متاهة من التجارة والأزقة تحت سقف مقبب حيث الباعة ينادون على نهر من الناس المتدافعين وسط الممرات الملونة.

- انظر إلى هذه الغلايين! - كان صوتٌ يصيح - غلايين جميلة!

- فضة! ذهب! أحجار كريمة! - كان يجيبُه صوتٌ آخر - في هذا المحل، الزبون سلطان!

مشّط كالوست البازار الكبير بكامله، فمر قرب أكشاك الحلي،

ومحلات الملابس، وسار قرب المدابغ، والمطاعم التي تفوح برائحة الكباب، بل وتسلل تحت سيقان جمل حتى اكتشف ما كان يبحث عنه، زقاق السجادات. تأمل أشكالها المختلفة، من بلاد فارس، وأفغانستان والقوقاز، فحلم باقتنائها جميعاً. بحذر شديد، حتى لا يتعرّفه أحد، ألقى نظرة خاطفة على محل والده بتشكيلته المتنوعة المعروفة من سجادات تركستان. كان اقتحامُه لعالم الكيروسين قد دفع بتجارة السجادات، رغم أنها كانت ما تزال مربحة، إلى المرتبة الثانية ضمن موارد الأسرة. لكن، رغم ذلك، كان شيئاً يبعث على الفخر رؤية حشد من الزبائن يتفحصون سلع المحل.

وهو يهم بالمغادرة، دون أن يعرف بعد أي مصير يعطيه للقطعة النقدية، صادف، وهو في زقاق الصُّواغ، واجهة تعرض قطعاً نقدية قديمة. ظل مشدوهاً أمام صورتها. كم من الأيادي تداولت ذلك المال؟ أي مآسٍ، وأي حكايات شهدت عليها تلك القطع في صمت؟ هل تكون قد مرت من جيوب الباشوات والبايات؟ هل يكون سلطان من السلاطين قد عبث بواحدة من تلك القطع النقدية؟ وهل عبث بها المجرمون أيضاً؟ شعر برغبة في اقتنائها، لكنه تحكم في اندفاعه. فالقطعة النقدية التي قدمها له والده ينبغي أن تُنفق بشكل جيد، وليكون الأمر كذلك كان ينبغي عليه أن يدرس السلعة دراسة عميقة.

- حسناً، من لدينا هنا؟ - سأله صاحب المحل، تركي عجوز بلحية بيضاء ناتئة استقبله بابتسامة عريضة - أرمني صغير جاء يشتري؟ - ثم قام بحركة ترحيب نحو الداخل - ادخل، يا فتى! ادخل! مرحباً بك في دكاني المتواضع! هل تريد أن تتفحص القطع النقدية الجميلة التي أملكها هنا؟

كانت الدعوة مغرية، وللحظة معينة كاد كالوست أن يقبلها. لكنه، في تلك اللحظة، شعر أنه قد انقضى وقت طويل وربما يكون من الأحسن أن يبدأ في التفكير في العودة إلى المدرسة.

- كم الساعة، يا أفندي؟

أدار العجوز التركي رأسه ونظر إلى ساعة البندول المستندة على الحائط في عمق المحل.

- منتصف النهار، تقريباً!

حين استدار العجوز، وهو يستعد لمواصلة إغراء الزبون المحتمل، الصغير السن لكن الميسور بكل تأكيد كما يبدو من بذلته المدرسية بألوان مدرسة روبرت، كان هو قد تبخّر.

كان كالوست يجري مهرولاً نحو المدرسة.

مكتبة
t.me/t_pdf

7

مرت الأسابيع الموالية في مغازلة القطع النقدية. كل يوم خميس، مع بداية حصة الرياضة، كان كالوست يتسلل من مدرسة روبرت، وبعد أن يقطع نصف مدينة القسطنطينية في قطار الأنفاق ومشياً على الأقدام، يذهب ليتأمل مجموعة القطع النقدية في محل التحف الأثرية في البازار الكبير.

تعوّد العجوز التركي ذو اللحية البيضاء الناتئة على رؤيته وهو يتسكع في زقاق الصُّواغ، فدعاه ليدخل، ورافق بصبْرٍ زبونَه المحتمل يريه نماذج مما يعرضه في الكشك الزجاجي لمحله ويشرح له كل القطع واحدة واحدة. كان مقتنعاً بأن اهتماماً كذلك الذي أبداه الفتى ينم على أنه لا يمكن أن ينتهي سوى بعملية شراء.

- هذه عيّنة قديمة لقطعة من فئة أربعين «بارا» - قال وهو يشير إلى قطعة نقدية نحاسية صغيرة - تعود إلى عهد السلطان عبد المجيد.

- كيف تعرف ذلك؟

- هل تشك فيما أقول، أيها الفتى؟ - صاح العجوز التركي، متظاهراً بالغضب - أرى أنك متشكك...

- أحب أن أتأكد.

ضحك البائع من التفكير المحترز لعقل شاب صغير، فقرر أن يظهر له أنه يتحدث عن حسن نية. فتح زجاج الكشك وأخرج منه القطعة التي أشار إليها.

- أرأيت هذه الحروف؟ - سأله، وهو يشير إلى الحروف العربية المتشابكة وسط القطعة النقدية - إنها التوقيع الذي يشير إلى السلطان الذي كان يحكم وقت التعامل بهذه القطعة - ثم قَرّبَ القطعةَ من الشاب - والآن، اقرأ ما تقوله هنا: «عبد المجيد، ابن محمود، دام له النصر»، أرأيت؟ إنها قطعة تعود إلى عهد السلطان عبد المجيد، تغمده الله بواسع رحمته!

أشار كالوست إلى قطعة نقدية أخرى.

- وماذا عن هذه هنا؟

أعاد العجوز قطعة أربعين «بارا» إلى مكانها وأخرج نموذجاً آخر أثار فضول الشاب.

- هذه قطعة من فئة عشرة قروش تعود لعهد السلطان عبد العزيز - شرح له - هل ترى هنا النقش التي يحمل اسمه؟ إنها، رخيصة، طبعاً، لأنها ليست قطعة نادرة - وقطّب حاجبيه، محاولاً تقييم رد فعل زبونه - ما رأيك؟ هل تهمك؟

- شيئاً ما.

- لا تبدو مقتنعاً - قال ثم أشار إلى قطعة نقدية من النيكل - وهذه، هل رأيتها؟ إنها قطعة من فئة أربعة ريالات جاءت من تونس - ثم قوّس حاجبيه - غريبة، أليس كذلك؟

هذه القطعة بدورها لم تقنع الزبون المحتمل، لكن البائع لم يستسلم. أراهُ قطعة نقدية أخرى وأخرى ثانية، ليعرض عليه لمدة

ساعتين حوالي عشرين في المائة من الكتالوج، ويسمع، في النهاية، التلميذ يطرح عليه سؤالاً مألوفاً.

- كم الساعة؟

حان وقت الرجوع إلى المدرسة.

في البداية، ظن التاجر أنه سوف يقنع بسرعة الشاب ويدفعه لاقتناء قطعة من المجموعة؛ لأنه، في النهاية، ما كل يوم يظهر في محله ملاك مثله، وهو بكل تأكيد هبة من الله الكريم. لكن البيع بدأ يتأجل، ومع مرور الوقت انتبه البائع إلى أن الشاب، رغم صغر سنه وقلة تجربته، كان زبوناً ذهنياً ومرتاباً. ويعرف أنه مع زبناء بهذه المواصفات فإن الطريق الصحيح يستوجب كثيراً من الصبر والعمل؛ وكل محاولات البيع المتسرعة في مثل هذه الحالات غالباً ما تنتهي بالفشل.

- إنك من الزبناء الصعاب، يا ولد - استنتج عند نهاية الزيارة الثالثة - تأتي إلى هنا، تأخذ في النظر إلى سلعتي، وأنا أتحدث وأتحدث، وأنت تنظر وتتفحص وفي الأخير تذهب لتتركني بفم جافٍّ وجيوب فارغة كما دخلتَ. في النهاية، هل تريد أن تقتني كِنزاً من كنوزي أم لا تريد؟

لم يكن التلميذ يرفع عينيه عن القطع النقدية العديدة، يسجل في ذاكرته صورها وحكاياتها الصغيرة. ليس لأنه كان متردداً؛ بل ما جرى هو أنه كان ما يزال يستجمع المعلومات ويحاول فهم الصفقة. ولن يمر إلى مرحلة القرار إلا عندما يشعر أنه واثق ويعرف ما يكفي كي يتقدم.

- لا أعرف.

- لا تعرف؟ كيف أنك لا تعرف؟ ما الذي أنت بحاجة لمعرفته، في نهاية المطاف؟ هل تريد أن تعرف إن كانت القطع النقدية جميلة؟ حسناً، إنها جميلة! إن كانت نادرة؟ نعم، إنها كذلك! إذاً، اشْتَرِ!

كانت القطع النقدية مثيرة فعلاً، ليس بسبب قيمتها الجوهرية فحسب بل بما تنطوي عليه من تاريخ أيضاً، لكن الأثمان ربما تكون مخيفة. هل ينبغي لكالوست أن ينفق فيها قطعة المدجح الثمينة؟

- لا بد أن ثمنها باهظ...

- آه، ما قيمة المال الحقير مقارنة مع متعة امتلاك تحفة واحدة من هذه التحف الجميلة؟ - سأله العجوز التركي - ثم وضع يده على كتفه، مثل جدّ يداعب حفيده - هيا، إنك تبدو لي شاباً لطيفاً - ثم انحنى على أذنه وهمس في مسمعه، كأنه يفشي له سراً - فقط لك أنت، لأنك تذكرني بحفيدي العزيز علي، حفظه الله ورعاه، أقدم ثمناً خاصاً. ماذا تقول؟

- كم؟

حوّل البائع نظرَهُ نحو الخزانة الزجاجية حيث القطع النقدية وقام بحركة في اتجاهها.

- أي قطعة تريد؟

لحظتها، كان كالوست يختزن في ذهنه كتالوج المحل بكامله، رغم أنه لم يكن يعرف ثمن كل قطعة. اقترب من رفّ خاص، تغطيه قطعة زجاج سميكة جداً وأشار إلى قطعة نقدية لامعة ملفوفة في قطعة ثوب قطيفة ذات لون قرمزي.

- هذه، هنا.

لما رأى القطعة المشار إليها، وجّه العجوز التركي لطمةً إلى ساقه وأطلق قهقهة عالية.

- إنك شاطرٌ، أيها الشاب! - لاحظ وهو ما يزال يضحك - هذه القطعة تترادراخما من مدينة ميليتوس اليونانية. إنها أنفس قطعة في مجموعتي! - ثم حرك رأسه - لا، إنك لا تستطيع اقتناء هذه القطعة.

- لا؟ لماذا؟

- لأن ثمنها غال جداً.

دسّ كالوست يده في جيبه وداعب قطعة المدجح؛ لقد وجد السلعة التي ينبغي أن يستثمرها فيها.

- كم؟ - قال ملحاً، وهو يستعد لعرض ما قدمه له والده من مال - أخبرني كم ثمنها.

ولما رآه مصمماً على الأمر، قطّب التاجر حاجبه؛ هل يمكن أن يملك ذلك الطفل مالاً يقتني به قطعة تترادراخما ميليتوس؟ ولم لا؟ فكّر. على أي، إنه يرتدي بدلة مدرسة روبرت. . . ومن الأكيد أن والده رجل ثري. ربما يكون مقاولاً، أو مصرفياً؛ أولئك الأرمن شاطرون في التجارة! بأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، ما الذي يمنع الطفل من التوفر على ما يكفي من المال لأداء ثمن ذلك الكنز الصغير؟

- عشر ليرات ذهبية - قال التركي - ثم قرّب رأسه في حميمية مفاجئة - لكن، لك أنت، لأنك شاب أعجبتني، يمكن أن أمنحك خصماً من الثمن.

شعر كالوست بصدمة وفتح عينين جاحظتين، مندهشاً من ثمن القطعة. عشر ليرات ذهبية؟ ثمن لا يمكن تصوره! وكان من المستبعد جداً حتى أن يستمر في التفاوض.

- لا - قال بشكل قاطع، وهو يسترجع رباطة جأشه متوجهاً نحو الباب - إنه ثمن باهظ جداً.

وهو يراه يستعد للخروج، أدرك التاجر أنه ينبغي عليه أن يتحلى بمزيد من المنطق، وإلا فإنه سيفقد الزبون.

- لأنها لك أنت، ثماني ليرات ذهبية.

- يستحيل!

- ست ليرات ذهبية!

كان الشاب قد بدأ يمشي في الشارع ثم لوح بإشارة دون أن ينظر إلى الخلف؛ ثمن كذلك لا يصلح حتى ليكون قاعدة للتفاوض.

- وداعاً!

منذ مدة طويلة، انتبه كالوست إلى بعض الشبان اليونانيين الذي ما إن يحل الربيع حتى يضعوا دكة مؤقتة قرب رصيف سكوتاري ويجلسوا هناك لبيع السلع. في البداية، لم يعر اهتماماً لهذه التجارة في الشارع، لأن الوقت يكون متأخراً وهو على عجل من أمره ليصل إلى البيت ويلحق بالدرس مع معلمه الخاص.

لكن، في ذلك الصباح، توقفت الدراسة بسبب حادث غير متوقع. في مدرسة روبرت، ظهر السيّد سبانوديس، يوناني ذو سمعة جيدة، رفقة ثلاث فتيات بلغاريات يبدو عليهن الذعر وشرذمة من الأتراك الهائجين يتعقبونهم. في جو من الهيجان الكبير، شرح أن الأتراك اختطفوا الشابات الثلاث خلال المجازر التي وقعت في بلغاريا وجلبوهن جاريات إلى القسطنطينية. بصفته رجلاً صالحاً، يحرص على مساعدة من يعانون، استطاع سبانوديس أن يُرشي خصيّاً

في الحريم ويحرر أولئك التعيسات. المشكلة أن أسياد الفتيات كانوا على وشك أن يقبضوا عليهم، وبما أن المدرسة الأمريكية كانت هي أقرب مؤسسة أجنبية من مكان وقوع الحادثة، فقد جاء أربعتهم يطلبون الحماية هناك.

اقتربت مجموعة الأتراك بشكل خطير من مدرسة روبرت وأمر مستر واشبورن الجميع أن يغلقوا على أنفسهم في بناية هاملين هال، ومنعهم من الاقتراب من النوافذ، ثم نزل رفقة السيّد لونغ ليواجه غضب من كانوا يطاردونهم. بنبرة واثقة، أخبرهم أنهم يقتحمون ملكية خاصة، وبحركة متشددة أمرهم أن ينسحبوا فوراً وإلا أطلق عليهم الكلاب. ارتبك الأتراك أمام هذا النوع من المقاومة؛ لأنهم اعتادوا على رؤية الأجانب يرتعشون من الخوف ولا يقفون في وجههم هكذا بحزم بل وبشيء من الاحتقار أيضاً. وعلاوة على ذلك، كانوا يعرفون أن ذانك الأجنبيَّين، رغم أنهما من دون سلاح، كانا من طينة تختلف تماماً عن خُدّام الإمبراطورية العثمانية ويمكن أن يخلقا لهم عدة مشاكل عويصة، فانسحبوا.

والنتيجة العملية لكل هذه الأحداث هي أنه في ذلك اليوم، ومع كل الإثارة الناتجة عمّا حدث، لم تُستأنف الدروس وتمّ إرسالُ تلاميذ النظام الخارجي إلى بيوتهم قبل الأوان. لذلك، ولدى عودته إلى البيت في الباخرة، كان أمام كالوست مزيد من الوقت الفارغ، فقرر أن يلقي نظرة على دِكاك الباعة اليونانيين. حينئذ لمح فوق دكّة من الدكاك طابوراً من القطع النقدية الداكنة. ثار فضوله فقرر أن يلقي نظرة. أمسك قطعة نقدية ولاحظ أنها من فئة عشرة قروش لم تعد متداولة.

- أين وجدت هذه القطع؟ - سأل منجذباً.

جاء البائعُ اليوناني، شاب نحيف في مقتبل المراهقة، وأشار بذراعه إلى مياه البوسفور.

- هناك.

نظر كالوست نحو تلك الوجهة، دون أن يفهم شيئاً. هل كان اليوناني يشير إلى المنازل في القسطنطينية، في الجهة الأخرى من القناة؟

- هناك، أين؟ في البازار؟

ضحك البائع.

- نعم، في بازار البحر - ردّ عليه متهكماً - في قاع المياه. أين يمكن أن يكون ذلك؟ منذ أن صار الجو ساخناً، أخذنا أنا وأصدقائي نغطس لنصطاد القطع النقدية هناك في الأعماق. يبدو أنه، على امتداد القرون، كان هناك من الناس من يلقون بالمال في البحر. هذا البحر منجم لا ينضب، ألا تعرف ذلك؟

كان لتلك المعلومة على الشاب الأرمني وقعٌ بقوة التجلي. نعم، إنه منجم لا ينضب! فكر؛ هناك قطع نقدية في قاع البحر! تذكر، حينئذ، أنه قرأ كتاباً مدرسياً في مدرسة روبرت يؤكد أنه حين نجح الأتراك في غزو القسطنطينية، قام البيزنطيون المحاصَرون في حيّ إسطنبول بإلقاء ما لديهم من نقود وذهب في البحر، حتى لا يستولي العدو على ما يملكه المنهزمون من خيرات. لذلك صار قاع البحر يلمع بشدة لدرجة أنه إلى اليوم ما تزال القناة التي تفصل إسطنبول عن بيرا تُعرف بالقرن الذهبي، لكثر ما كان يلمع من ذهب في قاع ذلك المقطع من بحر مرمرة.

وماذا لو كان كنز البيزنطيين ما يزال متناثراً هناك؟ صحيح أن

العثمانيين هم من سكّوا القطعة النقدية من فئة عشرة قروش، لذلك لا يمكن أن تكون جزءاً من المجموعة التي أُلقيت في القرن الذهبي. لكن، مع كل تلك التيارات التي تجري في تلك المياه، ما الذي يمنع قطعة نقدية بيزنطية من أن تعبر مضيق البوسفور لترسو قرب سكوتاري؟ إن كانت الباخرة التي تأخذه من المدرسة تقوم بذلك، لماذا لا تفعل ذلك قطعةٌ من الكنز؟

- أرني كل قطعك النقدية - طلب، متحمساً فجأة - أريد أن أراها جميعاً.

اندهش اليوناني شيئاً ما لهذا الطلب، لكنه ذهب وأحضر علبة خشبية وضعها على الأرض، قرب الدّكة. غمس كالوست يديه في ذلك الخليط من قطع النقود المصنوعة من النيكل، والنحاس والبرونز، ثم راح يميزها واحدة بعد الأخرى. لاحظ أنها قطع عثمانية، بعضها يعود لمئات السنين، وبعضها حديثة.

لكنه، في لحظة معينة، لم يستطع تمييز أي وجه من وجهي إحدى القطع النقدية، لأنها كانت متسخة جداً لما علق بها من أوحال. ومن ملاحظة العيّنات السابقة أدرك أنه كلما استعصت إزالة الأوساخ عن قطعة ما، كلما زاد احتمال أن تكون قديمة. والحال أن تلك القطعة كانت قذرة بشكل فظيع، مما يعني أنها كانت قديمة فعلاً. حاول أن يزيل عنها الوحل بأظافره، لكن الوسخ أظهر مقاومة شرسة أمام كل ما بذله من جهود كبيرة.

- أعطني القطعة - قال الشاب اليوناني - عندي طريقة مضمونة النتائج.

سلّمهُ كالوست القطعة النقدية فظهرت سكين جيب في يدي البائع. أخذ الشاب اليوناني يحزُّ جانب القطعة حتى انفصل عنها

جزء من الوسخ، فتحرر وجه من وجهيها. استعاد الشاب الأرمني القطعة وتفحص الصورة وما نُقش حولها من حروف.

كانت قطعة تترادراخما من مدينة ميليتوس اليونانية.

حين أدرك ما كان بين يديه، شعر كالوست بقلبه يقفز من صدره. لقد وجد قطعة تترادراخما! هل يكون ذلك ممكناً؟ تفحص من جديد الوجه المكشوف من القطعة وتأكد مما رآه. مرتبكاً، توقف لحظة وأخذ نَفَساً عميقاً. بعد ذلك، وبأكبر قدر من ضبط النفس، واجه مُخاطبه ليخوض في التفاوض معه.

- كم تريد مقابل هذه القطعة؟

حدق اليوناني في عينيه، محاولاً التكهن بما يروج في خلد الزبون. كان قد لاحظ الصدمة التي لم يتمكن الشاب الأرمني من إخفائها وهو يرى الوجه المكشوف من القطعة فحدس أنه يستطيع أن يدفع ثمناً جيداً.

- عشرون شلناً.

عبرتْ تكشيرةُ خيبة وجه كالوست. كان يعرف أن الثمن أقل من قيمة القطعة النقدية، لكنه، في الحقيقة، لا يتوفر على كل هذا المبلغ.

- هل جننت؟ - سأله، وهو يتظاهر بالغضب - هذه القطعة تساوي... شلناً واحداً.

في الحقيقة، هذا ما كان اليوناني في البداية مستعداً لطلبه مقابل القطعة القديمة المتسخة والصدئة. لكن، نظراً لما حدسه من ردة فعل لدى الزبون قبل بضع ثوانٍ، اقتنع أنه من الممكن أن ينتزع منه أكثر من ذلك.

- خمسة عشر.

- شلنان.

- عشرة.

- ثلاثة.

تردد اليوناني. لو حدث ذلك قبل ساعة، لكانت ثلاثة شلنات أكثر بكثير مما كان يتخيل أن يحصل عليه مقابل تلك القطعة المعدنية القديمة. هل ينبغي له أن يرضى بهذا الثمن؟

- عشرة شلنات - قال حاسماً، مجازفاً بكل شيء - لا أستطيع أن أنزل عن هذا الثمن. هذه القطعة تساوي أكثر من هذا بكثير.

كان ذلك صحيحاً، كما يعرف كالوست. كانت تساوي أكثر من عشرة شلنات. المشكلة أنه لم يكن يتوفر على هذا المبلغ. في يأس من القضية، دسّ يده في جيبه وأخرج المدجح الذي أهداهُ والدُه؛ لعل رؤية المال تثير طمع البائع.

- مدجح واحد، هذا كل ما أستطيع أن أعطيك - قال وهو يُفرغ جيوبه ليثبت أنها كانت فارغة بالفعل - ليس معي أكثر من هذا - ثم نظر إلى التترادراخما بحركة ازدراء، آملاً بذلك أن ينتقص من قيمته - إن قطعة مدجح تساوي خمسة شلنات، وهذا ثمن جيد مقابل هذه القطعة من الحديد.

فكر اليوناني في العرض. كانت جيوب الزبون فارغة بالفعل، لذا فإنه لن يرفع الثمن أكثر من ذلك. من الأحسن أن يقبل خمسة شلنات، وهو ثمن أعلى مما يستطيع أن يأمل الحصول عليه مقابل شيء قديم كتلك القطعة، على أن يبقى خالي الوفاض.

- اتفقنا.

عندما عاد كالوست إلى البيت دقائق بعد ذلك، كان بالكاد يسيطر على ما يعتمل في نفسه من حماس. اخترق قواعد اللياقة، التي تقتضي ألا يكلم والده إلا عندما يسأله، وصعد أدراج السلاليم مثنى مثنى ثم اقتحم المكتب.

- قمت بصفقة! - أعلن بصوت كلها حماس - صفقة كبيرة!

كان الأب يغفو فوق الأريكة فاستيقظ، وقد أفزعته الجلبة. رفع رأسه ونظر إلى الباب شبه نائم، وإحدى عينيه ما تزال مغلقة بينما الأخرى نصف مفتوحة.

- ماذا حدث؟ - سأل بصوت يشي بالنوم - ماذا يجري؟

ولما لاحظ أنه عكر صفو قيلولة والده الذي ناداه مباشرة، تمالك الشاب نفسه وضبط حماسه، ثم خفض رأسه وأظهر الطاعة.

- أطلب عفوك، سيّدي - همس قائلاً بكل لطف - أنا. . . أنا قمت بصفقة.

تمطّى فاهان وعدّل جلسته فوق الأريكة.

- صفقة؟ أية صفقة؟

دسّ الشاب يده في جيبه وأخرج التترادراخما التي اقتناها للتو من رصيف سكوتاري.

- اشتريتُ هذه القطعة النقدية القديمة. إنها تساوي مالاً كثيراً.

استغرق الأب ثانية طويلة في استيعاب ذلك الخبر. أغلق عينيه نصفياً وهو يحاول أن يفهم ما يمسكه الشاب في يده ثم أمره أن يدنو منه.

- أَرِني هذا الشيء.

دخل كالوست إلى المكتب حافي القدمين، مشى منزلقاً فوق

سجاد فارسي، اقترب من والده ومدّ له القطعة النقدية. أمسك فاهان القطعة وفحصها عن كثب.

- إنها ترادراخما من مدينة ميليتوس، يا سيّدي - أوضح الابن - قطعةٌ نفيسة.

فحص الأب القطعة عن كثب ومحّص منها الجانب الجاف والمتسخ.

- كم دفعت مقابل هذا؟

- قطعة مدجح، سيّدي.

- أي مدجح؟ ذاك الذي أعطيتك؟

- نعم، يا سيّدي.

احْمرَّ الوجهُ المدور لفاهان بغضب مفاجئ.

- هذه القطعة ليست ترادراخما، أيها الغبي! - صاح - هذه «خُدعة دراخما»! - ثم أعاد له القطعة النقدية بحركة عنيفة وغاضبة - إذاً ذهبت لتنفق القطعة التي أعطيتك في شيء سخيف كهذا؟ هل لديك شيء من العقل؟ ألا تملك حس الادّخار؟ هل بدّدت المال الذي...

كان ذلك التوبيخ آخر شيء كان ينتظره الشاب بعد الصفقة التي قام بها. كيف أن والده لم ير ذلك؟ لماذا لم يستعلم بشكل مناسب قبل أن يوبخه بتلك الطريقة؟ ألم يكن يدرك أن القطعة النقدية جزء من كنز القرن الذهبي وأن قيمتها تساوي ثروة حقيقية؟

-... أعطيتُك في شراء هذه القطعة من القمامة؟ انظر، إن الحياة ليست بحراً مفروشاً بالورود، هل سمعت؟ أن يكون لديك طعام وملابس نظيفة لا يعني أنه عليك أن تبذر ما أعاني كثيراً

لأكسبه! هل لديك عقل، يا ولدي؟ هل لديك عقل داخل ذلك الرأس؟

عندما اعتبر والده ذلك التوبيخ منتهياً، ونصحه باستعمال عقله وهو يردد «عليك أن تحترم المال الذي أعاني كثيراً لأكسبه»، انسحب كالوست إلى غرفته لينام عاجزاً تماماً، وقام بالشيء الوحيد الذي يمكن أن يحرره من تلك العقدة التي تخنقه.

بكى.

8

كان تنظيف التترادراخما، أو «الخدعة دراخما»، كما سماها والده بسخرية لاذعة وقاسية، يشكل أولى أولويات كالوست في الأيام التالية. بعد أن لجأ إلى الحلول الكيميائية التي نصحه بها أستاذ العلوم في مدرسة روبرت، تمكن من إزالة الوحل الجاف والصدأ الذي يغشي القطعة، حتى أصبحت الفضة لامعة واكتسبت التحفة القديمة شباباً متجدداً.

- ما أجملها! - همس وهو مفتتن بالقطعة بينما كان يتأملها على ضوء الشمس الذي يلامس نافذة غرفته - لا يوجد شيء أجمل من هذا!

بعد أن حصل على قطعة لامعة، مرّ إلى المرحلة الثانية من خطته. يوم الخميس الموالي، كالعادة، اغتنم فرصة ثلاث ساعات الخاصة بحصة الرياضة ليهرب مرة أخرى إلى حي إسطنبول ويزور محل بيع التحف القديمة في البازار الكبير.

- ماذا؟ من هنا؟ - صاح العجوز التركي عندما رآه يلج إلى محله - اذهب لحالك، أيها الأجنبي! أستنفذُ معك كل وقتي وفي الأخير تختفي دون أن تقوم بأي صفقة! اذهب ودعني لحالي!

ابتسم كالوست.

- جئتُ لأقوم بصفقة، هذه المرة.

فتغيرت قسمات وجه البائع بشكل سحري؛ وخرجت من غضبه المسرحي ابتسامة عريضة.

- الله أكبر! - قال وهو يرفع ذراعيه ووجهه - لقد أشفق الرحيم من حالي ومن سخائه الذي لا حدود له قبل أن يمن علي! - ثم واجه الزبون وفرك يديه - إذاً، ماذا جئت تقترحُ أيها الفتى؟

- فتى؟ قبل لحظة كنتُ أجنبياً والآن صرت فتى؟

- الأجنبي هو الشاب الذي لا يبتاعُني شيئاً - أوضح التركي، وهو يداعب لحيته الطويلة البارزة - الفتى أنت، الذي جئت لتُسعد يوم هذا العجوز المسكين! - ثم قام بحركة نحو الخزانة الزجاجية، وهو يشير له بأن ما عليه سوى أن يختار ما يحلو له - ما الذي تريد أن تشتري مني؟

- في الحقيقة لم آت لأشتري منك أي شيء - أوضح كالوست - جئت لأبيعك شيئاً.

على الفور، انطفأت الابتسامة من على محيا التاجر، الذي انقبض في تعبير ريبة مفاجئ؛ لم يكن يتوقع جواباً مثل ذلك.

- ماذا تعني؟ هل جئت لتبيعني شيئاً؟ ما الذي تريد أن تبيعني؟

كما في حيلة سحرية، تجسدت القطعة الفضية، ناعمة ولامعة، بين يدي الفتى.

- قطعة تترادراخما من مدينة ميليتوس اليونانية.

فغر العجوز التركي فاه مندهشاً. أمسك القطعة، وهو يحيطها بكل عناية، كما لو كانت من زجاج وليس من فضة، ذهب ليفحصها

على ضوء النهار بواسطة عدسيّة مُكبّرة. دمدم بصوت يكاد لا يُسمع وهو يتفحص العينة، وبعد دقيقة، عاد قرب الزبون.

- آسف أن أصيبك بخيبة - قال بكل أسف - ولكن هذه القطعة ليست تترادراخما من مدينة ميليتوس.

أدهشت تلك المعلومة المراهق الأرمني.

- أليست كذلك؟ إذاً، انظر إلى ما هنا! - قال وهو يشير إلى نقش يمثل صورة في وجه القطعة النقدية، إنها تترادراخما، ألا ترى ذلك؟

حرك التاجر رأسه.

- هذا النقش يمثل وجه أريتوسا - أوضح العجوز - نقشه كيمون، فنان من سيراكوزا ووقعه بحرف اسمه الأول، «ك»، المتخفي وسط شعر أريتوسا. هل ترى ذلك؟ - ثم أدار القطعة على الجهة الأخرى، التي تمثل أربعة خيول تجر عربة ذات عجلات - وهذه عربة حربية تحمل تاج نيكه، ربّة النصر - ثم أعاد له القطعة بحركة متعجرفة - وعليه، فإنها ليست تترادراخما.

ظل كالوست يمسك القطعة النقدية بكف يده، والخيبة مرسومة على محياه.

- هل تتحدث بجد؟ وماذا تكون إذاً؟

- إنها مجرد ديكادراخما من سيراكوزا - ثم خفض رأسه كأنه يمقت أن يكون حاملاً لخبر سيِّئ كهذا - آسف.

أدار الشاب القطعة في يده، وهو لا يصدق سوء حظه. كان يظن أنه عثر على تترادراخما لكنه في النهاية وجد قطعة ديكادراخما بسيطة! آه، كيف يمكن أن يكون بكل هذه السذاجة! أبوه هو الذي كان على حق، هو من كان يعرف! ليته استمع إليه، على الأقل...

- هذا يعني أنه. . . أنه لا قيمة لها؟

- لا تسئ فهمي - صحح التركي - إنها قطعة فضية، من دون أدنى شك. لذلك فإن لها قيمة بحكم ما تحتوي عليه من فضة على الأقل. هذا أكيد.

رغم أنها كانت ما تزال خافتة، عادت الابتسامة إلى وجه كالوست؛ فتلك الخردة لها قيمة على أي حال! قد لا تكون هي كنز القرن الذهبي، لكنه سيربح منها شيئاً ما! فانتعش الأمل من جديد في قلبه.

- كم؟

حكّ العجوز أنفه وهو يفكر في الأمر.

- عشرة شلنات.

ذلك الثمن جعل كالوست يضيّق عينيه.

- لم أكن أعرف أن الفضة رخيصة إلى هذا الحد.

لم يفلح التاجر في قمع بقايا ابتسامة طفت فوق شفتيه الرقيقتين.

- نعم، ربما تكون محقاً - اعترف - هيا، عشرون شلناً.

فكر التلميذ في العرض. عشرون شلناً يساوي أربعة أضعاف ما دفعه مقابل تلك القطعة القديمة. أنفق مدجحاً واحداً وقد يربح أربعة. سيندهش والده أمام هذه الصفقة المربحة! شعر برغبة في قبول العرض، لكنه ألقى نظرة ارتياب على قطعة التترادراخما التي كان يعرضها التاجر للبيع في محله فاحترز من الأمر. إذا كانت القطعة المعروضة في المحل تساوي ثماني ليرات ذهبية، فلأي سبب من الأسباب قد يساوي الديكادراخما عشرين شلناً فقط؟ صحيح أن قطعة المحل من ميليتوس، بينما قطعته من سيراكوزا، لكن، يا إلهي كيف يمكن أن يكون كل هذا الفرق بين قطعتين متشابهتين؟

- لا أبيعها بأقل من. . . ليرتين ذهبيّتين!

ذلك الثمن الذي ألقى به كالوست على طاولة التفاوض ترك العجوز مندهشاً.

- ليرتين ذهبيّتين!؟ - صاح التاجر. كان يبدو أن عينيه تقفزان من محجريهما - يستحيل! هذه الخردة لا تساوي هذا الثمن! يستحيل!

- خذها أو اتركها.

- إذاً أتركها! - ردّ الرجل دون تردد - لن يخطر على بالي حتى أن أدفع مبلغاً كبيراً مقابل شيء تافه كهذا! أين رأيت أحداً يطلب ليرتين ذهبيّتين مقابل قطعة ديكادراخما بسيطة؟ لا بد أنك تظن أنني أنا هو البنك العثماني!

تردد الشاب الأرمني. لقد ذهب بعيداً أكثر من اللازم. هل ينبغي له أن يتنازل عن عرْضه أم أن يتشبث به؟ الحقيقة أنه لو خرج من هناك دون أن يجري البيع، قد يضيع فرصة سانحة لمضاعفة المدجح الذي استثمره في شراء القطعة. وبينما كان عقله يأمره بالتراجع كان قلبه يملي عليه عكس ذلك. فتلك القطعة الفضية قد لا تكون ذات قيمة كبيرة، لكنها كانت جميلة وهذا يكفيه.

- حسناً - قرر، وهو يستدير نحو الباب ويحتفظ بالقطعة في جيبه - وداعاً!

عندما كان وسط الزقاق شعر بجسد من خلفه، فاستدار ليرى من يكون. كان التاجر التركي العجوز الذي جاء يتبعه.

- آه، أيها الفتى! - صاح الرجل لاهثاً - إنك من الصعاب! أعطيك خمسين شلناً.

رفع كالوست سبّابته.

- ليرة ذهبية - قال حاسماً - لا أنزل تحت هذا الثمن مرة أخرى.

- هذا مال كثير - قال التاجر محتجاً - هل تظن أنني السلطان أم ماذا؟ قطعة ديكادراخما ليست هي قطعة تترادراخما! عليك أن تكون عاقلاً!

- ليرة ذهبية.

دسّ الرجل يده في جيبه.

مكتبة
t.me/t_pdf

- والله لا بد أنك قد جننت!

- هذا هو ثمني.

دمدم العجوزُ.

- إنك تسيء لرجل عجوز - قال مشتكياً - لكن... في نهاية الأمر، بما أنك أعجبتني فسأعطيك ستين شلناً.

لوّح الأرمني بإشارة من يده.

- وداعاً!

ثم ابتعد من جديد، لكن، وهو يخطو الخطوة الموالية شعر بيد التركي تمسكه من كتفه.

- حسناً، أيها الفتى! - استسلم التاجر وعلامات الإحباط تعلو وجهه - لقد انتصرت! تعال معي إلى المحل لأسلمك الليرة الذهبية اللعينة هذه!

ليرة ذهبية!

من يقول إنه، هو الذي لا يتجاوز عمره اثنتي عشرة سنة، يمكن

أن ينتزع ثروة كهذه من تاجر محنك من تجار البازار؟ وكل هذا باستثمار قيمته مدجج واحد لا غير. بقطعة قيمتها خمسة شلنات استطاع أن يحصل على ليرة ذهبية! هل كانت تلك صفقة عظيمة أم لم تكن كذلك؟ لقد أنجز معجزة تكْثير المال! آه، كم سيكون والده فخوراً به!

في نهاية تلك الظهيرة، عندما وصل إلى البيت، كانت رغبة كالوست أن يجري ليعرض الليرة الذهبية التي كسبها على حساب تلك القطعة النقدية القديمة التي طالما احتقرها والدُه. لكنه تمالك نفسه وتابع روتين يومه المعتاد. بعد أن رتب أغراضه في الغرفة، نزل إلى الصالة وظل يتأمل الزوارق والبواخر التي تعبر البوسفور.

عندما دخل والده، وقف في وضعية الحارس المعتادة وانتظر الأوامر.

- لنتناول العشاء.

جلس إلى المائدة مع والدَيه وانتظر أن يقدم لهم الخدم الطعام. تبادل فاهان وفيرون بعض الكلمات حول حفل استقبال كانا يحضرانه ليوم الأحد. كانت مسألة تنظيمية لا غير، ما دام تنفيذ حفل الاستقبال سيوكل إلى الطبّاخَين، وكبار الخدم الثلاثة وفيلق من الخدم الذين يعج بهم البيت. كان من المتوقع أن يحضر عدد من الدبلوماسيين وشخصيات مهمة من الجالية الأرمنية، كان عدد كبير منهم قد أرسلوا برقيات بقبول الدعوة، لذا فإن الحدث كان يستوجب شيئاً من الاهتمام.

- هل سيأتي بعض الأتراك؟ - سألت الأمُّ.

- سيأتي سليم باي واثنان من الباشوات.

حرّكت فيرون عينيها.

- آه - قالت مشتكية - هؤلاء الأتراك يصعب التأقلم معهم! يتركون نساءهم في الحريم وفي النهاية يحضر الحفل من الرجال ما يفوق عدد النساء، إنه لأمر مضجر.

- صبراً، يا امرأة.

- وأسرة بيربيريان؟ هل تعرف إن كانوا سيجلبون أبناءهم؟

- لا أظن ذلك.

- آه، للأسف!

- لماذا؟

وجهت فيرون نظرة نحو كالوست. كان الفتى، كما يُنتظر من طفل مهذب، يلتزم الصمت ويكتفي بأكل ما كان في صحنه.

- البنتُ يمكن أن تكون هدية رائعة.

أطلق الأب قهقهة عالية.

- إن لائحة خُطّاب نونوفار لا تنتهي، يا امرأة! - صاح - وفوق ذلك، يُقال إنها مخطوبة لأحد أبناء عمها. أظن أننا لا نملك أدنى حظ...

استمر الحديث على نبرة فاترة وعند النهاية فقط، لما جاء الخدم يحملون حلويات البقلاوة، توجه فاهان إلى ابنه.

- ماذا عن الدروس؟

- مرّ كل شيء جيداً، سيّدي - أجابه كالوست - تابعتُ حصة الفرنسية ثم بعد ذلك جاءت حصة الرياضة. لكنني هذه المرة لم أذهب إلى المكتبة لأذاكر.

أدهشت هذه المعلومة الأبوَين اللذين واجها الابن بتعبير حيرة.

- لم تذهب؟ - قال الأب مندهشاً - وماذا فلعت طوال كل ذلك الوقت؟

- ذهبتُ إلى البازار الكبير.

استقبل الأبوان الخبر باندهاش كبير.

- ماذا؟

توقف الأبوان عن الأكل وحدقا بعيون مصدومة إلى الابن. كان الاندهاش مطبوعاً على وجهيهما. استبق كالوست العاصفة التي تلوح في تعابير الوجهين المندهشين اللذين يحاصرانه، فدسّ بسرعة يده تحت المائدة وفتّش في جيب سرواله.

- أتذْكُر، سيّدي، أنني استعملتُ ذلك المجدح الذي أعطيتني في اقتناء قطعة نقدية قديمة؟ - سأل والده. ثم أخرج يده من تحت المائدة وعرض الليرة الذهبية - لقد أعطوني هذا مقابل تلك الخردة البئيسة.

- أنت... ذهبت إلى البازار؟ - صاح الأب، متجاهلاً القطعة النقدية - هل جننت؟ هل لديك فكرة عمّا قد يحدق بك من أخطار في أزقة القسطنطينية؟ أتعرفُ أنها مليئة باللاجئين الغاضبين؟

- أعرفُ كيف أتحاشاهم، سيّدي.

- كيف لك أن تعرف كيف تتحاشاهم؟ هؤلاء القوم كانوا يذبحون البلغار، يا فتى! قوم لا رحمة لديهم ولا شفقة! هؤلاء...

وضع الابن القطعة النقدية أمام عينيه.

- انظر.

انحنى الأب إلى الأمام وضيق عينيه، وهو يحاول جاهداً أن يميز أي قطعة تلك التي كان الابن يعرضها عليه.

- ما هذا؟

آه، ما أروع هذه اللحظة، فكر كالوست، وهو بالكاد يكبح التهيج الذي يجعله يقفز فوق الكرسي. الآن سوف يدهشه.

- إنها ليرة ذهبية.

إنجازُ الفتى، نظراً لصغر سنه على وجه الخصوص، جعل الأب فخوراً بشكل مفهوم.

- في نهاية المطاف، ما كل يوم تتحول قطعة مجدح إلى ليرة ذهبية - تفاخر فاهان أمام ضيوفه الذين حضروا حفل الاستقبال يوم الأحد الموالي، وحكى لهم القصة بكل تفاصيلها مع شيء من المبالغة - هذا الفتى سوف يذهب بعيداً! - قال ثم أضاف: تركتنا هنا وغامرت في الشوارع لتقوم بالتجارة؟

كان تقدماً كبيراً، خصوصاً أنه وقت استثمار الشلنات الخمسة كان كالوست معروفاً بكونه «مبذراً» و«طفلاً مدللاً». استمتع، لذلك، بمجد اللحظة وما أثاره إنجازُه المالي من فخر في نفوس أفراد الأسرة. هل كان تاجراً كبيراً أم لا؟ أدهشته متعة التجارة؛ أو، من يدري، ربما تكون تلك هي طبيعته ولم تقم عملية الديكادراخما سوى بالكشف عن رغبته الفطرية في الاستثمار المربح.

والحقيقة أنه بدأ يبحث عن علب القطع النقدية التي كان الشبان اليونانيون يبيعونها على رصيف سكوتاري، لكن دون أن يعثر ثانية على أي شيء ذي قيمة. بيد أن ذلك ما كان ليثنيه عن مسعاه. إن كان ثمة من شيء أدركه فهو أن العالم يعج بالصفقات التي تنتظر من ينجزها. فقط كان بحاجة لعين تلتقطها، ولمهارة ترعاها وتجعلها تزدهر.

بدأ يتصيد الفرص الجديدة، وكما ظهر جلياً فإنه سرعان ما

أدرك أن السجادات، حرفة والده الأولى، كانت تنطوي على إمكانات هائلة. أخذ يدرس هذه القطع بعناية، محاولاً أن يفهم أكثرها قيمة في الحقيقة ولماذا. من خلال الحديث مع والده حول الموضوع، اكتشف، بشيء من الدهشة، أن السجادات المستعملة لها قيمة أكبر من السجادات الجديدة، وهو ما يتعارض مع المنطق للوهلة الأولى.

- إن السجادات مثل نبيذ بوردو الجيد - شرح له فاهان، وهو يحمل كأساً من النبيذ الأحمر الفرنسي - كلما تقادم كان أحسن. في حالة السجادات، تبلغ قيمتَها القصوى بعد ثمان سنوات من الاستعمال. فالاستعمال هو الذي يمنحها المرونة، والنعومة المثالية، وهو الذي يسمح بصهر ألوانها في انسجام مع الأشكال.

لم تكن التجارة هي الشيء الوحيد الذي يحفزه، اكتشف كالوست. كان يحفزه أيضاً حب التناغم، وعشق الجمال في الأشياء. حبُّ الفن. آه، الفن! إنه الشيء المثالي، وما يمكن أن يكون هو الحلم ذاته، يتمثل في التوفيق بين الوجهين اللذين يشكلان طبيعته. فن وتجارة. أن يجعل من الفن تجارة ومن التجارة فناً. كان ذلك هو ما يطمح إليه فعلاً! فهل يكون فناناً في مستوى هذا الطموح العظيم؟

إن صفقة القطعة النقدية الناجحة قد رسمت أمام الشاب الأرمني ذلك الطريق الذي حدس أنه طريقه. لذلك، استمر في تخصيص يوم الخميس للتجول عبر أزقة البازار الكبير، بمباركة الآن من والدَيه اللذين كلفا القهوجي بمرافقة الطفل وحمايته من جحافل اللاجئين الذي أصبحوا متسولين، خطيرين أحياناً. لكن، في البازار الكبير كان الأمن مطلقاً وجعل الزبون الشاب من زقاق السجادات محطة

معتادة، نظراً لاهتمامه المتزايد بذلك الفن الذي يمثل تقاليد الشرق العريقة، إلّا أنه أبقى عيناً على المسكوكات والقطع النقدية.

لمدة معينة تحاشى المرور إلى المحل حيث باع ذلك الديكادراخما من مدينة سيراكوزا، لأنه كان يشعر بخيبة غامضة. أدرك أنه يشعر بنوع من الصعوبة في التخلص من الأعمال الفنية الجميلة، حتى لو كان ذلك عبر صفقات مربحة، إلا إذا حصل على شيء أحسن منها مقابل ذلك. لكن شيئاً أحسن من قطعة قيمتها ليرة ذهبية كان أمراً يصعب العثور عليه.

بعد شهر، تغلب على خجله وقرر أن يزور محل بيع المسكوكات في زقاق الصُّواغ. استقبله العجوز التركي بابتسامة عريضة عند الباب وقدم له فنجان قهوة، وهو يغدق عليه بحركات لطيفة؛ فلم ير التلميذ من قبل مثل كل ذلك اللّطف.

- أيها الفتى العزيز، ألم تكتشف أي قطعة نقدية أخرى مثل تلك التي بعتني؟ - سأله بعد الحديث الأولي - إن اكتشفت شيئاً فأنت تعرف أين تجدني.

في الحقيقة، لم يذهب إلى هناك في زيارة مجاملة. كان كالوست يشعر بالحنين إلى ذلك الديكادراخما الذي تخلص منه وكان يريد أن يتأمله مرة أخرى. لكنه لم يكن ينوي أن يظهر نقطة ضعفه، لذلك لم يذكر شيئاً من الموضوع واكتفى بطلب الإذن ليستمتع مرة أخرى بمشاهدة كل قطع المحل. أبدى إعجابه بكل العينات واحدة واحدة، بتثاقل، كأن أتْفَهَ قطعة من القطع النقدية التي كان يتفحصها جوهرة لا نظير لها، حتى بلغ الخزانة الزجاجية حيث كانت تُعرض أنفس القطع الفضية اليونانية. وهناك كانت قطعة التترادراخما من

ميليتوس، وقد كتب الآن تحتها الثمن: عشر ليرات ذهبية. إلى جانبها، في مكان لا يقل رفعة، كان يبرز الديكادراخما من مدينة سيراكوزا، وتحته أيضاً إشارة إلى ثمنه.

عشرون ليرة ذهبية.

تجمّد كالوست فجأة، وذهنه يرفض أن يتقبّل ما تراه عيناه. كلا، لم تكن عشرين ليرة ذهبية، كانت ليرتَين. على الأقل هذا ما حدّث به نفسه في حوار داخلي كان يجريه مع ذاته في تلك اللحظة. لقد رأى صفراً لم يكن هناك. يستحيل أن يكون هناك. لذلك أغمض عينيه وفتحهما من جديد، واثقاً من أن ذلك الخداع البصري لن يحدث مرة أخرى.

عشرون.

كان الصفر اللعين ما يزال ثابتاً في مكانه. رقم اثنين ثم رقم صفر. لم يكن ثمة من شك. عشرون. منذهلاً، استدار الفتى وتوجه نحو التاجر وتعابير السؤال على محياه.

- عشرون ليرة ذهبية؟

ابتسم له العجوز التركي بلطف، رغم أن نظراته المتعبة تركت لينفلت منها ما يشبه طيفاً من المكْر.

- لم أفعل أي شيء ضدك أيها الفتى - قال - كانت صفقة مربحة لا غير. صفقة رائعة، في الواقع - ثم أشار إلى القطعة النقدية - لقد تم سك ديكادراخما سيراكوزا لتخليد انتصار المدينة على أثينا خلال الحرب البيلوبونيسية. هل تعرف كم هو عمر هذه القطعة؟ ألفان وخمسمائة سنة، تقريباً! قيمتها تساوي ضعف قيمة ترادراخما ميليتوس! آه، كانت صفقة رائعة!

دون أن ينبس ببنت شفة، ووجهه يستعرُ غضباً، استدار كالوست

وخرج من الباب مغادراً. في الحقيقة، كان يعرف أنه لا يمكن أن يشتكي. ألم يخدع بدروه ذلك اليوناني الذي عثر على القطعة في قاع البحر؟ إنه المخادع الذي انطلت عليه الخدعة، وهذا ما جعله يدرك أنه من الأسهل أن يوجه المرء ضربة للغير على أن يكون ضحية الضربة.

لكن أهم درس لم يكن هو هذا الدرس. إن الحادث قد جعله يدرك بالخصوص أنه في التجارة، كما في كل مناحي الحياة أيضاً، من الأساسي أن يملك المرء المعرفة قبل المرور إلى الفعل. فهو كان يعرف شيئاً لا يعرفه اليوناني، وهذا ما سمح له بالحصول على صفقة مربحة. وقد كان العجوز التركي على علم بشيء لم يكن يعرفه هو شخصياً، وهذا الأمر البسيط هو ما جعله يخسر صفقة أكبر. في الحقيقة، استوعب الدرس بمرارة شديدة: المعرفةُ هي القُوّة.

الجزء الثاني

الغرب

«قيمة المرء ليست أكبر من طموحاته».

ماركو أوريليو

1

كان ضوء الأصيل الباهت يصبغ منازل مارسيليا على التلال الوعرة بألوان صفراء مُحمّصة، البناياتُ تنعكسُ في صورة مختزلة على صفحة مياه المتوسط، وبريقُ الشمس يستلقي على البحر متلألئاً بعدد لا يُحصى من الأضواء البرّاقة، كأنه رواق من الشرارات التي تشتعل وتنطفئ فوق قمة أمواج هادئة.

أسند كالوست مرفقَيه على الشرفة وتأمل المدينة بينما كانت الباخرة تنساب بهدوء نحو مدخل الميناء القديم. كان المسافر منبهراً أمام ذلك المنظر الذي يكبر كلما اقترب من اليابسة وخصوصاً مع رؤية كاتدرائية نوتردام دي لاغارد التي تتوج المدينة مثل منارة تهيمن على كل شيء. كانت أول مرة يغادر فيها الإمبراطورية العثمانية ويصل إلى أرض يسود فيها المسيحيون؛ كما يبدو أنها مدينة مختلفة حيث الأبراج تشير إلى الكنائس وليس إلى صوامع مساجد.

كان الشاب ذو الخمسة عشر ربيعاً قد غادر القسطنطينية قبل بضعة أيام، متّبعاً تعاليم والده بأن يكمل دراسته في الغرب. كان مروره في مدرسة روبرت الأمريكية ناجحاً، لكن كالوست كان ما يزال يواجه بعض الصعوبات في التعبير بالفرنسية والإنجليزية. إذا

كان فاهان يريد لابنه أن يتقن هاتين اللغتين كي يحقق النجاح في الحياة، فأي مكان أنسب لتعلمهما من موطنهما الأصلي؟

- موسيو ساركيسيان - سأله رجل يضع قبعة في الميناء القديم عندما نزل من الباخرة - مرحباً بك في فرسنا! - حيّاهُ الغريب، وهو ينزع قبعته ويمد له يده - أنا بيير مارشان، مبعوث البنك الإمبراطوري العثماني هنا في مارسيليا. أين أمتعتك؟

أشار كالوست بإصبعه إلى الحمّالَين اللذين يتبعانه، خادمَين من أفراد الطاقم يحملان ثلاث حقائب، اثنتان منها من الحجم الكبير. قاد مرشان الوافد الجديد إلى العربة، وبعد ترتيب الأمتعة غادروا الميناء القديم وساروا عبر شارع «لا كانوبيير» الممتلئ حتى بلغوا شقة في حي «ليريفورمي».

توقفت العربة في زقاق هادئ وترجّل الركاب. استجاب الشابُّ الأرمني لإشارة من الفرنسي فاجتاز الباب الموارب للبناية وأخذوه إلى شقة في الطابق الأرضي. حين دخل، انتبه إلى صغر المرافق، على الأقل مقارنة مع المنازل التي عاش فيها مدينة تريبزوندا وحي سكوتاري في القسطنطينية، لكن البناية الفرنسية كانت تفوح بعبقٍ ساحر خاص.

- هل سأسكن هنا؟

- أتمنى أن يروقك المسكن - أكد مستضيفه - اكتريتُ هذا الفندق الخاص وفق تعليمات وكيلنا التجاري في القسطنطينية، الذي تحدث معه والدُك. طلبا مني أن أجد شقة خاصة تنطوي على شيء من الجاذبية. وها أنت ترى!

عضّ كالوست شفته، لا يدري إن كان يكره الشقة أو يحبها.

- هممم. . . إنها ليست سيئة.

صفّق مارشان.

- آه، برافو! كنت أعرف أنها ستعجبك! إنها جميلة، أليس كذلك؟ ثم ألقى نظرة خاطفة على المطبخ، حيث لمح مرور جسد عابر - مادام دينانت؟! آنسة دوبري؟!

- نعم؟ - ردّ الصوتان الأنثويان في كورال متنافر النغمات.

رافق الوافدُ الجديد نظرات مُستضيفه، فحوّل نظره نحو نفس الوجهة ليرى عند باب المطبخ، في ضوء نافذة داخلية، ظلّي امرأتَين. اقترب الحجمان من المدخل حيث كان يقف الرجلان، لتظهر امرأةٌ بدينة ترتدي مريلة بوجه مدوّر وشابةٌ ترتدي فستاناً أزرق، بشعر كستنائي وعينين خضراوين كالزجاج. كانت المرأة أربعينية بدينة، فرنسية تتحدر من الأرياف بكل تأكيد، بيد أن الشابة هي التي شدت انتباه كالوست. كانت حسنة الوجه، متوسطة الجمال، ويبدو أنها في الثامنة عشر من العمر.

قدّمهما مارشان، فرفع كالوست طربوشه الأحمر وقال «Bonsoir madame, bonsoir mademoiselle». ردّتا عليه بانحناءة خفيفة، وهما بالكاد تثنيان ركبتيهما، ثم أضافت الشابة ابتسامة محتشمة.

- إن مادام دينانت هي المسؤولة عن تنظيم الخدْمة - شرح الفرنسي، وهو يشير إلى المرأة البدينة ذات الوجه المُحمر - هي من ستقوم بتنظيف الشقة، غسل الملابس، التسوّق وتحضير وجبات الأكل - ثم التفت نحو الشابة - أما الآنسة دوبري، فهي المسؤولة عن تعليمك. سوف تقدم لك دروساً في التاريخ وفي الأدب الفرنسي كما ستساعدك في تحسين اللغة الفرنسية، وهذا، أظن، هو الغرض الأول من زيارتك - ثم لزم صمتاً، كما لو أنه استوفى كل ما كان

ينبغي أن يقوله - من جهتي، هذا كل ما لديّ. هل ثمة من شيء يمكن أن أساعدك فيه؟

- لا، على حدّ علمي.

وبحركة محترف يعرف قيمة الوقت، سلّمهُ المُستضيفُ ورقة صغيرة.

- هذا اسمي وعنواني - قال، ثم سرعان ما وضع القبعة على رأسه واستعد للمغادرة - لدي مكتب قرب مقهى لاراديوز، قريباً جداً من هنا - ثم مدّ له يده - إن احتجت لخدماتي، أنت تعرف أين تجدني. رهن إشارتك، موسيو.

بلمسة وداع على قبعته، غادر مارشان الشقة وترك الشاب الأرمني لوحده مع المرأتين. بما أنه أرمني، وعكس الأتراك، كان كالوست معتاداً على التعايش مع الجنس الآخر. لكن، تلك كانت أول مرة يجد نفسه داخل بيت مع امرأتين غريبتين ومن دون أي رجل بالقرب منه؛ وهذا أمر يستحيل تصوره في البلاد التي جاء منها، خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بشاب دخل للتو مرحلة البلوغ وبدأ يكتشف بعض أوجه الحياة. لكنه وصل إلى فرنسا، والعادات هنا، على ما يبدو، تتمتع بحريات أخرى مختلفة. عليه أن ينظر إلى كل شيء بشكل عادي.

وهذا ما فعل.

- هلّا أشرتُما إليّ سيّدتَيَّ، أين هي غرفتي، لو تفضلتُما؟

رغم أن التقاليد كانت تنظر إلى التعلُّم بوصفه نشاطاً صعباً وشاقاً، فقد كان كالوست يتعامل معه كما لو أنه مجرد تسلية. لكن مدينة مارسليا دفعت بهذا التصور اللّعبي للتعلم ربما إلى نقطة

تجاوزت حدود المعقول، وإن كان هناك من شيء تبين طابعه التعليمي أثناء الإقامة في تلك المدينة المحيرة، فقد كان هو استكشاف الحواس إلى أقصى حد.

كانت وجبات مادام دينانت مدهشة بذوقها الرفيع. كان الشاب يعتقد أن الرقة فن شرقي، لكن رؤية الطباخة الفرنسية تصنع بيد ماهرة مرق القشدة والفطر وكل شيء آخر تبيَّن أنها متعة حقيقية غير منتظرة. خصوصاً بالنسبة للذوق. ولم يكن سحر المطبخ المحلي، كما أدرك الأرمني على الفور، مقتصراً على ما يُحضّر في البيت، بل تكفي نظرةٌ خاطفة على الحانات المتعددة في المدينة لاكتشاف أن كل ركن ينطوي على كنوز طبخ حقيقية.

ثم هناك دروس الآنسة دوبري، التي كانت في حد ذاتها منبعَ متعةٍ لا ينضب. كانت الفتاة تظهر أمامه دائماً أنيقة ومعطرة، تتزين بمساحيق خفيفة وأنيقة، حركاتها رشيقة، وصوتها غني بنغمات ومرونة لا مثيل لهما. أي أن كل شيء فيها كان «كما ينبغي». بعد تناول الفطور، الذي يتشكل من كرواسون وخبز باغيت ساخن، كانا يقضيان الصباح في مراجعة مبادئ النحو أو، بالأحرى، يستمتعان بقراءة الأدب الفرنسي، وخاصة روايات أونوريه دي بلزاك، إميل زولا، ألفونس دوديه، ستندال وغوستاف فلوبير، قصص غي دو موباسان وشعر شارل بودلير، مع اهتمام خاص بقصائده القوية في ديوان **أزهار الشر**، التي كانت الآنسة تلقيها بصوت عذب يغرق في حزن خامل.

Ô toison, moutonnant jusque sur l'encolure !
Ô boucles ! Ô parfum chargé de nonchaloir !

Extase ! Pour peupler ce soir, l'alcôve obscure
Des souvenirs dormant dans cette chevelure,
Je la veux agiter dans l'air comme un mouchoir !

كانت تنطقُ الكلمات كأنها تتلذذ بها، تستكشف حلاوة كل مقطع، مغمضة العينين، صدرها ينبض وجسدها النحيف يتهدهد على إيقاع الأبيات الساحرة. عندما يراها هكذا، غارقة في أعماق نشوة الشعر، يحسُّ كالوست ببطنه يتحرك، كما لو أن حماس الإلقاء ينطوي على نداء، ربما تلميحاً شبقياً، فيضطر لبذل مجهود حتى لا يُسكتَ شفتَيها بقبلة عارمة.

ورغم الشبقية التي تلون بها الإلقاء، تبين شيئاً فشيئاً أنها كانت تؤدي مهمتها باحترافية وصرامة. لكن ذلك لم يكن يمنع المعلمة الشابة من أن ترتجف أثناء بعض القراءات، خاصة الروايات الشعبية لأوجين سو وألكسندر دوما. كان تحمُّسها لهذين الكاتبين كبيراً جداً لدرجة أنها، ذات صباح، سحبت المتعلم من يده حتى بلغا الميناء القديم ووضعته داخل مركب صيد تفوح منه رائحة سمك تزكم الأنوف.

- أين سنذهب؟ - سألها كالوست، وقد تضايق من الرائحة القوية.

- هل تريد أدباً - ردت عليه بنظرة محتشمة، وهي تريه كتاباً سرعان ما تعرف الشاب غلافه - سآخذك لتعرف **كونت مونت كريستو**.

كانت وجهة الرحلة ترتسم في الأفق، قلعة إيف المحيرة، جزيرة صغيرة جداً تقع على بعد كيلومترين جنوب مارسيليا، حملها

دوما إلى الشهرة من خلال روايته **كونت مونت كريستو**، التي قرآها معاً بالضبط في الأسبوع الماضي وكانت تداعبها فوق ركبتَيها في تلك اللحظة. عندما وصل إلى قلعة إيف، اكتشف كالوست أن الجزيرة الشهيرة كان يهيمن عليها، بالفعل، حصن من القرن السادس عشر تحول إلى سجن، وهو المكان الذي سُجن فيه بطل الرواية.

من جهة أخرى، كان ولع الآنسة بكاتبَي الرواية المتسلسلة الكبيرين أمراً سمح للشاب باكتشاف سمة خاصة في شخصيتها: الرومنسية اليائسة. غريب كيف كان تنفُّسُ معلمته يتسارع وهي تقرأ المشاهد العاطفية، الموصوفة بنبرة فيها مبالغة مثيرة، مما يضع التلميذ الخجول أمام تحدٍّ فريد من نوعه. كيف له أن يوافق بين ميل الفرنسية إلى مواضيع القلب وتلك النار التي تحرق بطنه أثناء الدروس؟

سؤالٌ لا تجيبُ عنه الكتب.

إذا كانت صفحات الكتب لا تقدم حلولاً لتحديات الحياة، فقد أدرك كالوست أنه يمكن أن يميط اللثام عن هذا السر في أزقة مارسيليا وشوارعها. أو، بكل دقة، عند سيّدات يترددن على شارع مزدحم يعتبر القلب النابض للمدينة، لا كانوبيير. كانت تلك النساء يرتدين تنانير متأنقة حدّ الركبتين، تكشف عن الكتفين بل وتسمح أحياناً برؤية شق النهدين. وكانت وجوههن المزينة بمساحيق كثيرة تطفح بابتسامات وتكشيرات ودعوات لم يكن الشاب الأجنبي غير مبال بها تماماً.

كان يَراهُنّ كل ليلة وهو عائد من جولته، أو طقسه الدستوري، كما كان والده يسمي ذلك، نحو البيت. كان رد فعله دائماً عبارة عن كبرياء ظاهر، لأنه سمع أحدهم يقول إن أولئك الفتيات ذوات

المحاسن القريبة المنال يخبئن في أحشائهن أمراضاً يستعصي النطق بأسمائها. لكن الفضول كان نملة تنخر إرادته بكد وتلفُّه بالمغريات.

بعد مرور شيء من الوقت، تشجع ووجد طريقة ليطرح الموضوع للنقاش مع الآنسة دوبري. وجاءت الفرصة السانحة ذات صباح من يوم الجمعة، عندما كانا يقرآن **أسرار باريس**، راوية سُو المتسلسلة، التي تعج أحداثها بتفاصيل ميلودرامية مشكوك في احتمال وقوعها، وتتحدث عن الطبقة البروليتارية في باريس. كان في الرواية مقطع يشير إلى سيّدة تبيع محاسنها في الشارع، فوجد كالوست في ذلك مناسبة واغتنم على الفور فرصة الكلام.

- غريب أمر هؤلاء النساء الرخيصات - لاحظ بأقوى تعبير عادي كان في وسعه - أتعرفين، آنسة، هناك في القسطنطينية، الأمر ليس كذلك.

قطعت معلمته الخاصة القراءة ورفعت عينيها عن الكتاب.

- أليس هناك من بنات الهوى في القسطنطينية؟

- لا بد أن هناك بنات هوى - اعترف الشاب الأرمني - لكنهن لا يعرضن أنفسهن هكذا دون حياء في الشارع. هناك، كل شيء. . . كيف أقول؟ أكثر احتشاماً. لكن، هنا، أرأيت كيف هو الأمر هناك قرب شارع لا كانوبيير؟ إنهن في كل مكان! إن مرّ المرء بالقرب منهن ينادينه! ويبعثن له القبلات! يلمِّحن بإشارات! آه، هذا ما حدث لي ليلة أمس، أترين. . .

ضحكت الآنسة دوبري ضحكة محتشمة.

- وهل أزعجك هذا الأمر؟

- شيئاً ما. . . - قال، متظاهراً بالحياء. سكت، كأنه متردّد.

لم يكن يريد أن يعطي الانطباع بأنه طفل بريء، طبعاً - أعني، إنني أشعر بشيء من الفضول، أعترف بذلك.

- فضول؟ فضول لمعرفة ماذا؟

- لـ. . . معرفة كيف هو ذلك.

نظرت إليه الشابة بتعبير يصعب تأويله، كما لو أنها تتأمل فكرة.

- ألم يسبق لك أن كنت مع امرأة؟

شعر كالوست بحُمْرة حرج تغزو محياه. كان قد طرح موضوع الحديث دون أن يعرف أين كان يريد أن يصل ولا أين سيؤدي به، بيد أنه لم يكن قط ينتظر جرأة كهذه من معلمته الخاصة.

- لا - قال بنبرة صوت خافتة.

لزمت الآنسة فترة صمت أخرى وتفحصتهُ بعناية، كما لو أنها تقيمه.

- وهل يروق لك أن تجرب؟

أراد الشاب أن يجيب لكنه وجد صعوبة في الكلام، وبمجهود كبير فقط استطاع أن ينطق بصوت يشبه بشكل غامض كلمةً تشكّلُ جوابهُ.

- نعم.

قطّبت الآنسة دوبري حاجبَيها الرفيعَين وعضّت شفتها السفلى. يبدو أنها كانت تدرُس المسألة. بعد ذلك، بدا أنها قد عقدت العزم. رفعت ذراعها، وبتثاقل مرّرت يديها على الشعر الأسود الناعم لمُتعلِّمها، وراحت تمشطه بأصابعها في حركة كانت أقرب إلى المداعبة.

- إن أجْري هزيل والظروف صعبة - قالت بنفس الرقة التي كانت تتلو بها أشعار بودلير - لكن، بفضل رفع واضح فيما أتقاضاه

من أتعاب، أكيد أنني أستطيع أن أدرج ضمن خدماتي مواد تربوية أخرى. . . لنقل، قد تجعل من الزائد على الحاجة اللجوء إلى هؤلاء النساء من المستوى المنحط والحالة الصحية المشكوك في أمرها، وتمكنك من الحصول على تعليم تكميلي حول الطبيعة والحياة.

ترك هذا الاقتراحُ كالوست تحت الصدمة لبضع لحظات. ظلّ يحدق فيها لحظة طويلة، بحدة مَن يريد أن يفهم الآخر، لكنها قاومت نظراته. كان قد أساء فهمها، كما أدرك. عكس ما كان يظن، لم تكن الآنسة دوبري رومنسية يائسة، بل ماكرة فاسدة. بمعنى آخر، تماماً ما كان بحاجة إليه.

- هذا الرفع في الأجر. . . - قال بصوت أجش - عن أي مبلغ نتحدث؟

- إنني أدّخر بعض المال لأرى إن استطعت أن أتابع دراسة الأدب في جامعة السوربون - قالت له بنفس النبرة الهادئة التي عبّرت بها عن الاقتراح - أفكر أنه يمكن رفع مبلغ أتعابي بـ. . . لنقل أربعين في المائة - وقامت بحركة مقتنعة من رأسها. نعم، أربعون في المائة تبدو لي شيئاً مناسباً.

- ثلاثون.

سحبت يدها، كما لو أن تلك الحركة البسيطة كانت عقاباً له، ورفعت أنفها في تكشيرة.

- إن سيّداً محترماً لا يتساوم مع امرأة - قالت بنبرة لوم - إن زيادة بأربعين في المائة، أظن، تعتبر تعويضاً عادلاً لحالة مثل هذه. انظر، سوف تتعلم كل ما ينبغي أن تتعلمه من معرفتي ونسبي الأصيل، مع أقصى شروط التستر والسلامة الصحية - ثم رمشت في غنج - إذاً، هل اتفقنا؟

كانت الرغبة في التفاوض شيئاً غريزياً في طبيعة كالوست. لكن، في الحقيقة، لم يكن الأمر يتعلق هنا بقطعة ديكادراخما بسيطة، حتى لو كانت فضية من سيراكوزا، بل بفرنسية من لحم ودم تعرض عليه نفسها بشروط تبدو له مثيرة وغير منتظَرة. لم تكن المناسبة مواتية للقيام بمفاوضات غير مبرَّرة، بل إن المصاريف الشهرية التي كان يرسلها له والده تترك هامشاً لبعض النفقات الإضافية الخاصة بتربية رجل محترم.

- أربعون في المائة، إذاً.

- ومنذ متى يسري تطبيقها؟

جعل استيقاظُ البطن، المحتدم لحظتها، التّعلُّم شيئاً ملحاً، وهذا الأمر هو الذي أملى الجواب.

- اليوم... والآن.

تهلل وجه الفتاة بابتسامة عريضة، وعادت لتداعب شعره بينما كانت تمرر لسانها المبلل بين شفتيها بإثارة، كأنها تغويه، لكنها سرعان ما سحبت يدها. لم تكن تلك الحركة سوى قطعة من المقبلات.

- هذه الظهيرة، سوف أغادر في الوقت المعتاد - همست برقة فيها كثير من الإيحاء - وبعد العشاء، عندما تغادر مادام دينانت الشقة، ضع المصباح في النافذة لتشير إلى أن الطريق خالية - ثم غمزت عينها الخضراء بمكر- سوف أمرُّ من هنا حينئذ، وعندما أرى ضوء المصباح، سآتي لأطرق الباب وأقدم لك الدرس الأول.

وفي تلك اللحظة بالضبط اختفت حركات الأنثى المُغْتلمة فاسحة المجال للمُعلمة المحترفة. وركزت الآنسة دوبري من جديد اهتمامها على **أسرار باريس**، كما لو أن السّر الحقيقي هو ما ينكشف

مع كل صفحة من صفحات رواية سو المتسلسلة، وليس فيما تعرفه الحياة أحياناً من تقلبات محيرة.

جعلت دروسُ الآنسة دوبري الجديدة إقامة كالوست في مارسيليا أمراً أكثر متعة، بعد إدخال عنصر مثير في روتين حياته اليومية. فعلاوة على حصص اللغة الفرنسية خلال فترات الصباح والجولات خلال الظهيرة، عادة عبر شارع لا كانوبيير، بدأ الشاب الأرمني يستمتع بليالٍ ساخنة جداً، رفقة المعلمة الخاصة التي كانت تشرح له كيف ينبغي أن يقدم أحسن الأجوبة لأكثر حاجات الجسم البشري غموضاً.

مرت الأمور على أحسن وجه حتى أن المُتعلّم بدأ يدعو المُعلّمة إلى جولات ممتعة في المنطقة. وعندما كانت الفرصة مناسبة، اكترى كالوست مركباً من الميناء القديم وخرج إلى البحر رفقة صياد، وذهب مع معلمته ليقضيا نهاية أسبوع يتجولان في منطقة كامارغ. بعد أن جال المركب قرب مستنقعات المنطقة، تركا الصيّادَ في سانت ماراي دو لامير، كنيسة محصنة على ساحل المتوسط تقول الحكاية إنها كانت نقطة نزول مريم المجدلانية عندما خرجت من فلسطين، وذهبا ليطبقا الدروس الليلية وسط البحيرة، في الهواء الطلق، وسط طيور النحام ومالك الحزين.

عندما عادا ليأخذا الصياد، شعر كالوست أنه لا يمكن أن تكون ثمة حياة أكثر روعة. والنسيمُ الرقيق يهدهد شعره الأسود وقطراتُ البحر المالحة تبلل شفتيه، نظرَ إلى الوراء فرأى فرنسيّتَهُ تُغمضُ جفنيها في رغبة عشق مسكرة، صاح ملء رئتيه كما لو أنه وجد الكمال في ذلك الركن من الأرض: لتحيا فرنسا!

لكن، للأسف، ما كل الأشياء الجميلة تستمر إلى الأبد. وهذا بالضبط ما تعلّمه الشاب ذات صباح، بعد عدة شهور، بينما كان يتابع درساً من دروس اللغة الفرنسية مع معلمته، حين سمع طرقاً بالباب فذهبت مادام دينانت، التي تركت ما كان في يدها من أوانٍ، وخرجت لترى من يكون، فرأت رجلاً في الصالة.

- إنه موسيو مارشان - أعلنت وهي تجفف يديها البدينتَين بالمريلة - يريد أن يتحدث معك.

قطع كالوست الدرس، الذي كان يجري لحظتها بقراءة رواية متسلسلة أخرى من روايات سو، واستقبل بفنجان شاي ممثل البنك الإمبراطوري العثماني في مارسيليا. بعد تبادل عبارات المجاملة واستفسار بيير مارشان عن صحة ونجاح إقامة مخاطَبه، أخرج الزائر ظرفاً من جيب معطفه ومدّه إليه.

- توصلنا الآن من القسطنطينية ببرقية موجهة إليك - قال - أظن أنها من السيّد والدك.

بتوتر مفاجئ، أخذ كالوست الظرف ومزقه من الجانب. عموماً، لا تحمل البرقيات أخباراً سارة، لذا حدجَ مارشان بنظرة انشغال وقلق. بيد أن الزائر احتفظ بوجه منيع، لا يُفهم منه إن كان يعرف محتوى النص أم لا، رغم أنه من الطبيعي أن يكون قد قرأه في مكتبه.

بدوره، أغلق الشاب منافذ وجهه وحصّن انفعالاته ثم بسط الورقة وانغمس، أخيراً، في محتواها. ظهر عليه شحوب عابر كان هو الانفعال الوحيد والمحتشم، لكنه كان كافياً ليزعج الآنسة دوبري.

- هل ثمة شيء خطير؟

رفع كالوست عينيه نحوها، وقد شعر بشيء من الحنين تقريباً،

ثم خفضهما من جديد لينظر إلى البرقية. قلب الورقة وعرض النص على مُعلّمته الخاصة.

انتهى التعليم الفرنسي نقطة
اذهب حالاً لندن نقطة
حُدّد امتحان ولوج كلية كينجز نقطة والدُك

بعد قراءة هذه البرقية، أخفت الفرنسية ردّة فعلها ولم تُدْل بأي تعليق.

بنبرة المحترفين المشغولين جداً، أشار موسيو مارشان إلى زبونه أن يبدأ فوراً في ترتيب تحضيرات السفر، بما فيها اقتناء تذكرة باخرة متجهة إلى الجزر البريطانية، وبعد خمس دقائق، كان قد عاد إلى الشارع في طريقه إلى المكتب.

عندما بقيا على انفراد، خيّم صمتٌ على كالوست والآنسة دوبري.

- كل شيء بهذه السرعة - همهمت، فيما يشبه الشكوى - كنتُ أظن أنك ستبقى لوقت أطول هنا في مارسيليا...

- كانت تلك هي خطتي.

- إذاً، كيف يمكن تفسير هذا الأمر بالرحيل؟ لماذا لندن؟ ولماذا الآن؟

خفض الشاب الأرمني عينيه نحو البرقية التي كان ما يزال يحتفظ بها بين أصابعه، كأنه لا يعرف ما يفعل بها. أخذ نفساً عميقاً، حزيناً لأنه يعلم أن الحياة الجميلة على وشك أن تنتهي، ثم نظر أخيراً إلى معلمته الخاصة.

- لا بد أنهم أخبروه.

- أخبروه بماذا؟

أطلق تنهيدة أخرى، أكثر هدوءاً هذه المرة، كما لو أنه قد رضي بالأمر. حاول أن يرسم ابتسامة على وجهه، لكن كل ما بدا عليه كان تكشيرة استسلام.

- بدروسنا الليلية.

2

كانت الحالة السيئة للشقة الضيقة في الطابق الأول من شارع بيكر هو ما أعطى لكالوست دليلاً على مدى استياء والده من تصرفاته في مارسيليا. كانت الشقة مهترئة، أرضيتها مليئة بالثقوب ورائحةُ عفن تملأ أجواءها. ولم تكن ساكنة الجوار أحسن حالاً من الشقة. فقد التقى بجارته الجانبية فزكمت أنفه رائحة كريهة، ولا بد أن جسد المرأة لم ينعم بحمام منذ أسابيع أو شهور.

فوق المنضدة، قرب نافذة الغرفة، رأى الوافد الجديد رسالة. اقترب ولاحظ أن الظرف الموضوع فوق طبقة سميكة من الغبار كان يحمل اسمه مكتوباً بخط يد والده. هذه المرة، لم يحظ باستقبال من لدن ممثل البنك، بل بالكاد تلقى رسالة تتضمن بضع التعليمات. اتضح أن عليه أن يرتجل لنفسه حلولاً.

فتح الظرف وقرأ رسالة فاهان القصيرة التي يزوده فيها بتعليمات حول أين يمكنه أن يستلم حوالة الأموال الشهرية، وهو قدر كافٍ يضمن له حياة مريحة في لندن لكنه بعيد كل البعد من أن يسمح له بحياة باذخة، كما زوّده بعنوان شخصية وصفها بأنها «نجمة صاعدة في سماء السياسة والأعمال في إنجلترا» يمكن أن تُوجّهه وتكون دليله.

متبعاً تعليمات الرسالة، انتقل كالوست في الصباح الموالي إلى وايتهال، منطقة تضم المؤسسات الحكومية قرب مقر البرلمان. توجه إلى وزارة الخارجية وتقدم نحو مكتب الاستقبال.

- مستر فيليب بليك، من فضلك.

- هل لديك موعد؟

- أخبره أنني السيّد ساركيسيان من القسطنطينية.

أمروه أن يصعد إلى الطابق الأول وأن ينتظر في قاعة الانتظار. فوق طاولة، كانت هناك نسخ من جرائد بريطانية مثل *The Times*، *The Daily Telegraph*، بل ونسخ من مجلات *Punch* و*Westminster Review* و*The London Magazine*. تصفح الجرائد باهتمام فاتر. كانت الجرائد والمجلات تتناول مختلف قضايا الساعة، كما كان منتظَراً، لكن ما شد فضول الشاب هو النسخة الأولى من مجلة *Punch* الأسبوعية الهزلية التي تضمنت رسومات ساخرة للوزير الأول، السيّد وليام غلادستون المحترم. كان شيئاً لا يصدق كيف يتهكم الإنجليز من رئيس حكومتهم! شيء كهذا يستحيل أن يحدث في الإمبراطورية العثمانية! مع ذلك، ونظراً لما عاينه في العاصمة البريطانية، يبدو أن الانحطاط كان في القسطنطينية، وليس في لندن. . .

- مستر ساركيسيان - قال أحد الموظفين وهو يضع حداً لقراءته - السيّد الأمين المساعد مستعد لاستقبالك.

كان مكتب السيّد الأمين المساعد في وزارة الخارجية عبارة عن قاعة صغيرة مزينة بخشب الماهوجني الملمّع، بها مزهريات في كل الأركان وصورة كبيرة للملكة فيكتوريا خلف المكتب. رجلٌ أشقر يرتدي معطفاً طويلاً، ذو هيئة وقورة وحركات رسمية، استقبله

بمصافحة قوية، لكنها قصيرة، وابتسامة يغطيها شارب مُذهّب شُذّبت أطرافه بعناية. وبحركة سريعة أشار إلى الزائر أن يجلس على أريكة في ركن المكتب.

- أنا فيليب بليك - قدّم نفسه، وهو يتحدث بلكنة الطبقات العليا - حقاً، لي عظيم الشرف أن أستقبل ابن السيّد ساركيسيان المرموق!

- كل الشرف لي.

كان الشاب الأرمني قد حرص على أن يجمع مسبقاً معلومات حول بليك، وكان أول شيء أدهشه هو السن. كان مُخاطبُه في الثلاثين من عمره، رغم أن شكله يسمح بمنحه حوالي أربعين سنة. يمكن تفسير صعوده السابق لأوانه وشغل منصبٍ سامٍ بما لعائلته من علاقات جيدة، لكن أيضاً بطبيعة ذكائه الحاد، ونظره الثاقب لإجراء صفقات مربحة أو تشريح أكثر الأوضاع السياسية تعقيداً. فقد تلقى الأمين المساعد لوزارة الخارجية تكويناً متميزاً في أكسفورد وأصبح بالفعل نجماً صاعداً في وايتهال والسيتي، مركز المال والأعمال في لندن، حيث كان على رأس مكتب حيوي يضم عدة محامين. وسرعان ما أدرك كالوست أن هذه العلاقة ينبغي تنميتها والاعتناء بها.

- أخذتني حياتي المهنية إلى أماكن كثيرة من بينها القسطنطينية - قال بليك، وهو يداعب ساهياً شاربه الأشقر الجميل - ولقد حظيتُ حينئذ بشرف التعرف على والدك الذي تمكنت بفضله من القيام بصفقة مربحة عادت عليّ بنصيب جيد من الأموال. وراسلني والدك يخبرني بوصولك إلى لندن ويطلب مني أن أوجهك نحو تعليم يليق بشخص محترم، وهو ما يسعدني أن أقوم به في حدود ما تسمح

به إمكانياتي - ثم سلّم الضيفَ ظرفاً - لديك هنا رسالة توصية بخط يدي إلى السيّد عميد كلية كينجز، المؤسسة التي أعرف أنك تنوي أن تلتحق بها. فهل يكون من المبالغة في الفضول لو سألتك عن التخصص الذي تفكر في دراسته؟

- الهندسة. يرى والدي أن المستقبل سيكون للتكنولوجيا والآلات.

- رائع! - أجابه الإنجليزي بنبرة تقدير - اختيار سديد، فعلاً!

- ثم رفع حاجبه - أما زال والدك يمارس تجارة الكيروسين؟

- إنها تجارته الأساسية.

- أظن أن هذا الزيت المعدني سيشغل أحاديث الناس، أيها الفتى. أتعلم، هناك بعض المخترعين الذين بدأوا يطورون عربات لا تحتاج إلى خيول. يبدو أن الآلات هي التي تجرها.

- هل تتحدث عن العربات البخارية؟ هذه أصبحت معروفة. إنه نظام تريمبلي...

- إنني لا أتحدث عن البخار، يا عزيزي! أخشى أن يكون نظامُ تريمبلي قد أصبحت أيامُه معدودة. إنني أتحدث عن استعمال هذا الزيت المعدني كمصدر للطاقة. قبل سنتين، قدّم أحد الإيطاليين دراجة تشتغل بواسطة هذا الزيت. وأظهرت إمكانيات كبيرة - ثم انحنى نحو الأمام، في وضعية من يفشي سراً - وتلقت وزارةُ الخارجية أخباراً من مكتبنا في برلين تفيد بأن الألمان سوف ينتجون مستقبلاً عربة تشتغل بواسطة محرك احتراق داخلي، باستعمال أحد مشتقات الزيت المعدني.

- وهل يعمل هذا كما يجب؟

- نعم - ثم عدّل جلسته ورسم على وجهه تكشيرة مَن خطرت

عليه فكرة للتو - أقول لك، هل لديك استعداد لتستثمر أموالاً؟

ظل كالوست مرتبكاً لحظة أمام ما بدا له تحولاً مفاجئاً في وجهة الحديث؛ لم يفلح في إدراك قصد السؤال، الذي بدا له بعيداً عن الموضوع نوعاً ما. لكن، من يكون هو ليطرح عليه سؤالاً كهذا؟

- نعم. . . أظن ذلك. لماذا؟

- هل أنت مهتم باستثمار أموال في بورصة لندن؟

- هذا يتوقف على عدة أمور - أجابه باحتراز - أنا لست مقامراً. لشراء أسهم في البورصة ينبغي أن أتوفر على معلومات موثوقة بأن قيمتها ستزداد.

- إن المعلومات من اختصاص هذا القسم الذي أشرف عليه، أيها الفتى - أكّد بليك - أتعرف، هذه العربة التي يطورها الألمان تحمل توقيع المدعو هير بينز. إذا رأيتَ هذا الاسم في مزاد البورصة، أنصحُك باقتنائه.

انتبه الزائر إلى أنه تلقى نصيحة عملية وسارع إلى تدوين الاسم.

- صحيح؟ بينز، قلت؟

- نعم، بينز، بحرف الزاي - قال مدققاً - الكهرباء أيضاً لها مستقبل كبير. قبل ثلاث سنوات تمّ إنجازُ عرض تركنا مندهشين، فعلاً. وقد أصدرت حكومة صاحبة الجلالة مؤخراً قانوناً يسمح بخلق مقاولات في هذا المجال - ثم خفض صوته من جديد، في نبرة من يكشف عن سر - هنا، في المملكة المتحدة، ستتكفل شركة London Electric Supply Corporation بهذا القطاع - ثم غمز عينه - اشترِ أسهم هذه الشركة ما دامت رخيصة. لن تندم على ذلك.

دوّن كالوست هذا الاسم أيضاً.

- هل ثمة شيء آخر؟

انحنى الإنجليزي في مكانه وفتح جاروراً في طاولة قرب الأرائك، أخرج منه علبة سجائر. مدّ منها واحداً إلى الضيف الذي رفضها.

- حسناً - قال بليك، وهو يخرج سيجاراً من العلبة - كما لا بد أنك تخمن، وضعيتي داخل الحكومة تسمح لي بالحصول على معلومات خاصة، مفيدة جداً لمن يستثمر أمواله في البورصة - ومرّر السيجار تحت أنفه ليشم رائحة التبغ - امتناناً لما قدمه لي والدك من مساعدة في أعمالي، سأكون سعيداً بأن أتقاسم معك شيئاً من هذه المعلومات. وهل تفهم، نظراً لطبيعة وظيفتي، عليك أن تكون كتوماً. . .

- هذا أكيد!

- بالإضافة إلى هذا، أنتظر عُمولة بنسبة عشرة في المائة من الأرباح - أضاف وهو يضع السيجار في فمه ويشعله - أما في حالة ما لم ينجح أي استثمار فإنك تتحمل كل الخسائر، طبعاً - قطب جبينه وحدّق في مُخاطَبه - أتمنى ألا ترى أي إزعاج في هذا الأمر.

- طبعاً، لا. يبدو هذا منطقياً تماماً.

أطلق المُستضيفُ أول سحابة دخان وكان يستعد ليقوم ببعض الاقتراحات عندما بدأ جرس يرن داخل المكتب. نظر كالوست نحو الجهة التي يأتي منها الصوت فرأى أنها علبه خشبية فوق مكتب بليك. استسمحه الإنجليزي، نهض وأخذ المقبضَين، وضع أحدهما على أذنه والآخر أمام فمه.

- أهلاً - صاح - إنه أنا! - صمتٌ - من معي؟ آه، حسناً! كيف حالك، صديقي؟ - صمتٌ آخر - ماذا؟ الآن؟ لكن. . . - صمتٌ آخر - حسناً، أنا قادم! إلى اللقاء!

أعاد الأمين المساعد في وزارة الخارجية المقبضَين إلى العلبة الخشبية، ثم نظر إلى ضيفه ففاجأته الدهشة المطلقة على محياه.

- هل تتحدث مع علبة خشبية، يا سيّدي؟

ضحك بليك.

- إنه هاتف - قال - آلة تنقل الصوت لمسافات بعيدة. اختُرعت في أمريكا وقد وضعنا بضع أجهزة منها هنا في وايتهال. إنه التقدم، أيها الفتى!

لم يبدُ الأرمني مقتنعاً تماماً.

- هل تقصد أن أحداً ما كان يسمعك؟

- بكل تأكيد، يا عزيزي! في هذه الحالة، كان محاوري في رقم 10. دعا الوزير الأول إلى اجتماع، وكاتبُه هو من أخبرني. أخشى أن تكون هذه هي نقطة نهاية حديثنا.

لكن الاختراع كان مدهشاً، وظلت عينا كالوست ملتصقتين بالعلبة الخشبية، كما لو أنه وجد صعوبة ليصدق بل وارتاب من أن يكون ضحية مزحة متقنة.

- كيف قلت اسم هذا... الجهاز؟

- هاتف - كرر بليك - انظر، إنه استثمار آخر جيد. إن المستجدات تتكاثر في هذا القرن العجيب وسوف تغير العالم الذي نعرفه. لو كنتُ مكانك، لاقتنيتُ كل أسهم شركة The Edison Telephone Company of London. ثم أشار إلى العلبة - هذه العجائب سوف تتكاثر كالفطر وثمة مال كثير للربح لمن يعرف أين يستثمر.

في الحقيقة، المعرفةُ هي القوّةُ، فكّر كالوست وهو يدوّن هذا

الاقتراح الأخير. انقضى الوقت ونهض الشاب الأرمني بدوره ثم توجه نحو محاوره ليودعه.

- شكراً جزيلاً على عنايتك - قال وهو يستعد ليمدّ يدهُ - لا أعرف كيف أشكرك على لطفك. . .

- لا شكر على واجب - ردّ بليك، منشغلاً بجمع الوثائق التي يحتاجها للاجتماع - كما قلتُ، أنا مدين لوالدك بفضله عليّ. بالإضافة إلى هذا، أشعر بتعاطف مع الأرمن وقد أثرتُ انتباه الوزير الأول غلادستون إلى وضعية الأقليات المسيحية في الإمبراطورية العثمانية، لذا تربطنا علاقات جيدة مع جاليتكم. من جهة أخرى، غداً بالضبط سوف ألتقي بأغنى شخص من بين كل أرمن القسطنطينية، السيّد أوهانس بيربيريان، لأتحدث معه عما نستطيع القيام به من أجلكم.

بدا الاسم مألوفاً للزائر.

- أوهانس بيربيريان؟ هل هو هنا؟

- نعم، جاء أوهانس بيربيريان إلى إنجلترا ليرافق ابنته التي قدمت لاستكمال تعليمها في أرض صاحبة الجلالة. أظن أن الرجل يشعر أنه وحيد وحزين. لا يتكلم الإنجليزية ولا الفرنسية. وبما أنني أعرف شيئاً من التركية، فإنني أتحدث معه قليلاً - ثم توقف عن جمع الوثائق ونظر إلى الضيف - حسناً، هل تريد عنوانه؟

كان كالوست قد التقى بأسرة بيربيريان في القسطنطينية. كان الرجل مصرفياً ويملك سفناً. تعرّف الشاب على آل بيربيريان ذات مأدبة نظمتها أسرة ساركيسيان في منزلهم بحي سكوتاري، بل إن أحد أبناء عم أوهانس كان زميلاً له في مدرسة روبيرت. أما البنت

التي ذكرها بليك، إن كانت ذاكرته تسعفه، فلم تكن تتجاوز العاشرة حين غادر هو نحو فرنسا، في السنة الماضية، لكن هذا لا يمنع من أن تكون أحسن شريكة يبتغيها الأرمن العزاب في الإمبراطورية العثمانية. يمكن لطابور طالبي ودّ وريثة آل بيربيريان أن يملأ البازار الكبير، لكن. . .

الفكرةُ، التي ربما بدأت تكبر في صمت منذ أن سمع حديث والديه في سكوتاري، أينعت فجأة في ذهن الشاب. هل جاءت الفتاة لتتابع دراستها في لندن؟ هذا يعني أنها الآن بعيدة عن كل أولئك الراغبين في الزواج منها. ومن يكون الشاب الأرمني الوحيد القريب منها؟ هو نفسه، كالوست.

- حسناً، أعطني العنوان.

فتح الإنجليزي جاروراً في مكتبه، وسحب منه أجندة ثم تصفح لائحة العناوين.

- هايد بارك تيراس، رقم 11 - قال - هذا البيت يقع في بايسواتر، أيها الفتى.

دون أن يضيع وقتاً، سجل كالوست العنوان في مفكرته، وارتسمت ابتسامة ماكرة على محياه وهو يغادر.

- أنا قادر، فعلاً، على أن أزورهم.

وتجسدت الخُطة بعد أن تسجل كالوست في قسم الهندسة بكلية كينجز. وحتى يوفر لنفسه سبل النجاح فيما عزم عليه، كان الشاب الأرمني يعرف أنه بحاجة لتغيير بعض الأشياء في حياته. أولاً، عليه أن يعلّق إلى حين هوسهُ بالأشياء الجميلة؛ قد يتفرغ لاحقاً إلى الجماليات، طبعاً، لكن عليه أولاً أن يؤكد ذاته في هذا العالم.

ثانياً، لا يمكنه أن يبقى في تلك الشقة الفظيعة التي عاقبه والده بالإقامة فيها في شارع بيكر. وضع على رأس قائمة أولوياته ضرورة العثور على إقامة في منطقة سكنية ترقى إلى طموحاته.

قام بجولة في هايد بارك تيراس، وهو من أرقى الأحياء السكنية في لندن، وراح يبحث عن سكن. وجد شقة أنيقة في شارع كرومويل بحي كينسنغتون، في الجهة الأخرى من هايد بارك. استأجرها على الفور رغم ثمن الكراء الباهظ، الذي اعتبره مجرد استثمار. ذلك أنه، بعبور هايد بارك في خط مستقيم، كانت شقة كينسنغتون تقع بالقرب من إقامة آل بيربيريان، مما كان مناسباً ويحل له مشكلتين في الوقت ذاته. فمن جهة، كان كالوست يبدو مقيماً في سكن محترم، وهو ما كان يراه شيئاً مهماً لإعطاء هالة من الاحترام واليُسر. ومن جهة أخرى، كان يمهد للظروف المواتية لخلق إمكانية لقاء «عرضي» مع من يستهدفها.

وكانت الخطوة الثانية التي قام بها أنه ذهب إلى البورصة وأمر باقتناء أسهم من شركتَي London Electric Supply Corporation وThe Edison Telephone Company of London المحدثتَين مؤخراً. اقتناها بثمن جيد، ما دامت المقاولتان جديدتين ومعظم المستثمرين لم يكونوا واثقين من أن ذلك النوع من الأعمال يُشكّلُ رهانات مضمونة النتائج. كانت المستجدات التكنولوجية تتناسل في قرن يعج بعجائب لا نظير لها، ومن يستطيع أن يضمن أن الكهرباء والهاتف لم يكونا سوى موضة سيطويها النسيان مع مرور الوقت؟ ألم تكن وتيرة التقدم تُعجل بمستجدات الحاضر الغريبة وتُحوّلها إلى تحف منتهية الصلاحية في المستقبل؟

تصرف في اقتناء أسهم البورصة وفي اكتراء الشقة بنفس التكتم

الذي طبع ما كان يبعثه من رسائل متباعدة في الزمن إلى الآنسة دوبري. ليس لأن الشاب كان يشعر بإحساس عميق تجاه مُعلّمته السابقة، بل اقتناعاً منه بمزايا الحفاظ على الاتصال بأشخاص كان يعتبر أنه من الممكن أن يستفيد منهم من جديد. تبادلا الرسائل من حين لآخر، وهكذا علم الشاب أن الأستاذة الفرنسية، المتخصصة في شتى أنواع الألسن وأشكال أخرى من فنون الحياة، قد حققت حلمها والتحقت بالكلية لتدْرُس الأدبَ في جامعة السوربون.

في ذلك الصباح، استيقظ كالوست باكراً. تعطّر وارتدى معطفاً طويلاً، اقتناه من محل سافيل روْ، وضع قبعة سوداء على رأسه، أخذ العصا بيديه في القفازين ثم خرج إلى الشارع. قطع بضع مئات من الأمتار واختبأ قرب عمود إنارة بالغاز، يستمتع برؤية خاصة على المنزل الواقع في رقم 11 من حي هايد بارك تيراس.

كان الشاب يعتبر أن كل الشروط الضرورية قد أصبحت متوفرة لتنفيذ تلك الخطة التي وضعها بكل دقة وتفصيل. لم يعد بحاجة سوى للقيام بالخطوة الموالية. وفقاً لما خطط له، ظل لأكثر من ساعة مستنداً إلى عمود الإنارة ينتظر حدوث أي مستجد. في لحظة ما، وكما كان سيقع حتماً، عاجلاً أم آجلاً، انفتح باب المنزل ولمح كالوست الجسد الضخم لأوهانس بيربيريان العظيم. حان وقت المرور إلى الفعل.

وهو يرقب هدفه بطرف العين، مشى الشاب بخطىً واثقة عبر الشارع قرب رقم 11 بإيقاع سمح له بالمرور أمام الباب في نفس اللحظة التي كان فيها البنكي الكبير يقطع الشارع ويستعد ليصعد إلى عربته.

- سيّد بيربيريان؟! - صاح باللغة الأرمنية، بعبارة اندهاش، كما لو أن كل شيء كان صدفة سعيدة - هل أنت هنا في لندن؟

وهو يسمع أحداً يتكلم لغته، توقف البنكي قبل أن يصعد إلى العربة. استدار برأسه ونظر إلى الخلف بعبارة سؤال.

- من يشرفني أن. . .؟

- كالوست ساركيسيان - قدّم الشاب نفسه، وهو يخلع القبعة السوداء ويمدُّ يده - أنا ابن فاهان ساركيسيان، لست أدري إن كنت تذكرني. لقد كنتَ في بيتنا، يا سيّدي، في سكوتاري، و. . .

لمعت شرارة تعرُّف في عين الرجل، بوجهه الكثيف وعنقه السمين.

- آه، نعم! فاهان! أنت ابنه؟

تصافحا. لمس المصرفيُّ يده بحذر، وشد الشاب على يده بحماس.

- نعم، أنا هو. ويبدو أننا جيران! - وأشار إلى الجهة الأخرى من الحديقة - إنني أسكن في شقة هناك في الخلف وأنا الآن متوجه إلى السيتي، مدينة المال والأعمال، حيث أقوم ببعض الاستثمارات المربحة جداً، عندما رأيتك أمامي - ثم وضع يديه على خصره وتنهد بارتياح - العالم صغير، أليس كذلك؟ من يقول إننا سنلتقي في لندن ونسكن الواحد قرب الآخر؟

ابتسم أوهانس، مستعرضاً أسنانه الذهبية الجميلة.

- آه، حقاً! - وافق، بمزيد من الاقتناع - وماذا تفعل هنا؟ هل لديك استثمارات في البورصة؟

- طبعاً - قال الشاب بشكل طبيعي كمن لم يفعل سوى ذلك طوال حياته - أتوفر على معلومات خاصة جداً وأعوّل على ربح مالٍ

كثيرٍ من الأسهم التي أقوم بشرائها - ثم أخذ نفَساً عميقاً، وارتسمت على وجهه عبارة حزن مفاجئ - المشكلة أنني أشعر بوحدة كبيرة. أنت تعرف ذلك، أنا هنا لوحدي في لندن، لا أعرف مواطنين هنا ويشدني الحنين للحديث بلغتنا الأرمنية الجميلة...

كانت لتلك الكلمات وقعُ الموسيقى في مسامع أوهانس، الذي شعر أنه قد وجد توأماً لروحه.

- آه، أعرف جيداً عما تتحدثُ! إنني أشتكي من نفس الأمر!

- شيء فظيع! - قال الشاب بشفقة - لدي حنين قوي لمعاشرة أهل أرضنا و... - ثم سكت فجأة، متظاهراً أنه قد خطرت على باله فكرة - وماذا لو زرتك في يوم من الأيام؟ أتظنُّ أنه لن يكون ذلك مزعجاً؟

وافق المصرفيُّ بحماس.

- مزعج؟ أظن أنها فكرة رائعة جداً! - ثم ألقى نظرة على منزله - ستقوم فيرجيني بتنظيم حفل استقبال يوم السبت، حوالي الساعة الخامسة مساء - ثم وضع يده البدينة قرب فمه، كما لو أنه يتحدث مع نفسه - إنه لشيء فظيع، أتعرف ذلك؟ الجميع يتحدثون بالإنجليزية وأنا لا أفهم كلمة واحدة! لماذا لا تأتي أنت أيضاً؟

كان ذلك هو كل ما كان كالوست يودّ سماعه. وخوفاً من أن يعيد محاورُه النظر في فكرته أو أن يغير رأيه، مدّ على الفور ذراعه وصافحه.

- اتفقنا.

جمع حفل الاستقبال الذي نظمه آل بيريبيريان حفنة من أرقى الشخصيات في المدينة. عندما دخل كالوست إلى الإقامة، في ذلك

السبت، وجد صالة كبيرة تعج بأشخاص يتحدثون وكؤوس الشامبانيا والمقبلات المتنوعة في أياديهم. كانوا دبلوماسيين، مصرفيين، مقاولين، سياسيين وحتى بعض الفنانين. كانت مجموعة صغيرة تحيط بنجم برز في آخر عمل فني ناجح في مسرح ويست إند، أثار دخوله إعجاباً كبيراً في الصالة وكان لحظتها مركز كل اهتمام.

عثر الضيف الشاب على أوهانس جالساً على أريكة في ركن من الصالة بوجه اجتمع فيه الضجر والخجل. لمعت عينا المصرفي وتهلل وجهه بابتسامة ارتياح وهو يتعرف مُواطنه.

- آه، ساركيسيان! - صاح، كأنه غريق رأى قارب نجاة يدنو منه وسط أمواج عاتية - حسناً فعلتَ لأنك جئت!

- وهل كان بوسعي أن أغيب عن هذا الحدث الكبير! - ردّ كالوست وهو يلقي نظرة خاطفة على حشد الناس الذين يتزاحمون في الصالة - يا إلهي، لقد حضروا كلهم!

- فعلاً - وافق مستضيفُه - المشكلة أنني لا أفهمهم. آه، إنه لأمر فظيع!

جلس الزائر إلى جانب أوهانس وراح يتحدث معه. تحدثا عن الحياة في لندن، عن الكهرباء والهاتف، عن مستقبل هذين الاختراعين العجيبين، وعن القسطنطينية، والمصرفيُّ يشاطره آخر الدسائس التي تورط فيها السلطان والصدر الأعظم. ومن حين لآخر، كان يأتي ضيف من الضيوف ليحيي صاحب الدعوة فيتطوع لحظتها كالوست ليقوم بدور المترجم. وكم كان محظوظاً، لاحظ. لا يمكن أبداً في القسطنطينية أن يُلفت شابٌّ مثله انتباه شخص نافذ وقصيّ مثل أوهانس بيربيريان، أغنى رجل أرمني في البلد. لكن، هناك، في عزلة لندن اللغوية، كان المليونير يبحث يائساً عن كتف

صديق يستند إليها، أحد يتكلم لغته ويحدثه عن أشياء تهمه. كانت فرصة من ذهب.

- آه، لا أعرف ماذا كنت سأصير لو لا مساعدتك! - صاح المستضيفُ عندما ابتعد أحد الضيوف. ثم وضع يده على كتف الشاب، تعبيراً عن التقدير - سوف أقول لفاهان إن له ابناً رائعاً!

خفض كالوست عينيه تواضعاً.

- أوه، هذا لا شيء - قال. ثم نظر من حوله كأنه يبحث عن شيء ما - أنا متأكد أن أسرتك تقدم لك دعماً كبيراً في هذه المناسبات...

- من؟ فيرجيني؟ إنها منشغلة جداً بالضيوف، المسكينة. مع كل هؤلاء الناس الذين ينبغي أن تتحدث معهم، لا تجد وقتاً لتهتم بي...

بدأ الشاب الأرمني يُعبّد الطريق، يوجه الحديث نحو ما يهمه. شعر أنه قد حان الوقت ليميل بذكاء نحو هدفه النهائي.

- السيّدة بيربيريان... هل هي الفرد الوحيد من أفراد أسرتك في لندن؟ - سأله بنبرة عادية - أليس لديك من قريب آخر هنا؟

- هناك ابنتي، بالطبع.

فتح كالوست عينين جاحظتين وتظاهر بالدهشة.

- ماذا؟ ابنتك هنا؟

- نعم، إنها هنا. وبسببها جئنا هنا إلى لندن. أتعرف، لقد جاءت نونوفار لتكمل دراستها وقالت لي فيرجيني إنها ستبقى لتعتني بها ولا تستطيع أن تظل بعيدة عنها لوقت طويل. والحال أن نونوفار لم تتجاوز الحادية عشر من عمرها. إنها ما تزال طفلة. هكذا جمعنا حقائبنا هناك وجئنا معاً لنرافق الطفلة - ثم علت وجهه تكشيرة

إحباط - لا يمرُّ يوم لا أحلم فيه بالعودة إلى القسطنطينية، أعترف بذلك، لكن الواجبات الأسرية تفرض نفسها.

بدا الزائر شارداً في التفكير، كما لو أنه يقلّب أرشيف ذكرياته.

- غريب، يبدو أنني لم أر ابنتك قط.

- هذا أمر يمكن أن نعالجه حالاً - ردّ عليه أوهانس بسرعة. ثم رفع يده وأشار إلى خادم دنا منه على الفور - سيماغ، اذهب وابحث عن الطفلة نونوفار!

وافق الخادم واختفى وسط الحشد. بعد دقيقتين، عاد سيماغ رفقة فتاة نحيفة.

- هل ناديت عليّ، سيّدي؟ - سألتْ بصوت طفولي.

- أريد أن أقدم لك السيّد كالوست ساركيسيان - قال والدُها - هذه هي ابنتي نونوفار، ملاكٌ من السماء وكنزُ عينيّ.

أمسكت الطفلة تنورتها وقامت بحركة انحناء قصيرة. كان لها جسد هش تحت فستان أبيض مطرز الأطراف، مما يعطيها شكل ملاك، وشعرها الأسود الناعم ينسدل على كتفيها. ورغم أنها في بداية المراهقة، ولم يكن جمالها قد صار حقيقياً، كان واضحاً أنها تتمتع بحضور جميل.

- أهلاً، نونوفار - حياها كالوست، مسروراً بشكل واضح - إنك طفلة جميلة جداً.

- شكراً، سيّدي.

- هل تحبين لندن؟

- نعم، سيّدي.

لم تكن كثيرة الكلام، ولا أحد ينتظر منها أن تكون كذلك.

كان يُشترط في المرأة الحياء والعفة، وخصوصاً إذا تعلق الأمر بفتاة صغيرة. لذا، ما إن تم التقديم حتى لوّح لها أوهانس بإشارة من يده كي تنصرف.

- هنيئاً، سيّد بيربيريان - قال كالوست عندما ابتعدت الفتاة - لديك ابنة جميلة حقاً.

- إنها لطيفة، أليس كذلك؟ لا يمكن أن تتصور عدد الطلبات التي أتوصل بها كي أزوّجها - ثم حرّك يده - أعداد كثيرة!

- أتصور ذلك. لا غرو، إنها جميلة جداً!

- لكن كثيراً من هذه الطلبات جاءت من أشخاص لم يروها حتى. أتعرف ماذا أقول لها؟ إنهم يريدون مالي، هذه هي الحقيقة! كلهم سواسية!

فتح الزائر فاه ورسم تعبير استغراب على وجهه.

- آه، لا أصدق!

- كن متأكداً من ذلك! - ثم بدت على وجه المصرفي فجأة ابتسامة ماكرة - لكن حظهم سيِّئ. فابنتي نونوفار مخطوبة. سوف تتزوج من ابن عمّ بعيد.

لم يكن ذلك شيئاً جديداً، لذا لم يندهش كالوست للأمر. في تلك اللحظة، فكر في أحسن طريقة للتصرف. فقد حصل للتو على شيء من ثقة أوهانس، لكن ما زالت أمامه طريق طويلة ليقطعها ولم ير أنه من المناسب أن يفصح عن هدفه الحقيقي في مرحلة مبكرة جداً، خصوصاً أن هناك ارتياباً كبيراً من النوايا الحقيقية للخُطاب. عليه أن يكون محترزاً ولا يستعمل أوراقه إلا في اللحظة الحاسمة، عندما يتوفر على كل الأوراق الرابحة في يده.

- آه، كم سيكون هؤلاء الطمّاعون غاضبين! - صاح بغضب مفتعل - لقد تصرفْتَ بشكل بارع، يا سيّدي!

- تصرف بارع، أليس كذلك؟

- و... ابن العم هذا؟ إنه شخص يتمتع بوضعية جيدة، أظنُّ.

- أكيد. تربطنا بأسرته قرابة بعيدة، لكنهم أناس ثقة. وطبعاً، هذه طريقة ليبقى كل شيء داخل العائلة.

- أنا واثق أنه اختيار جيد - قال متردداً - لكن، تصور، أنه لما يحين الوقت ترفض ابنتك الزواج من ابن العم...

علت تكشيرةٌ وجهَ أوهانس.

- أوه! إنها لا يمكن أن تعترض على ذلك.

- حسنا. إنها ما تزال صغيرة جداً. حين يأتي وقت الزواج ربما قد تفكر بطريقة مختلفة، أنت تعرف كيف هن النساء. أو تصور أنه قد يظهر مرشح أحسن. ماذا ستفعل في هذه الحالة؟

قطب المستضيف حاجبَيه، دون أن يرى القصد من كلام مُحاوره.

- مرشح أحسن؟ من يكون؟

- إنني أطرح فرضية فقط - سارع كالوست ليوضح - لا أظن أن هناك شخصاً آخر يتمتع بوضعية أحسن، افهمني، لكن تصوّر، هذا مجرد احتمال أطرحه كي أغني هذا التبادل الجميل للانطباعات، تصوّر، قلتُ، أن يظهر هذا الشخص أو أن ابنتك تضع حواجز لا يستطيع ابن العم تجاوزها. ما الذي ستفعله في حالة كهذه؟

- حسناً، في هذ الحالة، ينبغي أن أنظر إلى الأمر بكل عناية. والحقيقة أنه لا يوجد أي شيء موقّع، أليس كذلك؟ لقد تلقى ابن العم وعداً لا غير.

استقبل كالوست هذه المعلومة بجرعة محتشمة من الشامبانيا. وهو يحتفظ في شبكية عينه بصورة الطفلة ذات الأحد عشر ربيعاً التي تعرّف عليها قبل حين، وضع الكأس، جال بعينيه عبر الحشد كأنه يريد أن يجس نبض نجاح حفل الاستقبال ثم ابتسم، أخيراً، في وجه مستضيفه.

- هذه مجرد فرضية أكاديمية، طبعاً.

3

أسرعت الفتاة الخطى، تمشي مُتعرّجة وسط الحشد كي تتجاوز المارّة الذين يعيقون سيرها. كانت تحمل كيساً كبيراً من الثوب وتمشي مركزة على مهمتها، غير عابئة بالجسد الذي يتعقبها عن قرب منذ أن غادرت الشارع. توقفت الفتاة عند قارعة الطريق، أجبرها صوت حوافر الخيل على أن تنظر في الاتجاهين، كانت عربة تقترب من جهة اليمين ويتقدم فارسان من جهة اليسار. تركتهم يمرون، قامت بقفزات قصيرة فوق الأرضية الموحلة، وعبرت هايماركت.

لم يفارقها الجسد؛ كان يتصرف مثل ظل خفي، وقطع الطريق بدوره. عندما وصل إلى الجهة الأخرى، أسرع الخطى قليلاً واعترض الفتاة قرب فتى الجرائد الذي كان يزعق كي يشتري منه الناس نسخاً من *The Illustrated London News* أو *The Daily Telegraph*.

- من فضلك!

اندهشت وهي تسمع أحداً يناديها باللغة الأرمنية، فنظرت إلى الخلف لترى شاباً قصيراً، بشعر أسود وملابس أنيقة.

- نعم؟

- اسمي كالوست ساركيسيان - قدّم الغريب نفسه - كنتُ حاضراً في حفل الاستقبال الذي نظمه السيّد بيربيريان في الأسبوع الماضي. لست أدري إن كنت تذكرينني...

حركت الفتاة رأسها.

- أستسمحك، سيّدي. كان هناك كثير من الناس...

- صحيح - وافق - هل لديك دقيقة؟

ألقت الفتاة نظرة على السوق، في الزاوية أمامها، وأظهرت كيس الثوب الذي تمسكها بيدها.

- عليّ أن أذهب للتسوق، يا سيّدي - قالت متعذرة - وينبغي أن أعود إلى البيت بعد ساعة من الآن...

رأت قطعة نقدية بها تاج فتوقفت عن الكلام. مدركاً أنه قد استرعى انتباهها بفضل تلك القطعة التاجية عند طرف أصابعه، أشار إليها كالوست بحركة من رأسه أن ترافقه.

- هذ القطعة ستكون لك إن رافقتني لمدة عشر دقائق هناك في تلك الحانة.

دون تردد، مشت الفتاة وراء الرجل الذي استوقفها ودخلا معاً إلى محل اسمه «كينغ إيديز»، مكان مظلم يشغله رجال متكئون على منضدة الشرب. التجآ إلى طاولة في الحانة، قرب النافذة، وأمر كالوست بإحضار جُعّتين وكعكة. كانت ضيفتُه تُسمّر بخجل عينيها على الأرضية وتبدو غير مرتاحة. من الواضح أنها تعودت على خدمة الغير، وليس على أن تتلقى الخدمة. هذا أحسن، فكر الشاب وهو يعد المفكرة والقلم ليدون الملاحظات. أكيد أنه كلما كانت متواضعة، كلما كان من السهل تسخيرها.

- حسب ما أعرف - بدأ قائلاً - اسمك ديرهوي وأنت هي الخادمة الخاصة لابنة السيّد أوهانس بيربيريان. هل هذا صحيح؟

- نعم، سيّدي - أكدت - أشتغل، بالفعل، خادمة في منزل السيّد بيربيريان.

- وهل ترافقين يومياً الفتاة نونوفار؟

سكتت ديرهوي وحدقت إليه بتعبير مرتاب، مستعدة لتخرج من هناك في أي لحظة.

- لماذا تريد أن تعرف؟

عدّل الشاب جلسته في مكانه. كان يظن أنه لا ينبغي أن يقدم لها تفسيراً، لكن، إن أرادا أن يضمن تعاون خادمة عائلة بيربيريان، من الواضح أنها كانت بحاجة لتعرف على الأقل الغرض من كل ذلك. ولقد استوقفها غريب، في نهاية المطاف.

- لنقُل إنني أرغب في طلب يد الفتاة نونوفار - قال الشاب - كما أنني واثق جداً أنك تعرفين أن لائحة المرشحين طويلة، مما يعني أنه يتعين عليّ أن أكتشف الطريقة الصحيحة كي أصل إلى قلب. . . من أحبُّها - ثم وضع، لحظتها، القطعة التاجية فوق الطاولة، حتى يكون التأثير أكبر - هذه القطعة لك إن أنت زودتني بالمعلومات التي يمكن أن تفيدني لتحقيق ما أفكر فيه من أهداف.

لان وجهُ الخادمة قليلاً، لكن بعض آثار الدهشة كانت ما تزال بادية عليه.

- أي معلومات تريد، يا سيّدي؟

- أريد أن أعرف ذوق الفتاة نونوفار - قال - ما تفضله من عطور، وأزهار، وأكل، وملابس. . . على أي، كل ما يهم لكسب قلبها.

نزلت عينا ديرهوي بطمع على القطعة التاجية التي تبتسم لها فوق طاولة الحانة. كانت تمثل مالاً كثيراً! فقطعة تاجية تساوي خمس شلنات وتعادل ربع ليرة. كانت مكافأة جميلة مقابل بضع دقائق من الحديث. فما الذي قد تخسره؟

- إن حكيت لك، ستعطيني هذه القطعة؟

- بكل تأكيد.

لم يبدُ الطلبُ للخادمة صعبَ التحقيق، وبعد تفكير قصير وتجاوز ما اعتراها من خجل، استنتجت أنه لن يضر العالم في شيء إن اقتسمت بعض المعلومات مع الغير. ما العيب في القيام بذلك؟ في نهاية المطاف، كانت فقط تساعد في ميلاد حب كبير، أليس كذلك؟ إنها قضية جميلة. وفوق هذا، إن فازت بقطعة تاجية، فمن سيلومها على ذلك؟ حياة الخادمات كانت صعبة في تلك الأيام...

- الفتاة نونوفار تحب كل أنواع الورود - قالت في الأخير، وهي تفتح سداً من المعلومات القيمة - كما تحب الأزهار، والعطور، والأثواب، والألوان... وتعشق كل ما يفوح منه عطر الورود وكل ما رُسمت عليه وردة أو كان بلون الورد.

سجل كالوست تلك المعلومة بخربشة سريعة.

- همممم - همهم وهو يخربش - وماذا تحب من الطعام؟ إنها لا تأكل الورود، أعتقد...

ردت عليه ديرهوي بضحكة متوترة.

- طبعاً، لا. عند الفطور، دائماً تطلب فاصوليا مطبوخة مع سجق، وهو ما يثير حنق السيّدة فيرجيني بعض الشيء. غير ذلك، تعجبها الأطباق الأرمنية. وخاصة السجق والكفتة. بيد أن ما تعشقه فوق كل هذا هو الشوكولاته.

علت تكشيرة وجه مُخاطَبِها؛ لم يكن يعرف تلك الكلمة.

- كيف قلت؟

- الشوكولاته - كررت، وهي تتهجّى تقريباً حتى يتمكن من تدوين الكلمة بشكل صحيح - إنها عبارة عن شراب ظهر مؤخراً. تحاول الأم أن تمنعها من أن تتناول منه كثيراً، مما يثير استياءها. قبل أيام، عبست وأغلقت على نفسها في الغرفة لأن السيّدة فيرجيني منعتها من شرب كأس شوكولاته أثناء وجبة الغداء. أوه، يا لها من مسرحية!

- شوكولاته، أليس كذاك؟ وهل تحب نوعاً خاصاً منها؟

- إنها تشرب نوعاً يسمى «سير هانز سلون ميلك شوكولاته» كل صباح. لكن، إن قدموا لها ذلك في المساء، لا تقول لا...

وكباقي الأمور الأخرى، دوّن تلك المعلومة كما يجب في المفكرة.

- وماذا عن الملابس؟ أين تقتنيها؟

- من أرقى محل في لندن، بطبيعة الحال. محل هارودز، هناك في نايتسبريدج. الحريق الذي شب هناك في السنة الماضية أفسد الزيارات، لكن في انتظار نهاية أشغال بناء المحلات الجديدة وجد مُسيّر محل هارودز طريقة لتوصيل الملابس إلى المنازل لقياسها، وهو ما تبين أنه أكثر من مناسب.

ولم يتوقف القلم عن التدوين.

- يا إلهي، لقد تأخرتُ!

كان التقرير شاملاً ولم ينته إلا بعد نصف ساعة من الحديث. عندما انتبهت إلى ما أهدرته من وقت هناك، قفزت ديرهوي فجأة من

فوق الكرسي ونهضت، مرعوبة تقريباً من التأخير. أخذت القطعة النقدية وغادرت الحانة على عجل. ترك كالوست قطعة تاجية لأداء ثمن الجُعتين والكعكة وتبعها. لحق بها عند زاوية الشارع حيث فتى الجرائد ورافقها يمشيان بخطىً سريعة نحو السوق.

- فقط أودّ أن أطلب منك شيئاً بسيطاً.

- ليس الآن، سيّد ساركيسيان! - كان وجه الخادمة يعكس ما تشعر به بعد أن فقدت الإحساس بالوقت - يا له من أمر فظيع! يمكن أن تسرحني السيّدة إن وصلتُ متأخرة! ليكن الرّب في عوني، عليّ أن أسرع!

في تلك المرحلة، كان الشاب يعرف جيداً ما يثير انتباهها، لذا أخرج من جيبه قطعة نقدية من فئة شلن واحد وعرضها أمام خادمة آل بيربيريان.

- أعطيك شلناً كل أسبوع إن أنت أسديت لي خدمة صغيرة.

استوقفت صورةُ الشلن ديرهوي، كما لو أن القطعة النقدية الصغيرة تُخضعها لإرادتها. فترددت بين الجري نحو السوق والاستسلام للغواية. وانتصرت الغواية.

- أي خدمة؟

- نلتقي معاً كل يوم جمعة قرب ويلينغتون آرتش، في هايد بارك - قال - سوف أسلمك هدايا بسيطة ستحملينها إلى الفتاة نونوفار. وتنالين مقابل ذلك شلناً كل أسبوع.

- حسناً - قالت موافقة - يمكنك أن تعول عليّ.

ثم استأنفت الشابة سيرها، لكن كالوست أمسكها من كتفها وأوقفها من جديد.

- كما أود أن تتحدث عني للفتاة نونوفار. قولي لها أشياء لطيفة عني، طبعاً.

- لطيفة، مثل ماذا؟

شعر الشاب بالخجل؛ واعتراه شيء من الحرج لأنه عرض نفسه بتلك الطريقة، لكن عليه أن يقوم بذلك إن كان يريد بلوغ أهدافه.

- حسناً، قولي لها... أنك تجدينني وسيماً، مثلاً - ثم احمرّ أكثر من السابق، مرتبكاً من الصورة التي كان يقدمها عن نفسه - قولي لها إنني سخي ورجل محترم... على أي، كل هذه الأشياء التي تحب النساء سماعها. صوّريني مثل رجل أنيق من ويست إند.

- وماذا أجني من كل هذا؟

لقد تعلمت ديرهوي كيف تمارس هذه اللعبة، أدرك الشاب الأرمني بكل سرور. هذا أفضل! فكر. هكذا سيكون تنفيذ خطته أمراً أكثر سهولة.

- مقابل الحديث بخير عني؟ لا شيء - ثم لزم صمتاً، موحياً بأنه لم يقل بعد كل شيء - لكن من مصلحتك أن تقنعيها بأنني أنا هو الشخص المناسب لها.

- لماذا؟

- لأنه لو تزوجتها، فستحصلين على مكافأة جميلة.

أخرج قطعة نقدية من جيبه، وهو يعرف أنه يلعب آخر ورقة رابحة من أوراقه. عشر ليرات.

لمع الذهب الخالص في ضوء النهار، منتزعا نظرة دهشة من المربية. وظلت عيناها مسمرتين في القطعة النقدية، غير مصدقة أن

كنزاً من تلك القطع يمكن أن يكون في ملكها، يوماً ما. كانت الليرة الذهبية هي أكثر القطع النقدية قيمة؛ تزن أربع أواق وتتشكل من اثنين وعشرين قيراط من الذهب. فكيف لا تهتم بمكافأة كهذه؟

- سيّد ساركيسيان - قالت، لاهثة من التأثر وعاجزة عن رفع عينيها عن الذهب - اعتبر نفسك كما لو أنك قد تزوجت بالفتاة نونوفار!

أصبح يوم الجمعة هو يوم تقديم الهدايا لابنة أسرة بيربيريان. استعمل كالوست ديرهوي ساعية بريد، وراح يبعث تباعاً، وعلى امتداد عدة شهور، باقات ورد، علب حلوى، ملابس طلبها من محل هارودز، قوارير عطر من محل «فلوريس» وأشياء تافهة أخرى كانت تقترحها عليه الخادمة على أساس أنها تعجب الفتاة.

ومع هذه الهدايا كان الشاب يضع بطاقة معطرة يكتب عليها قصيدة باللغة الفرنسية، وهي في الغالب نسخ لبعض قصائد بودلير؛ إذ كان يعتقد أن الكلمات الرقيقة للشاعر الكبير يمكن أن يكون لها وقع مُسكر على الفتاة، فيلين قلبها ويميل. إن كانت الأشعار قد أبانت عن فعاليتها مع الآنسة دوبري، فلماذا لا يحدث الأمر نفسه مع نونوفار؟

- انظري إن كانت هذه القصيدة ستعجبها - كان يقول عند كل مناسبة، وهو يسأل المربية عن رأيها - أتريدين أن تسمعي؟

- بكل تأكيد.

ضبط حلقه، وبصوت رخيم كان يستعرض أحسن لكنة فرنسية. في تلك المرة، نسخ بشكل صحيح قصيدة تحت عنوان *Hymne à la beauté*:

Tu contiens dans ton œil le couchant et l'aurore;
Tu répands des parfums comme un soir orageux;
Tes baisers sont un philtre et ta bouche une amphore,
Qui font le héros lâche et l'enfant courageux.

- إنني لا أفهم اللغة الإيطالية - اعترفت الخادمة - لكنها ستكون رائعة.

وكان يكمل هذا الحصار بزيارات متكررة إلى منزل آل بيربيريان. بذريعة مرافقة أوهانس، الذي كان يائساً من العزلة الناتجة عن قصوره اللغوي، كان يلتقي بمن اختارها قلبُه. كانت نونوفار تحمر خجلاً عندما تراه هناك في البيت، لا تستطيع أن تنبس ببنت شفة، تغطي وجهها وتهرول لتختبئ في غرفتها، مما كان يسلي كل من يعاينون ذلك المشهد.

- آه الطفولة - لاحظ أوهانس - عندما يكون المرء صغيراً يمكن أن يكون بريئاً!

وإلى جانب كل ما كان يقوم به لإغراء وريثة آل بيربيريان، انكبّ الشاب الأرمني بجد على متابعة دراسته في كلية كينجز وكان يستوعب المواد بسهولة أثارت إعجاب الأساتذة. فكان الجبر الخطي، وحساب التفاضُل، وميكانيكا المادة، والتعديل الهندسي وعمليات الاستخراج موادَّ دراسية استوفاها دون مشاكل، رغم أنه اكتشف أن له شغفاً كبيراً وحقيقياً بالفيزياء.

- أتوقع لك نجاحاً كبيراً في الفيزياء الفلكية - قال الأستاذ ويليام تومسون، الذي يعتبر أكبر دماغ في هذا المجال في الجزر البريطانية - لماذا لا تلتحق بالمدرسة العليا في باريس؟ إنها أرقى مؤسسة في هذا المجال.

جعل ذلك الاقتراح كالوست يحلم. آه، النجوم، السديم، المجرات! كان جول فيرن يغريه، والآنسة دوبري كذلك. كتب رسالة إلى والده يخبره فيها أنه قد قرر أن يتابع دراسة الفيزياء ويقترح عليه أن باريس هي الوجهة المفضلة لذلك. بيد أن جواب الرسالة أبطل أحلامه.

- لا تحشر نفسك في تفاهات أكاديمية، أيها الفتى - وبخه العجوز بغضب كان يرشح من كل سطر من السطور المتوترة التي خربشها - فلا أحد يعيش على الأحلام.

ربما كان العيش على الأحلام، أو ربما عدم الاكتفاء بالعيش عليها هو ما دفع الطالب الشاب إلى مواصلة الرهان على البورصة، حيث بدأ يربح مبالغ مالية مهمة. شملهُ فيليب بليك برعايته، وظل يدعوه بانتظام لتناول الغداء في مطعم سيمبسون الذي يقدم أحسن الأطباق في المدينة، وراح يمده بمقترحات مربحة، بعضها على المدى القصير، كما يجب للحفاظ على سيولة مالية جيدة، وأخرى على المدى الطويل لها أثر استراتيجي. وتبين أن كل تلك النصائح تقريباً كانت جيدة، لكن لم تكن أيٌّ منها أكثر ربحاً من تلك النصيحة التي قدمها له الإنجليزي خلال غدائهما الثالث.

- حسناً، هل لديك أي تورُّع خاص عن الاستثمار في الأسلحة؟

طرح الأمين المساعد في وزارة الخارجية هذا السؤال بينما كان يقطع لحماً مشوياً فكانت النتيجة نظرة حيرة في عيون مُحاوِرِه.

- أسلحة؟ كيف ذلك؟ - سأله كالوست مندهشاً - هل تقترح أن أشتري مسدساً أدافع به عن نفسي؟

- كلا، بربّ السماء! - ردّ عليه الإنجليزي بقدر كبير من الهدوء - إنني أتحدث عن صناعة الأسلحة، أيها الفتى! هل لديك أي تورُّع عن الاستثمار في هذا المجال؟

- كلّا، شريطة أن يكون استثماراً مربحاً. . .

وضع بليك قطعة لحم مشوي في فمه ومضغها ببطء وفي صمت. ولم يستأنف كلامه إلا بعد أن ابتلعها.

- أخبرَني عقيدٌ في الجيش، من أصدقائي، أن هناك شخصاً، يدعى ماكسيم أو شيئاً كهذا، يشتغل على تطوير رشاشة ثورية - قال - لا أعرف إن كنت تعلم هذا، ولكن القوات المسلحة لا تثق بالرشاشات. يبدو أن لها ميلاً سيئاً إلى الانسداد في الأوقات غير المناسبة. في عزّ معركة، مثلاً.

- لا بد أنه أمر مزعج.

- وغير مناسب تماماً. هذا العائق يتميز أيضاً بأنه يبقي على سعر أسهم مُصنّعي الرشاشات منخفضاً في البورصة.

- أظن أنه لو كنت تحدثني عن هذا، فلأن هذا السلاح الجيد مختلف. . .

- تماماً! - أكد بليك، وهو يمسك بكأس النبيذ الذي يستورده مطعم سيمبسون من فرنسا - أكد لي العقيد أن هذه الآلة التي طورها المدعو ماكسيم موثوق باشتغالها بشكل مضمون. إنها آلة قتل حقيقية، أستطيع أن أقول. لو كان كذلك، ولا أشك في أن هذه المعلومة سوف تتأكد صحّتُها، فلن تتردد قواتنا المسلحة كثيراً في اقتنائها. عندما يحدث هذا الأمر. . . بوم! سوف ترتفع أرباح من يملك أسهماً في هذه الشركة ارتفاعاً كبيراً على إيقاع الرشاشة.

كان القلم والمفكرة جاهزَين.

- ما اسم هذه الشركة؟

شرب الإنجليزي جرعة نبيذ ونظف فمه بالمنديل المطرز باسم مطعم سيمبسون، وهو يحرص أشد الحرص على أن يمرر الثوب الناصع البياض على طرفَي شاربه الأشقر.

- اسمها Maxim Gun Company - قال - وأسهمُها ستكون آلة لاقتناص الأموال.

4

مكتبة
t.me/t_pdf

كان المطر ينزل رقيقاً وخفيفاً، والقطرات الضعيفة تحوم مثل أوراق في مهب الريح، تمزق ألف قطعة الضوء المعدني المنبعث من غطاء السماء الملبدة بالغيوم؛ كأن طبقة من الفضة قد سقطت على المدينة أثيريةً، دقيقةً ومنتشرةً. وُلد ذلك الصباح من سنة 1885 بارداً، وكان هايد بارك كورنر يعجُّ بحركته المعتادة عندما تفتح المحلات أبوابها. كان الناس يمشون بخطى حثيثة نحو أعمالهم، هُمْ يرتدون قبعات ومعاطف شتوية وهُنَّ يحملن مظلات ملونة، بعضهم يتأبط جرائد مطوية.

بينما كان يتفحص بفارغ الصبر أهل لندن يقطعون المنتزه في كل الاتجاهات، منتقلين في فوضى منظمة بشكل غريب، لمح كالوست أخيراً وجه ديرهوي يبرزُ من بين حشد الناس ويتجه نحوه.

- وصلتِ متأخرة هذا اليوم - كان أول شيء رماهُ بها الشاب - إنني لا أقدم لك شلناً كي تجعلينني أنتظر!

- لكن... لم تكن سوى خمس دقائق...

- ولو كانت خمس ثوانٍ! إذا اتفقنا على الساعة التاسعة فهذا يعني الساعة التاسعة!

قررت مربية آل بيربيريان ألا ترد على ذلك. منذ سنة وهي تقوم بنقل البريد السري والعاطفي للشاب فأدركت أنها تتعامل مع شخصية يصعب إرضاؤها في الحالات غير المتوقعة، من ذلك النوع الذي يواجه أقل تغيير في البرنامج بثورات غضب مبالغ. حاولت ديرهوي أن تغير الموضوع، فألقت نظرة على تلك الحزمة التي كان عاشق تلميذتها يحميها من المطر.

- أهذه هي هديّة هذا اليوم؟

- نعم - قال مؤكداً - رقائق بسكويت من نوع «هانتلي وبالميرز». القصيدة داخل العلبة. اخترتُ هذه المرة بعض الأشعار لمالارمي.

مدّت الشابة يدها لتأخذ الحزمة.

- إنني على عجلة من أمري اليوم - قالت - السيّدة فيرجيني تريد أن تأخذ نونوفار في نزهة على ضفاف نهر التايمز، لذلك فإن درس الصباح سيكون باكراً قبل المعتاد. عليّ أن. . .

- ليس بكل هذه السرعة - قاطعها كالوست، وهو يحتفظ بالهدية بين يديه - أظن أنه حان الوقت لتقييم الوضع.

- ليس لدي وقت الآن.

- لو أنكِ وصلتِ في الوقت المحدد! - لامها مرة أخرى. ثم لوّح بالهديّة - منذ سنة ونحن في هذا الأمر، كل أسبوع تأتين إلى هنا، وتذهب الهدايا إلى هناك، وفي الأخير لا أعرف أين وصلتُ. هذا غير ممكن!

ولما رأت أنها لا تستطيع أن تغادر فوراً، تنهدت، وبابتسامة متكلفة قامت بحركة انتظار تنم عن نفاذ الصبر.

- فيما تشك؟

- أتساءل إلى أي حد يمكن لهذه الخطة أن تأتي أكلها. أعني، هل نحن ذاهبون فعلاً نحو وجهة ما؟

- نحن ذاهبون حيث نستطيع أن نذهب - أوضحت ديرهوي - هل تقبل الفتاة الهدايا؟ إنها تقبلها وتشعر بسعادة كبيرة. هل تسمع كلاماً جميلاً عنك؟ في كل وقت وحين! أُحدّثُها عن المستقبل الذي ينتظرك، وأقول لها إنك الشخص الذي يبدو أنه يحبها وسيحميها في كل الظروف والأحوال... على أي، أقوم بكل ما في وسعي. أقوم بمجهود كبير، وبما أنها تمضي الوقت في قراءة الروايات المتسلسلة، وخاصة روايات السيّدة أوستن، أغتنم كل الفرص لأقوم بمقارنات بينك وبين أبطال تلك الروايات. مثلاً، قبل أيام، التهمتْ رواية **كبرياء وتحامل** وأسهبت في الحديث معي عن القصة. رأيتها متحمسة جداً، فقلتُ لها على الفور إنك يا سيّدي تشبهُ مستر دارسي، في نسخته الأرمنية، وهي تلعب دور إليزابيث.

ابتسم كالوست مسروراً.

- فكرة رائعة! - وافق - وكيف كان ردّ فعل نونوفار؟

لزمت ديرهوي صمتاً، كما لو أنها تفكر فيما ينبغي أن تقول، ثم أخذت نفَساً عميقاً.

- حتى أكون صريحة، لا أدري إن كانت تستقبل إيحاءاتي بذراعين مفتوحتين. تعجبها الهدايا، طبعاً. كما تفرح للقصائد، وتشعر بسعادة كبيرة. لكن... - ترددت وهي تبحث عن الكلمات المناسبة - لنقل إنها ما تزال طفولية جداً.

حدس الشاب مشكلة في تردد المربية واستغرب ما اختارته من كلمات.

- طفولية؟ طفولية، كيف؟

- إنها. . . - تردُّد آخر - أنت تعرف كيف هي الفتاة نونوفار، لأنها ما زالت صغيرة جداً، لا تنس أن عمرها اثنتا عشرة سنة فقط، تعيش في عالم من الأحلام والخيال. إنها تتخيل أميراً، شخصاً يظهر على صهوة جواده قرب نافذة غرفتها ويختطفها عند منتصف الليل. هل ترى أي نوع من الفتيات هي؟

علت تكشيرة فزع وجه كالوست.

- ماذا؟ هي تريدني أن. . . أن أركب صهوة جواد وأختطفها؟ هذا ضرب من. . .

- لست أنت، يا سيّدي، من تفكر هي فيه - قاطعته المربية، وهي ما تزال تواجه صعوبة في العثور على الكلمات المناسبة لشرح الوضعية - إنها تفكر في أمير، هل فهمت؟ شاب فارع الطول أشقر، لا يفتح فمه إلا ليطري على جمالها. اسمع، عليك يا سيّدي أن تفهم أن الفتاة نونوفار لم تتجاوز الثانية عشر من عمرها وتعيش على حكايات السيّدة أوستن والسيّد سكوت في ذهنها. عليك أن تُهيّئها بصبر وتنتظرها أن تنضج قبل أن تسقط بين ذراعَيك في النهاية.

حدّق كالوست إلى عينيها.

- إن ما تقولين لي، إن فهمتُ، هو أنني لم أكسب قلبها بعد.

استرخت كتفا ديرهوي بشكل خفيف، كما لو أنها تخلت عن العثور عن صيغة أكثر أناقة.

- تماماً.

- إذاً، ما الذي أستطيع القيام به؟

- كن ملحاحاً وصبوراً - أشارت عليه - ثم ترددت مرة أخرى، كما لو أن بداخلها يعتملُ جدلٌ حول ما ينبغي أو ما لا ينبغي لها أن

تقوله. ثم أخذت قرارها في الأخير - لو سمحتَ لي، هناك مشكلة أخرى تستحق اهتمامك.

- ماذا يجري؟

- لقد انتبه السيّد والسيّدة بيربيريان إلى نواياك، كما يجب أن تعرف. مع كل هذه الهدايا والأزهار، لن يفهما فقط إن كانا يعانيان من العمى والغباء. ما حدث أنني فاجأتهما قبل أيام يتحدثان عن هذا الموضوع. يبدو أن السيّد يقدرك جيداً. يقول إنك شاب طيب، ذكي وخدوم. لكن. . .

تركت عبارة «لكن» تتمدد معلقة على الدوام، كما لو أن ذلك الصمت الذي يعج بالإيحاءات كان يكشفُ أكثر من أي شيء آخر تجرؤ على قوله.

- لكن ماذا؟

ومرة أخرى، قامت الخادمة بمجهود جديد لتبحث عن الكلمات المناسبة لموضوع ذي طبيعة حساسة للغاية.

- إنهما يشكان إن كنت، يا سيّدي، في مستواهما، إن كنت تفهمني.

ضيّق كالوست عينيه، يبحث عن تحديد أفضل لما سمعه للتو.

- لماذا تقولين هذا؟ - سألها - ما الذي سمعته بالضبط؟ أعيدي على مسامعي، من فضلك، وبدقة، تلك الكلمات التي سمعتها.

- كان حديثاً بين السيّد وزوجته قبل مدة. عندما لاحظا اهتمامك بابنتهما، سمعتُ السيّد أوهانس يقول إن عائلة ساركيسيان، رغم أنها غنية، لا تملك بعد وضعية كافية تسمح لها بالارتباط بعائلة بيربيريان. ويظن هو أن السيّد كالوست شخص هاوٍ وأن. . .

- هاوِ؟ هل سمعت هذه الكلمة؟

- نعم، هاوِ. وقال إنه بحاجة ليتأكد من أنك طموح بما يكفي كي تتجاوز مستوى والديك - ثم عدّلت صوتها كي تقلد رجلاً - الشاب مجرد طالب. وليس له أي عمل - ثم استرجعت صوتها المعتاد - هذا ما قاله، حرفياً.

وافق كالوست بحركة خفيفة من رأسه. أشاح قليلاً بنظره عن مُحاوِرَته وركز انتباهه على شيء ما بعيداً. استغرقت ديرهوي لحظة طويلة قبل أن تنتبه إلى أنه كان يحدق إلى واجهة رقم 11 من هايد بارك تيراس، منزل آل بيربيريان.

- لديه شكوك، أليس كذلك؟ - همهم بين شفتيه المتوترتَين، كما لو أنه يحدد خصماً في نزال - سأُريه مع من يتعامل.

منذ ذلك اليوم، انتهت الهدايا، والأزهار والقصائد الموجهة إلى نونوفار، مما يعني أن ديرهوي بدورها لم تعد تتوصل بشلنها الأسبوعي. لكن قد يكون مخطئاً من يظن أن كالوست قد استسلم. نارٌ داخليةٌ، تستعرُ شعلتُها محتدمة بقوة أكبر في مثل تلك اللحظات، كانت تمنعُه من الاستسلام بكل بساطة. بل يبدو أن الحواجز كانت تشكل تحدياً يتعين عليه أن يتجاوزه، كما لو أن كل ذلك لم يكن سوى لعب يمده بالمتعة كلما ازدادت الصعوبات وتراكمت.

وما فعل هو أنّه غير التكتيك. حافظ على وعده بأن يقدم لديرهوي مكافأة قدرها عشر ليرات ذهبية إن نجحت في مساعيها، ويضمن بذلك أن تستمر الخادمة في إثارة انتباه الفتاة. كان يبدو له أمراً حيوياً أن تظل ديرهوي معه في نفس الخندق. وعلاوة على هذا، كان يستقصي من حين لآخر بعض التفاصيل عن أوهانس، يريد

أن يعرف على وجه الخصوص ذوقه وهواجسه. وكانت كل معلومة مفيدة تساوي مكافأة بقيمة شلن واحد وتطلق لسان الخادمة.

- السيّد بيربيريان يعارض الرقص - قالت له ديرهوي مثلاً - كما يرى أن الحياة الليلية خاصة بالساقطين وأصحاب الرذيلة. يظن أن هذا الجيل تائه ولا يكف عن القول إن الأمور لم تكن هكذا في زمانه، بل كانت هناك قيم في السابق... هذا النوع من الكلام.

كان كالوست يسجل كل هذه التفاصيل لأغراض لم تكن الخادمة تستطيع حتى أن تتخيلها، رغم أنه من الواضح أنها كانت تشكل جزءاً مهماً من التكتيك الجديد. وحتى يُنفّذ هذه الخطة، بأعلى قدر من احتمالات النجاح، بات جلياً بالنسبة للشاب أن عليه أن يعير مزيداً من الاهتمام لمظهره.

فبالإضافة لما يبذله من مجهودات كي يظل على اطلاع بكل ما يحدث في رقم 11 من هايد بارك تيراس، بدأ الشاب الأرمني يمنح نفسه مظهراً أكثر احتراماً. واصل اقتناء ملابسه من أحسن المحلات، مثل محل سافيل روْ، كما يُشترط في رجل محترم من أصل نبيل ووضعية راقية، رغم أنه بات يفضل الملابس السوداء، التي يرى أنها تمنحه صورة محافظة أكثر، وهو ما كان صحيحاً.

كما أطلق لحيته، حتى يربح مزيداً من السنوات وقدراً من الاحترام، لكنه حرص على العناية بها وفق أحسن أسلوب فيكتوري. ولما رأى أنها قد اكتسبت في النهاية الشكل المناسب، لا كثيفة أكثر من اللازم ولا قصيرة بشكل سخيف، تأمل نفسه في المرآة ولم يقمع رضاه على رؤية ذلك الرجل المنعكس أمامه.

- آه، إنني رائع!

صورة الشاب الملتحي الأنيق الذي عبر الباب وجاء يغزو الصالة في ذلك اليوم، يضع قبعة سوداء في يده، وهيئته أنيقة، لم يلتقطها أوهانس في بداية الأمر لأن الضيف كان يثير في نفسه رد فعل انعكاسي تقريباً.

- سآمر بالمناداة على نونوفار - قال شيخ آل بيريبيريان - إنها في الطابق العلوي تراجع استعداداً لامتحان في مادة البيانو.

- لا، لا تزعج نفسك - ردّ عليه كالوست بسرعة - لم آت لزيارتها هي، بل لزيارتك أنت.

رفع المصرفي حاجبه؛ لم يكن ذلك، بالتأكيد، هو الجواب الذي كان يتوقعه.

- لزيارتي أنا؟

- نعم، لزيارتك - أكد الضيف - جئتُ أطلب نصيحتك بخصوص استثمار أنوي القيام به.

بعد دهشة البداية، تهلل وجه المُستضيف بابتسامة عريضة، وبما أنه يعرف ميول محاوره، فقد أشار إليه بحركة ودعاه إلى الأريكة الشرقية.

- بكل تأكيد - قال - تفضل، اجلس! - ثم جلس بدوره على الأريكة وشبك رجليه - إذاً، أخبرني. أي عملية تجارية جئت تحملها معك إلى هنا؟

جلس الشاب عند طرف الأريكة وانحنى نحو أوهانس مثل ابن يبحث عن حماية والده.

- لدي صديق، هو الأمين المساعد في وزارة الخارجية، و. . .

- آه، فيليب بليك! - قاطعه صاحب البيت - أعرفُه جيداً.

- حسناً، نصحني بأن أقتني أسهم شركة تصنع الحليب الممزوج بالشوكولاته، شركة كادبوري. يرى أنه استثمار جيد، خصوصاً الآن مع هذه الحملة الموجهة للأشخاص الذين يشربون الشوكولاته بدل الكحول. يقول فيليب إن تجارة الشوكولاته ستعرف ازدهاراً قوياً - ثم انحنى أكثر نحو محاوره - أعترف أنني كسبت أموالاً طائلة من الاستثمار في البورصة، لكن. . . الشوكولاته؟ - ثم ظهرت تكشيرة على وجهه - ما رأيك؟ هل تظن فعلاً أن هذا الأمر له مستقبل؟

تجهّم أوهانس.

- حتى أتحدث معك بكل صراحة، عليّ أن أعترف بأن هذه المستجدات تتجاوزني - قال - في الحقيقة، نونوفار تحب شرب هذا المزيج. إن كان هناك عدد كبير من الناس يفكرون مثل ابنتي، لم لا؟

- إذاً، في رأيك يجب أن آخذ المبادرة؟

رفع المستضيف يده وكفّه نحو الخارج، كما لو أنه يريد أن يوقف عربة تجري بعنف في اتجاهه.

- هدئ من روعك، أنا لم أقل هذا! - سارع ليوضح - ينبغي النظر إلى هذه التجارة من وجهات نظر مختلفة. أي شركة هذه؟ كيف يتمّ تدبيرها؟ كيف تطورت سوق هذا المشروب؟ من هم المنافسون الأساسيون؟ هل زادت الشركة من حصتها في السوق أم لا؟ على أي، هناك عدد كبير من الجوانب التي يجب أخذها بعين الاعتبار قبل اتخاذ القرار. أليس كذلك؟

أخذ كالوست نَفَساً عميقاً.

- تبدو لي نصيحة رائعة - صاح - أشعر بالارتياح كما أنني تشرفت بمعرفة شخص فطن مثلك، يا سيّدي - ثم خفض صوته، كأنه يقوم بتعليق سري - طبعاً، لقد تأكدتُ من كل هذه التفاصيل. لن أكون مستثمراً ناجحاً دون القيام بذلك - واستعاد نبرة صوته المعتادة - إن المعطيات التي حصلتُ عليها مشجعة من دون شك. الشيء الذي يزعجني حقاً، ولذلك حملتُ لك هذا السؤال، هو المنتوج في حد ذاته. هل تظن فعلاً أن الشوكولاته يمكن أن تلاقي نجاحاً كبيراً؟

قام المُستضيف بحركة غامضة من يده.

- شخصياً، أقول لا - قال مبدياً رأيه - لكن إذا كانت معطيات السوق جيدة حقاً...

لطمَ الشاب فخذه بضربة من يده مثل قاضٍ يطرق الطاولة لحظة النطق بالحكم.

- اتخذت قراري! - صاح - لقد أقنعتني بالاستثمار في شركة كادبوري!

- حسناً... إنها مسؤولية كبيرة، لا أريد أن أؤثر عليك. تصور لو أن الأمور لا تجري على أحسن ما يرام؟ قد تقول إن ذلك بسببي!

أطلق كالوست قهقهة عالية.

- لا تشغل بالك، عندما يتعلق الأمر بالمال والأعمال، سيّد بيربيريان، أنا لا أخسر أبداً! - قال ليُطمئنه - الأعمال هي شغفي الأول - ثم قام بحركة إشارة نحو الباب - أتعرف، هناك أشخاص في سني يفضلون أن يخسروا مالهم في صالونات الرقص والتردد على المحلات الليلية، أوكار الرذيلة والبؤس الأخلاقي التي تعج

بالساقطين. هذه أمور للفاشلين! إن جيلي هو جيل الضياع! جيل ضائع أؤكد لك! لكني أؤمن بقيم من زمن آخر، بكل تأكيد، وأفضل أن أسخِّر طاقتي لخلق الثروة.

انطلق من شفتَي أوهانس صفير تقدير. لم يتصور شيخ آل بيربيريان قط أن شاباً يمكن أن يعبِّر بتلك الطريقة في زمانه.

- هذا هو الكلام الوجيه المعبر!

أصبح الكلام عن المال والأعمال هو الموضوع المهيمن على أحاديث كالوست مع أوهانس خلال زياراته الأسبوعية إلى منزل آل بيربيريان. بل إن الشاب لم يعد يسأل عن نونوفار حتى صار أهل البيت هم من يسألونه إن كان يرغب في رؤية ابنتهم، وهو امتياز كان الزائر يوافق عليه كما لو أنه يقدم لهم خدمة.

كان آل بيربيريان يكثرون من حفلات الاستقبال، نظراً لوضع الأسرة المتميز ووفرة وسائلها المادية، وفي تلك الظروف تبينت الفائدة من حضور كالوست. كان الشاب يحرص على أن يكون دائماً قريباً في الوقت المناسب، لأن ضيفاً يقترب من أوهانس أو لأن صاحب البيت نفسه يريد أن يتحدث مع مستثمر أو مصرفي أو رجل دبلوماسي ممن كانوا يترددون على المنزل في تلك المناسبات.

خلال حفلات الاستقبال، وأثناء الزيارات المنتظمة إلى بيت آل بيربيريان، كان كالوست يزود أوهانس بأخبار ما يحدث عموماً وما يقع لبعض الأشخاص على وجه الخصوص. يجلس على طرف الأريكة الشرقية حيث يرتاح مُستضيفُه ويغرقه بوابل من المعلومات الخاصة بفرص الاستثمار.

وصارت أحاديثهما حول المال والأعمال حميمية لدرجة أنه

ذات يوم أحسّ شيخ آل بيربيريان أنه يشعر بما يكفي من الارتياح ليتقاسم معه سراً دفيناً.

- هل تريد أن تعرف كيف جمعتُ ثروتي - سأله أوهانس بنبرة تحدٍّ - هل تعرفُ ما هي أكبر صفقة قمت بها؟

واعياً بأن مُحاورَهُ، وهو يكشف له عن السر، يقدم دليلاً قوياً على ثقته الكبيرة، انحنى كالوست أكثر نحوه.

- كُلّي آذان مُصغية.

- انتبه، إنني لم أحك هذا لأي أحد قط - حذره المُستضيف وهو يلقي نظرة خاطفة من حوله ليتأكد من أنه لا وجود لأي خادم يسمعهما - فقط أنا، وأخي، والوزير، وحفنة من الأشخاص من نعرف هذا السر.

- كن مطمئناً - أكد الضيف - سأكون لسرك قبراً ولن تنطق شفتاي بكلمة.

ابتلع أوهانس جرعة ويسكي ومدّد ساقَيه، في وضعية مريحة.

- عائلتي من منطقة قيصريّة، لا أدري إن كنت تعرف...

- جدي وجدّتي من هناك أيضاً - قال كالوست.

تهلّل وجهُ شيخ آل بيربيريان بابتسامة اندهاش.

- آه، بلا مزاح! - صاح بسرور واضح - هل أصولك من منطقة قيصريّة؟ يا للعجب! قيصريّة هي، بكل تأكيد، تلك المنطقة التي ذُكرت في **العهد الجديد** - ثم صار تعبيرهُ تأمّلياً - هل تعرف ما أقول لك؟ شئنا أم أبينا، أحسن الأرمن ينحدرون من هناك!

- ليس لدي أدنى شك في ذلك! - وافقه كالوست عن قناعة - وأنت، يا سيّدي، مثال حي على هذا الأمر!

احمرّ وجه أوهانس من الإطراء، وعدّل جلسته فوق الأريكة الشرقية.

- حسناً، كنتُ أملك محلاً في قيصريّة، أبيع فيه كل أنواع السلع من سجادات، وأواني المطبخ، ولوازم الديكور، وما إلى ذلك. وكانت الخردوات المعدنية من بين مواد أخرى كنت أتاجر فيها. ما حدث هو أن تجارة هذه الخردوات بدأت تزدهر فقررنا أن نستثمر فيها. في وقت ما، عندما نمت التجارة وبلغت حجماً معقولاً، اتصلتُ بشخص أعرفه في وزارة البحرية اقترحت عليه أن أزود الدولة العثمانية بالنحاس. سهّل لي هذا الشخص الولوج إلى وزارة البحرية، وعندما تمكنتُ من ذلك حصلتُ على امتياز حصري لتزويدهم بالنحاس. وأُبرمت الصفقة في وقت وجيز.

بدا الضيف غير مصدق.

- هكذا؟ بكل هذه البساطة؟

ضحك المُستضيف.

- طبعاً، لم يكن الأمر بكل هذه البساطة - اعترف - دفعتُ للشخص الذي أعرفه كي أصل إلى السيّد الوزير ودفعت إلى الوزير ليمنحني الامتياز الحصري ويوقع العقد.

- أي أنك اضطررت لاستعمال الرشوة ودفع شيء من البقشيش...

فتح أوهانس ذراعيه، كمن يعرض شيئاً بديهياً.

- يا عزيزي، لا أحد يكسب ثروة في الإمبراطورية العثمانية دون أن يضع مالاً في أيادي أصحاب القرار والزمرة المحيطة بهم، كما تعرف بكل تأكيد - ذكّره - لكن هذه لم تكن هي العملية الحقيقية. كان السر يكمن في الثمن. فالنحاس الذي اقترحوا عليّ

أن أزودهم به كانت جودته من مستويين مختلفين، نحاس ذو جودة عالية ونحاس رديء. لذا كان هناك عقدان، عقد خاص بالنحاس الجيد وآخر بالنحاس الرديء. مقابل مبلغ هام من البقشيش، أقنعتُ الوزير بارتكاب خطأ وتغيير العقدين، بحيث تدفع الدولة العثمانية ثمناً معيناً مقابل النحاس الجيد وثلاثة أضعاف هذا الثمن مقابل النحاس الرديء.

فتح كالوست عينين جاحظتين، غير مصدق. فهل سمع جيداً؟

- ماذا؟ - صاح متعجباً - كان ثمن النحاس الرديء أغلى ثلاثة أضعاف من ثمن النحاس الجيد؟

لم يتمالك أوهانس نفسه فأطلق قهقهة مدوية، ورافقه خلالها مُحاورُه وهو يستوعب طبيعة الصفقة.

- طبعاً، أغرقتهم بالنحاس الرديء! - كشف المُستضيف وهو يستعيد أنفاسه، والدموع تغمر عينيه من كثرة الضحك - أطنان من النحاس الرديء! حسناً، إن كان النحاس الرديء يكلفني بضعة بنسات وهم يدفعون لي ثروة مقابل كل كيلوغرام!

- هذا شيء رائع!

استمر صوت القهقهات لحظات طويلة؛ كانا معاً غارقين في الضحك، يتلويان من التهكم. وأصبحت القهقهات عالية وصاخبة فأثارت نظرات الخدم المتسائلين، ولم تنته إلا عندما تحولت، في حالة أوهانس، إلى سعال لا يتوقف. لحظتها، اضطروا ليُمدِّدوه على الأريكة ويقدموا له كأس ماء.

- أصبحتُ غنياً بين عشية وضحاها - قال بعد أن استرجع هدوءه - انطلاقاً من ذلك وسّعتُ التجارة. اقتنيتُ بضع سفن

ودخلت عالم الملاحة. لم أكتف بما أنجزتُ، ففتحتُ بنكاً للاستثمار وأصبحتُ أغنى أرمني في كل أرجاء الإمبراطورية.

- وكل هذا بسبب تغيير في العقدين المبرمين مع الدولة العثمانية. . .

ربما بسبب نوبة السعال، شعر أوهانس بضغط في مثانته. ظل ممدّداً على الأريكة وأشار إلى ضيفه أن يساعده لينهض. ولما وقف، وقبْل أن يغادر القاعة، شدّ ذراع كالوست وسحبه إليه.

- لا تنس أبداً هذا الدرس، يا عزيزي - همس في أذنه - لا أحد يرتقي إلى مكانة ما في هذا العالم دون أن يملأ بالمال جيوب الحُكّام.

بيد أن الشاب الأرمني كان يهمه قبل كل شيء أن يملأ بالمال جيوبه الخاصة. مُركّزاً على هذا الهدف، كان يقسم وقته بين عدة أنشطة مختلفة.

مكنته استثمارات البورصة المبنية على معلومات دقيقة من جمع مدخرات لا بأس بها، ولذلك كان يستثمر بانتظام في وجبات الغداء التي تجمعه بمرشده فيليب بليك، والزيارات المتكررة إلى السيتي، مدينة المال والأعمال في لندن. كان الأمر يتعلق بحلٍّ يدرُّ عليه مالاً كثيراً، لكن كالوست كان على وعي بأنه يشكل مورداً غير موثوق تماماً. صحيح أن معلومات الأمين المساعد في وزارة الخارجية كانت دائماً موثوقة؛ لكن ما الذي يستطيع القيام به إن لم يعد بليك يشغل تلك الوظيفة؟ أين يمكنه أن يحصل على معلومات قيمة تسمح له بالمراهنة على أسهم مضمونة النتائج؟

كانت الأنشطة الأخرى المهيمنة على حياته في لندن تشكل

بذلك استثمارات يرجو أن يقطف ثمارها لاحقاً. وكانت واحدة منها، تستنزف يوماً كاملاً من نهاية الأسبوع، تتعلق بخطته الخاصة بنونوفار. كان يرى أن من أولوياته أن يدخل في دائرة عائلة بيربيريان، وتشكل الفتاة جواز مروره إلى ذلك. ولهذا الغرض، احتفظ باتصالاته مع ديرهوي حتى يظل على اطلاع بما يجري في رقم 11 من هايد بارك تيراس. بيد أن المربية كانت تبدو حائرة أمام تصرفاته.

- لقد توقفت، يا سيّدي، عن إرسال الهدايا وأنت اليوم بالكاد تتحدث مع نونوفار - لاحظت الخادمة محتارة - كيف تنتظر أن تكسب حبّها بهذه الطريقة؟

بدا له السؤال وقحاً بل إن الشاب فكر أن يقول لها إن الموضوع لا يخصها، لكنه تمالك نفسه. كان ما يزال بحاجة إليها، وعلى أي، ربما يكون من الحكمة أن ينيرها؛ قد تكون تلك أحسن طريقة للحفاظ عليها متحفزة في هذا المسلسل.

- ألم تفهمي بعد؟ في أوساط العائلات الأرمنية الغنية، كما تعرفين، الآباء هم من يرتبون الزواج. من رتّب زواج نونوفار مع ابن عمها البعيد، مثلاً، ليس هي ولا ابن عمها. كان والديهما معاً!

- وماذا، إذاً؟

- ما أقوم به هو أنني أتودد إلى مُشغّلك! - صاح - فوالدها، يا عزيزتي، هو من سيسلمني ابنته.

لكن، وسط كل هذه الاستراتيجيات والانشغالات، كان النشاط الذي يستنزف أكبر قدر من وقته، بطبيعة الحال، هو الدراسة. فدروس الهندسة التي كان يتابعها في كلية كينجز جعلت الشاب الأرمني يدرك أنه ليست له موهبة في تصور القناطر أو بناء ناطحات

السحاب مثل تلك التي كان يُقال إنهم يشيدونها في الجهة الأخرى من المحيط الأطلسي. لكن، إن لم يكن مهتماً بهذه الدروس فلماذا يتابع تكوينه في الهندسة؟ كيف يمكنه أن يجعل التكوين مفيداً لمستقبله؟ هل يكون بصدد هدر وقته؟

طلب النصيحة من بليك. بعد عدة اقتراحات قدمها الإنجليزي ولم تحظ بموافقته، جاء ذات يوم بفكرة جديدة، خلال فترة ما بعد الأكل في مطعم سيمبسون.

- أليس والدُك هو أكبر مورّد لمادة الكيروسين في الإمبراطورية العثمانية؟ - ذكّرهُ - إذاً، لماذا لا توجه دراستك نحو هذا المجال؟ وهذا ميدان يعِدُ بمستقبل كبير!

- الكيروسين؟

- الزيت المعدني، أيها الفتي! نعم، الزيت المعدني!

التقط كالوست الفكرة واستوعبها. في الحقيقة، لماذا يبحث بعيداً والجواب بالقرب منه؟ فبدأ يبحث عن كل ما يلزم معرفته عن الزيت النابع من بين الصخور، هذا الزيت الذي كان يتحمس له محاوره أيما حماس ويذر على أسرته كل تلك الأموال. درس بعناية تقارير شركة ستاندرد أويل الأمريكية، وكلما تعمق في البحث كلما ازداد قناعة بأن الإنجليزي كان على حق.

هكذا، حين جاءت اللحظة التي سأله فيها الأستاذ المشرف عن الموضوع الذي ينوي تناوله في أطروحة نهاية الدراسة في كلية كينجز، كان قد فكر في الجواب كما ينبغي.

- هندسة النفط.

قضى سنتين في تحضير الأطروحة. درس تقنيات استخراج

النفط وطرق تصفيته، لكنه تعمق في فحص ظروف السوق، بما فيها زيادة الطلب، والمشاكل المرتبطة بالتزويد وانخفاض الأثمنة الناتج عما تقوم به شركة ستاندرد أويل من ممارسات تنافسية شرسة.

قدّم الأطروحة في ربيع سنة 1887، وبعد بضعة أشهر أنهى مساره الدراسي بشهادة تقدير وميداليتَين، واحدة في العلوم وأخرى في الهندسة. حين علم بذلك، بعث له والده برقية حماسية يهنئه فيها ويشدد على ما يشعر به من فخر؛ لأن ابنه حصل على الإجازة في إنجلترا، وبجدارة! فمن ذا الذي لا يشعر بالفخر في هذه الحالة؟ والأهم من ذلك، أن البرقية القصيرة كانت تنتهي بصيغة أمر واضحة:

عُدْ إلى البيت نقطة

خلال زيارته الأخيرة إلى آل بيربيريان، لم يتجاوز كالوست عتبة المنزل الواقع في 11 من هايد بارك تيراس. كان عند العتبة بالضبط عندما صادف أوهانس، الذي كان يغادر فأوقفه.

- هل أنت هنا، أيها الفتى؟ حياه المصرفي - تعال معي - أمسكه المُستضيف من ذراعه وسحبه عائداً إلى الشارع - لقد سئمت من البقاء داخل البيت. سوف أقوم بجولة في هايد بارك ولا أريد أن أذهب لوحدي. كن رفيقي.

قطعا الطريق بحذر، خوفاً من أن يلطخهما الوحل الذي تدوسه الخيول وعجلات العربات، وذهبا يتجولان عبر المنتزه الفسيح وسط المدينة.

وبينما هما يتجولان وسط الحدائق، نسج أوهانس تعليقات

خفيفة عن الطقس في لندن، ونعته بأنه «بئيس» لكنه بنفس النَّفَس أطرى على حرص البريطانيين في عنايتهم بالعُشب. ظل مُحاورُه يستمع إلى كل شيء دون أن ينبس ببنت شفة، مكتفياً بتحريك رأسه كأنه يسمع دون انتباه. كان جسده هناك لكن ذهنه في مكان آخر. لم يكن من الممكن أن يستمر المونولوج دون جواب، فهيْمن في النهاية صمتٌ مزعج بين الاثنين.

- سوف أذهب إلى حالي - قال كالوست فجأة - توصلت بأوامر تدعوني إلى مغادرة إنجلترا.

توقف أوهانس عن المشي، وقد صُدم لهذا الخبر.

- أوه، لا! - صاح - لماذا؟ هل حدث شيء ما؟

- لا شيء غير ما كان متوقعاً. أنهيتُ دراستي وطلب مني والدي أن أعود إلى القسطنطينية.

استأنف المصرفي المشي، وعيناه مسمرتان في الأرض يفكر في عواقب ذلك الخبر.

- ماذا سيكون مآلي؟ - قال مشتكياً - والآن، من سيكون رفقتي أثناء تلك حفلات الاستقبال الفظيعة في البيت؟

هل كان ينبغي لكالوست، أخيراً، أن يعطي إشارة واضحة عن نواياه؟ كان يرغب في أن يهيئ أكثر شيخ آل بيربيريان ويستعد أحسن لتلك اللحظة التي سيكشف فيها عن نواياه، ولكن في الحقيقة، لم يعد أمامه وقت. إن لم يتقدم في تلك اللحظة الحاسمة، فمتى سيفعل ذلك؟ عندما لن يكون هناك بعد؟

- إنك ستحظى دائماً بالرُّفقة، يا سيّدي - أكّد، محافظاً على توازنه وهو يتمطط - على الأقل من طرف صهرك المستقبلي.

لقد ألقى الطعم، فهل ستأتي السمكة لتبتلعه؟

- من؟ ابن العم البعيد؟ - قال أوهانس مندهشاً - المسكين، إنه في قيصريّة! لا يمكن أن ينفعني في شيء...

- إذاً، ربما يستحسن البحث عن مرشح آخر - تجرأ كالوست مقترحاً - شخص تسمح له الظروف بمساعدتك...

حدجهُ أوهانس بنظرة متفحصة، مدركاً في النهاية مقاصد الشاب وما يرمي إليه. بعد ذلك، التفت إلى الأمام، ليرى كل شيء بوضوح، ثم سار في صمت للحظات. وعندما فتح فمه قام بذلك للتعبير عن ملاحظات تافهة حول حالة حوض أزهار مغروسة في المنتزه، قائلاً إنه لا بد أن يشذب أحدهم أطرافها. غادرا، لحظته، المنتزه وتوغلا في شارع بايسواتر، وأوهانس يتحدث عن حفل استقبال كانت زوجته تنوي تنظيمه خلال نهاية الأسبوع، ويكشف، في الأخير، أنه يحنُّ إلى منزله في القسطنطينية.

كان هذيان المصرفي في كلامه طريقة يرفض بها طموحات كالوست دون أن يقول له ذلك صراحة. فهم المهندس الجديد الرسالة واستنتج أنه لا فائدة من الإلحاح في تلك اللحظة. سيترك الحديث ليسير وفق مجراه الطبيعي ولاحقاً، عندما يكون لوحده، سيفكر بما ينبغي من عناية في عواقب ذلك الرفض ويقرر ما ينبغي عمله. كان يعرف فقط أن الاستسلام ليس من طبيعته، لذا عليه أن يجد سبلاً جديدة.

في خضم هذا الحديث غير المنطقي، الذي يتحدثان فيه تارة عن الأزهار وتارة عن الطقس أو عظمة مبنى محلات هارودز الذي شُيِّد مؤخراً على أنقاض ذلك الذي احترق من قبل، توقف كالوست فجأة وأشار إلى زقاق صغير.

- تعال معي، سأريك شيئاً ما.

توغّلا في زقاق بروك القصير، وسارا بضعة أمتار قبل أن يعرّجا يميناً عبر زقاق ضيق وهادئ، صفوف من المنازل يظهر الآجور في خلفها وعلى اليمين تبدو واجهاتها الأنيقة البيضاء. كانت ظلال الأشجار تمتد واسعة على الزقاق وعربتان تنتظران أمام باب إحدى الإقامات.

- ماذا هناك؟

التفت كالوست نحو منزل كبير يقع في طرف من الزقاق.

- هل رأيت ذلك المنزل؟ - سأله، وهو يشير بالعصا نحو تلك الوجهة - يوماً ما، سأذهب لأسكن هناك!

نظر أوهانس إلى واجهة البناية؛ كانت هي رقم 38 في هايد بارك غاردنز. ولما لاحظ أن المنزل أكبر من البيت الذي كان يسكنه في تلك الفترة، وأغلى ثمناً بطبيعة الحال، أطلق قهقهة بمزاج رائق.

- آه، كالوست! - صاح، وهو يستمتع بما بدا له مزحة - أحياناً، أجدك مضحكاً.

واجهه المهندس بوجه مقتنع.

- إنها ليست مزحة - أكد بشيء من الحدة - يوماً، سأهذب فعلاً لأسكن هناك! لا يخامرنّك الشك في ذلك!

وسرعان ما تلاشت تكشيرة المصرفي في تلك اللحظة من الحرج المفاجئ. أدرك أن مخاطبه يتحدث بجدّ، فارتبك، استسمحه وسكت. ومن جديد خيم الصمت عليهما معاً وهكذا سارا مسافة لا بأس بها. ظلت عينا أوهانس تفكران في صمت خلال الطريق؛ كانت تبدوان من زجاج كأنهما تنظران إلى الأشياء ولا تريان غير الأفكار التي تشغلهما.

في لحظة معينة، توقف أوهانس، وكأنه عاد إلى الحاضر، التفت نحو رفيق جولته.

- لقد رأيت أنك شخص طموح - لاحظ بكلمات موزونة كما ينبغي - هذا شيء يسرني فعلاً - لزم صمتاً قصيراً، كأنه ما زال يستخلص دروساً من النتيجة التي توصل إليها - الشك الوحيد الذي يخامرني هو هل ستكون في مستوى طموحاتك. وهل ستستطيع أن تقرن الأقوال بالأفعال، وربما تكون الشخص المناسب لابنتي نونوفار.

قفز قلب كالوست من مكانه. فاجأه إقرار أوهانس، بل وظن لحظة أنه لم يسمع جيداً. لكن كلا؛ لقد قال أوهانس فعلاً ما ظن أنه قد سمعه، كان متأكداً. هل ينبغي له أن يتجرأ وينعش آماله؟

- لا يخامرنّك أدنى شك في ذلك - قال بقناعة كبيرة، وهو يدرك أن فرصة قد فُتحت أمامه بشكل غير منتظَر - لدي مشاريع كبيرة وسوف أحققها!

استأنف شيخ آل بيربيريان سيره، وتعبير تأمل يغلف وجهه. مشى بضع خطوات في صمت، كما لو أنه ما زال يرتب أفكاراً في ذهنه، ثم توقف لاحقاً.

- سوف نقوم بما يلي - قال أخيراً - سوف تستمر نونوفار في متابعة دراستها لسنتين أخريين هنا في لندن. في انتظار ذلك، لن نقوم بأي شيء. هي مخطوبة لابن العم وبه ستتزوج في الوقت المناسب - ثم عاد إلى صمته وأكمل خطواته غارقاً في التفكير - لكن هذا الالتزام سيُلغى، إذا ما، وفقط إذا ما، اقتنعتُ في النهاية بأنك الخطيب الأنسب.

استمع كالوست لهذه الكلمات وسط دوامة من الأحاسيس،

تارة كئيباً لأن الخطة ما تزال قائمة، وتارة متحمساً بسبب الإمكانية التي كانت تنفتح أمامه.

- و... وما الذي عليّ أن أقوم به حتى تقتنعَ بهذا الأمر؟

توقف أوهانس عن المشي للمرة الأخيرة وحدّق إلى رفيق جولته بنظرة غامضة.

- لست أدري - قال - عليك أن تفاجئني.

5

كان صخب كبير يملأ الرصيف الثاني من «محطة الشرق»، ومسافرون يتركون وصايا آخر دقيقة وكلمات مواساة ووداع في اللحظات الأخيرة قبل أن يصعدوا إلى القطار. نزل حجاب الغروب الرقيق على باريس وكان حجم العربات المصطفة على طول الرصيف يتناقض مع الأجواء الباذخة داخل المقصورات، تُبرزهُ المصابيح الغازية التي تضيء الداخل كما لو أن كل عربة لؤلؤةٌ طويلة.

على الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة بالضبط، ظهر موظف يرتدي بدلة «الشركة الدولية لعربات النوم السككية»، تدل ربطة عنقه السوداء على أنه رئيس القطار ومراقبه، ثم أطل على أحد العربات. خيّم صمتٌ مفاجئ ودوى صوت المراقب عبر أرجاء المحطة.

- أيتها السيّدات، أيها السادة، اصعدوا القطار من فضلكم - أعلن - «قطار الشرق السريع» سينطلق بعد خمس دقائق.

ازدادت الجلبة واحتدت الآن أكثر من أي وقت مضى، فبدأ بحرٌ من الرؤوس يتحرك. تعانق الأزواج وافترقوا، بعضهم يذهب، وبعضهم يبقى؛ الأيادي تلوح، الحمّالون ينقلون الحقائب، المناديل

ترفرف فوق الرصيف، كلمات وقُبل تطير في الهواء بينما في هذا الوجه أو ذلك بدأت تجري دموع الحنين على من يرحلون.

- حان الوقت، أليس كذلك؟

ظلت عينا الآنسة دوبري الخضراوَين باسمتَين؛ إن كان هناك من سيبكي فليست هي بكل تأكيد. لم تكن ثمة أسباب تجعلها حزينة لأنه لم يكن الحب هو ما يربطها بذلك الرجل الذي كانت تودعه، بل مزيجاً غامضاً من الصداقة والمصلحة.

- نعم يا عزيزتي، حان الوقت - ردّ كالوست - حان الوقت - ثم رفع يده في تحية أخيرة - إلى اللقاء!

- سفر سعيد!

جاء حمّال وأخذ الحقائب، بينما الأرمني مرتدياً ملابس أنيقة وقبعة سوداء، ألقى نظرة أخيرة على الفرنسية قبل أن يستدير وينغمس في الحشد المتوجه نحو العربات، وبعد وقفة انتظار قصيرة، ولج العربة أخيراً.

وسرعان ما شعر أن جواً دافئاً وحميمياً يلفه. فحص المراقب تذكرته، وقام بتحية خفيفة من رأسه ليؤكد له أن كل شيء على ما يرام ثم رحب به.

- Soyez le bienvenu, m'sieur !

أعطى المراقب تعليمات للحمّال، الذي رافق المسافر حتى بلغ المقصورة رقم ثمانية.

- سوف تكون، يا سيّدي، بجوار أغنى رجل على متن هذا القطار - قال الحمّال، وهو يشير إلى المقصورة رقم سبعة - على الأقل، هو من يقدم لي أحسن الإكراميات.

فكّر كالوست في السؤال عن هوية جاره، لكنه ظن أن تلك

الملاحظة لم تكن سوى حيلة من الحمّال ليقنعه بأن يعطيه إكرامية سخية، فلم يقل شيئاً.

دخل إلى مقصورته ولاحظ، كما كان منتظراً، أن الديكور ينم عن بذخ أميري. كانت جدران المقصورة مغطاة بخشب الساج والماهوجني، والمقاعد مبطّنة بالجلد الإسباني الناعم بأشكال مذهبة، بينما الستائر، المشكلة من أثواب مطرّزة، كانت معلقة بحبال من حرير. كان هناك جرس للمناداة على الرقيب وخط للتحدث مباشرة مع المراقب.

- ليس من قبيل الصدف أنهم يسمون «قطار الشرق السريع» الفندق الكبير على عجلات! - لاحظ كالوست بينما كان الحمّال يرتب حقائبه في المقصورة - فندق باذخ، من دون شك!

قدّم للحمّال إكرامية بقيمة قرش، فتح النافذة واستند إلى حافتها. هناك في الخارج، كان حشد الناس الذين جاؤوا ليودعوا المسافرين قد تجمعوا على طول القطار. كان عدة أشخاص يرقبون النوافذ بعيونهم ليودعوا لآخر مرة من يرحلون. بحث بينهم عن وجه الآنسة دوبري لكنه لم يلمحه، وهو لم يكن ينتظر ذلك، على أي حال.

لقد قرر في لندن أن يعود إلى القسطنطينية على نحو أنيق، وكان أحسن اختيار هو «قطار الشرق السريع»، الذي بدأ يشتغل قبل أربع سنوات مع ضجة إعلامية كبيرة في الصحف. وكان انطباعه الأول يؤكد كل ما يُقال. لقد أطلقت عليه الصحف اسم «البساط الساحر نحو الشرق»، استعارة رنّانة أثارت فضوله؛ لذلك جاء خصيصاً إلى باريس كي يركب هذه الأعجوبة الحقيقية من أعاجيب العصور الحديثة.

لكن، بما أنه كان في المدينة الكبيرة، اغتنم الفرصة ليبقى بضعة أيام رفقة معلمته القديمة في مارسيليا، الآنسة دوبري، التي أنهت وقتئذ دراسة الأدب في جامعة السوربون. اكتشف كالوست أن باريس هي المتعة، خصوصاً بعد أن كانت الفرنسية دليله نهاراً عبر أماكنها الجذابة، تعير اهتماماً خاصاً لكنوز متحف اللوفر، واهتماماً آخر للعروض الجريئة التي تُقدّمُ في قاعة «فولي بيرجير». وليلاً، عندما ينسحبان إلى غرفة الفندق، كانت تسافر به عبر ما ينطوي عليه جسدها الأنثوي من ملذات، كأنهما يعودان إلى الدروس الليلية التي كانت تقدمها له في مارسيليا. كل ذلك مقابل حفنة من الفرنكات، طبعاً؛ فالصداقةُ صداقةٌ، وبقية الأمور الأخرى تجارةٌ.

دوّى صفيرٌ طويل في المحطة الكئيبة، فتبخرت ذكريات كالوست الحلوة عن أسبوع قضاه في باريس. تحرك حشد الناس في الرصيف، في قلق، وهم يحدسون أن الوقت قد حان؛ ارتفع الضجيج وصار متوتراً، وتعالت آخر الصيحات بكلمات الوداع، وخرجت الأيادي من النوافذ تلمس الأيادي التي تمتد إليها من الخارج، وتبادلوا القبل في الهواء، وآخر النظرات، مع ابتسامات وبضع دمعات. بتنهيدة طويلة وحزينة، كأنه بدأ يشعر بالحنين، ارتعش «قطار الشرق السريع»، كأنه يسعل، ثم تحرك في الأخير.

انطلقت الرحلة.

عندما خرج إلى الممر قصد القيام بجولة لاستكشاف القطار، استرعى انتباه كالوست صوتٌ غريب بدا له قادماً من المقصورة المجاورة، رقم سبعة. فكّر في تجاهل الضجيج، لكنه تذكّر ملاحظة الحمّال حول المسافر الذي يشغل المقصورة فتوقف. من يدري،

فلربما تنفتح أمامه هناك فرصة جديدة؟ في نهاية المطاف، أليست الأبواب الصغيرة هي التي تؤدي إلى القاعات الكبيرة؟ تجاوز التردد في أن يقحم نفسه فيما لا يعنيه، فعاد وطرق باب المقصورة.

- هل كل شيء على ما يرام؟

سمع صوتاً غريباً يغرغر، فشعر بالقلق ووضع يده على مقبض الباب ثم فتحها. وجد أمامه رجلاً يمشي على يديه وركبتيه فوق الأرض منكفئاً على بركة من القيء.

انتبه الرجل إلى أن أحدهم يرقبه من الممر فرفع رأسه.

- أشعر بوعكة...

دون أن يضيع مزيداً من الوقت، ضغط كالوست على الجرس طلباً للإغاثة وساعد المسافر المريض على أن ينهض. كانت رائحة كريهة تملأ أجواء المقصورة، فحرص على رفع الستائر وفتح النافذة حتى يفسح المجال لدخول الهواء المنعش. انتبه الرقيب إلى الجرس، فجاء بعد لحظات، ولما أدرك الوضع اتصل بالمراقب وطلب منه أن يرسل طبيباً. بعد أن تأكد من أن المريض قد بدأ يخرج من وعكته، أعلن أنه سوف يذهب ليأتي بسطل وأثواب لينظف المقصورة ثم اختفى في الممر.

في انتظار أن يصل الطبيب، سحب كالوست الرجل وأخرجه من المقصورة ثم رافقه إلى أقصى طرف في العربة حيث توجد المراحيض. كانت مصلحة النظافة قد وضعت في الباب مستخدماً تقتصر مهمته على تنظيف المراحيض بعد كل استعمال. بمساعدة هذا المستخدم، دخل كالوست إلى المرحاض وساعد رفيق سفره على غسل وجهه.

بعد ذلك، أعاد المسافر المريض إلى مقصورته، حيث كان طبيب القطار في انتظاره، يحمل حقيبة صغيرة في يده وسمّاعة طبية في عنقه. ولما لاحظ أن حضوره لم يعد ضرورياً وأنه قد صار مجرد متفرج على الحادث، ودّع كالوست الطبيب وذهب لحاله.

نقر خفيف على الباب، يكاد يكون مداعبة، قطع قراءة كالوست. كان زوال اليوم الثاني من الرحلة يشرف على نهايته وكرةُ الشمس المُحمرّة، على اليمين، تلامس السهل الأصفر الممتد في هنغاريا.

- ادخل!

انفتح الباب ورأى الأرمني رأساً بشارب ولحية بارزة ترقبه عند المدخل. كان مسافر المقصورة رقم سبعة.

- أنا جارك - قال الرجل وهو يقدم نفسه، بعد أن تعافى، كما يبدو، من وعكة البارحة - جئت أشكرك على لطفك. كنتَ طيباً جداً معي!

نهض كالوست بقفزة واحدة.

- آه، لا داعي للشكر! - صاح - يسعدني أن أراك بصحة جيدة! أظن أنك قد تجاوزت تلك الوعكة...

تصافحا.

- من دون شك - قال الجار - تناولتُ في باريس بعض قطع المحّار التي لم تلائمني. ومع اهتزاز القطار، رغم سلاسته، تقلبت معدتي فشعرت بالغثيان. بيد أن الطبيب عالجني، قدم لي بعض الأملاح العجيبة، وبعد ليلة ويوم من الراحة أشعر كأنني شاب - ثم أشار إلى الكتاب الذي وضعه كالوست على طاولة السرير - لا أودُّ

أن أقطع قراءتك. جئتُ فقط لأشكرك على لطفك معي ولأقول لك إنني رهن إشارتك في كل ما قد تحتاجه. لقد كنت، يا سيّدي، سخياً معي دون حدّ.

ثم تبادلا كلمات مجاملة أخرى، وتحدثا عن حظه لأن «قطار الشرق السريع» يتوفر على طبيب المداومة على متنه، لكن الحديث سرعان ما صار يدور في حلقة مفرغة في لحظة من اللحظات. ودون إضافة أي شيء آخر خوفاً من التكرار، توادعا.

عاد الأرمني إلى مكانه واستأنف القراءة. بعد نصف ساعة، عاد طرق جديد في الباب ليوقفه عن متابعة القراءة. ذهب ليفتح فرأى أنه المراقب هذه المرة.

- موسيو، إنها السابعة وخمس وأربعون دقيقة - قال بنبرة رسمية - سوف يُقدم العشاء بعد ربع ساعة.

بعد استئناف القراءة لما يكفي من الوقت لإنهاء الفصل، جمع كالوست الكتاب وذهب ليهيئ نفسه. عدّل ربطة عنقه أمام المرآة، ارتدى معطفه وخرج.

وصل إلى المطعم على الساعة الثامنة بالضبط. بعد أن غمر نفسه في الأجواء العامة، ركّز كالوست نظره على المسافرين وكان أول من رآه هو الوجه المألوف لجاره؛ كان الرجل جالساً قرب النافذة الثانية على اليسار، إلى مائدة من كرسيَّين.

- هل تسافر لوحدك - سأله المسافر الذي يشغل المقصورة رقم سبعة، وهو يقوم بحركة مجاملة يشير بها إلى الكرسي الفارغ أمامه - لماذا لا ترافقني؟

لم يتردد الوافد الجديد؛ فهناك ظهرت له فرصة جميلة كي

يحاول أن ينتزع من مرافقه في السفر القصة التي صنعت منه أغنى رجل على متن القطار، وفق ما جاء على لسان الحمّال.

- بكل سرور - قال، وهو يتوجه نحو المائدة - حان الوقت لأقدم لك نفسي - ثم مدّ يده - أنا المهندس كالوست ساركيسيان، من القسطنطينية.

نهض الجار، صافحه وابتسم.

- آه، ابن بلدي! - صاح، وهو يعود ليجلس - اسمي بازيل زاهاروف وأنا أيضاً من القسطنطينية!

- صدفة جميلة، يا سيّدي! - قال وهو يشدد على الكلمات - لكن، غريب، هذا الاسم لا يبدو عثمانياً جداً. . .

ضحك زاهاروف.

- إنك تنتبه لكل صغيرة وكبيرة، لاحظتُ ذلك! - صاح - ما حدث هو أن أسرتي اليونانية هربت إلى روسيا بعد المذابح التي ارتكبها الأتراك سنة 1821 فاكتسى اسمي العائلي صبغة روسية، رغم أننا عدنا بعد ذلك إلى القسطنطينية. ولدتُ تحت اسم زاكارياس بازيليوس زاكاروف، لكني أفضل أن ينادوني بازيل زاهاروف - ثم قطّب حاجبَيه الكثَّين - لأنه اسم أكثر غموضاً.

وهو يستمع إليه، راح كالوست يحرك أدوات المائدة المصنوعة من الفضة الخالصة الموضوعة على الطاولة.

- غريب، اسمك يبدو مألوفاً لدي - قال بتعبير فيه شيء من الحيرة - لست أدري أين سمعته.

رسم اليوناني تكشيرة على شفتيه الرقيقتين، شبه القاسيتين، وهو يتردد في طريقة الجواب.

- هذا يتوقف على مجال عملك. إن لم يكن ذلك سراً، ما الذي تقوم به في حياتك؟

- حسناً، انتهيتُ الآن من دراسة الهندسة وأنا عائد إلى القسطنطينية. الشيء المربح الوحيد الذي قمت به في السنوات الأخيرة هو بعض الاستثمارات الجيدة في بورصة لندن.

- إذاً، ربما تعرفني من هناك.

كان واضحاً أن محاوره يتردد في الفصح عن هويته، لذا ركز الأرمني على هذه الملاحظة وراح يستعرض ما قام به من استثمارات في البورصة. فكر في كل واحد من الأسهم التي اشتراها مع مرور الوقت، وبعد بضع ثوانٍ فتح عينيه على مصراعيهما في تعبير يدل على التعرّف.

- ماكسيم! - صاح - أنت يا سيّدي، هو الممثل الدولي لشركة ماكسيم!

- نوردينفيلت-ماكسيم - قال زاهاروف مصححاً بابتسامة - برافو، معلوماتك جيدة! لقد رأيتُ أنك مستثمر جيد! رغم أنه، في الحقيقة، شركتي هي نوردينفيلت. وبفضل مجهوداتي الخاصة، وأقول ذلك دون أي تواضع زائف، استطعنا أن نتحد مع ماكسيم. وأتوقع أن يكون هذا الاتحاد مثمراً ومفيداً.

تفحص كالوست بعناية الرجل أمامه. تذكر أن فيليب بليك كان قد حدثه عن بازيل زاهاروف، وأطلق عليه لقب «تاجر الموت»؛ لأنه يبيع السلاح للعالم كله. شعر الأرمني لحظتها بقشعريرة تسري في ظهره. فأن يشتري المرء بعض أسهم شركة ماكسيم، مجرد أوراق مجردة يتم تداولها في البورصة، شيء وأن يجلس إلى نفس المائدة مع الرجل المشرف على أكبر تجارة للأسلحة في العالم شيء آخر.

فما الذي ينبغي عليه أن يقوم به؟ أن ينهض ويغادر؟ خطرت الفكرة على باله، لكنه سرعان ما استبعدها. كان عليه أن يتصرف مثل رجل محترم. وفوق هذا، من يدري أنه قد يتعلم شيئاً ما من قصة نجاح مُحاوره؟

- بنصيحة من أحد الأصدقاء، اقتنيتُ قبل سنتين أسهماً لشركة ماكْسيمْ - كشف - لكنها لم تعد عليّ بأرباح بعد، وأخشى أن يستمر الأمر على هذا الحال...

- إنك مخطئ، يا عزيزي. منذ اللحظة التي انضمَّتْ إلينا، لم تعد ماكْسيمْ خصماً ننسفهُ بل أضحت حليفاً نُشجعهُ - ثم انحنى على المائدة - لقد بدأتُ في التفاوض حول عقود رائعة! هل تعرف أن...

- هل تريدان أن تطّلعا على قائمة الطعام؟

قاطع نادلٌ حديثهما وقدم لهما لائحة المأكولات، المكتوبة بحروف مذهبة، والمتميزة بتنوع يليق بوليمة. لم تكن اللائحة لاختيار الأطباق، بل للإخبار بما سيأتي، ثم سرعان ما بدأ تقديم العشاء بينما كان الجالسون للأكل يتحدثون عن الأعمال والصفقات.

- أخشى أن أكون مسؤولاً عن قلة المردودية النسبية لأسهمك - قال زاهاروف متباهياً وهو يأكل - أتعرف، عندما كانت ماكسيم منافسنا لم أقم بشيء آخر غير نسْفها.

- نسْفها؟ كيف ذلك؟

- آه، لا يمكنك أن تتصور ذلك! قبل سنتين، استدعت القوات المسلحة الإيطالية شركتَي نوردينفيلت وماكسيم إلى لا سبيتسيا للقيام بعرض رشاشتَيهما. رشاشتُنا كانت هي الأسوأ، بطبيعة الحال.

وكانت رشاشة شركة ماكسيم مدهشة. وعياً مني بأنه في ظروف متساوية سنخسر لا محالة، هل تعرف ما الذي قمتُ به؟ في الليلة التي سبقت العرض وجدت طريقة كي آخذ ممثلي شركة ماكسيم إلى أحد المواخير في لا سبيتسيا، بعد أن قدّمتُ تعليمات صارمة إلى الفتيات بأن يتركوهم مغمى عليهم. وأنجزت الفتيات عملهن بحماس كبير حتى أن ممثلي ماكسيم لم يتمكنوا من الحضور للقيام بالعرض. وماهي النتيجة؟ شركة نوردينفيلت هي من فازت بالعقد.

قطّب كالوست حاجبه.

- لا يبدو أنها منافسة عادلة...

- يا عزيزي، في التجارة، كما في الحرب والحب، كل شيء مباح - قال اليوناني جازماً - في السنة الماضية، نظم الجيش النمساوي-المجري عرضاً في فيينا. لم يعد ممكناً أن أستعمل حيلة الماخور مرة أخرى، بطبيعة الحال. إذاً، ماذا فعلتُ؟ رشوْتُ حارس المستودع حيث كانت شركة ماكسيم تحتفظ بتجهيزاتها، وفي الليلة التي سبقت العرض ذهبتُ إلى هناك وعبثْتُ برشاشتهم. وحين جاء وقت تقديم ما يمكنها القيام به، أطلقت رشاشة ماكسيم طلقة أو طلقتين وبّافْ... انْسدّت. ثم فُزنا بذلك العقد أيضاً! حطّمتُ شركة ماكسيم بطريقة قويّة حتى أدركوا أنهم لن يصلوا إلى أي شيء وقبلوا، في الأخير، أن يندمجوا مع نوردينفيلت. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لديهم ليتخلصوا مني.

- مما يعني - قال كالوست مندهشاً - أنك أصبحت ممثلاً لتلك الرشاشات نفسها التي كُنتَ تَنْسفُها قبل وقت قليل!

أطلق اليوناني قهقهة عالية.

- أخبرني إن لم يكن هذا من فعل عبقري؟

وبينما هما يتحدثان، كان النُّدل، كلهم يرتدون معاطف طويلة، سراويل تصل إلى الركبة وجوارب من حرير، يضعون الأطباق ويرفعونها من فوق المائدة. كانت كلها من خزف «سيفر» بحواشي مذهبة. بعد الحساء التمهيدي، جاءت المقبلات المُشكّلة من المحّار، والكافيار والسلطعون. بعد ذلك، حضَرَ طبقٌ من السمك الأحمر المشوي، وطبقٌ من لحم الغزال ثم دجاج بالبرقوق. في الأخير، قُدّمت لهم تشكيلة من البوظة، حلويات متنوعة، دزينة من أنواع الجبن والفواكه المختلفة. وكان اهتزاز القطار خفيفاً جداً حتى أنه لم تنسكب ولو قطرة واحدة من النبيذ في الكؤوس المصنوعة من بلور باكارا الموضوعة فوق المائدة.

عند نهاية الأكل، بعد ساعتين، انتقل كالوست وزاهاروف إلى قاعة الجلوس، الواقعة عند نهاية العربة-المطعم. كانت المقصورة مؤثثة بأرائك من الجلد ورفوف مكتبة تعج بمؤلفات وجرائد بلغات مختلفة، لتخلق بذلك أجواء تحاكي أجواء نادٍ لندني خاص. طلب الأرمني كأساً من نبيذ بورتو، واختار اليوناني كأساً من خمر كونياك نابليون عبّ منه الكثير، مدعياً أنه ما يزال يحتفل بالاندماج الذي تم قبل أسابيع قليلة فقط بين نوردينفيلت وماكسيم.

كان تاجر الأسلحة يتبجّح بوتيرة حياته الحافلة. قال إنه يقضي وقته في الأسفار ولا ينزل إلا بالفنادق الباذخة، معلومة أثارت اندهاش كالوست. لكن ما كان المهندس الأرمني الشاب يرغب حقاً في سماعه كان شيئاً مختلفاً. كان الأرمني يتحرّق فضولاً لمعرفة كيف تمكن رجل الأعمال الناجح من الحصول على أول عقد مهم،

وهي التجربة التي يظن أنها قد تفيده وتقدم له خيوطاً تقوده نحو مستقبله المهني، لكنه كان يتردد في طرح السؤال مباشرة.

فقط ساعة بعد ذلك، عندما لاحظ أن مُحاورَه قد شرب كثيراً من الخمر وراح يتحدث بسيطرة أقل على ما يتفوه به، تجرأ ليتناول الموضوع.

- من الأشياء التي تهمني معرفتها لدى أي رجل أعمال الطريقة التي ارتقى بها عبر مراتب الحياة - قال وكأنه لا يشير إلى أي شخص على وجه التحديد - يمكن استخلاص دروس مهمة من هذه القصص، ألا تظن ذلك؟

- وهل تظن أنه لا يمكن استخلاص دروس منها؟ - قال زاهاروف موافقاً وبريق سائل يلمع في عينيه، ينظر إلى الشراب بلون الكاراميل يتراقص في الكأس. ربما كانت تلك هي رابع كمية من نبيذ الكونياك استهلكها بعد العشاء فبدأ لسانه يتلوى عند الكلام - انظر إلى قصتي. كنتُ مجرد نكرة. بدأتُ أقتاد السواح إلى المواخير في القسطنطينية. ذات يوم، رشّحني أحد الأصدقاء لأشغل وظيفة بائع في شركة نوردينفيلت. كان عملاً بدوام جزئي. كنتُ أتقاضى أجراً هزيلاً، خمس ليرات في الأسبوع، لكنهم وعدوني بدفع عمولة بنسبة عشرة في المائة عن كل صفقة بيع أحصل عليها لفائدة الشركة. يبدو الأمر جيداً للوهلة الأولى، لكن أتعرف ما هو المنتوج الذي كلفوني ببيعه؟ غواصة لعينة لم تكن أعطابها تتوقف! في تلك الفترة، لم يكن أحد يعرف حتى ما هي الغواصة ولم تستطع شركة نوردينفيلت إقناع أي أحد باقتنائها. وقد أمروني أنا ببيع ذلك الهراء!

- آه، وماذا فعلت لتتدبّر أمرك؟

وضع زاهاروف سبّابته على جبينه.

- استخدمتُ عقلي، يا رجل! - ثم ردعَ تجشؤاً - كانت البلقان على طريق الحرب بسبب العثمانيين، أليس كذلك؟ بما أنه لم يكن أحد يرغب في تلك الغواصات اللعينة، طلبتُ من نوردينفيلت أن يسمحوا لي ببيع القطعة الأولى منها بأقل من ثمن التكلفة. رفض أولئك البخلاء! لكني أقنعتهم. بعد ذلك، ذهبتُ إلى أثينا والتقيت بوزير الدفاع اليوناني. عرضتُ عليه الغواصة بخصم جيد جداً، وقلتُ له إن الآلة الجديدة سوف توقف العثمانيين عند حدّهم... ثم أخبرتُه، بطبيعة الحال، أن مبلغا بخمسة في المائة من ثمن البيع سأحوله على حسابه الخاص. أُبرمت الصفقة وهكذا بعتُ أول غواصة!

- لا أدري كم هو ثمن الغواصات، لكني لا أظن أن بيع غواصة واحدة يمكن أن يصنع ثروة أي كان...

رفع اليوناني كفّ يده.

- هدئ من روعك، يا رجل! هدئ من روعك، إنني لم أنته بعد - ثم شرب جرعة أخرى من الكونياك - عندما غادرتُ أثينا، أتدري أين ذهبتُ على الفور؟ قصدت مباشرة القسطنطينية، طبعاً! حددت لقاء مع وزير الحرب العثماني، وبنبرة تهويل أخبرتُه أن اليونانيين قد اقتنوا مؤخراً سفينة خطيرة تتحرك تحت الماء ويمكن أن تتسلل إلى بحر مرمرة دون أن يراها أحد. يا للهول! يمكنها أن تتجول في البوسفور وتنسف قصر السلطان! تملّك الرجل خوفٌ شديد. لو رأيت ذلك! بعدها، طلب مني غواصتين، وبثمنهما الحقيقي هذه المرة!

- مدهش! صفقة بيع من دون بقشيش. عمل رائع!

- ماذا؟ صحيح أن الوزير كان غبياً، لكن ليس إلى هذا الحد! أخذ عمولته، طبعاً!

- آه.

- وماذا فعلتُ بعد ذلك؟ وجدتُ طريقة لأزود رجال المخابرات الروس بمعلومات تفيد بأن القوات المسلحة العثمانية قد اقتنت للتو غواصتين قويتين، قادرتين على الإبحار في مياه البحر الأسود ويمكنهما قصف المنشآت البحرية في شبه جزيرة القرم. كاد القيصر أن يجن من الغضب، المسكين! وسرعان ما أرسل مستشاره في الشؤون البحرية إلى لندن ليقتني حفنة من غواصاتنا! وهنا، دون بقشيش!

- وأخذت أنت عمولتك، بطبيعة الحال.

عبّ زاهاروف ما تبقى من الكونياك ووضع بصوت مرتفع الكأس على مائدة قاعة الجلوس. بعد ذلك، نهض من المكان لينسحب إلى مقصورته.

- أصبحتُ غنياً، يا رجل!

خلال بقية الرحلة، لم يبحث كالوست مرة أخرى عن جاره في المقصورة. من جهة أخرى، وانطلاقاً من بوخاريست، بدأ زاهاروف يستمتع برفقة رومانية شقراء أدخلها أحدهم إلى مقصورته رقم سبعة، فصار الأرمني يكتفي بتحية شكلية وبعيدة، كلما صادفه، أو صادفهما، في القطار.

عندما وصل «قطار الشرق السريع» إلى مدينة نيس، في صربيا، أعلن رئيس القطار للمسافرين أن عليهم أن ينتقلوا إلى مصلحة العربات التي تجرها الخيول من أجل مواصلة الرحلة، لأن بناء خط

السكة الحديدية في بلغاريا لم يكن قد اكتمل بعد. ترجّل كالوست من القطار بمساعدة أحد الحمّالين الذي حمل حقائبه إلى عربة بها أربعة مقاعد ويجرها حصانان. كان داخلُها مُريحاً على ما يبدو، بيد أنه كان ضيّقاً وبه نوافذ صغيرة جداً.

- يا لها من نوافذ لعينة - احتج الأرمني - لا يمكن للمرء أن يتنفس! ألا يمكن توفير عربة بنوافذ أكبر من هاته؟

كان الحوذي يحمل سوطاً في يده، فهزّ رأسه.

- ليس من باب الصدفة أن يكون حجم النوافذ صغيراً بهذا الشكل - قال وهو يستعد ليصعد - بل لأسباب أمنية.

- لأسباب أمنية؟ كيف ذلك؟

صعد الحوذي إلى مقعد القيادة.

- لحماية المسافرين من طلقات الرصاص، يا سيّدي، طلقات الرصاص! - صاح وهو يمسك الزمام - بفضل هذه النوافذ الضيقة يبقى المسافرون في مأمن من الرصاص الذي يطلقه اللصوص الذين تعج بهم الطريق.

أصابت تلك المعلومة بالهلع الركاب الأربعة الذين يشغلون العربة التي كان كالوست على متنها، بل إن الأرمني بدأ يتساءل عن الحكمة من خوض تلك المغامرة. كان يُقال إنه فقط في السنة الموالية سوف تنتهي الأشغال الناقصة في بلغاريا حتى يصبح من الممكن الذهاب حتى القسطنطينية دون اللجوء إلى المراسلة في نيس. بل إنه فكر في عدم متابعة الرحلة، بيد أنه تراجع عن ذلك. ما العمل؟ هل يبقى هناك في نيس، يتفرج على قطعان البقر وهي ترعى؟ انتبه إلى أنه فات الأوان كي يعود إلى الوراء، وبخنوع تقبل مقعده في المقصورة الضيقة.

تبين أن الرحلة على متن العربة كانت كابوساً حقيقياً. تابعوا الرحلة يقفزون لمسافة أكثر من مائتي كيلومتر عبر طرق بدائية، واجتازوا مقاطع في مناطق برية. مع أنهم لم يتوقفوا إلا لفترات قصيرة، في قرى تعتبر آمنة نسبياً من أجل تغيير الخيول.

- إذا ما اضطررنا، لأي سبب، لنبقى في قرية من هذه القرى - قال الحوذي في وقفة من تلك الوقفات - فإن المسافرين عليهم أن يناموا داخل العربات.

- غير معقول! ولماذا؟

- لدواعٍ أمنية وصحّية.

لم يقنع كلامُه بعض المسافرين المنزعجين من كل تلك المضايقات، بيد أن الأحداث، في نهاية المطاف، أظهرت أن الحوذي كان على حق. عند منتصف الرحلة، وبعد أن تجاوزوا صوفيا، سُمعت طلقات في الخارج تفاعل معها بهلع ركّابُ العربة، حيث كان المهندس الشاب.

- يا إلهي! - صاحت امرأة فرنسية بدينة، وقد شحب وجهها الوردي عادة - سوف نموت!

انكمش كالوست في مكانه، وشحب لونُه من الخوف كذلك. شعر بذُعر شديد فلم يكن قادراً على أن يصدر أدنى أنين من الخوف؛ وكان أعلى صوت يخرج من جسده هو دقات قلبه الجامح. تواصلت الطلقات من حوله، أحياناً قريبة ولكنها بعيدة في معظم الأوقات، بيد أن العربة تابعت سيرها، كما لو أن ما يجري على الطريق لا يعنيها في شيء. بعد بضعة كيلومترات، عاد الهدوء وتابعت العربة تقدمها. لم تتوقف إلا في الصباح الموالي عندما

وصلوا، أخيراً، إلى تتار بازاردزيك وتمكنوا من الانتقال إلى قطار آخر تابع للشركة الدولية لعربات النوم السككية.

انطلق القطار بعد أن وصلت كل العربات سالمة. كانت الرحلة قصيرة نسبياً، إذ بعد بضع ساعات، والمسافرون ما زالوا يستجمعون أنفاسهم من تعب الرحلة على متن العربات، راح أحد المراقبين يطرق أبواب المقصورات وهو يحمل لهم أكبر خبر كانوا يتطلعون إليه بشوق في تلك اللحظات.

- سيّداتي، سادتي - كان يقول بينما الأبواب تُفتح - سنصلُ إلى القسطنطينية بعد ثلاثين دقيقة.

6

كان هناك شيء ما يبعث على الهدوء في الزخم البعيد للزوارق الشراعية والسفن التي تزدحم في بحر مرمرة وتتجه كلها نحو البوسفور أو تأتي منه، تنساب دائماً في هدوء قبالة المنازل التي تظهر في الأفق، مثل لوحة مائية رُسمت بألوان مضيئة. كانت صورة القسطنطينية تملأ نافذة قاعة الأكل حيث كانت عائلة ساركيسيان تتناول الغداء. مشهد حصري كانت عينا كالوست، اللتان لم تعودا معتادتين على ذلك المنظر الخلاب، لا تتعبان من تأمّله.

أما انتباه الوالدين فظلّ منصباً على الابن الذي عاد مؤخراً إلى البيت. كان هو، وليس المدينة البعيدة، من يدخل الفرح على عيونهما.

- الآن، وقد أنهيت دراستك - قال فاهان بينما كان يتناول الحساء - ما الذي تنوي القيام به؟

كان سؤالاً وجيهاً. في الأيام الأخيرة، كان الشاب نفسه يتساءل آلاف المرات حول مستقبله.

- لا أعرف - ردّ - ربما أشتغل بالتجارة. . .

- التجارة؟ أي تجارة؟ ألم تكن الدراسة التي تابعتها هي الهندسة؟

- بالفعل.

- إذاً... اشتغل بالهندسة! هناك الكثير من الأعمال التي تنتظر الإنجاز في هذا البلد! - ثم أخذ ملعقة حساء أخرى - هل تريد أن أتحدث مع سليم باي كي يرى أين يمكن تطبيق معارفك؟

انكمش وجه كالوست بتكشيرة متحفظة.

- إن أردتَ أن أكونَ صريحاً معك، فإنه لا يعجبني الاشتغال في بناء الطرق، والقناطر، والبنايات ولست أدري أي شيء آخر...

وضع الأب الملعقة في صحن الحساء وحدّق إلى الشاب بتعبير من لا يصدق الأمر.

- إذاً، لماذا درست الهندسة؟ - سأله - لماذا كنتُ أنفق على إقامتك في لندن؟ انظر، لقد كلفني ذلك كثيراً! لا بد من وجود عائد لهذا الاستثمار، ألا يبدو لك؟ وقُمتَ بمسار دراسي جيّد، سوف تجد عملاً، بكل تأكيد.

ومرة أخرى، انحرفت نظرات كالوست نحو القسطنطينية، التي كانت تملأ النافذة على امتدادها. ركّز انتباهه على حسن منطقة إسطنبول، حيث تبرز معالم آيا صوفيا ومسجد السليمانية. كانا يبدوان مثل عملاقين متأهبين على الدوام، وتلفُّ كلا المعبدين منارات مثل سلطان تحيط به محظيات الحريم.

- لقد كان موضوع أطروحة نهاية الدراسة التي أنجزتُها حول النفط - ذكّر والده بنبرة قصيّة - حسناً، أنت، يا سيّدي، تتمتع برخصة حصرية لتزويد السلطان بالكيروسين، أليس كذلك؟ ثم أشاح بنظره عن المدينة البعيدة وواجه والده - لماذا لا نُوفّق بين الأمرَين؟

- هل تريد أن تشتغل بتجارة الكيروسين؟ لكن، انظر، هذا عمل من يمارس التجارة...

- حتى أكون صادقاً، تجارة الكيروسين بالتقسيط لا تهمني أيضاً. ما يبدو لي مثيراً في الحقيقة هو الإمساك بتجارة النفط من أصلها وإعادة التفكير في هندستها. عندما درستُ الموضوع في لندن انتبهتُ إلى أن الأمر ينطوي على إمكانيات مدهشة. بما أننا ما زلنا في بداية الاستكشاف وقليل من الناس من لديهم فكرة صحيحة عما يجري، فإن من يكون سباقاً إلى هذا المجال يمكن أن يحصل على امتياز حاسم.

- هل ما زلنا في البداية؟ لكن... لكن هناك كثير من الناس يشتغلون بهذه التجارة منذ زمان!

- أشخاص بدون تكوين ولا تأهيل، سيّدي. مغامرون، ليس إلا! أما أنا فأتحدث عن شيء احترافي، هل تفهمني؟ شيء جدي، كما هو الحال في أمريكا.

تحول انتباه فاهان من جديد إلى الحساء. ثم غرق الجالسون إلى المائدة لحظة في صمت تأملي. بالكاد كان يُسمع حول المائدة صوت المعالق تصطدم بالصحون والحساء يُشرب على وتيرة مُوَقّعة، كأنه قطعة موسيقية من الخشخشة.

انتهى شيخُ آل ساركيسيان من تناول الحساء وانتظر أن يرفع الخدم الصحن الفارغ قبل أن يستأنف كلامه.

- أتعرفُ ما هو رأيي؟ أنت بحاجة لتقوم برحلة.

حدّق إليه الابن بنظرة متسائلة.

- رحلة؟ إلى أين؟

جاء الخدم من جديد ووضعوا صينية من الخوروفات وسط المائدة. كانت تنبعث من اللحم المشوي رائحة شهية أسالت لعاب

الوافد الجديد؛ فمنذ مدة طويلة لم يذق كالوست هذه الوجبة اللذيذة التي ألفها في طفولته.

- إلى أرض الكيروسين أيها الفتى.

مكتبة
t.me/t_pdf

أطلق القطار نفثة طويلة بها دخان كثير، كأنه يلهث من الإرهاق. وباهتزاز أخير، كأنه رعشة من سكرات الموت، تحركت العربات في النهاية.

بعد إلقاء نظرة أخيرة خاطفة عبر النافذة، في محاولة لجسّ نبض المدينة، أشار كالوست إلى حمّال شركة السكة الحديدية فجاء الشاب الجورجي، المعتز بأصوله النبيلة رغم ما آل إليه من فقر، وأخذ الحقيبتين وسحبهما عبر الممر حتى الباب. وبمجهود أخير، وضعهما عند الرصيف.

نزل الأرمني بعد ذلك، دفع إكرامية من تسعة بنسات وسرعان ما حاصره ثلاثة من الحوذيين التتار يرتدون ملابسهم التقليدية.

- هل تريد نقلاً، سيّدي؟

اختار منهم كالوست ذلك الحوذي الذي كان شكله يبعث على قدر أكبر من الثقة وسار وراءه فوق الرصيف حتى غادرا محطة القطار وامتطيا عربة مهترئة. كان واضحاً أن العربة تعاني من نقص كبير في الصيانة.

- إلى الفندق الكبير.

بعد أن رأى كيف رتّب الحوذي التتري الحقيبتين، صعد المسافر الوافد إلى العربة وجلس بداخلها. عندما انطلقت العربة، جلس إلى النافذة وراح يلتهم المدينة بحواسه.

باكو.

كانت الرحلة طويلة منذ أن غادر قبل ثلاثة أسابيع رصيف غلطة في القسطنطينية، على متن سفينة «نييمين». قطع البوسفور وأبحر عبر البحر الأسود حتى باطوم، ومنها عبر منغريليا على متن قطار تابع لشركة «سكك القوقاز» الذي أخذه إلى تيفليس. ومن الطابق الثالث لفندق برلين رأى القيصر والقيصرة بلحمهما ودمهما يتجولان على متن عربة جميلة عبر شوارع عاصمة القوقاز الروسية، رفقة وريث القيصر وباقي أفراد الحاشية، كلهم تحت حراسة جنود من الأرمن، والجورجيين والتتار في أزيائهم العسكرية الأنيقة. آه، مشهد رائع!

لكنه، في تلك اللحظة، كان في باكو، الوجهة الحقيقية لرحلته، وكانت دهشته أكبر من المتوقع. كان كالوست ينتظر أن يجد مدينة يغلب عليها الطابع الفارسي، ربما يهيمن عليها برج انتحرت من فوقه بنتُ الخان، على الأقل لو صدق ما تقوله رواية ألكسندر دوما المؤثرة التي قرأها من قبل في مارسليا. لكن ما وجده بينما كانت العربة تقطع شوارع المدينة الأزيرية كانت حاضرة حديثة، بها محجّات عريضة وبنايات واسعة حديثة العهد. شعر بإحساس من الخيبة؛ كان يبحث عن سحر أمراء الأيام الخوالي، لكنه لم ير فرقاً كبيراً بين تلك المدينة وكثير من الحواضر الروسية الأخرى.

كانت الريح تصفقُ وجهه، تحرك شعره بعنف، عندما زكمت رائحة قوية أنفه فجأة. بدت له الرائحة الكريهة مزعجة، بها شيء من الحموضة، ربما ناتجة عن مادة كيماوية نتنة. مدّ عنقه عبر النافذة، وقام بمجهود حتى يُسمع صوته رغم ضجيج العربة المتحركة، ثم صاح إلى الحوذي.

- ما هذه الرائحة؟

كان الرجل يرفع السوط في الهواء ليضرب الحصان، لكنه تجمد في مكانه.

- نفط، يا سيّدي! إنها رائحة النفط! - ثم أشار إلى الطريق التي كانوا يمشون فوقها - هل رأيت هناك؟

نزلت عيون الراكب نحو الطريق فلاحظ بقعة رمادية تميل إلى الزرقة كانت تغطي الطريق جزئياً. فحصها بعناية وأدرك أن الروس كانوا يستعملون مخلفات معامل تصفية النفط، التي تتجمد فتكتسب صلابة وقوة، في تبليط الشوارع. كان الاشمئزاز هو أول ردّ فعل صدر عنه، لكنه، بعد أن لاحظ عربات وخيول أخرى تعبر نفس الشارع لاحظ أنه لا أحد منها كان يرفع غباراً أو يقذف وحلاً عند مروره. استنتج، حينئذ، أن استعمال النفط الصلب لتبليط الطرق كان ينطوي، في نهاية الأمر، على شيء من الذكاء. من يدري، ربما يتم تصدير هذه الفكرة إلى أوروبا؟

وسط صيحات «أووا» و«توقف»، أوقف الحوذي الخيل وقطع مسلسل أفكار الراكب. وسرعان ما خفّت سرعة العربة ثم توقفت في النهاية.

- لقد وصلنا، يا سيّدي - أخبره الحوذي ما إن قفز إلى الأرض وخيّم الصمت. وعلى الفور، شرع الرجل في إخراج الحقيبتين - هذا هو «الفندق الكبير» في باكو!

كانت البناية معروفة بأنها أحسن فندق في المدينة وتبيّن أنها تتوفر على ديكور جميل وأثاث جيد نسبياً، لكنها لم تثر اندهاش كالوست. كانت الرحلة على متن «قطار الشرق السريع» قد غرست فيه الميول إلى البذخ، خصوصاً بعد أن سمع بازيل زاهاروف يصف

حياته وهو يتجول بين أحسن فنادق أوروبا. نعم، تلك هي متعة الحياة الحقيقية!

وبينما هو يرتب الحقيبتين في الغرفة، سمع طرقاً على الباب وذهب ليفتح. في الممر، كان يحدق إليه بعينين زرقاوين جداً رجلٌ وقف مسمراً بقامته الطويلة، له لحية وشعر أشقر ممشوط بعناية. كان يبدو في الثلاثين من عمره ويمسك قبعة في يده.

- مساء الخير - قال محيياً - أتحدث مع السيّد ساركيسيان، أظن...

- نعم، أنا هو.

مدّ الغريب يده.

- اسمي إيمانويل نوبل - قدّم نفسه - أنا من يزود والدك بالكيروسين وتلقيت منه برقية يخبرني فيها بوصولك ويطلب مني أن أكون دليلك في المدينة. أطلعني مدير الفندق أنك قد نزلتَ للتو فجئتُ على الفور لأكون رهن إشارتك.

بعد أن حيا كالوست الزائر وشكره على لطفه، طلب منه أن يمنحه فقط لحظة كي يحضّر نفسه. وما هي إلا لحظات حتى استحمّ وتعطر، ثم نزل سلاليم الفندق نحو الرواق ليلتقي مرة أخرى بدليله الجديد.

- هل أنت من عائلة نوبل، يا سيّدي؟ - سأل مرافقه الجديد - نفس آل نوبل الذين يسيطرون على تجارة النفط في روسيا؟

- نحن بالضبط.

- غريب هذا الأمر! تصور أنني قرأتُ كثيراً عن استثماراتكم عندما كنتُ أُحضّر أطروحة نهاية الدراسة في كلية كينجز! يبدو أن

أحد أقربائك، السيّد لودفيغ، هو أكبر رجل أعمال في مجال النفط في هذه الجهة من العالم.

- كان هو أبي. توفي في السنة الماضية، مع الأسف...

ترك هذا الخبر كالوست في حرج لبضع لحظات.

- آه، عذراً! لم أكن أعرف.

- لا عليك. منذ وفاة والدي تحملتُ مصير المقاولة.

- وماذا عن أعمامك؟ ماذا عن ذاك الذي ابتكر الديناميت؟ يبدو لي أنني قرأتُ في مكان ما أنه قد توفي بدوره...

- عمّي ألفريد؟ كان ذلك خطأً ارتكبته الجرائد. عندما توفي والدي، ظنّت الجرائد أن عمي هو من مات فنشرت خبر وفاة مخترع الديناميت. بعضهم أطلق عليه اسم «مخترع الموت» - ثم علت وجهه ابتسامة خفيفة - دخل عمي في حالة اكتئاب خطيرة عندما قرأ خبر نعيه، المسكين. أدرك أن الناس سوف يذكرونه دائماً بصفته مخترع الديناميت. أثرت فيه الأخبار تأثيراً قوياً لدرجة أنه أعاد النظر في وصيته بغرض خلق بعض الجوائز التي قد تحسن من سمعته - هزّ كتفيه - تبذير للمال، إن أردتَ رأيي الخاص... لكن، على أي، هو منشغل بأموره، لذا فضل أن يترك لي تدبير أعماله هنا في باكو. كما لا بد أنك تقدّر، ليس هناك كثير من الناس مستعدون ليدفنوا أنفسهم في مدينة كهذه.

غادرا الفندق، ولاحظ الأرمني أن رائحة النفط القوية، التي أزعجته كثيراً لما كان في العربة، قد أصبح لا يبالي بها تقريباً. لا شك في أن الناس يتعودون على كل شيء.

بحركة مَلَكية، صَرَف إيمانويل عربته، مفضلاً أن يقدم المدينة للزائر في جولةٍ مشياً على الأقدام. وكان يمشي خلفهما رجل فارع

الطول قوي البنية، له لحية قرصان ومسدس في حزامه سمّاه المستضيف «كوتشي»، تَتَريٌّ يقومُ بمهمة حارسه الشخصي.

- وهل أنت بحاجة لحارس شخصي؟ - قال كالوست مندهشاً - إننا في قلب الحضارة، أليس كذلك؟

ارتسمت على وجه إيمانويل ابتسامة ساخرة.

- أتظن ذلك؟

ولمّا يقطعا ثلاثمائة متر حتى انهال جسم على كالوست دون سابق إنذار. ارتفعت جلبة مفاجئة على يمين الأرمني الذي وجد نفسه مستلقياً على ظهره في الشارع، وقد شلّ الرجلُ الذي يجثو فوقه كل حركاته. وحتى قبل أن ينتبه لما يجري، شعر بثقل الغريب يختفي، فأدرك أن «الكوتشي»، حارس إيمانويل الشخصي، قد أمسكه كما لو أنه مجرد كيس من البطاطس وألقى به وسط الطريق المُعبّدة.

وهو ما يزال مذهولاً بالأحداث غير المتوقعة، نهض كالوست، متعثراً، ثم نظر باتجاه الجلبة. رجل ضخم، ربما يبلغ طوله مترين بوجه طويل خشن، لحية سوداء كثة، والسوط في يده، كان يصارع ثلاثة رجال قصار القامة شكلهم حقير. وكان من الصعب معرفة من له الغلبة، إذ ما إن يتخلص الرجل الضخم من أحد المعتدين حتى يعود الآخران للهجوم.

أشار إيمانويل إلى «الكوتشي» فانغمس الحارس التَّتري في النزاع مثل ثور، يساعد الرجل الضخم في السيطرة على خصومه. وهم يواجهون عملاقَين حقيقيَّين، أدرك الرجال القصار أنه ليست لديهم أي إمكانية فلاذوا فوراً بالفرار، وكان أحدهم يعرج، لكن العملاق لم يتركهم وراح يجري وراء الهاربين، يعنفهم بالسوط.

لكن، بعد عدة أمتار، تخلى الملاحقُ عن هدفه وعاد أدراجه؛ كان خصومُه، رغم أنهم يعرجون، أسرع منه بكثير.

- ماذا، يا أربيار؟ - سأل السويدي العملاقَ عندما عاد الهدوء إلى الشارع - هل ما زلتَ تطاردهم، حتى بعد أن ألحقت بهم الهزيمة؟ يبدو لي أنها مبالغة في الشر من طرفك. . .

وبينما كان يدنو من الوافدَين الجديدَين، راح الرجل الضخم يرتب ملابسه الممزقة ويطوي السوط. كان يلهث، بيد أن ما يبرز فيه، علاوة على هيئة العملاق العنيف، نظرته التي تنم عن شخص نوعاً ما مجنون ومتوحش، بل وشرير، ربما بسبب حاجبَيه الكثَّين اللذين يمنحانه شكل مفستوفيليس ضخم البنية.

- مبالغة في الشر؟ - زأر بصوت قوي كالرعد - أنا شرير! أنا شرير جداً! وأفتخر بذلك! أتعرف لماذا؟ لأن الضعفاء فقط هم الطيبون، هل فهمت؟ ويؤدون دور الطيبين لأنهم ليسوا أقوياء بما يكفي ليكونوا أشراراً!

- حسناً، أنا أعرف نظريتك - قال إيمانويل بنبرة متسامحة - لكن، ألا ترى أنه حان الوقت لتحكم عقلك؟ لماذا لا تترك «الكوتشي» يحاربون من أجلك؟

- لست بحاجة إلى هؤلاء الخنائى! - ثم أشار إلى التّتري خلف محاوره - ولست بحاجة أيضاً إلى مساعدة حارسك الشخصي. أنا قادر لوحدي على التخلص من هذه الشرذمة من أصحاب الثياب الرّثة!

- تسسس، تسسسس! ردّ عليه السويدي في حركة لوم - إنه نكران جميل كامل، عزيزي أربيار زينوفييف! أرسلتُ حارسي

الخاص ليقدم لك المساعدة وأنت تشكرني بهذه الطريقة؟ لكن، ما هذا؟

- وماذا تريدني أن أفعل لأجلك؟ أن أعطيك قبلة؟

- كلمة «شكراً» بسيطة قد تكفي.

استنشق زينوفييف بعمق، ثم التفت يميناً وقذف بصقة ضخمة على الأرض.

- هل تريد شكراً؟ إذاً، تعال غداً ليلاً إلى قصري! وسترى حفلة حقيقية!

- هل هذه دعوة؟

وضع العملاق يديه على خصره، تجهّم وجهه وطوى السوط في يده، ثم واجه مُحاورَهُ كمن يستعد للصراع.

- هذا أمر!

قاد إيمانويل كالوست، المندهش والخائف، عبر شوارع باكو وهما في طريق العودة. نزع الأرمني معطفه بل ونفض عنه الغبار الذي وسخه عندما سقط على الأرض؛ فقد أفقده الحادثُ كل رغبة في مواصلة الجولة وطلب أن يعود إلى الفندق. رغم الفزع، كان يشعر خصوصاً بالحيرة من ذلك المشهد الذي عاينه قبل لحظات.

- هل يحدث هذا دائماً؟

ضحك السويدي.

- لنقل إن باكو مدينة كثيرة الحركة - أجابه - النزاعات متكررة ولا وجود للشرطة تقريباً - ثم أشار بإبهامه إلى الحارس الخاص الذي يتبعهما - من يريد أمناً عليه أن يتعاقد مع هؤلاء التّتار أو بعض

أولئك الأمراء الجورجيين المدججين بالسلاح. إن لم يقم المرء بهذا، فإنه في وضعية صعبة.

- وذلك... ذلك المعتوه؟

- زينوفييف؟

- نعم. هل هو حارس خاص؟

أطلق السويدي قهقهة تنم عن مزاج رائع.

- إنه يبدو كذلك، بالفعل! - صاح - لكنه ليس «كوتشي». إن أربيار زينوفييف، صدِّقْ ذلك أو لا تُصدّقْ، واحد من أغنى الرجال في باكو!

ظلّ الأرمني منذهلاً أمام هذه المعلومة، يشك إن كان محاوره يتسلى على حسابه.

- من؟ ذلك الوحش؟ واحد من أغنى... لا يمكن! هل تسخر مني؟

- اسأل من شئت! - أكد له إيمانويل - إن زينوفييف هو صاحب أنجح شركة في باكو، بعد شركتنا وشركة روتشيلد. الرجل يكاد يسبح في بحر من الروبلات! غني لدرجة أنه لا يعرف ما يفعل بالمال!

وهو ما يزال منذهلاً، استعاد كالوست في ذهنه صور العملاق بوجهه الحيواني وهو يتصارع في الشارع، بيديه العاريتين، ضد مجموعة من المعتدين الذين يرتدون أسمالاً. فهل يمكن لذلك المشاكس أن يكون مليونيراً؟ شيء لا يصدق! خصوصاً أنه يتناقض مع كل المليونيرين الذين عرفهم طوال حياته! كان يستحيل تصور أوهانس بيربيريان أو حتى بازيل زاهاروف بهذا الشكل.

- كيف يمكن أن يكون هذا ممكناً؟ سأل - كيف يمكن لشخص مثل هذا أن يصبح غنياً بهذا الشكل؟

- إن حكاية زينوفييف تكفي لكتابة رواية من روايات ألكسندر دوما - لاحظ المستضيف - هل تعرف أنه أرمني مثلك؟

- حقاً؟

- لم يكن في البداية سوى فقير مسكين، قروي متواضع اشتغل خادماً عند أحد الجنرالات. وكان هذا الجنرال مساعداً عسكرياً لدى قيصر روسيا وله، على ما يبدو، مصالح هنا في باكو. جاء إلى هنا وجلب معه زينوفييف. وبما أن صاحبنا كان يشده الحنين إلى العمل في الحقول، فقد استجمع ما توفر لديه من مدخرات هزيلة واقتنى قطعة أرضية في الضواحي بها بعض الكروم. شيء تافه، طبعاً. وذات يوم، لم يأت زينوفييف إلى العمل فغضب الجنرال. قال إنه رجل كسلان وإنه سيسرحه من العمل وأشياء أخرى. لكنه لم يقم بذلك قط، لأن ما حدث هو أنه تمّ اكتشافُ كميات هائلة من النفط في بستان زينوفييف.

فَغَر كالوست فاه.

- هل تمزح؟

- أصبح الرجل مليونيراً بين عشية وضحاها! فقط بفضل نصف شبر من تلك الأرض الحقيرة باتت قيمته تساوي نصف مليون دولار. رغم فظاظته وشكله المتوحش، فإن زينوفييف ليس بليداً بأي حال من الأحوال. لذلك، قرر ألا يكتفي بذلك. بما أن جيوبه كانت تعج بالأموال، أخذ يقتني مزيداً من الأراضي. وبما أن الحظ يجلب الحظ والمال يجلب المال، تم اكتشاف النفط في هذه الأراضي أيضاً! - ضحك - في الحقيقة، انطلاقاً من ذلك البستان التافه، شيد

زينوفييف إمبراطورية مالية حقيقية. والآن يملك الكثير من المال حتى أنه أصبح يصفي الكيروسين في صهاريج من الذهب الأبيض! وبنى، طبعاً، قصراً مثل قصور ألف ليلة وليلة، حيث يقيم كل أسبوع حفلات مدهشة...

توقف الأرمني في الشارع وظل لحظة ينظر إلى مرشده كأنه يأبى أن يصدق. بعد ذلك، حرّك رأسه واستأنف المشي.

- يا له من حظ! أليس كذلك؟ وقد دعاك لحضور حفلة من هذه الحفلات.

التفت إيمانويل إلى ضيفه وابتسم بطريقة غريبة.

- لقد دعانا نحن الاثنين، يا عزيزي، دعانا معاً.

- ماذا تقصد بهذا الكلام؟

توقفا أمام «الفندق الكبير»، نقطة انطلاق تلك الجولة المضطربة، ثم أشار السويدي إلى كالوست، وهو يلمس صدره بسبّابته.

- ستأتي معي!

7

طرقٌ على الباب، خفيفٌ لكنه ملحّ، أيقظَ كالوست في الصباح الموالي. مرهقاً، فتح الأرمني عينيه ونظر من النافذة؛ كانت السماء مغلفة بزُرقة قاتمة مع فجوة أرجوانية في الأفق، في إشارة إلى أن الشمس تستعد للبزوغ. كان الوقت باكراً جداً. قفز من السرير وترنّح وسط الظلام عبر الغرفة بينما كان يدمدم بصوت خفيض، يهدد بين أسنانه بذبح ذلك الوقح الذي جاء ليزعجه في ساعة جد مبكرة.

فتح الباب بحركة عنيفة تنم عن مزاج عكر فوجد أمامه خادم الفندق مسمراً في الممر.

- صباح الخير، سيّدي - حياه الشاب بحرج واضح - عفواً سيّدي، ولكن السيّد إيمانويل نوبل بعث رسولاً يخبرك بأنه سيكون في انتظارك هناك في الأسفل على الساعة السادسة بالضبط.

دَلَك النّزيلُ وجهه بأطراف أصابعه.

- كم الساعة الآن؟

- الخامسة والنصف.

دمدم كالوست مرة أخرى ثم دفع الباب وأغلقه بارتطام قوي. كان مرشده قد قال له إنه سيأتي باكراً لكنه لم يخبره أن ذلك سيكون

باكراً جداً. المهم أنه لم ينم في وقت متأخر. لم تكن باكو تتوفر على مسرح ولا على قاعة للحفلات الموسيقية، بالكاد بها بعض الحانات التي لا يُنصح بارتيادها ارتأى أنه من الأحسن أن يتجنبها، لذا فإنه ليلة أمس، بعد أن تناول العشاء، لم يبق أمامه من خيار سوى أن ينسحب إلى غرفته.

لم يكن هناك من وقت يضيعه. كان الأرمني حريصاً على احترام الوقت ويشترط نفس الأمر من الآخرين. لذلك، وعياً منه بأن نصف ساعة تمر في رمشة العين، استحمّ وارتدى ملابسه على وجه السرعة. وما إن تهيأ حتى غادر الغرفة ونزل لتناول وجبة الفطور.

ظهر السويدي في الفندق عند منتصف وجبة الأكل. بعد ابتلاع قطعتين من الفواكه، أعلن كالوست أنه مستعد ورافق مضيفه إلى العربة؛ ولم يكن وارداً هذه المرة أن يقوما بأي بجولة مشياً على الأقدام. بعد أن خرج، اشتمّ الزائر هواء مشبعاً بروائح النفط، لكنه لم يعر الأمر اهتماماً. كانت الشمس قد طلعت والمدينة تستيقظ على صباح بارد جميل؛ كان شيئاً جدياً الاستمتاع بنسيم الليل ما دام النهار يبدو أنه سيكون ساخناً.

- والآن - قال إيمانويل - هيا بنا لنرى النفط.

قطعت العربة مدينة باكو باتجاه الشرق حتى غادرت المدار الحضري وتوجهت إلى أقصى شبه جزيرة أبشيرون. كان كالوست يلاحظ بانتباه المناظرَ، يدرس النباتات، والأرض بل وحتى الأشخاص، ثم سجل تلك الملاحظات ما إن تركا المدينة خلفهما.

صارت الأرض رمادية أو بيضاء بشكل متساو، تتراكم فوقها كتل كبيرة من الملح أو الرمال، واكتسى المشهد شكلاً كئيباً. هنا

وهنالك، كانت العربة تعبر مناطق مشبعة بالبترول أو النفط وبدا واضحاً أن التراب كان عقيماً بشكل مطلق؛ لا شيء يمكنه أن ينمو في تلك الأنحاء. نظرياً، هناك تنتهي جبال القوقاز، أو على الأقل هذا ما تشير إليه الخرائط، لكن الأراضي كانت تبدو بالكاد متموجة وتنتهي عند شريط أرض منبسطة.

- وصلنا إلى «سهل النار الأبدية» الشهير.

صارت الطبيعة القاسية للأرض أكثر حدة هناك. جالت العربة ببطء عبر قرية سوراخاني وحملت المسافرَين إلى «معبد النار»، حيث كانت الأرض تحترق دون توقف. نظر كالوست إلى اللهب الذي ينبعث من الأرض في دائرة تحفها الحجارة، كأنه موقد نار لا ينطفئ أبداً، وظل صامتاً لوقت طويل أمام ظاهرة ظلّت تدهش الناس منذ أزمنة غابرة.

بعد ذلك، استأنفا السير وقطعا مستنقعات النفط الطبيعية حتى وصلا إلى السهل المجاور في بالاخاني. وهناك كانت تنتشر أكبر حقول النفط في باكو، مصدر ذلك المنتوج الذي صنع ثروة والده وثروة حفنة أخرى من الناس. وعندما توقفت العربة في النهاية وقفز الراكبون إلى الخارج، شعر الأرمني أنه عاجز عن رفع عينيه المندهشتين عن ذلك المنظر المذهل الذي ينبسط أمامه.

- يا إلهي!

كانت نفثات سائلة سوداء تنقذف في الهواء بقوة مذهلة، كأنها شامبانيا سوداء تتدفق من باطن الأرض دون توقف، مُشكّلةً ينابيع ساخنة لزجة ترتفع إلى ثمانين أو حتى تسعين متراً نحو الأعلى. أراد الزائر أن يلاحظ تلك الظاهرة عن كثب فخطى بضع خطوات غير واثقة حول البئر الهائجة، لكن تحولاً مفاجئاً في اتجاه الريح غيّر

مسار النفثة. تفاجأ كالوست وشعر بالسائل اللزج يسقط كالمطر فوقه.

- حذار! - صاح إيمانويل - ابتعد من هناك!

استجاب الأرمني للأمر ثم تراجع على الفور إلى مسافة آمنة. لكن قطرات النفط المتناثرة كانت قد أصابته، وهو الأمر الذي لم يزعجه. بعد دهشة البداية، شعر أنه ذلك أمر مُسلٍّ؛ فما كل يوم ينزل على المرء مطر من ذلك النوع. استغل تلك الفرصة غير المنتظرة فمرر سبّابته على السائل الذي كان يلطخ ملابسه ثم اشتمّه وفحصه، محاولاً أن يحلل كثافته وتركيبته.

- إنه دقيق وكثيف - لاحظ وهو يلتحق بمُضيفه.

عادا إلى الطريق وانتقلا عبر مختلف آبار السهل. في كل مكان، كانت تُرى أبراج ثقوب خشبية وبنايات منصوبة لجمع السائل الذي تقذف به الأرض، كأنها عمالقة غير عابئة بما يجري في العالم. لكن، في بعض النقط، كان النفط ينفجر حراً طليقاً نحو السماء، كأنه حمم سوداء تقذفها براكين غير مرئية، ويتراكم ليُشكّل بحيرات سوداء صغيرة في الأماكن المنخفضة.

- يا له من تبذير!

- ويا له من خطر! - سارع إيمانويل ليضيف، وهو يرفع صوته كي يُسمع وسط هدير السهل الملطخ بالسواد - يعيش الناس هنا مرعوبين من الحوادث. قبل أيام، قذفت إحدى هذه الآبار نفثة فاق علوها مائتي متر. هل تعرف أين سقطت الرمال المندفعة؟ في شوارع باكو. تصوّر ذلك!

- عجباً!

انتبها لحظتها إلى أنه في الأفق كانت تلمع نقط صفراء وحمراء،

تنبعث منها خيوط دخان داكنة كأنها مداخن معامل. وهو يرى الفضول في عيون ضيفه، أمر إيمانويل الحوذي بالتوجه إلى هناك. ولما اقتربوا من المكان، لاحظ كالوست أنها ألسنة لهب عمودية. ثم اقتربوا أكثر، فاتضح أنهم أمام أعمدة نار تلقي نفطاً متوهجاً بحوالي سبعين أو ثمانين متراً نحو الأعلى، سرعان ما ينزل عبارة عن ندف حارقة؛ كأن مطراً أرجوانياً ينزل من السماء. لو كان ثمة جحيم، فكّر الزائر بتكشيرة فزع، لا بد أنه سيكون كذلك. كانت نفثة النار تُرسلُ وميضاً مظلماً، به حمرة ملطخة بالسواد تتحول إلى أعمدة نار سميكة، ثم تسيطر على الأجواء رائحة حادة.

- إن النيران هي أفظع ما في الأمر - لاحظ إيمانويل، وانعكاس اللهب الأحمر والأصفر يتراقص على وجهه مثل ظل الشيطان نفسه - لقد استمر حريق دروجبا عشرة أسابيع.

- لكن، كيف يبدأ هذا؟

- أوه، بطرق مختلفة. حوادث، مثلاً. أو إهمال. أحياناً، المُلّاك أنفسهم هم من يضرمون النار.

- لا أستطيع أن صدق ذلك!

- أعرف أنه أمر يصعب تصديقه - اعترف السويدي - لكنه حقيقي - ثم أشار جهة الجنوب - انظر، كانت هنالك بعض الآبار التي تدفقت منها منذ فترة مائتي ألف هيكتولتر تقريباً. كان المشهد رائعاً، كما قد تتصور. المشكلة أن النفط كان كثيراً جداً لدرجة أنه بدأ يُغرقُ الحقول المجاورة. أصيب المُلّاك المجاورون بالهلع، طبعاً، وذهبوا ليحتجوا. قالوا إن ذلك خطر وقد ينتج عنه حريق مهول، وكانوا على حق. عاجزاً عن مواجهة المشكلة، هل تعرف ما قام به صاحب الحقول الخارجة عن السيطرة ليضع حداً لتلك

الفيضانات؟ أضرم فيها النار. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لوضع حد لكل ذلك!

أزعجهما الهواء المشبع المنبعث من أعمدة النار، فابتعدا عن المكان. استأنفت العربة سيرها، لكن كالوست ظل مركزاً نظره على بحيرات النفط الناتجة عن النوافير الجامحة، مندهشاً وهو يلاحظ أنها كانت تمتد عبر الحقول المجاورة للطريق التي يقطعونها.

- هذا خطير من دون شك - اعترف - لكن، فوق كل شيء، ألا ترى أن هذا تبذير ما بعده تبذير؟

- طبعا، إنه كذلك! - وافق السويدي بقوة - هل تعرف ما هو مصير كل النفط المتراكم في هذه البحيرات؟ بما أنه لم يعد قابلاً للاسترجاع، سوف يضيع في مياه بحر قزوين. هذا مؤسف! وهذا ليس سوى الجزء الظاهر من المشكلة. انتبه، لدينا هنا عدة آبار لم يتمّ تنظيمُ تدفق النفط المنبعث منها فتصبح غير منتجة تماماً. قبل فترة، أعلن أحد المُلّاك عن إفلاسه بينما كانت بئره النفطية، تصور ذلك؟ تقذف ملايين اللترات من النفط نحو الخارج. المشكلة أنه لم يكن قادراً على أن يسيطر عليها، بكل بساطة. هكذا، فالبئر التي قد تجعل شخصاً ما غنياً جداً في أمريكا، أدت بصاحبها هنا إلى الإفلاس.

- وهل هذا أمر شائع؟

- نعم، مع الأسف. نصف النفط المكتشف في شبة جزيرة أبشيرون يضيع بسبب عدم مهنية المكلفين باستخراجه. قبل سنوات، كان الإخوة أوربيلوفي يجهلون قوة ضغط بئرهم فاستعملوا سدّادة قوية لإغلاق الثقب. هل تعرف ما حدث؟ بسبب قوة الضغط، فجّر النفط جدار البئر وفي غضون نصف ساعة ملأ صهريجاً بحجم ألفي

هكتولتر ثم تابع انتشاره عبر الحقول - ثم فرْقع أصابعه - هكذا ضاعت ألفاً هكتولتر، في رمشة عين.

صخبٌ جهنمي، يتشكل من ضجيج الصيحات، والقهقهات والموسيقى المرحة، كان يملأ ليلاً مرصعاً بالنجوم في سماء بحر قزوين عندما ترجّل كالوست من عربة «شركة نوبل» ورافق إيمانويل حتى بوابة الدخول. كان حارسان مخيفان يؤمّنان حراسة الباب فاعترضا طريقهما. عندما تعرّفا السويدي أشارا إليه بالمرور، لكن أحدهما مدّ ذراعه ومنع مرافقه من الدخول.

- إنه السيّد ساركيسيان - قال إيمانويل - إنه معي.

دمدم الحارس التّتري مستاء ثم تراجع إلى الخلف وفسح الطريق. تقدم الضيفان، وما إن تجاوزا البوابة حتى وجدا أمامهما سيركاً حقيقياً نُصب وسط حديقة المنزل الواسع. كانت واجهة البناية تسطع بألوان ذهبية، تلمع متقطعة تحت تأثير المصابيح التي تضيء الحديقة.

- هل رأيت تلك المؤثرات البصرية في المنزل؟ - سأل كالوست - هل هي صباغة من نوع خاص؟

ضحك مرافقُه.

- إنها أوراق من ذهب! - كشف له بعبارة مسلية - لقد غلّف زينوفييف القصر بأوراق من ذهب. تصوّرْ ذلك! ذات مرة، وقعت أعمال شغب في باكو فجاء المتسولون من الخارج وهاجموا المنزل ليسرقوا الرقائق. منذئذ وضع مزيداً من الرجال «الكوتشي» ليقوموا بحراسة الملكية.

تحول اهتمام كالوست نحو ما يجري في حديقة المنزل. كان

رجل يرتدي حرفياً ملابس داخلية يقذف من فمه ألسنة لهب، فيثير صيحات متحمسة بين المتفرجين، بينما فقيرٌ هندي يمشي فوق سجاد من قطع الزجاج المهشم. كان عرض هذين الفنانين من السيرك جديراً بالإعجاب، رغم أن عينيِ الأرمني سرعان ما تحوّلتا نحو الراقصات. كانت كلهن تقريباً شقراوات، يرتدين ملابس ضيقة وتنانير جريئة، من ذلك النوع الذي يكشف عن الرُّكبة، لكن أكثر ما يثير الانتباه هو أنهن يتمايلن بشهوانية، يحركن الأوراك نحو الأمام وإلى الخلف على إيقاع نغمات تؤديها فرقة من الموسيقيين.

- نوبل! - زعق صوتٌ مألوف - وأخيراً، ها أنت هنا!

استدار الوافدان الجديدان نحو الصوت ورأيا الجسد الضخم للمُستضيف يتقدم نحوهما. كان أربيار زينوفييف يمشي بذراعين مفتوحتين، يرتدي قميصاً قرمزياً من الحرير، سروالاً ذهبياً وحذاء عالي الساق بمهمازين، السوطُ في قبضة يده اليمنى؛ كان يجسد الغرابة في أكمل أشكالها.

اقترب الرجل الضخم من إيمانويل، سحبه من كتفيه حتى تركه معلقاً في الهواء تقريباً ثم طبع أربع قبلات على وجهه، اثنتان في كل خدّ.

- أربيار، كُفّ عن هذا!

تركه زينوفييف وأطلق قهقهة عالية.

- إنك أرق من فتاة، يا نوبل! - صاح - لو كان لديك نهدان شهيان، لأكلتُك بالكامل!

- ما هذا، يا رجل؟ عليك أن تتحلى بالأدب!

ثم تعالت قهقهة أخرى أطلقها العملاق ذو المترَين. وبحركة عنيفة من ذراعه، عرض الحديقة على ضيفه.

- ماذا إذاً؟ هل تعجبك حفلتي؟

- أخشى ألا أستطيع الجواب على هذا السؤال - ردّ السويدي - وصلنا للتو، ولم نر بعد شيئاً غير أولئك الفنانين هناك.

جال زينوفييف عبر الحشد ببصره ثم أشار إلى مجموعة من الراقصات اللواتي انتهين من أداء عرض في فضاء مفتوح قبالة نافورة ماء بهيجة.

- أيتها الفتيات، تعالَيْن هنا!

جاءت الراقصات تجرين في قفزات، مع قهقهات وصيحات في الطريق.

- هل ترغب في حضورنا، موسيو؟

تجاهل صاحب البيت الفتاة، شقراء هيفاء كانت تناديه بالفرنسية. وبدل ذلك، التفت نحو الضيفين اللذين كانا يتابعان المشهد وأشار إلى فرقة الراقصات بإصبعه.

- هل تعجبكما أي واحدة منهن؟

نظر كالوست وإيمانويل إلى بعضهما، وقد فاجأهما السؤال.

- حسناً. . . - قال السويدي مرتبكاً - كل الفتيات جميلات، لكن، كما هو بديهي، أنا لا أعرفهن، وبالتالي لا أستطيع. . .

- لا تعرفهن؟ انظر إليهن، يا رجل!

انتقلت نظرات الضيفين تتقافز من فتاة إلى أخرى. كُنّ خمسة، ثلاث شقراوات، واحدة صهباء وأخرى سمراء. كانت لهن أجساد مثيرة وفتحات ملابس تكشف عن شق النهدين. ويبدو من الغريب أنهن لا ينزعجن من عرضهن كالقطيع. بل، على العكس من ذلك، كن يواجهن الرجال بترقب، بعيون رامشة ووجوه باسمة. وأمام تردد الوافدَين الجديدَين، ألقت إحداهن نظرة مثيرة على إيمانويل.

- Ça vous plaît, m'sieur ?

احمرّ السويدي خجلاً، في حرج واضح وقد خانته الكلمات.

- حسناً، إنهن... رائعات - قال متلعثماً - ومع ذلك، يمكن أن...، على أي، ربما مرة أخرى - ثم أشار إلى الفضاء من حوله - الآن، أريد أن أقوم بجولة في القصر وأتفرج على هذا الحفل. يبدو أن كل شيء مبتهج، بالفعل.

انقبض وجه زينوفييف القبيح، وحدج الضيف بنظرة ملأها الشك.

- يا نوبل، أنت لست لوطياً، هل أنت كذلك؟

ولما سمع الآخر يناديه هكذا، بشكل فظ ومباشر، أطلق السويدي ضحكة متوترة.

- طبعاً، لست لوطياً - قال مشدداً - لكن هذا النوع من الأمور ليس من طبيعتي.

حرّك صاحب البيت رأسه، كما لو أنه خائب، ثم التفت نحو كالوست.

- وأنت؟ هل تريد أن تختار واحدة من الفتيات؟

هزّ الزائر ذو الجسم الصغير كتفيه، خائفاً تقريباً من طريقة زينوفييف العدوانية، لكنه لم يتورّع عن إلقاء نظرة خاطفة أخرى على الفتيات، فوقعت عينه بالخصوص على إحدى الشقراوات، تلك التي يبدو جسدها مُدوّراً. تردد لحظة، خصوصاً بعد أن مرّرت الفتاة لسانها الندي على شفتيها المصبوغتين بأحمر قانٍ، لكنه حرك رأسه في النهاية.

- لا.

ضيّق العملاق جفنَيه، بدا مرتاباً بشكل واضح، ثم انحنى برأسه نحو كالوست.

- حسناً، لا أريد أن يقول أحدهم إنك حضرت حفلتي ولم تتسلّ! - زأر فجأة. ثم أمسك بالشقراء المدورة ذات الشفتين الحمراوين كما لو كانت كيساً ووضعها أمام الضيف، - خذ هذه الفتاة! - ثم أشار إلى المنزل الكبير - أمسكها وخذها إلى إحدى الغرف! اذهب، وتسلّ!

ظل كالوست لا يعرف ما يفعل، نظراته موزعة بين إيمانويل، زينوفييف والفتاة، التي كانت قد بدأت تحتك به. لحظتها، تدخل السويدي، وسحب رفيقه.

- حسناً، لكننا سنقوم بجولة، أليس كذلك؟

ابتعد الاثنان وراحا يتجولان في الفضاء المحيط بالقصر الصغير. في جهة ما، كانت تجري عروض السيرك، يؤديها بهلوانيون ومشعوذون، بينما في جهة أخرى كان مجموعة من الغجر يرقصون، الرجال يرتدون قمصاناً بيضاء وسراويلَ سوداء، والنساء تنانير واسعة ذات ألوان بهيجة. وفي كل مكان، كانت تمتد موائد طويلة تعج بشتى أنواع اللحوم والحلويات، والنّدلُ يمرون متعرّجين بين الضيوف يحافظون على توازن صوانٍ بها كؤوس تفيض بالشامبانيا.

وكانت تُرى، على الخصوص، عدة نساء، جميلات وأوروبيات بطبيعة الحال. وهو يلاحظهن بانتباه، بل وبشيء من الإعجاب، أدرك كالوست أنهن غالباً ما يدخلن إلى المنزل الكبير، متمسكات بالضيوف، بينما كانت أخريات تخرجن لتعديل ملابسهن. لم يعلق إيمانويل على الأمر، لكن كان من الواضح أن صاحب البيت كان يطلبهن من أحسن مواخير أوروبا خصيصاً لحضور الحفل.

بعد فترة من الوقت، وقد أدرك أن كل ذلك، في الحقيقة، ليس سوى طقس عربدة جماعية متنكر في شكل مناسبة اجتماعية، أخرج السويدي الساعة من جيبه ونظر إليها.

- ربما يستحسن أن نغادر الآن. . .

بحثا معاً عن صاحب البيت ليودعاه. سألهما زينوفييف مباشرة إن اختارا فتاة من الفتيات، لكن السويدي أبى أن يرد على السؤال، فقلّد رفيقُه الأمر. بعد ذلك، ودون الخوض في حديث مفصل، عبرا الحشد وتوجها نحو الباب.

لكن، وهما على وشك أن يعبرا الباب، توقف كالوست وضرب جبينه بكفه.

- أوه، لا - صاح وهو يبدو في ضجر - نسيتُ منديلي!

- أين؟

- عندما ذهبت إلى الحمام - ثم أشار إلى مرشده - انظر، ابق هنا، سأعود بسرعة!

وقبل أن يتمكن إيمانويل من الجواب كان الأرمني قد استدار واختفى بين الضيوف الذين تعج بهم الحديقة. كان كالوست يمشي بعزيمة سلوقي اشتمّ رائحة الأرنب، لكن رائحة الطريدة لم تقده إلى المنزل الكبير ولا إلى الحمام حيث من المفترض أنه نسي منديله. بحث عن صاحب البيت فوجده قرب المكان حيث تركه قبل لحظات، عندما ذهب ليودعه.

- أما زلتَ هنا؟ - سأله زينوفييف مندهشاً - ظننت أنك قد ذهبت لحالك.

تمطّط الضيفُ قدر ما استطاع وهو يحاول أن يقترب أكثر من الأذن اليسرى للرجل الضخم.

- هل تذكر تلك الفتاة الفرنسية التي قدّمتَها لي قبل قليل؟

قطّب صاحب البيت حاجبَيه الكثَّين، وقد أدهشه السؤال.

- الراقصة الباريسية؟ نعم، لماذا؟

قبل أن يجيب، ألقى كالوست نظرة مضطربة من حوله، ليتأكد من أن رفيقه السويدي لم يلتحق به. كان الناس يتزاحمون في الحديقة، لكنه، في الحقيقة، لم ير أثراً لإيمانويل نوبل فتنهد مرتاحاً. التفت نحو العملاق ووقف على أصابع قدميه في محاولة يائسة ليضع شفتيه على أذن مخاطبه.

- أنا في الغرفة رقم 201 في الفندق الكبير - همسَ شبه خائف، بل ويخشى أن تسمعه آذان فضولية - هل يمكن أن ترسلها لتلتقي بي هذه الليلة؟

8

كانت مياه بحر مرمرة المضطربة ترتطم بالسور الكبير، هائجةً رغم طابعها المسالم، فظل كالوست مركزاً على النص رغم القرقرة المستمرة. كان جالساً على مقعد عمومي قرب شاطئ البحر، وبالضبط في النقطة التي يبدأ فيها البوسفور رحلته نحو البحر الأسود، غير آبه بما يجري من حوله؛ حتى نعيق النوارس، الحزين والعميق، يبدو غير قادر على أن يفقده التركيز.

- «Après... que... l'on... a... vue» - همهم وهو يكتب - vue? - تساءل، متردداً. أم تكون vu، حسناً إنها مذكر، لا بد أن تكون vu - ثم شطب حرف «e» و بقيت vu . بعد ذلك استأنف التحرير:

«... sur... les... plateau... désolés... de... la... péninsule... - d'Apchéron... le... pétrole...»

كان المهندس الشاب عازماً على كتابة مقال بأحسن لغة فرنسية يعرفها، فرنسية ينبغي بالضرورة أن تكون ممتازة، لذلك اجتهد في التفكير بهذه اللغة وهو يكتب، كما تعلَّم أن يفعل ذلك في مارسيليا. اكتشف أنه هناك، على ساحل بيرا، محاطاً بهذا التناقض بين صخب

القسطنطينية وراءه وهمس البحر الهادئ أمامه، كان الإلهام ينزل عليه بقوة أكبر. فقرّر أن يقضي الظهيرة فوق ذلك المقعد، رفقة ملاحظاته عن الرحلة وقاموس أرمني-فرنسي في يده.

توقف لحظة عن الكتابة وقرأ مرة أخرى بصوتٍ عالٍ ما أكمله. بدا له جيداً، رغم أنه وجد خطأين يتعلقان بتناسب جنس الكلمات فصححهما بسرعة. كانت اللغة الفرنسية صعبة فيما يتعلق بالتناسب، كما يعرف، ولذلك فقد كان منتبهاً بالخصوص إلى أي خطأ في الجنس؛ لم يكن يريد أن يشعر بالخجل عندما تقرأ الآنسة دوبري النص. كانت مُعلمّته السابقة، التي ظل يتراسل معها، قد أنهت دراستها في السوربون وكتبت إليه تحكي أنها وجدت عملاً في دار نشر مرموقة في باريس، «مكتبة هاشيت وشركاؤه». عندما أجابها يتحدث عن مغامرته في أرض النفط، أبدت الآنسة دوبري حماسها واقترحت على تلميذها السابق أن يكتب نصاً لفائدة مجلة إخبارية كان لديها اتصال بها.

وهذا المقال بالضبط هو الذي كان كالوست منكباً على تحريره في تلك اللحظة. بعد مراجعة ما أنجزه من عمل إلى حدود تلك اللحظة، راجع من جديد ملاحظاته واستأنف كتابة النص حيث تركها:

«... s’élancer... dans... les... airs... en... jets... bruyants... – il... reste... à... le... suivre...»

فجأة، سُمع صوتُ بوق مسيرة عسكرية يرتفع عند الساحل، ترافقه بالتزامن جلبة عشرات حوافر الخيل التي تجوب الشوارع المُبلّطة. كان تركيز الأرمني قوياً حتى أنه نسي البحر، والنوارس وصخب المدينة، بيد أنه لم يكن بما يكفي من القوة حتى لا ينقطع

أمام تلك الأصوات المزعجة، غير المعتادة في تلك المنطقة.

هكذا، تبخرت كلمات النص في ذهن كالوست، وقد أزعجه صوت البوق وجلبة الخيل. التفت خلفه محاولاً فهم ما يجري. ما كان يبدو كتيبة من الخيل، بخيالة يرتدون أزياء رسمية، في أناقة لامعة، قطعوا للتو القنطرة فوق القرن الذهبي، قادمين من قصر السلطان، وراحوا يقتربون خَبَباً. في الوسط، يحيط بها الفرسان، كانت تمشي عربة مكشوفة، تشغل داخلها شخصيات مهمة بكل تأكيد. رجلان بزي رسمي تغطيه عدة ميداليات وامرأة أوروبية ترتدي لباساً أبيض مخرّماً في يدها شمسية صفراء.

- القيصر! - صاح شاب تركي، وهو يقفز في الشارع - القيصر قادم!

مرّ الموكب عبر المنعرج فانضم الأرمني إلى الحشد الذي يملأ المسار على طول الساحل باتجاه البوسفور. كانت لحظة فقط، مثل زخة مطر يسقط ويختفي، لكنها كانت كافية لمشاهدة رأس الإمبراطور المُرصّع بخوذة جرمانية، مع طرف في الأعلى، وفستان إمبراطورة ألمانيا، ولا شيء غير هذا.

بسرعة اختفى الموكب في الخلف، وتوجه طبعاً نحو قصر دومبالاشي أو قصر يلدز. انقضى حماس تلك اللحظة، وبعد أن فكر مع نفسه أنه كان يرى عظماء هذا العالم بلحمهم ودمهم، قيصر روسيا في تيفليس قبل أيام والآن قيصر ألمانيا في القسطنطينية، عاد كالوست إلى مقعده، نسي من جديد كل ما يحيط به، وانغمس في عالم الكتابة.

أنهى السطور الأخيرة من المقال تلك الليلة، في بيتهم بحي

سكوتاري. أعاد المهندس الشاب قراءته مرات لا تُعدّ ولا تُحصى، يصحح دائماً بعض الشوائب، جملة خاطئة هنا، وخطآن من أخطاء التناسب هنالك، حتى تمكن في الأخير من قراءة النص قراءتَين دون أن يُدرج أي تعديل. فبدا له رائعاً.

نهض من فوق الكرسي وذهب إلى المكتب يبحث عن ظرف. طوى النص النهائي وأدخله في الظرف الذي ختمه بالصمغ. وضع اسمه وعنوانه في الحيز الخاص بالمُرْسِل وكتب اسم الآنسة دوبري وعنوانها في المكان الخاص بالمُرْسَل إليه. بعد ذلك، اقترب من الباب المؤدية إلى جناح الخَدَم.

- غوغاس! - صاح - غوغاس!

جاء الخادم العجوز، الذي يرتدي زياً أنيقاً، وظهر بسرعة في القاعة.

- نعم، ماذا تريد أيها الفتى؟

لم تكن طريقة «القهوجي» الخاصة في مناداته بعبارة «الفتى» تزعجُ كالوست؛ فالخادم كان مسناً جداً كي يتعود على الوضع الجديد لابن مشغله. لهذا سلّمهُ المهندس الشاب الظرف دون تعليق.

- اذهب غداً وضع هذا الظرف في مصلحة البريد.

اختفى القهوجي مع الظرف. وبعد انتهاء هذه المهمة، خرج كالوست إلى الشرفة ليستمتع بتلك اللحظة. كان الليل جميلاً فجلس على الكرسي الطويل المفضل لدى والده وظل يتأمل القسطنطينية في الظلام. لم يكن، في الحقيقة، منظراً رائعاً. بالكاد كان يلمح أضواء بعض المصابيح الزيتية، التي تشتغل بالتأكيد بفضل الكيروسين الذي كان والدُه يستورده من باكو ومن أمريكا. أضواءٌ مرتعشة في عدة

أماكن، يزداد انعكاسها تذبذباً فوق القلق المتوتر والأسود لمياه البوسفور.

لذلك كانت ثمة بقعة داكنة تملأ الفضاء أمامه، رغم وجود نقطة على اليمين تحظى بإضاءة مناسبة. كانت هي قصر يلدز، حيث كان السلطان يقيم حفلاً على شرف القيصر، وإلى هناك توجه والداهُ لحضور هذا الحدث، بدعوة من سليم باي، حاميهما في الباب العالي. أرهقه اليومُ الطويل والمُتْعِب في ممارسة الكتابة الصعبة وانجرف وراء صوت ارتطام أمواج البحر المهدئ، على بعد بضعة أمتار في الأسفل، شعر أنه ينزلق نحو غفوة عذبة، ودون أن ينتبه للأمر نام متمدداً فوق ذلك المقعد المريح أكثر من اللازم.

استيقظ بعد بضع ساعات عندما سمع أصوات والدَيه ترتفع في الصالة. وقف بقفزة واحدة، نعساناً، وبعد أن تجاوز لحظة اضطراب قصيرة انتبه إلى أن ريحاً باردة كانت تهب على سكوتاري. أحس برعشة برد ففرك ذراعَيه وعاد إلى البيت.

- ماذا؟ - قال الأب مندهشاً وهو يراه أمامه في تلك الساعة المتأخرة من الليل - أما زلت مستيقظاً؟

- غفوتُ هناك في الخارج - قال كالوست. وفور ذلك، تثاءب طويلاً، كما لو أنه يريد أن يؤكد ما قاله للتو - المأدبة؟ كيف كانت المأدبة؟

أخذ فاهان نَفَساً عميقاً.

- لقد جنّ قيصر ألمانيا! - صاح، وهو يضرب مراراً صدغيه بالسبّابة - إنه مجنون، أؤكد لك ذلك! الرجل يمكن أن يخلق للعالم مشاكل حقيقية، سوف ترى.

أثار هذا التأكيد اندهاش الابن، الذي كان ما يزال تحت تأثير شيء من النعاس.

- ماذا جرى؟ ما الذي فعله القيصر؟

- بدأ يرفع نخباً للسلطان، وبكل بساطة عبّر عن حبه للدين الإسلامي! هل تصدق هذا؟

- ماذا؟ ولكنه مسيحي؟!

- هذا ما كنتُ أعتقد. . . على أي، ما زلت أعتقد ذلك. لكن، على أي، الرجل ليس في كامل قواه العقلية! بدأ الأتراك يهذون، بطبيعة الحال. بل إنهم أخذوا ينادونه «الحاج فيلهلم».

حرّك كالوست رأسه كما لو أنه يستطيع بتلك الطريقة أن يرتب أفكاره.

- لحظة من فضلك، احك كل شيء كما ينبغي. هل حدث هذا أثناء الحفل الذي أقامه السلطان على شرف القيصر؟ هل حضرتما هذه المأدبة؟

- طبعاً، حضرناها، أيها الفتى! - صاح فاهان شبه متضايق لأن الابن شكك فيما قاله - بعد مأدبة الأكل، ملأ الألمان كؤوسهم بالنبيذ ليرفعوا نخباً وصاحبَهُم الأتراك في ذلك، لكن كؤوسهم كانت مملوءة بالماء. إلى هنا، كل شيء عادي. فقط، وسط رفع النخب، قام القيصر، مثل مُرْتدّ حقيقي عن دينه، بمدح الدين الإسلامي مدحاً متحمساً وقال إن المسيحيين ينبغي أن يشعروا بالخجل. بعد ذلك، انسحب رفقة السلطان إلى الحريم، حيث ذهبا على ما يبدو ليحضرا رقصة تؤديها المحظيات الشركسيات.

- والألمان الذين جاؤوا في الموكب، ماذا كان رأيهم؟

هزّ الأب كتفيه.

- حسناً، ماذا تريدهم أن يقولوا؟ سمعوا وسكتوا، ما العمل! لكن، خلال الكوكتيل تقربت من واحد منهم، يدعى أوبنهايمر، الذي أسرّ لي أن السيّد بسمارك عارض زيارة القيصر إلى القسطنطينية، لأنه يعتبرها استفزازاً غير ضروري للرُّوس. ورغم ذلك جاء القيصر. يبدو أنه يفكر في ارتباط استراتيجي ما مع الإمبراطورية العثمانية، وحاول أن يقنع العالم الإسلامي بإعلان الجهاد ضد الإنجليز والفرنسيين - ثم ضرب من جديد صدغيه بسبّابته - أليس الرجل بليداً ومجنوناً خطيراً؟ إنه يلعب بالنار!

- لكن، كيف يخطط الرجل لإقامة تحالف استراتيجي مع الإمبراطورية العثمانية؟ ما الذي سيفعله؟

تنهد فاهان، معرباً عن إشارات انشغال ظلت خفية إلى غاية تلك اللحظة. ذهب إلى خزانة النبيذ وأخرج قنينة كونياك أرمني، وملأ منه كأساً.

- يبدو أنه يريد أن يضع هنا بعض المستشارين العسكريين في مهمة إعادة تنظيم الجيش العثماني. وقد أنجز اتفاقاً ما من أجل بناء خط للسكك الحديدية نحو الأناضول. ذلك الألماني الذي تعرّفتُ عليه، المدعو أوبنهايمر، أعطى أهمية كبرى لهذا المشروع.

- بجدّ؟ - قال كالوست مستغرباً - لماذا؟

- لأنهم يفكرون في تمديد هذا الخط إلى بغداد، بعد ذلك. أي أن الهدف النهائي من هذا الخط هو أن يتمكن الألمان من الوصول إلى بلاد الرافدين.

استحضر كالوست في ذهنه خريطة المنطقة، لكنه لم يكشف عن أي معنى خاص لهذه المعلومة.

- وماذا بعد؟ أي أهمية خاصة لهذا الأمر؟

لاحظ الأبُ السائلَ بلون الكاراميل يتراقصُ في الكأس، وبحركة مفاجئة عبّ معظم ما فيها جرعة واحدة. انتفخ وجهه واحْمرّ من حين لآخر، كما لو أن انفجاراً من الديناميت قد مزّق للتو أحشاءه، ولم يعد إلى حالته الطبيعية إلا بعد أن أخرج مطوّلاً أثر كمية النبيذ.

- إنهم يُلمِّحون في السر إلى أن تلك المنطقة تعج بالنفط.

رفع من جديد الكأس، وجّهها نحو فمه وابتلع ما تبقى من الكونياك.

عندما نزل كالوست يومئذ من غرفته ليتناول الفطور، دنا منه القهوجي يحمل صينية ثم مدّها إليه. ظنّ ابن المُشغّل، في البداية، أن الأمر يتعلق بالطعام، لكنه عندما نظر إلى الصينية لاحظ أنها لا تحوي خبزاً ولا لبناً، بل ظرفاً كبيراً فقط.

- وصل هذا الصباح، يا فتى.

تعرّفَ الخط المدوّر للآنسة دوبري، وبحدس مفاجئ، لأن صديقته عادة ما كانت ترسل ظروفاً من ذلك الحجم، أمسك الظرف بحماس، وبلهفة ذهب يبحث عن سكين ومزق حواشيه. ومن داخله برزت مجلة صغيرة، تحمل اسم *Revue des Deux Mondes* يليها اسم فرعي هو:

Journal des voyages, de l'administration et des mœurs, etc., chez les différents peuples du globe ou archives géographiques et historiques du XIX^e siècle; rédigée par une société de savants, de voyageurs et littérateurs français et étrangers

تصفحها بأصابع محمومة حتى توقف عند المقال الذي يبحث

عنه. «*Le Bakou et le pétrole russe*». وتحت العنوان خطٌّ كتب بحروف صغيرة مائلة، حروف سحرية تحمل اسم صاحب المقال، كالوست ساركيسيان.

آه، يا للمجد!

قنبلة من البهجة انفجرت في صدره وملأته نشوةً، كما لو أن نوراً ربّانياً كان ينبعث من جسده. لقد صار كاتباً! كتب مقالاً وهناك أحد ما في فرنسا المثقفة البعيدة رأى ما كتبه يستحق النشر! والدليل هناك، في تلك الصفحات. لقد أصبح له صوت! يوماً ما سوف يموت، لكن تلك القطعة من النثر سوف تبقى خالدة مع اسمه! قرأ النص مرة، مرتين، ثلاث مرات، يتذوق كل كلمة، يبدي إعجابه ببراعة التراكيب، يستمتع بالفكر المحكم الذي تعبر عنه، يفتخر بإتقان اللغة. قرأه أولاً حتى يرى كلماته وقد تحولت نصاً مطبوعاً، قرأه مرة أخرى وهو يحاول أن يضع نفسه في منظور الآنسة دوبري، ثم قرأه بعيون قارئ فرنسي يجلس في رصيف مقهى بشارع سان جيرمان، وفي الأخير، تجرأ أيما جرأة، ووضع نفسه مكان الرئيس الفرنسي نفسه، موسيو كارنو. نعم، من يدري؟ هل يكون رئيس الجمهورية الفرنسية نفسه قد استمتع بنثره؟

لم يكن أبواه يعرفان اللغة الفرنسية، طبعاً. كانت حروف الأبجدية اللاتينية، التي لم يتعودا عليها، تشكل كلمات غامضة، وقعُها جميل لكن فهمها يستعصي عليهما تماماً. لكن، كان هناك شيئان يفهمانهما فهماً كاملاً. الشيء الأول هو الستة عشر حرفاً التي تشكل اسم ابنهما في العنوان على الصفحة الأولى من المقال؛ والتي رغم غرابة الأبجدية، كانا قادرَين على صياغة الأصوات التي توحي بها. والشيء الثاني، الذي لا يقل أهمية عن الأول، هو أن الأمر

يتعلق بمجلة فرنسية من المستوى السياسي الرفيع، تكتب لها أسماء سامقة من قامة ألكسندر دوما، فيكتور هوغو، شارل بودلير، غي دي موباسان وهونوري دو بلزاك، تنشر مقالاً من توقيع شاب أجنبي في ربيعه العشرين.

- يا له من إنجاز! - صاح فاهان عندما وجد اسم ابنه مطبوعاً في تلك الصفحات الخالدة - يا له من إنجاز عظيم!

كان شيخ آل ساركيسيان مبتهجاً للغاية بهذا الأمر. ألم يكن ذلك دليلاً قاطعاً على أنه قدم لابنه التربية المناسبة؟ ألم يكن ما قدمهَ لابنه من تعليم شيئاً يستحق العناء؟ كان المقال في المجلة جواباً على أي شك يكون قد علق يوماً بذهنه. آه، لم يكن هناك من شك: كان الفتي منذوراً للنجاح!

- والآن؟ - سألت الأمُّ، التي كانت، بفضل مزاجها العملي، أول من تجاوز حالة الحماس التي غرقت فيها الأسرة - في أي شيء يفيد هذا الأمر؟

كاد الزوج أن ينفجر غضباً من السؤال.

- في أي شيء يفيد؟ - سألها وهو يلوح بالمجلة في يده كما لو كانت طريدة قنص - يفيد في... في... انظري، كي نعرضه على أصدقائنا! سوف تعرف القسطنطينية بكاملها إنجاز ابني!

وتكلف فاهان بترجمة أقواله إلى أفعال. أمر بجلب ألف نسخة من ذلك العدد من المجلة من مدينة باريس ووزعها على العاصمة العثمانية وضواحيها، فقدمها هدية للأصدقاء، والزبناء، والدبلوماسيين، والمُورِّدين وكل من أراد أن يثير في نفسه الدهشة والإعجاب. وكان يثير انتباههم إلى دقة اللغة الفرنسية، كما لو أنه

كان هو نفسه متحدثاً طبيعياً بلغة أولئك الناس الراقيين، ومدح دون توقف ما كشف عنه المقال من معلومات جديدة.

- أخبروني إن لم يكن ذكياً هذا الفتى؟

وبشكل غريب، كان التباهي الذي استقبل به الأب نشر النص هو ما جعل كالوست يشعر بالتواضع. عجباً! لم يكن الأمر يستحق كل تلك الجلبة! كان التصرف شبه الهستيري لوالده، الذي لامس التبجّح، قد تركه في حرج من أمره بل في خجل أيضاً. في نهاية الأمر، كان النص مجرد سرد وقائع رحلة نشرت في مجلة فرنسية، ولا شيء غير ذلك. لم يكن ذلك اختراع الديناميت. لقد صدر المقال، وهذا كل ما كان.

وانتهى الأمر.

لكن رسالة جديدة من الآنسة دوبري تولت مهمة تكذيب توقعات كالوست. أخبرته مُعلّمته السابقة بما أثاره المقال من إعجاب لدى الناشر الذي تشتغل لصالحه، وأمام اندهاشه الكبير، كشفت له أنه طرح عليها سؤالاً كانت بحاجة إلى جوابه. إن السيّد هاشيت، كتبت الآنسة دوبري، يودّ أن يعرف إن كان صاحب ذلك المقال المهم مستعداً لتأليف كتاب حول رحلته إلى القوقاز، تلك المنطقة من العالم التي يجهل عنه الجمهور الفرنسي أشياء كثيرة.

وجاء هذا الطلب ليؤكد لفاهان اقتناعه بأن الابن يسير على الطريق الصحيح. كم كان عدد الشبان في سنه، وفوق ذلك يعيشون في ضواحي القسطنطينية، ممن يرفعون تحدي تأليف كتاب لصالح دار نشر أوروبية بتلك الأهمية؟ فكم يلزم من أدلة أخرى؟

أما تخمينات كالوست فكانت مختلفة، رغم أنه احتفظ بها في

سرّه. استوعب المهندسُ الشاب جيداً أن المقال الذي نشره في مجلة *Revue des Deux Mondes*، رغم أنه إنجاز بالنسبة لشخص في سنه، لا يمكن أن يكون هدفاً في حد ذاته، بل أداة لتحقيق الهدف الموالي، الكتاب. وبنفس الطريقة، ينبغي أن ينظر إلى المشروع الجديد الذي كُلّف به، مجرد وسيلة لبلوغ هدف أكبر.

باشر العمل واستغرق سنة تقريباً في الكتابة. إن كان قد أقدم على كتابة مقال بسيط بقدر كبير من المسؤولية، يمكن تصور تأليف كتاب بكامله! لكنه كان دائماً يستحضر في كل لحظة وحين أن النص الذي يشتغل عليه لا يعدو أن يكون أداة جديدة بدروه. لن يكون نشر الكتاب الجديد فقط لإشباع أنانيته وإرضاء خيلائه، أو كي يتباهى به والده أمام الأصدقاء والزبناء. كانت ثمة أمور أخرى كثيرة على المحكّ. الحكايات التي يرويها في كل فقرة والمعلومات التي يضعها في كل فصل ينبغي أن تفتح له أبواباً مضمونة.

وكما فعل مع المقال، لكن لسبب أقوى هذه المرة، لما انتهى من صياغة النص، أعاد قراءته مرات لا تحصى، منشغلاً بضمان دقة التراكيب وسلاسة اللغة الفرنسية التي بات يمتلك كثيراً من ناصيتها رغم أنها لم تكن لغته الأم. لم يثق بحكمه الخاص، فعرض المخطوط على شخصين فرنسيين ليقرآه، واحد من البعثة الدبلوماسية وآخر أستاذ في ثانوية غلطة ساراي. فقط بعد أن توصل منها ببعض الاقتراحات، التي احترمها وعمل بها، تجرأ وأرسل الطرد إلى باريس.

كانت العلبة التي توصل بها عن طريق البريد، نهاية سنة 1891، كتاباً فاخراً من أزيد من ثلاثمائة صفحة، ويتضمن رسومات وخرائط، مجلداً بجلد أيل رمادي وعنوان كتب بحروف مذهبة:

شعر بإحساس من الفخر العظيم. ألم يكن ذلك عملاً رائعاً؟ عشق كالوست كتابه مثل فنان يتأمل ما أبدعت يداه، منتشياً بما صدر عن ذهنه من نثر فتحول هكذا إلى كلمات مطبوعة على امتداد كل تلك الصفحات، بيد أنه لم يشعر بتلك النشوة المطلقة التي تلقى بها مقاله المنشور في مجلة *Revue des Deux Mondes*. ألم يكن ذلك مؤشراً على أنه قد أصبح كاتباً له تجربة ومعرفة بأمور العالم؟

وبدوره، كان رد فعل والده حماسياً كعادته، رغم أنه كان أكثر اعتدالاً هذه المرة. تباهى بإنجاز ابنه في كل مكان، طبعاً، لكن الدليل على أنه لم يتجاوز عنان السماء بسُحُبها هذه المرة كان هو عدد النسخ التي طلبها من دار النشر. مائة نسخة. كان طلباً بحجم معقول، بعيداً عن تلك المبالغة التي وقع فيها يوم أمر بجلب ألف نسخة من عدد المجلة التي نُشر فيها مقال ابنه.

وكان كالوست قد بعث كما يجب نسخة من الكتاب إلى رقم 11 في هايد بارك تيراس، في لندن، على غرار ما فعله في السنة الماضية بالنص الذي صدر في مجلة *Revue des Deux Mondes*. في تلك المناسبة، ردّ أوهانس بيربيريان بكلمات فيها ما يكفي من الإطراء، فأعرب عن إعجابه بما قرأ وقدّم له «كل عبارات التهاني»، لكنه لم يضف شيئاً مهماً عن ابنته سوى أنه أخبر الراغب فيها أن «نونوفار بخير».

هذه المرة، عندما جاءت الرسالة من لندن تحملُ الجواب، لم يتمكن المهندس الشاب من التحكم في توتره في اللحظة التي كان عليه أن يفتحها. بسط الورقة الرقيقة وألصق عينيه بالحروف المصاغة بخط ملغز يمثل الأبجدية الأرمنية. اعترف أوهانس في تلك الرسالة

بتأثره العميق لرؤية ذلك الكتاب الرائع يصل إلى المطبعة وكشف له أن «حتى نونوفار أبدت اندهاشها الكبير». لكن الأهم كان ما جاء في السطر الأخير من جُمل: «أعترف لك، عزيزي، أنك قد استطعت أن تفاجئني، في نهاية الأمر»، كتب شيخ آل بربيريان، «لذا أتساءل إن كنت ما تزال تحتفظ بالرغبة في طلب يد ابنتي».

لحظتها، علم كالوست أنه قد ربح الرهان.

مكتبة
t.me/t_pdf

9

التاجُ المتلألئ، الذي كان يمسكه الشيخ الجليل بيديه الشاحبتين، حام لمدة ثانية قصيرة في السماء وبدأ ينزل بوقار عظيم، كما لو كانت تجري لحظتها مراسيم تتويج أعظم الأباطرة، حتى أخذ مكانه في الشعر الأسود لنونوفار. كانت الفتاة ملفوفة في فستان حريري أحمر رائع، فرفعت عينيها الحالمتين نحو خطيبها، الذي كان تاجه معدلاً فوق رأسه، ثم حوّلتهما نحو العرّاب، والدها نفسه، الذي كان يقف بينهما ماسكاً صليباً يعلو فوق الرأسَين.

- ها قد تُوّجتما ملكاً وملكة في مملكتكما! - أعلن الشيخ، وصوته الوقور يتردد صداه في أرجاء الكنيسة - والآن سوف نبارك الكأس المشتركة.

قام الشيخ بمباركة كأس من نبيذ، كما تقتضي العادات الأرمنية، شرب منها العريسان جرعة. وباركهما المسؤول عن الحفل، متوسلاً إلى المسيح أن يشملهما بظل عنايته وينيرهما بقداسة ونور صليبه في السِّلم، ثم أعلنهما في النهاية زوجاً وزوجة.

ملأ موكب الزفاف جنبات كنيسة «سورب أسفازادين» في قلب القسطنطينية، وتعالى انفجار من التصفيقات في المعبد عندما استدار

الزوجان، نزلا من فضاء المذبح، عبرا الخورس وذهبا ليتلقيا تحيات وتهاني الأحباب والأصدقاء المحتشدين في الممر الأوسط.

- تهانينا! - صاح أحد الأصوات.

- لتشيخا في نفس الفراش! صاح صوتٌ آخر.

وكان يحضر الحفل معشر آل بيربيريان ومعشر آل ساركيسيان، بمن فيهم العائلات التي قدمتْ من الأناضول وقيصريّة خصيصاً لهذه المناسبة. وخرج عن هذه القاعدة، طبعاً، ابن العم، الذي كانت نونوفار موعودة له منذ الطفولة، والذي تذرّع بنوبة «وجع قوي في الأمعاء» ليبرر غيابه، وهي ذريعة بدت للجميع مشحونة بالسخرية والاحتقار، بل والإهانة، نظراً لطبيعة المشكلة المذكورة.

- أيها الفتى - قال أوهانس، وهو يمسك كالوست من كتفيه - أو ربما ينبغي أن أقول... يا ابني؟

- ابني، لا - قاطعه فاهان بقهقهة عالية - لأنه ما زال له أب، لحسن الحظ.

- ليكن ذلك - وافق والد نونوفار - لكن هذا لا يمنع من أن أُوجّه لكُما دعوة. أودّ لو تذهبا لتعيشا في بيتي، هناك في حي إسطنبول. إقامة متواضعة، هذا صحيح، لكني أظن أنها تتوفر على الحد الأدنى من الشروط لتلبية حاجياتكما.

قطّب فاهان حاجبه.

- يا صاحبي، أنت تعرف أن تقاليدنا الأرمنية تنص على أن العروس هي التي تأتي لتعيش في بيت العريس...

- أعرف التقاليد جيداً - ردّ أوهانس - لكن الأزمنة تتغير، يا رجل! نحن في سنة 1892! والقرن العشرون على الأبواب! ثم إنه،

هناك في بيتي البسيط، سيبقى العريسان لوحدهما ولن يضطرا لإرضاء أي أحد. ألا يبدو لك ذلك أحسن؟

- كيف سيبقيان لوحدهما؟ وأنتم؟

- نحن نعيش في لندن، يا صاحبي. ظروفي الصحية لا تسمح لي بأن آتي لأعيش هنا، بما أن هناك يوجد أحسن الأطباء. ولا أرغب في أن أترك إقامتي المتواضعة هكذا وأسلمها للخدم، لا يعلم إلا الله بمصيرها. لو ذهب العريسان إلى منزلي فإنهما فعلا يسديان لي خدمة. هل فهمتَ؟

منزل آل بيربيريان، بعيداً عن كونه «إقامة متواضعة» و«بيتاً بسيطاً» كما وصفه أوهانس، كان في الحقيقة واحداً من أفخر البيوت في القسطنطينية. كان القصر الصغير يقع في منطقة خضراء من حي إسطنبول، غير بعيد عن قصر توبكابي، ويتمتع برؤية متميزة على بحر مرمرة. لذلك قبل كالوست الدعوة دون تردد، خصوصاً أن ظلال أهل زوجته لن تلازمه في البيت.

ترجّل العريسان من العربة وتأمّلا جوهرة القسطنطينية الجديدة. «بيرا بالاس»، الذي دُشّن مؤخراً، كان هو المفخرة الجديدة لوالد العروس، الذي أراد أن يشيد أحسن وأفخر فندق في الإمبراطورية العثمانية يستقبل كما يليق المسافرين القادمين على متن «قطار الشرق السريع».

البنايةُ التي زُينت لاستقبال زفاف السنة المنتظر كانت تقع في أعلى بيرا وتتمتع برؤية رائعة على البقعة الزرقاء للقرن الذهبي وبنايات قصر السلطان، لكن الوقت لم يسعف العريسين كي يستمتعا

بذلك المنظر. أخذوهما مباشرة إلى داخل البناية الفخمة، حيث اصطف الضيوف لتحيتهما.

وخلال نصف الساعة التي تلت ذلك، حيا كالوست بيده أكثر من مائة شخص. من بينهم شخص تُركي نحيف، يضع قبعة ويرتدي معطفاً طويلاً أسود، وله شارب يصعد طرفاه ملتويين نحو الأعلى، ليشكلا زخرفة غريبة، كان يسحبه والده من ذراعه.

- أقدمُ لك السيّد سليم باي - قال فاهان بشيء من الأبهة في صوته - وهو، كما تعرف، صديق قديم ندين له بالشيء الكثير.

تردد الابن بعض الشيء قبل أن يصافح الرجل الذي قُدّم له. لقد سمعهم دائماً يتحدثون عن سليم باي، اسم يحظى بشعبية كبيرة هناك في المنزل. كان هو مراقب مالية السلطان الخاصة والمسؤول عن تعيين والده والياً على تربيزوندا وهو من منحه امتياز تزويد السلطان بالكيروسين، المصدر الأساسي لثروة العائلة. كان كالوست دائماً يتخيل الحامي التركي رجلاً طاعناً في السن، أو على الأقل في سن والده، لكنه كان مختلفاً تماماً في الحقيقة. يبدو من شكله أنه ربما في الأربعين من عمره، وهو ما مثل مفاجأة كبيرة. صحيح أن سليم يتمتع بحماية السلطان؛ وهذا ما يفسر صعودهُ السريع في سُلّم إدارة السلطان العثماني.

- لقد حدثني والدك كثيراً عن إنجازاتك - قال سليم باي بعد أن حيا العريس وتقرب منه بكل ألفة - بل من لطفه أيضاً أهداني ذلك الكتاب الرائع الذي نشرتَهُ في فرنسا.

احْمرّ كالوست خجلاً.

- آه، أفندي! ما كان عليه أن يفعل ذلك!

- ولم لا؟ هل ثمة في تلك الصفحات ما قد يخجل منه أب نزيه؟

- لا، لا يتعلق الأمر بهذا. فقط إنه... حسناً، ربما أعطى والدي أهمية مبالغة لشيء لا يستحق ذلك.

تهلّل وجه سليم باي بابتسامة عريضة. توجه بنظرة مُسلّية نحو فاهان ثم عاد إلى مُحاوره الشاب.

- لقد لاحظتُ أنك متواضع! - صاح - لكنك مخطئ. فكتابك فعلاً مهم ويعتبر عملاً ذا قيمة كبيرة. أما المقال التي نشرته في مجلة *Revue des Deux Mondes*، والتي تشرفت بقراءته، فلا يقل أهمية عن الكتاب. أقدم لك أصدق التهاني لما أبنْت عنه من علو كعب في الكتابة.

- شكراً.

- وعلى ذكر ذلك، فقد قدمتُ النصَّين معاً إلى وزير المناجم حتى يتمكن من قراءتهما، وكان رأيه لا يختلف عن رأيي.

فتح كالوست عينين جاحظتين، وقد أدهشته تلك المعلومة.

- هل تتحدث بجدّ؟

حرّك التركي رأسه مؤكداً. وفجأة، صار هادئاً تماماً، انحنى إلى الأمام، كما لو أنه يريد أن يتقاسم سراً، ثم ضيّق عينيه.

- لماذا لا تأتي لتزورني في مكتبي في يوم من الأيام؟ - سأله بنظرة مليئة بالإيحاءات - أودّ أن أدردش معك قليلاً.

حشدٌ صغير من رجال الأعمال، معظمهم من اليونانيين والأرمن، كانوا يتزاحمون عند باب البناية الحكومية في قصر توبكابي، في قلب إقامة السلطان. مرتدياً أحسن هندام، والطربوش

الأحمر دائماً فوق رأسه، مرّ الشاب عبر ذلك الحشد من الناس الأثرياء وتوجه نحو الموظف التركي الذي كان في المكتب.

- أريد أن أتحدث مع حضرة السيّد سليم باي.

حدجهُ الموظف بنظرة ملؤها الازدراء، لما اعتاد عليه من مضايقات لا تكلُّ يمارسها التجار المسيحيون الذين يقصدون باب القصر ليتوسلوا الحصول على امتيازات من الأفنديّة.

- هل أخذت موعداً محدداً؟

- على الساعة الرابعة بالضبط - ثم أخرج ساعة من جيب معطفه - أي، بعد خمس دقائق.

لم يكن الحضور في الوقت المحدد خصلة تحظى بالتقدير في الإمبراطورية العثمانية، لذا علت وجه التركي تكشيرة استياء.

- هذا ما سنراه - قال بمزاج سيِّئ واضح - ما اسمك؟

- كالوست ساركيسيان.

نظر الرجل إلى المحضر، وأمام اندهاشه تأكد من أن الشاب كان له بالفعل موعد مع وزير من الحكومة ومحاسب السلطان. لم يكن من المعتاد رؤية أرمني في ذلك السن يأتي إلى هناك ويلتقي من الوهلة الأولى مع شخصية سامية. لكن المحضر لا يترك مجالاً للشك، لأن شخصاً يحمل هذا الاسم كان له موعد مع سليم باي.

- تفضل، يا سيّدي، اصعد.

فجأة، وبطريقة أكثر أدباً، لأنه لم يكن يعلم قوة ونفوذ ذلك الأجنبي الذي لم يسبق له أن رآه هناك، رافقه موظف الاستقبال عبر متاهة البناية وقاده إلى مكتب الوزير الشخصي للسلطان.

أمرهُ رئيس ديوان سليم باي أن ينتظر في قاعة أشار إليها. كانت مقصورة صغيرة في عمق الممر. جلس كالوست قرب النافذة وتسلى

بمشاهدة حركات المراكب هناك في الأسفل، تنزلق في صمت عبر مياه بحر مرمرة. ميّز بيت والدَيه هناك في الضفة الأخرى، في حي سكوتاري، وحاول أن يحدد مكان البيت الذي كان هو نفسه يقطن فيه بالقرب من هناك، لكنه لاحظ أن رؤيته تستحيلُ من تلك النافذة. كان البيت في الجهة الأخرى من التل.

- تفضل وادخل، من فضلك.

فاجأه صوتُ رئيس الديوان وهو ينظر عبر النافذة؛ عاد الرجل إلى قاعة الانتظار ليبحث عنه ويشير إليه أن يرافقه. سارا عبر الممر حتى بلغا الباب المؤدي إلى مكتب الوزير. حين دخل إلى القاعة، المزينة تزييناً رائعاً بسجادات من شيراز، وجد كالوست سليم باي جالساً على أريكة رفقة رجل تركي آخر أكبر سناً. ولما رأى الشابَّ، نهض حامي والده ليسلم عليه ثم قدم له ذلك الغريب المهندم.

- السيّد أحمد فريت، وزير المناجم - قال - كما أخبرتُك قبل أيام، هو أيضاً قرأ كتابك المتميز وأبدى اهتماماً حقيقياً بشخصك.

- هذا يشرفني - قال كالوست، وهو يقوم بحركة انحناء نحو الرجلين - أنا طبعاً، رهن إشارتكما في كل ما تريانه ضرورياً.

حوّل سليم باي نظراته نحو الأرائك.

- في الوقت الراهن، من الضروري أن نجلس - قال مازحاً، وهو يشير بحركة إلى أماكن الجلوس - تفضّلا.

وما إن جلسوا حتى دخل إلى المكتب مستخدم يحمل صينية ثم وضع إبريق قهوة وثلاثة فناجين فوق المائدة الصغيرة أمام الأرائك. رشفوا بضع جرعات من القهوة التركية وطرح وزير المناجم أسئلة مجاملة يسأل الشاب عن الزفاف، متمنياً للعريسين السعادة والرخاء.

فقط بعد مرور عشر دقائق من الحديث الخفيف، الذي تناول

أيضاً ملاحظات موسوعية نوعاً ما حول مجموعات السجادات، وهو موضوع يثير اهتمام ثلاثتهم، تنحنح سليم باي ودخل أخيراً في صلب المسألة التي تشكل موضوع ذلك الاجتماع.

- هل تابعتَ زيارة القيصر إلى مدينتنا، قبل ثلاث سنوات تقريباً؟

- بالكاد - ردّ كالوست - أذكر أنني كنت وقتئذ، بالصدفة، منهمكاً بالضبط في تحرير مقالي لفائدة مجلة *Revue des deux Mondes* وسنحت لي الفرصة لأشاهد موكب القيصر يعبر القنطرة الجديدة فوق القرن الذهبي باتجاه الحفل الذي أقامه السلطان على شرفه.

فرك سليم باي يديه.

- آه، هذا جيد! - صاح راضياً - ما حدث هو أنه، نتيجة لتلك الزيارة، كلفت حكومتنا «البنك الألماني» ببناء خط السكة الحديدية نحو الأناضول. سارت الأشغال بوتيرة جيدة ونأمل أن ندشن الخط إلى أنقرة مع نهاية هذه السنة. وتتمثل الفكرة، مع ذلك، في مواصلة بناء السكة الحديدية حتى بغداد ومنها إلى ميناء البصرة، بعد ذلك. يسعى الألمان من خلال ذلك إلى الوصول إلى المحيط الهندي وإلى مستعمراتهم في تنجانيقا عبر طريق تسمح لهم بتفادي قناة السويس. وبذلك يبقون في مأمن من الهجمات العرَضية الناتجة عن سوء مزاج البريطانيين أو الفرنسيين ويحصلون كذلك مباشرة على المواد الأولية القادمة من أفريقيا، الضرورية لتزويد صناعاتهم. لا تنس أن ألمانيا قد تجاوزت إنجلترا في منتوجات صناعة الفولاذ.

- من هنا لم تكن القوى الغربية راضية على منح ذلك العقد إلى الألمان. ومن يلومهم على ذلك؟

- هذا واقع - أكد سليم باي - يرى البريطانيون في خط السكة تهديداً للهند. يعتقدون أن الألمان بدأوا يتحولون إلى قوة كبيرة أكثر مما ينبغي، ربما حتى أكبر من الإمبراطوريات البريطانية، والفرنسية والروسية، ولهذا فهم يقومون بكل ما في وسعهم للتحكم في تطورهم - وقام بحركة غامضة في الهواء - لكن. . . في نهاية الأمر، كل هذا موضوع آخر. في الحقيقة، ما دفعنا لاستدعائك إلى هذا الاجتماع المصغر مسألة محددة في مشروع خط السكة الحديدية - ثم وجه نظراته نحو أحمد فريت - أظن أن السيّد الوزير يمكنه أن ينيرنا بخصوص هذا الموضوع.

تنحنح وزير المناجم وضبط صوته.

- لقد أرسل الألمان فريقاً تقنياً لدراسة تفاصيل مسار خط السكة إلى بغداد - قال - ما حدث هو أنه، قبل بضعة شهور، التقوا بي يطلبون أن نسلمهم امتيازات لاستكشاف ما تزخر به بلاد الرافدين من معادن. وجدت طلبهم غريباً نوعاً ما فبدأت أفكر مع نفسي. . .

- ما الذي يكونون قد اكتشفوه حتى يهتموا كل ذلك الاهتمام بتلك الأراضي؟

- هذا ما فكرتُ فيه بالضبط! - صاح فريت مبتسماً، وهو يشير بإصبعه إلى مُحاوره الأرمني - لقد انتبهت إلى أنك رجل متبصر، سيّد ساركيسيان. . .

- لقد نبهتُ لذلك - قال سليم باي بعبارة لطيفة - ما خاب من شبه والدَهُ.

- ما الذي فعلتُه، إذاً؟ - قال وزير المناجم مستأنفاً كلامه - طلبت باستقصاء حول الأراضي التي مرّ منها الألمان. اكتشفتُ أنهم قضوا بعض الوقت في الموصل، في كركوك وفي البصرة، لكن،

رغم كل استقصائنا، لم نكتشف شيئاً خاصاً. ومع ذلك، لم أستسلم. مقتنعاً بأن هناك شيئاً ما يغيب عنا، أخذت أبحث في سِيَر الخبراء الألمان الذين أرسلتهم شركة السكك الحديدية إلى الأناضول ليدرسوا مسار الخط فانتبهتُ إلى أنه كان من بينهم جيولوجيون لهم تجربة في مجال التنقيب عن النفط - مدّ يده إلى محفظة وأخرج منها كتاباً سرعان ما تعرّفه كالوست. كان عنوانه *La Transcaucasie et le Bakou: souvenirs de voyage* مطبوعاً بحروف مذهبة. وصادف هذا كله قراءة كتابك المهم. درستُ المسألة فاستنتجت أن الألمان قد عثروا على النفط في أراضينا وظلوا صامتين كأنهم جرذان كنيسة.

- لا بد أنهم يحسبوننا أغبياء - لاحظ سليم باي - أو أننا نائمون.

- هكذا يمكن أن ترى هذه الفوضى العارمة التي ظهرت هنا، أليس كذلك؟

وكان كالوست قادراً على رؤيتها، بالفعل. بيد أنه احتفظ بنظرة معتمة، وراحت عيناه تنتقلان بين مُحاورَيه.

- إنني أفهم ذلك تماماً - قال بطريقة هادئة - لكن، فيما يمكن أن أكون مفيداً لكما؟

نظر الوزيران إلى بعضهما، كما لو أن الواحد يدعو الآخر لأخذ الكلمة. في الأخير، تكلف سليم باي بتلك المهمة، نظراً لما تجمعه من أُلفة بالعائلة الأرمنية.

- ليس لدينا هنا في الإمبراطورية العثمانية من أحد يفقه شيئاً في النفط - اعترف - في الحقيقة، وبعد وقراءة كتابك، توصلنا إلى نتيجة أنك أنت، رغم صغر سنك الواضح، هو المرجع الأكبر والوحيد في هذا الموضوع. أنجزتَ أطروحة إجازة عن النفط.

انتقلتَ إلى باكو لمعاينة عملية استخراجه وكتبت مقالاً وكتاباً نشرتهما في أوروبا حول نفس الموضوع. لا يوجد هنا شخص آخر بمثل هذه الشواهد - ثم تنحنح مشيراً إلى أنه قد وصل إلى أهم نقطة من حديثه - ونظراً لذلك، نريد أن نعرف إن كنت على استعداد لتُقدم خدمة إلى صاحب الجلالة، السلطان.

ترك هذا السؤال كالوست في حرج من أمره. إن كانت تلك هي صيغة السؤال، فأي هامش لديه كي يتراجع؟ وهل كان يريد أن يتراجع حقاً؟ إن تقديم خدمة للسلطان يمكن أن تكون فرصة كبيرة. أي شك في ذلك؟ كم من الأبواب يمكن أن تفتح أمامه؟

- بكل تأكيد! - صاح - أنا رهن الإشارة الكاملة لصاحب الجلالة! أخبراني بما ينبغي عليّ أن أقوم به وسأنجز ذلك.

أبدى الوزيران التركيان رضاً كاملاً عن الأمر.

- نريدك أن تبحث في هذا الموضوع - قال وزير المناجم - أنْجزْ لنا تقريراً كاملاً عن النفط المتواجد في الإمبراطورية - ابتسم - أعني بلاد الرافدين، بالطبع. هذه الأراضي هي التي تثير اهتمام أصدقائنا الألمان.

في الأيام الموالية، تعب كالوست كثيراً في التحضير للرحلة الكبيرة. إن كان عليه أن يعد تقريراً يرفعه إلى الباب العالي، بدا له أن أول خطوة منطقية قد تكون هي زيارة المنطقة المعنية. ولأجل ذلك، كان عليه أن يهيِّئ عُدّة خاصة بالعملية ويربط الاتصالات المناسبة من أجل حلّ المشاكل العملية التي تطرأ، وخاصة أنه لم يكن هناك من قطار يصل إلى تلك المناطق من الإمبراطورية.

سأل والده إن كان لديه أي اتصال في الموصل أو في كركوك، وهي الأراضي التي ذهب الألمان على ما يبدو للبحث فيها، لكن فاهان استغرب طلبه.

- ولماذا تريد معرفة ذلك؟

- عليّ أن أذهب إلى هناك - قال الابن - طلب مني سليم باي أن أعد له تقريراً عن الإمكانيات النفطية لبلاد الرافدين.

أحنى الأب رأسه جانباً.

- انظر، هل لديك فكرة عن هذه الرحلة التي سوف تحشر نفسك فيها؟ - سأله - فالتنقل إلى هناك كابوس في حد ذاته. عليك أن تذهب على صهوة جواد أو على متن عربة لمدة أسبوع أو أسبوعين عبر طرق في حالة سيئة لا أمن فيها. وأفظع ما في الأمر أن تلك الأراضي برية. بلاد الرافدين تعج بقبائل الرحل، أناس لهم رغبة عارمة في قطع رأس أول ملاك يظهر هناك ليسرقوا ماله. فهل أنت واثق من أنك تريد أن تضع نفسك في ذلك المطبّ الخطير؟

تركت هذه الكلمات كالوست غارقاً في تفكير عميق. كانت بلاد الرافدين، بالفعل، أرضاً قاحلة، بها صحارٍ واسعة وساكنة عدائية. كانت حكايات الاعتداءات على المسافرين كثيرة كي يتم تجاهلها باستخفاف، بل يُقال إن الطرق كانت موبوءة بعصابات من الأشرار. وعلاوة على ذلك، لم تكن المنطقة تتوفر على فنادق بالمعنى الصحيح للكلمة. وهو ما يعني أنه كان يتعين عليه أن ينام تحت الخيام، يأكل لحم الجمال وأشياء أخرى فظيعة لا يمكن حتى تصورها! وأن يقضي حاجته في الخلاء. لم تبد له الآفاق جذّابة، بالفعل.

- حسناً، أنت على حق - اعترف - لكن، إن لم أذهب إلى هناك فكيف أعدّ التقرير؟

فكر فاهان في المسألة.

- في الحقيقة... - همهم - الشيء المثالي هو إرسال شخص إلى هناك، ألا ترى ذلك؟

وأوحى ذلك التلميح إلى الابن بفكرة.

- ما الهدف من إرسال شخص إذا كان من الممكن الحديث مع من كان هناك من قبل؟ - تساءل متدبّراً في الأمر. وفجأة، فتح عينين جاحظتين وهو يتحمس لفكرة - هذا إذاً! - صاح مقتنعاً - يمكن أن أحصل على معلومات من شخص كان في تلك المنطقة!

ذهب إلى الأرشيف الذي جمعه أثناء تحضير أطروحة الإجازة في كلية كينجز وبحث عن نسخ من الوثائق الأولى حول وجود النفط في بلاد الرافدين. كان الأمر يتعلق بالتقارير التي أنجزها الكولونيل تشيسني الذي قام برحلة عبر المنطقة في عقد الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. المشكلة أن المعلومات المحصل عليها من تلك البعثة كانت نادرة وهي غير مُحيّنة بكل تأكيد، مما يعني أن عليه أن يتحدث مع أشخاص كانوا هناك مؤخراً. لكن، من؟

لم يضطر للتفكير طويلاً كي يجد الجواب. ينبغي أن يكونوا هم التقنيون الألمان الذين يشتغلون في بناء خط السكة الحديدية إلى الأناضول. طبعاً، ليس بإمكانه أن يسأل المسؤولين عن الشركة، الذين ربما يدركون بسرعة القصد من أسئلته. الأمر المثالي هو أن يسأل بعض المرؤوسين الأقل أهمية، من الناس غير المتعودين على أسئلة تتعلق بالاستراتيجيات الكبرى. لا بد أنه هناك الكثير منهم في مثل هذه الظروف، لكن كيف له أن يصل إليهم؟

مرة أخرى، أوحى له والده بحلّ. تذكّر فاهان أن محل بيع السجادات في البازار الكبير كان محط زيارة يرتاده الكثير من

الأوروبيين، بمن فيهم بعض الألمان المنخرطين في مشروع بناء خط السكة الحديدية. وقد صار اثنان من هؤلاء من هواة جمع التحف، وخاصة واحد يدعى غونتر، كان يقوم بمقارنات مع سجادات اقتناها خلال أسفاره عبر الإمبراطورية، وخاصة في بغداد، حلب، وكركوك، مما يعني بكل وضوح أنه كان ضمن فرق التنقيب في الأراضي التي يشملها خط السكة الحديدية.

بعد تأمل ما سمعه من ملاحظات على لسان هذا الزبون طوال المدة التي كان يتردد فيها على المحل، اقتنع كالوست بالأمر.

- هذا هو رجلنا المنشود!

ظهر الألماني في ذلك الصباح يسأل إن كان قد وصل أي شيء جديد من بلاد فارس، من القوقاز أو من الهند. قبل شهر على ذلك، كان صاحب المحل قد أعطى تعليمات للمستخدمين حول كيفية التصرف إن جاء ذلك الزبون بصفة خاصة، لذلك انطلق مبعوثان على وجه السرعة، واحد ذهب ليخطر فاهان وتوجه الآخر لينادي على كالوست.

كان صاحب المحل هو أول من حضر، ودون أن يضيع وقتاً توجه إلى الزبون.

- سيّد غونتر، يا له من شرف أن تأتي إلى محلي المتواضع!
- صاح بابتسامة عريضة وذراعين مفتوحتين، وهو يشد على كتفيه - أين كنت، يا سيّدي، حتى أننا بدأنا نتساءل عن مكان وجودك.

كان غونتر غالباً ما يحظى باستقبال ودي في المحل، لكن مُضيفَه كان في تلك المرة يستقبله بحفاوة من نوع خاص، مما فاجأ

الألماني الذي لم يتصور قط أنه سيصبح زبوناً يتمتع بكل تلك الشعبية.

- حسناً... لقد كنتُ هناك. إن عملي غالباً ما يجبرني على أن أغيب عن القسطنطينية، كما تعرف.

- آه، كلنا عبيد العمل والشقاء! - وافق مُضيفُه بوجه حزين وحركات مسرحية. ثم أشار إلى السجادات التي تملأ المحل - إن ما ينفعنا، يا صديقي، هو الفن. هو ملْحُ حياتنا!

- من دون شك، من دون شك!

وأشار صاحب المحل إلى أريكة مغطاة بالوسادات.

- اجلس! - دعاه - هل تريد شاياً؟ قهوة؟

- لا تزعج نفسك...

- أوه، ماذا تقول؟ ليس هناك أي إزعاج! - ثم لمَّح بحركة إلى المستخدم - كاشيغ، هات قهوة! وفي طريقك، اذهب إلى «سارك قهوجي» واشتر بضع قطع من البقلاوة لصديقنا! - ثم عاد ينظر إلى الألماني - آه، لن تعرف كم كنا قلقين بشأنك! قرأت في الجريدة أنه قد وقعت بعض الأعمال التخريبية هناك في بلاد الرافدين ففكرتُ فيك.

ولما رأى حفاوة الاستقبال، انساق غونتر وراء مضيفه؛ ثم جلس مرتاحاً على الأريكة وجسده مُسْتَرْخ وسط الوسادات.

- نعم، إن الأمور معقدة أحياناً - وافق قائلاً - لكننا نتنقّلُ دائماً ضمن فرق ونتوفر على أمن خاص، طبعاً. لذلك ليست هناك مشاكل.

- آه، يسرني معرفة ذلك! دائماً أقول مع نفسي إنه لشيء مبارك أن يكون هناك ألمان يساعدوننا - انحنى نحو الأمام وخفض صوته

- أنتم أحسن ألف مرة من الإنجليز أو الفرنسيين أو الرّوس! لا أريد لهم شرّاً، بل إن لدي العديد من الزبناء من هذه الجنسيات وهم مسيحيون مثلي، لكن. . . ليس هناك من يشبه الألمان!

- شكراً. نحاول أن نساعد قدر المستطاع.

ثم استلقى فاهان مرة أخرى فوق الأريكة ذات الوسائد.

- وأنا أيضاً أشكرك - صاح فجأة - من هنا، ولمعرفتي بذائقتك وما تحتاجه بوصفك جامع تُحف يتمتع بذوق رفيع، فقد احتفظت لك بمفاجأة!

انتشر بريق لمعان من الفضول في عين الألماني الزرقاء.

- بلا مزاح! ماذا؟

لحظتها، دخل كالوست إلى المحلّ. كان قد اتفق مع والده منذ مدة على لعب دور في مسرحية صغيرة عندما تكون الفرصة مواتية. ها قد حانت الفرصة، وعليه الآن أن يتقمص الشخصية ويدخل في الدور.

- آه، أنت هنا! - صاح فاهان، مسروراً لرؤية ابنه يصل وهو يشير إليه أن يقترب - تعال هنا، أريد أن أقدم لك ذلك الزبون الذي حدثتك عنه قبل مدة! - ثم التفت نحو غونتر - أقدم لك ابني - قال - هو من اكتشف تلك التحفة التي احتفظنا لك بها.

حيا الوافدُ الجديد الزبون وجلس بدوره فوق الأرائك ذات الوسائد. أثناء ذلك، جاء كاشيغ يحمل صينية بها ثلاثة أكواب من القهوة، على الطريقة التركية، وصحناً مليئاً بقطع البقلاوة. استأذن فاهان وغاب لبضع لحظات، تاركاً زمام الحديث لابنه.

- قمتُ مؤخراً بجولة في الهند البريطانية - كذب كالوست،

وهو يبدأ في طرح السيناريو الذي هيأه - عندما كنتُ في لاهور ذهبتُ لزيارة محل لبيع السجادات، كما أفعل دائماً أثناء رحلاتي، بما أنني متذوق كبير. . . رغم أنني جامع تحف متواضع. ومع توالي الحديث عرض عليّ التاجر الهندي مجموعته الخاصة من السجادات. كانت بينها قطع بدت لي قديمة جداً. أردت أن أقتنيها، بعد ذلك، طبعاً، لكني قلت مع نفسي إنني لن أُقدم على هذه الخطوة قبل إجراء خبرة. استدعيتُ أمين المتحف البريطاني في لاهور، سير مالكولم تيي، الذي سبق لي أن قمت معه ببعض الصفقات، وعرضت عليه المجموعة. ظل سير مالكولم عاجزاً عن الكلام.

ظهر الأب من جديد في تلك اللحظة يتبعه بضعة مستخدمين يحملون سجاداً مستطيلاً من الحجم الكبير. كان مصنوعاً من صوف باشمينا ويبدو بالياً نوعاً ما، لكنه يتوفر على رسومات معقدة، قرمزية ومذهبة، لها عدة أشكال هندسية تمثل نجوماً من اثني عشر طرفاً، كأنها بلورات من الثلج.

- أوه! - صاح الألماني وهو يفتح عينين جاحظتين - أليس هذا. . . سجاداً مغولياً؟

وافق كالوست بحركة من رأسه.

- من القرن الثامن عشر - قال - أخبرني أمين المتحف أنه يشكل جزءاً من مجموعة نُهبت من قصر لاهور خلال تمرُّد حدث قبل بضعة عقود.

- وهل اقتنيت السجاد؟

- في الحقيقة، اضطر التاجر الهندي ليعيد المجموعة إلى مكانها، بما أنها كانت سرقة. لكن، حتى يكافئني على تصرفي، سمح لي أمين المتحف باقتناء سجادَين. واحد سيبقى في مجموعتي

ولن يغادرها أبداً. أما الآخر.. . على أي، نصحني والدي أن أحتفظ به لك. قال لي إنه سيعجبك.

فقط عندما سمع ذلك، رفع الزبون عينيه المسحورتين عن السجاد ونظر إلى مُحاورِه.

- احتفظتَ به لي أنا؟ لكن. . . لماذا؟

ضبط كالوست صوته واستعد ليلقي بورقته الرابحة.

- لأنني أعرف أنك جامع تحف ذو ذوق رفيع - قال - أنا مستعد لأبيعك السجاد، مع شهادة صادرة عن أمين متحف لاهور، مقابل عشر ليرات ذهبية.

الطمع الذي ظل مرسوماً في عيني الألمان تحول إلى تكشيرة تعبر عن الصدمة.

- كيف؟ هذه ثروة حقيقة! أنا لا أملك الإمكانيات لـ. . . لـ. . .

- هذا سجاد مغولي من القرن الثامن عشر - ألح الأرمني - يمثل فترة أوج فن السجاد! أرأيت ما يعنيه امتلاك قطعة كهذه؟ ستكون موضوع حسد كل جامعي التحف في العالم بأسره!

- نعم، هذا صحيح - اعترف غونتر، وقد التصقت عيناه من جديد بالسجاد - المشكلة أنني لا أملك كل هذا المال.

- يمكن أن أمنحك تخفيضاً - ثم نظر إلى الأفق كأنه يفكر في قيمة التخفيض - لنقل. . . ثمان ليرات ذهبية.

- أوه! أخشى أن يكون أقصى ما أستطيع أن أقدمه هو خمس ليرات. وأنا أفعل بذلك بمجهود كبير وكثير من التضحية، صدّقني.

تنفس كالوست بعمق، متظاهراً بالانزعاج، ثم ألقى نظرة ممتعضة نحو والده.

- سيّدي، لقد قلتَ لي إن هذا الزبون خاص جداً - قال بمرارة - لكن إن كان من أجل هذا. . .

- انتظر! - قال فاهان، كما لو أنه يحاول أن ينقذ الصفقة - ربما يستطيع السيّد غونتر أن يكون مفيداً لك بطريقة أخرى. ألست منهمكاً في كتابة دليل عن عجائب طبيعة بلاد الرافدين؟ حسناً، السيّد غونتر جال وصال في تلك المناطق. لو منحته تخفيضاً ربما يستطيع أن يساعدك - ثم التفت نحو الزبون - أليس كذلك، سيّد غونتر؟

- أجل! - ردّ الألماني فوراً، متلهفاً لامتلاك السجاد - بكل سرور!

كانت أصابع كالوست تُمسّد فخذه، التي وضع فوقها يده، كأنه يفكر إن كانت الصفقة في صالحه.

- هذا يتوقف على المعلومات التي قد يزودني بها - قال في النهاية، وهو يتظاهر بالتردد.

- ما الذي تريد أن تعرفه؟

- أبحث عن أشياء غريبة بخصوص المناظر الطبيعية في بلاد الرافدين وجيولوجيا هذه المنطقة. حمم بركانية، خصائص غير معروفة عن هذه الأرض. . . مثل هذه الأشياء التي يمكن أن تثير اهتمام من يعشق غرائب الطبيعة.

كاد غونتر أن يقفز فرحاً وهو يسمع تلك الملاحظة.

- بالصدفة، رأينا أشياء غريبة كهذه - سارع ليقول بحماس - لست أدري إن كنت تعرف، ولكن عملي يتمثل في القيام بقياسات طوبوغرافية، حتى نحدد بدقة المسار المثالي لخط السكة الحديدية الذي نقوم ببنائه. ويضم فريقنا بعض الجيولوجيين الذين ينجزون هناك أبحاثاً غريبة نوعاً ما. قبل مدة، اكتشفوا حوالي عشرين ثقباً في

الأرض يتصاعد منها اللهب. يسميها أهل القرى الكردية «آباء النار» ويقولون إنها كانت هناك منذ الأزل - قطّب حاجبيه - يمكن أن تكون مفيدة لدليلك، ألا تظن ذلك؟

مفيدة جداً، فكر كالوست، وهو يتذكر اللهب الأبدي الذي رآه يحترق في شبه جزيرة أبشيرون، في باكو؛ لم يكن ثمة شك في أن الأمر يتعلق بنفس الظاهرة. ومع ذلك، حرص على إخفاء ما أيقظت فيه تلك المعلومة من حماس.

- ربما - اكتفى بهذه الملاحظة، منيعاً كأنه لاعب بوكير - قلتَ، يا سيّدي، إنك قد رأيت ذلك في كردستان؟

- إنه مكان يدعى بابا كركر، قرب كركوك. بدا الجيولوجيون في فريقنا مهتمين جداً بتلك النار المتصاعدة من الأرض. كان هناك حماس كبير حين عثروا عليها!

- وهل قاموا باكتشاف آخر من هذا النوع؟

- أخبرني أصدقائي أن هناك شيئاً يشبه ذلك في منطقة الموصل - لاحظ غونتر - لكني أعترف أنني لم أر شيئاً هناك، بما أنني كنت وقتها أقوم بقياسات في وادي الفرات.

تابع الأرمني أسئلته، يتحقق من المعلومات ويستوعبها بملامح وجه غير مبالٍ، كما لو أن ذلك لا يهمه سوى بشكل عابر ولا يمثل شيئاً استثنائياً؛ بل إنه تظاهر بالتثاؤب. وبعد أن استخلص من الألماني كل ما كان لديه من معلومات، حرك رأسه بالرفض.

- لا، لا شيء من هذا يبدو مفيداً للدليل الذي سأضعه - قال جازماً - أحتفظ بثمن السجاد. ثماني ليرات ذهبية أو لا شيء.

تراخت كتفا الزبون من الإحباط.

- إنني لا أستطيع أن أعطي ما لا أملك - قال - ثمان ليرات، هذا كثير جداً.

- إذاً. . . ليست هناك أي صفقة!

بعد تنهيدة عميقة، وقف كالوست، ودّع غونتر ووالده ثم غادر المحل على وجه السرعة، وهو يخشى أن يغير الألماني رأيه. في الحقيقة، لم يخطر على باله يوماً أن يتخلص من السجاد المغولي النفيس الذي يعود إلى القرن الثامن عشر، وهو واحد من جواهر مجموعته من السجادات التي ما تزال صغيرة.

خلال الأسابيع الموالية، استطاع المهندس الأرمني أن يستكمل المعلومات التي قدمها له غونتر بمعلومات أخرى زوده بها مهندسون ألمان آخرون يشاركون في أشغال بناء خط السكة الحديدية إلى الأناضول. أصبح واضحاً أنه، بالرغم من أنه لم يتم القيام بأي اكتشاف كبير، فإن المهندسين الألمان قد رصدوا آثاراً ضئيلة يمكن أن تكون مؤشراً على وجود كميات كبيرة من النفط في بلاد الرافدين.

جمع كالوست في تقرير واحد كل هذه المعطيات، بالإضافة إلى المعلومات التي استقاها من كتب الرحلات. ثم أكمل النص بهوامش توضيحية خاصة بالصناعة النفطية، أخذها من أطروحته التي أنجزها لنيل الإجازة من كلية كينجز، ثم ختم مؤكداً أنه من المحتمل جداً أن تنطوي المنطقة المعنية على إمكانيات نفطية هائلة ما زالت تنتظر الاستكشاف.

ولما انتهى من هذا العمل، كان والدُه هو أول شخص قدّمَ له التقرير ليقرأه.

- رائع! - قال فاهان ثم ضحك لحظة انتهائه من قراءة التقرير - حتى إنه يبدو أنك كنت هناك بالفعل!

في الأخير، أخذ التقرير إلى قصر توبكابي وتركه هناك داخل ظرف موجه إلى سليم باي. فقط بعد أن سلّم الوثيقة، وجد كالوست فجأة نفسه غير منشغل، فأخذ يفكر فيما اكتشفه حقاً. كان الألمان يتشممون النفط في بلاد الرافدين وظلت هذه المعلومة مجهولة لوقت طويل. منذ تلك اللحظة صارت في علم الحكومة العثمانية، طبعاً، لكن دون أن يطّلع عليها أي شخص آخر.

باستثنائه هو، بطبيعة الحال.

أخذته تلك التأملات إلى الأيام الخوالي يوم كان يتجول في البازار الكبير فقام بصفقة ذلك الديكادراخما من مدينة سيراكوزا. فما الذي تعمله فعلاً من تلك التجربة؟ كان على وعي بأن المعرفة قوة. لأن من يعرف شيئاً لا يعرفه شخص آخر يمتلك امتيازاً تنافسياً قوياً.

حسناً، هو كان يعرف الآن أمراً لا يعلم عنه معظم الناس أي شيء. لقد أدرك كالوست أن هناك، بكل احتمال، نفطاً كثيراً في بلاد الرافدين. فما الذي قد يفعله بهذه المعلومة؟ كيف يمكنه أن يستفيد منها؟ ما الذي ينبغي أن يحذره حتى لا ينخدع كما وقع له مع حادثة الديكادراخما؟ كانت الأسئلة تتقاطع محمومة في ذهنه وكان يقينُه الوحيد أن عليه أن يستعمل تلك المعلومة بكثير من الحكمة.

عندما توصل، بعد عدة أسابيع، باستدعاء من سليم باي لاجتماع جديد، كان يراوده الأمل بأن لحظته قد حانت. لقد حصل على معلومات قيمة لفائدة الباب العالي، فأي جزاء قد يحصده؟

- هنيئاً لك، يا كالوست! - حيّاهُ صديق والده والتقرير بين يديه - هذه الوثيقة نفيسة!

إلى جانبه كان هناك، كما في الاجتماع الأول، وزير المناجم، أحمد فريت، الذي أخذ زمام الحديث.

- إن المعلومات التي تتضمنها هذه الوثيقة تساعدنا على أن نفهم بشكل أفضل ما كان حقاً وراء طلبات الترخيص التي تقدم بها الألمان لاستكشاف بلاد الرافدين - قال الوزير - لقد كانت، بالفعل، خدمة كبيرة هذه التي قدّمْتَها لصاحب الجلالة.

ظل كالوست ينتظر إشارة إلى مكافأة ما، لكنه لم يسمع شيئاً بهذا الخصوص.

- والآن، أفندي؟ - كان كل ما تجرأ ليسأل عنه - ما الذي سيتم القيام به؟

- سوف نقوم بمنح الترخيص، طبعاً - ابتسم فريت، وهو يتحاشى القصد الحقيقي من السؤال - سوف نمنح أصدقاءنا الألمان ترخيصاً باستغلال خيرات هذه الأراضي. في نهاية المطاف، ألا يساعدوننا في بناء خط السكة الحديدية؟ ومن الإنصاف أن نجازيهم على ذلك.

تركت تلك المعلومة الأرمني حائراً للحظات، دون أن يميط اللثام عن المغزى من القرار.

- ماذا؟ - صاح متعجباً - لكن... لكن...

- لكن - سارع مخاطبه موضحاً - سوف تقتصر حقوق الاستغلال على الأراضي المحاذية لخط السكة الحديدية. لا شيء غير هذا.

ابتسامةُ التركي، التي كانت تعج بالإيحاءات، أكملت معنى ما قاله. أدرك كالوست أن الأمر يتعلق بترخيص محدود جداً وكاد يتنهد من الارتياح.

- آه، هذا جيد جداً! - صاح - و... ماذا عن بقية الأمور؟

- لقد بدأ صاحب الجلالة مسلسل اقتناء أراضٍ واسعة في بلاد الرافدين - ثم رفع إصبعه - وبثمن جيد، فوق ذلك! لقد تلقى السادة المحافظون تعليمات بإخبار ملاك الأراضي المعنية بأن جلالته سوف يصدر شهادات ملكية رسمية يتم بموجبها تفويت الأراضي التابعة للدولة العثمانية إلى ملكية الحكم المدني لجلالته دون أي مقابل - ثم كشف مرة أخرى عن ابتسامة ماكرة - في ظل هذه الشروط، لا أحد سوف يجرؤ على طلب مال كثير مقابل ممتلكاته.

وسرعان ما أدرك المهندس المدى الحقيقي لذلك القرار.

- هذا يعني أن جلالة الملك سيحصل على كل الأراضي التي... على أي، يمكن أن يوجد فيها نفط...

- بفضل ما وفَّرْتَه لنا من معلومات - قال أحمد فريت موافقاً - ولاحقاً، سيكون بإمكان جلالة السلطان أن يمنح امتيازات باستغلال مناجم هذه الأراضي، طبعاً - قطب حاجبه، كما لو أنه يريد أن يشدد على أهمية ما سيقوله بعد ذلك - مقابل مكافأة منصفة، بطبيعة الحال.

كانت حيلة السلطان ذكية، كما أدرك كالوست. فالخطة تسمح لحكومة السلطان بربح أموال كثيرة مقابل حفنة من التراخيص التي يتم اقتناؤها بثمن زهيد. ولم تُطرح قط على طاولة النقاش مصالح الدولة العثمانية، بل فقط مصالح خزينة السلطان. فلأي سبب يبدو مندهشاً من هذا الأمر؟

- و. . . وأنا؟ - سأل. انتبه لحظتها أنه كشف عن كثيراً من أوراقه فاستدرك - أعني، أي مساعدة أخرى يمكنني أن أقدمها؟

لم يجبه الوزير هذه المرة، بل سليم باي. أدرك صديق والده ما يجول بخلد المهندس، فأمسك يده وضغط عليها بمودّة.

- أيها الفتى، ينبغي أن تشعر بالفخر لأنك قدمت خدمة إلى صاحب الجلالة - قال بحماس ظاهر - وخدمة السلطان من خدمة الضمير!

بعد دقائق، كان كالوست في الشارع يشعر بأنه انخدع كما انخدع يوم اكتشف ذلك الديكادراخما الذي باعه بمبلغ بخس في البازار الكبير، وكان يساوي ثروة حقيقية في نهاية الأمر. آه، ليس هناك من شك! العالمُ للمُحتالين!

O

خلال ذلك الصباح، كان كالوست قد ذهب ليشرب قهوة في فندق بيرا بالاس. عندما سافر على متن «قطار الشرق السريع» اكتشف ميوله إلى البذخ الكبير؛ كان يشعر بالانجذاب نحو الأشياء الراقية، نحو الأناقة، نحو الانسجام، ونحو كل ما يثير عميقاً حسّه الجمالي بالحياة. وقد ترسخت مؤسسة صهره كأحسن فندق في الإمبراطورية وأضحت إقامة ضرورية يقصدها كل المسافرين الذين يستعملون قطار «الشركة الدولية لعربات النوم السككية» الشهير، مما يفتح أمامه آفاقاً عالمية.

وغالباً ما كان الأرمني يجلس إلى مائدة في القاعة الكبرى يتناول قهوة تركية ويقرأ جريدة وصلت للتو من لندن أو باريس، وخاصة *The Times* و *Le Matin*، وهما الجريدتان المرجعيتان سنة 1895. ومن مكانه كان يرقب الحركة من حوله، مما يسمح له بلقاء عدة أجانب من الأثرياء. لم يكن يتحدث معهم، لأنه لا يتوفر على ذريعة بمفاتحتهم، لكنه يلاحظ أسلوب حياتهم.

حوالي الساعة الحادية عشر صباحا، غادر الأرمني فندق بيرا بالاس وتوجه إلى بيته. في الشارع، كان ما يزال متراكماً ما خلفته

من أزبال مظاهرة هونشاك، الحزب الذي كان يطالب بتطبيق الإصلاحات الموعودة ومعاملة الأرمن بالمساواة، بما في ذلك إمكانية أن يشغلوا مناصب سياسية وحكومية، كانت محظورة عليهم. لكن كل ذلك كان كلاماً سياسياً وذهن كالوست شارد في أمور أخرى، لذا تجاهل المناشير التي كانت تُدنّس الشوارع.

وكانت بعض الانشغالات ثقيلة على فكره، وخاصة مجموعة من الاستثمارات في البورصة لم تتم بشكل جيد. كان النجاح الذي حققه قبل سنوات في بورصة لندن قد رسخ لديه قناعة بأنه يمكن أن يجني مالاً من خلال شراء الأسهم، لكن الواقع تكلف ليبعثر أوراقه. والحقيقة أنه لم يعد يتوفر على تلك المعلومات الحصرية التي كان يزوده بها فيليب بليك، وهنا كان يكمن الفرق، كما أدرك بكل وضوح.

في الحقيقة، لم يعد أي شيء يجري كما ينبغي في أعماله. منذ أن انتبه إلى الإمكانيات النفطية لبلاد الرافدين بدأ يتردد بانتظام على الباب العالي. لقد شرح له سليم باي ما كان يعرفُه قبل ذلك منذ وقت طويل، أي أن عليه أن يكون سخياً في دفع البقشيش. استعمل ما ادّخره في لندن بفضل الاستثمارات في البورصة ليوزع العطايا ويحاول الحصول على امتياز في تلك الأراضي التي اقتناها السلطان بصورة استباقية، لكنه لم ينجح في ذلك. المشكلة أن ما ربحه من مال في البورصة قد نفد وبدأ يستعمل ما حصل عليه من مهر عند زواجه من نونوفار. وحتى هذا المال، كما كان يعرف، لن يستمر على الدوام. فما الذي قد يفعله عندما ينتهي هذا المال؟ هل سيضطر للتخلي عن مشروع بلاد الرافدين؟ على الأقل لو...

- أنقذوني!

قطعت صيحةُ أسى خيط أفكاره وأجبرته على العودة إلى الحاضر. نظر باتجاه الصوت فرأى رجلاً يجري عبر الشارع، قرب برج غلطة؛ لاحظ أنه شخص أرمني. ومباشرة بعد ذلك، ظهر حصان يركض وما حدث بعد ذلك جرى بسرعة مثيرة. رفع الفارس ذراعه، حيث كان سيف يلمع، ولما لحق بالهارب قطع الهواء بالشفرة فأصاب الرجل.

- لا! لا!

كان الأرمني يزعق مثل خنزير في مجزرة وراحت جدران البيت الذي تعرضت الضحية للقتل بالقرب منه تتلطخ بنافورة من الدم. لحظتها، سُمعت صيحةٌ فبرز شاب في الخامسة عشر من العمر راكضا فأُسقط بدوره بضربة سيف، نزل عليه بها فارس آخر ظهر من مكان لا يبدو واضحاً تماماً.

- بسْتْ!

ظهرت يدٌ من فجوة باب وأشارت إلى كالوست، الذي كان ملتصقاً بالأرض وهو يرى الفرسان هناك أمامه يهجمون على الهاربين من المدنيين.

- ماذا... من؟ - تمتم بعبارة هلع - ما الذي يجري؟

- اخلع قبعتك فوراً! - أمرته المرأة التي كانت تشير إليه بحركات حازمة من باب البيت - وتعال إلى هنا! بسرعة، قبل أن يروك!

حرّرت أوامرُ المرأة كالوست من ذلك الشلل الانتحاري الذي أصابه. فاجأه ذلك الموقف غير المنتظر، ولم يكن قادراً على التفكير لوحده، فأطاع بشكل تلقائي أوامر تلك الغريبة. خبأ القبعة الحمراء ولجأ إلى ذلك البيت الذي كان يمنحه الحماية. أغلقت المرأة الباب

فحدق إليها، لاهثاً لا يصدق بعد، وإحساس غير واقعي يغلف ذهنه، كما لو أن كل شيء يحدث في حلم غريب حيث الواقع يكتسب في كل لحظة أشكالاً جديدة وأجواء مختلفة.

- ماذا يجري؟ ماذا يقع؟

- ألا ترى؟ لقد أخذ الأتراك يقتلون الأرمن مرة أخرى! شرعوا في ذلك قبل ساعتين. شيء فظيع!

لم تكن المرأة سوى حجم صغير يظهر في عتمة ردهة البيت. أقفلت الباب بمزلاج واقتربت من مائدة صغيرة، حيث أشعلت مصباحاً زيتياً. أضاءتها الشعلة المرتعشة، فظهر، أخيراً، وجهها بوضوح. كانت امرأة مسنة، تقطع التجاعيد وجهها، أنفها معقوف، شعرها أبيض سُحب إلى الخلف وشُدّ بشبكة، وجسدها مقوس قليلاً نحو الأمام.

- لماذا يفعلون هذا؟

أصدرت العجوز فرقعة متوترة من لسانها.

- آه، يا له من سؤال! لأننا أرمن، طبعاً! - ثم قربت عينيها من وجهه - في أي بلد تعيش، يا سيّدي؟ ألا تعرف أن الأتراك منهمكون في قتل الأرمن منذ السنة الماضية؟ ألم تر ما حدث في قلقيلية؟

- ولكن قلقيلية توجد في الأقاليم! - صاح كأنه يحتج - ونحن في القسطنطينية! هنا، نحن في أمان!

- هل نحن كذلك؟ - قالت المرأة بسخرية - إذاً، لأي سبب تختبئ في بيتي، يا سيّدي؟

- لأن... لأن...

حدقت إليه بنظرة حادة وحركت رأسها في تعبير عن العتاب.

- لا يوجد أي أرمني في مأمن من الأتراك، هل سمعت؟ لا أحد! إنهم أكثر من غاضبين منا!

- لماذا؟ بسبب تلك المظاهرة التي قام بها حزب هونشاك؟ وما هو ذنبنا نحن...

- تلك كانت هي الذريعة، يا رجل! - قالت العجوز بحنق - أتعرف ما يغضبهم حقاً؟ أن القوى الأوروبية تجبرهم على أن يعاملونا على قدم المساواة. يظنون أنهم أعلى قدراً ولا يقبلون بهذا الأمر! انظر إلى أولئك المساكين في قلقيلية - ثم أشارت إلى الباب، كما لو أن قلقيلية توجد فقط عند زاوية الشارع - أخذ الأكراد يستخلصون ضرائب غير مستحقة على الأرمن ولما احتج الأرمن على ذلك في السنة الماضية، هل تعرف من عاقبتهم الحكومة؟ هل عاقبت الأكراد الذين خرقوا حقوق الأرمن؟ كلا! عاقبت الأرمن، طبعاً! الأرمن! قتلوا الآلاف منا في قلقيلية! فلماذا لا يقتلوننا كذلك، نحن أرمن القسطنطينية؟

صيحاتُ فزع وغضب أخرى في الخارج جعلت المرأة تسكت، وفرضت صمتاً حزيناً على البيت. وكانت المجزرة مستمرة في الشارع، حيث يلتقي المعتدون بضحاياهم، واتضح أنه ليس هناك من بديل غير انتظار أن يطفئ الدم السائل ظمأ القتل ويضع حلولُ موعد العشاء حداً لمطاردة الأرمن.

فقط خلال تلك الليلة، تنكّر كالوست في لباس امرأة، وضع ثوباً يغطي رأسه ونزل يقفز في العتمة، فتمكن من النزول إلى بيرا، قطع القنطرة فوق القرن الذهبي ووصل إلى البيت. وجد المنزل

الكبير غارقاً في الظلام فشعر بصدمة في قلبه. عبَرَ الباب والفزعُ يخيم على ذهنه؛ هل يكون الأتراك قد دخلوا إلى البيت و. . . و؟

باغته جسدٌ في الظلام.

- لحسن الحظ أنك عدت! - أَنَّ صوتُ شخص عانقه. كانت نونوفار، وجهها مبلل بالدموع - آه، كنت متوترة جداً، يا إلهي! جد متوترة - كانت تتكلم مضطربة، تحت سيطرة أعصابها، مفزوعة مما كان يجري بالخارج - أخبروني أن بيرا تعرضت للنهب وأنهم يقتلون كل الأرمن الذين يجدونهم في الشارع وأنك غادرت فندق والدي وأن. . .

- هدئي من روعك! - همس الزوج في أذنها - كل شيء على ما يرام، لقد وصلتُ.

انتحبت نونوفار على كتفه ولم تفارقه إلا بعد أن هدأ روعها. كان الخدم، من أرمن ويونانيين، قد تحصنوا داخل المنزل. كان القانون يمنعهم من حيازة مُدْيات كبيرة في بيوتهم، لذلك كانوا يمسكون عصياً وسكاكين، مستعدين للدفاع عن أنفسهم في حالة أي هجوم.

- إنها فيالق حميدي - قال أحد الطباخين، رجل قدم من الأقاليم في السنة الماضية - منذ أن تم خلقها، قبل خمس سنوات، لم تتوقف عن قتلنا هناك في الأناضول. خربوا قريتنا وقتلوا العديد من أبناء عمي! هاجموا الأرمن في زيتون، وتريبيزوندا، وإرزيرون، وبتليت، وهاربوت، وديارباكر، وفان، وسيواس. . . ومن يدري أي مناطق أخرى!. . . والآن، ها قد وصلوا إلى هنا!

- يا لها من حماقة! - صاح كالوست - كيف عرفت أنت أنها فيالق حميدي؟

- هذا ما يقوله الناس، يا سيّدي - أجابه الطباخ - ثم إنني رأيتهم. من يقتل الأرمن هناك في الخارج أكراد يرتدون الزي العسكري. حسناً، كل الأكراد الذين يرتدون الزي العسكري تابعون لفيالق حميدي، أليس كذلك؟

حرك رئيس الخدم رأسه موافقاً.

- هذا صحيح، يا سيّدي. إنها فيالق حميدي. لكن هناك أيضاً أتراك متورطون في ذلك. بل الكثير منهم. لقد قام عملاء السلطان بتحريضهم.

- إن السلطان لا علاقة له بما يجري - قال صوت آخر مذكّراً.

- اسكت أيها الغبي! - قاطعه رئيس الخدم - طبعاً، له علاقة بما يجري! كل هذا من ذلك الرأس المنحط! أتظنُّ أن فيالق حميدي يمكن أن تقتل الأرمن هكذا، بلا حسيب ولا رقيب، من دون موافقة السلطان؟

تبادل أفراد الجماعة نظرات فيما بينهم، والفزعُ يلمع في عينَي كل واحد. كانوا جميعاً يعرفون أن رئيس الخدم على حق.

كان الأشخاص داخل القصر الصغير يبدون على حافة الانهيار العصبي وأدنى اختلاف كان يخلق نقاشاً عنيفاً بينهم. ظلت الخادمات ملتصقات بالنوافذ، يرقبن الشارع بوجل في العيون وصلوات على الشفاه، بينما الرجال، وسط نوبات غضب، يناقشون بصوت منخفض كيف يتصرفون في حالة ما إذا اقتحم الفرسان المنزل. كانوا يعرفون أن عصيهم وسكاكينهم لن تكون دفاعاً يرقى لمقاومة سيوف المعتدين، لكن ذلك هو أحسن ما توفر لديهم.

كان كالوست يشعر بتعب شديد. أمضى يوماً مُرْهِقاً، بعد أن

قضى ساعات وهو محاصر في بيت تلك العجوز في حي بيرا مع الفوضى المنتشرة من حوله، ناهيك عن التوتر الذي صاحبه أثناء الطريق التي قطعها مشياً على الأقدام ليلاً عبر الشوارع الطويلة حيث كانت الجثث تتناثر ملقاة حيث سقطت، إلى أن وصل إلى البيت.

- لنصعد إلى الطابق العلوي - همس في أذن زوجته - سنكون أحسن حالاً في الغرفة.

ساعد نونوفار على صعود السلاليم حتى الطابق الأول. لقد كشفت له الزوجة قبل أسبوعين أنها حامل، ورغم أن بطنها كان فقط عبارة عن انحناء بسيط، فقط ارتأى كالوست أن عليه أن يهدئها بقدر ما في وسعه. إلا أنه، هناك، وسط كل ذلك التوتر، لم يكن الأمر ممكناً. عليه أن يخرجها من تلك الأجواء.

- إذاً، إنهم يقومون بذلك؟ - ناحت عندما اختليا ببعضهما - ماذا فعلنا لهم؟

- ششش! - همس كالوست وهو يحاول أن يهدئ من روعها - أنا وأنت لم نفعل لهم أي شيء.

- إذاً، لماذا؟ لماذا؟

- إن الأمور تتدهور بسرعة، يا نونوفار - قال، دائماً بنبرة هادئة - إن الأتراك غاضبون لأننا طالبناهم بأن يعاملونا على قدم المساواة وهم يتهموننا بالرغبة في تفكيك الإمبراطورية. بما أنهم عاجزون عن مواجهة الصّرب، والبلغار، واليونانيين، الذين تمردوا وأعلنوا عن استقلالهم أو اقتربوا من ذلك، انقلبوا ضدنا. هل فهمت؟ نحن الأقرب لمتناولهم. إننا نؤدي الثمن نيابة عن كل المسيحيين الذين تمردوا في كل أنحاء الرّوملي.

تباكت نونوفار ووافقت بحركة خفيفة من رأسها.

- نحن أكباش الفداء، هذا ما تريد قوله.

رمشت عينا فاهان الساكنتان بتوتر في الضوء الخافت للغرفة، ونصف وجهه يغمره شعاع ضيق من الشمس التي استطاعت أن تتحاشى حاجز الستائر. كان أفراد الأُسرة والأطباء يتحلقون حول سرير المريض، وطيف من الاستسلام يلف الوجوه.

- دكتور - همس كالوست في أذن الرجل بجانبه - هل يسمعنا؟

أومأ الطبيب بحركة تأكيد من رأسه.

- بل إنه يستطيع أن يتحدث أيضاً - قال - لكن ينبغي ألا يتعرض للإرهاق. لأن فشلاً في وظيفة القلب في سنه... على أي، ينبغي أن يكون حذراً.

- هناك صديق له في حكومة السلطان حضر إلى هنا. يريد أن يراه ويقول له كلمة. هل تظن أن ذلك ممكن؟

سُمح بالزيارة فدخل سليم باي إلى الغرفة على الفور. حياه بقية أفراد الأسرة هامسين وانسحبوا، تاركين التركي وكالوست لوحدهما مع شيخ آل ساركيسيان. جلس الاثنان على حافة السرير وأمسك الزائر بيد فاهان الباردة وشد عليها بلطف.

- ماذا، إذاً، يا صديقي؟ - قال سليم باي بصوت عذب، وهو ينحني على المريض - كيف حالك؟

رسمت شفتا فاهان ابتسامة واهنة.

- لقد عشت أياماً أحسن من هذه، أفندي.

- وستعيشها مرة أخرى. إن الله عظيم!

أغلق الأرمني عينيه للحظات وتنفس بعمق. بعد ذلك، فتحهما من جديد ونظر إلى التركي بنظرة متجهّمة.

- إن سلطانك يكلفنا كثيراً من المحن، أفندي - قال بصعوبة واضحة، وكلمات بطيئة - كم ينبغي أن يموت من أهلنا حتى يكون راضياً؟

تكدّر وجه سليم باي. ألقى نظرة خاطفة على كالوست ثم نظر من جديد إلى المريض.

- هذا، بالضبط، سبب من أسباب زيارتي - أشار بنبرة كئيبة - لم أكن أرغب في أن أزعجك في هذه اللحظة العصيبة التي أصابك فيها المرض، لكن يبدو لي أن هناك أموراً من الأهمية لدرجة يستحيل تجاهلها أو تأجيل نقاشها.

كان تنفس فاهان مليئاً بالحشرجات ومجرد الكلام كان يبدو له جهداً يفوق الطاقة البشرية.

- ما الذي يجري؟

- إن الأجواء ليست على ما يرام بالنسبة للأرمن - قال التركي - هناك من سمع صاحب الجلالة، السلطان، يقول إنه سيُطيح بكم أرضاً. يؤكد إن فقدان الرّوملي ترك الإمبراطورية مبتورة وإنه لن يسمح بحدوث شيء مماثل مع أرمينيا. أقْسَمَ أنه يفضل أن يموت على أن يمنحكم حقوقاً متساوية، لأن هذا سيؤدي إلى استقلالكم.

ولما رأى والده من دون قوة على الكلام، لكنه يعرف خيط أفكاره، تنحنح كالوست وتدخل.

- إذاً، ما الذي سيفعله صاحب الجلالة؟

- هو ما يفعله الآن - ردّ التركي - إنه يوزع الأسلحة على الغوغاء، ويحرضهم على قتل الأرمن - ثم خفض صوته، كأنه يتقاسم معلومة سرية - يقول أحد مستشاريه، عزة باشا، إن أحسن طريق لحل المشكلة الأرمنية هو إبادة الأرمن.

- هذا مجرد كلام - صاح كالوست مع وقفة غضب، مستاء من تصورات ضيفه المشحونة بالتهويل.

- إنهم يقومون بذلك، هذا ما أخشاه حقاً.

- إن صاحب الجلالة الآن يثير غضب القوى الأوروبية...

حرّك سليم باي رأسه.

- كلام، مجرد كلام - قال، وهو يقوم بحركة غامضة من يده - إن القوى الأوروبية منشغلة جداً بمشاكلها الداخلية وما يفرق بينها من صراعات. فرغم أنها لا تكلّ من مطالبتنا بإدخال إصلاحات وتدافع عن تدخل إنساني، فإن كل واحدة منها تقتصر على حماية مصالحها الاقتصادية والجيوسياسية. لن تأتي أي واحدة منها لإنقاذكم.

- لكن... لكنها أطلقت عدة تحذيرات! وجلالة الملك لا يمكن أن يتجاهلها!...

- مجرد كلام، أؤكد لك ذلك - ألح التركي - نعرف أن رئيسي البعثتين الإنجليزية والفرنسية أخبرا حكومتيهما بأن أمر المذابح صدرَ مباشرة من القصر - ثم خفض صوته واتخذ هيئة المتواطئ - وأنا في موقع يسمح لي بأن أؤكد لكما، بشكل منفرد، أن عدة قوى أوروبية أوضحت لصاحب الجلالة أنها لن تهاجم أبداً إمبراطوريتنا بسبب المسألة الأرمنية - ثم لزم صمتاً قصيراً كي يسمح لكلماته أن تستقر - هل تدركان أبعاد ما أقوله لكما؟

عدّل كالوست جلسته، شاحباً.

- ولكن هذا. . . تفويض مطلق يقدمه الأوروبيون لصاحب الجلالة ليقتلنا!

حرك التركي رأسه موافقاً.

- أنت تعجبني أيها الفتى، لأنك ذكي - همس بنبرة مثقلة - لذلك جئت إلى هنا - ثم ألقى نظرة منشغلة على فاهان، الذي عاد ليغلق عينيه - أردت أن أزور والدك، لكني أتيت لأنبهكم أيضاً أنه ينبغي عليكم أن تتخذوا الحذر. بل كثيراً من الحذر. أخشى كثيراً أن تكون هذه الظروف عصيبة على الأرمن.

- لكن، ما الذي نستطيع القيام به، أفندي؟

- الصلاة - قال وزير حكومة السلطان - وإن سمحت لي بتقديم نصيحة، لو كنت مكانكم لبدأت في التفكير في مغادرة الإمبراطورية العثمانية.

فتح كالوست عينين جاحظتين، وهو يعي أن هذه النصيحة تعني أن الوضع كان حقاً على درجة كبيرة من الخطورة.

- لكن، أفندي، الحكومة تعرقل إصدار تأشيرات المغادرة - لاحظَ - يبدو كأنهم خائفون من أن يأخذ الأجانب معهم كل ثروات الإمبراطورية. كيف سنقوم بذلك؟

وجواباً على هذا السؤال، رفع سليم باي يده اليسرى ثم فرك إبهامَهُ بسبّابته.

- بكثير من البقشيش، طبعاً.

11

كانت دقات ساعة الحائط المنتظمة تؤشر بوقار كسلان على الإيقاع البطيء والنعسان لظهيرة يوم قائظ من أيام شهر أغسطس. كان الغبار معلقاً بشكل متكاسل في الهواء، كأنه عدد لا يحصى من حبّات الماس التي تتلألأ على ضوء شعاع من الشمس يتدفق من النافذة، وخشب الأرضية يطقطق ويصرُّ احتجاجاً على الحرّ المكتوم الذي يخنق البيت.

تعالى بكاءٌ حادّ لصبيّ من المهد الصغير وكسر الصمت، ليوقظ البيت من سبات القيلولة الهادئ. انطلقت ضجة مفاجئة، كما لو أن البيت بكامله تحت أوامر ذلك البكاء الخافت. صفقت أبوابٌ وتردّد صدى خطوات مسرعة. جاءت المربية وحضرت الأم، وسُمعت إحداهما تهمهم «أوه، بسرعة، بسرعة!»، بينما راحت الأخرى تسأل عن حاجيات الصغير، «ما به الصغير؟»، واستنتجتا أنه يريد أن يأكل فرفعت المربية القميص ووجهت ثديها الممتلئ بالحليب إلى ذلك الفم المفتوح جزئياً، لتُسكت الجوع بحليبها.

وعاد الهدوء إلى المنزل مثل بلسم يهدئ الألم. وهي ترقب الصبي يمصّ الثدي الذي قُدم له بسخاء كبير، لم تجد نونوفار بُدّاً من

التفكير في أنهم كانوا يعيشون أوقاتاً غريبة. لقد ولد ابنها في الأسبوع الفارط وكان ذلك مصدر فرح عارم، بل إن الحدث جلب شعاع ضوء إلى بيت غارق في سحابة موت حماها مؤخراً، السيّد فاهان ساركيسيان، ضحية معاناته مع مرض القلب.

لكن أفظع ما في الأمر أنها أدركت أي عالم سوف يترعرع فيه صغيرها. منذ أكثر من سنة والأسرة تعيش في رعب مع المذابح التي تقع في بعض الأحيان بأمر من السلطان. كان الأرمن يطالبون بمعاملة على قدم المساواة ويتطلعون إلى حكم مستقل ربما يؤدي بهم يوماً ما إلى الاستقلال. وكان الأتراك يرفضون ذلك رفضاً تاماً فتوالت المذابح. كانت الأمور سيئة جداً في الأقاليم، بل حتى القسطنطينية كانت تعرف بدورها أجواء من الغليان، لذا ظلّ آل ساركيسيان يحتفظون دائماً بخادم أو خادمين للقيام بالحراسة في إحدى النوافذ لمراقبة الحركة في الخارج. لم يكن أحد يعرف متى يمكن للغوغاء الذين هيّجهم السلطان أن يقتحموا البيت وهم يرفعون صيحات القتل.

- نونوفار - سُمع صدى صوت يتردّد في أرجاء البيت - نونوفار والجميع! تعالوا إلى القاعة الكبرى!

أغلق أحدهم الباب الرئيسي فسُمع صداه يتردّد في كل أرجاء المنزل. أدركت نونوفار أن زوجها قد عاد لتوّه إلى البيت. جاء مبكراً على غير عادته ونبرة طوارئ في صوته، لا شيء كالعادة في تصرفاته، وهو مؤشر أكيد على أن شيئاً ما خطيراً كان يحدث. جاء أهل البيت وتجمعوا فوراً في القاعة الكبرى. جعل الفزع وجوههم تشحب، وصاروا أكثر قلقاً لما رأوا أن صاحب البيت كان ينتظرهم بتوتر واضح، ينتقل من مكان إلى آخر، في حركة بيضاوية لا

تقطعها، من حين لآخر، سوى نظرات خاطفة كان يلقيها من النوافذ نحو الخارج.

- لقد هاجم رجال الطاشناق البنك الإمبراطوري العثماني - أعلن بشكل مفاجئ وهو يتحدث بسرعة، كما لو أنه ليس هناك من وقت يمكن إضاعته - أغلقوا على أنفسهم هناك في الداخل مع موظفين إنجليز وفرنسيين. سُمعت طلقات رصاص وقَتَلوا بعض الجنود الأتراك. مصيبة!

واستوعب الجميع في الحين فداحة الخبر. كان الطاشناق هو «الفدرالية الثورية الأرمنية»، واحد من الأحزاب الأرمنية التي تدافع عن المساواة في الحقوق داخل الإمبراطورية والذي دعا إلى مظاهرات في العام الماضي انتهت بمذابح داخل العاصمة نفسها. إذا كانت مظاهرات سلمية بسيطة قد أدت إلى غضب السلطان بتلك الطريقة، يمكن تصور كيف سيواجه الباب العالي إهانة من ذلك النوع!

- يا إلهي! - همهمت نونوفار، وهي تشعر أنها تنهار لتترك نفسها تسقط على الأريكة - ما الذي يريده الطاشناق؟ أن يقتلنا الأتراك؟

بدا كالوست كئيباً.

- يقولون إنهم يريدون لفت انتباه العالم إلى المسألة الأرمنية - قال - وخصوصاً إلى وعود الإصلاح في معاملتنا بالمثل التي لم يتم الوفاء بها.

أطلقت الزوجة قهقهة متوترة.

- إنهم سيلفتون الانتباه إلينا، لا شك في ذلك - صاحت - على حساب دمائنا - ثم حدّقت إلى زوجها - ما الذي يمكننا نحن أن نقوم به الآن؟ سوف يقضي علينا الأتراك!

نزل صمتٌ ثقيل على القاعة الكبرى. لم يكن أحد يراوده أدنى أمل بخصوص ردّ الأتراك على ذلك الفعل، وخاصة على ضوء ما حدث من مذابح في العام الماضي بسبب مظاهرة بسيطة.

- لقد جاء سليم باي والتقي بي في بيرا بالاس ليحذرني من أن السلطان قد أصدر مرسوماً يأمر من خلاله كل الأتراك بقمع التمرد دون رحمة ولا شفقة - قال بكل وضوح - كما جلب لي معه الجوازات والتأشيرات التي طلبناها قبل سنة حتى نستطيع مغادرة البلاد - ثم أشار بحركة إلى الخدم الذين كانوا يستمعون إليه في صمت مثل صمت القبور - آسف لأنني لا أستطيع أن آخذكم معي. لكني أسمح لكم بالبقاء هنا في المنزل رفقة أسركم وأصلي كي لا تتعرض للهجوم أحسن المنازل الأرمنية في حي إسطنبول - ثم التفت نحو زوجته.

- هل أنت مستعدة؟

- مستعدة؟ مستعدة لماذا؟

- علينا أن نغادر بأسرع وقت ممكن.

فاجأها تسارع الأحداث، فنظرت نونوفار منذهلة من حولها.

- لكن. . . لا يمكن أن نغادر الآن! - صاحت - إن الملابس لم تأت من غرفة الغسيل بعد!

بقي الزوج لحظة لا يعرف ما يرد به على حجة زوجته. أي نوع من الانشغال هذا الذي تبديه زوجته بالملابس في لحظة عصيبة من حياتهم. . . ثم أشار بقوة إلى ساعة الحائط.

- سوف نغادر بعد ساعة من الآن.

كانت الساعة الموالية مضطربة. فبينما ذهب الخدم يبحثون عن

أسرهم كي يتحصنوا في المنزل، على أمل ألا تتعرض المنازل الأرمنية الأكثر ثراء لما يلوح في الأفق من إعصار، كان كالوست ونونوفار يفتشان دواليب الملابس لاختيار ما يقدران على أخذه.

- لا تأخذي أي شيء من هذا - قال غاضباً وهو يرى زوجته تختار فستاناً جميلاً للسفر - إن رأوك بهذا الفستان، سينقضّون عليك بسرعة!

انتبهت نونوفار إلى المشكلة، وذهبت بسرعة لتستبدل أحسن فساتينها بملابس بالية يستعملها الخدم. رمى الزوج ملابسه الأرمنية التي كان يستعملها عادة ولبس واحدة من بدلاته القديمة التي اشتراها من محل «سافيل روْ»، والتي صارت ضيقة؛ لأن حياة الزواج جعلت جسده يتسع فلم تعد ملابس الشباب تلائمه. بعد ذلك، وضع ثلاثة أطقم من الملابس للتغيير في حزمة وهناك دسّ كل الليرات، والفرنكات والدولارات التي كان يحتفظ بها في الخزنة الحديدية بالإضافة إلى مجوهرات زوجته.

- كيف سنغادر القسطنطينية؟ - سألته وهي منهمكة في حزم الأمتعة - على متن سفينة؟

- الموانئ تخضع للمراقبة - ردّ عليها - حجزتُ تذاكر في «قطار الشرق السريع».

توقفت نونوفار عن ترتيب الملابس، وبتعبير اندهاش، التفت نحو زوجها.

- هل هناك قطار اليوم؟

- غداً، فقط.

وقفت المرأة مستقيمة.

- إذاً، لِمَ هذه العجلة؟

حدّق كالوست إليها بحدة.

- لا بد أنهم يقرؤون على الناس الآن ذلك المرسوم الذي أصدره السلطان. لدينا عشرون دقيقة كي نغادر، لا أكثر.

غادر الغرفة فوراً وأمر خادمة كي تُحضّر حليباً للطفل. بعد ذلك، ذهب وبحث عن سجاد تركي لفّهُ وأعدّه للسفر، حتى يوهم بأنه مجرد بائع سجادات. عاد إلى الغرفة ليتفقد المرأة، ولحظتها جاءت الخادمة تحمل كأس حليب في صينية. أخرج كالوست قارورة من جيبه ووضع ثلاث قطرات في الحليب.

- هيا، قدّمي الحليب للطفل - أمرها في الحال - بعد ذلك، ضعيه في السلة الصغيرة وأحضريه إلى هنا.

- ماذا وضعت في الحليب؟

- مُنوّماً - قال، وهو منهمك في الاستعدادات - أريد أن يظل كريكور نائماً ما دمنا من دون أمان.

لحظة خروجهما إلى الشارع، كان كل شيء هادئاً. قطعا منطقة قصر السلطان داخل عربة وبدت القسطنطينية مقفرة. كان المسلمون قد احتشدوا لأداء صلاة الجمعة وانسحب الأرمن إلى بيوتهم، وهناك ظلوا ينتظرون الانفجار الحتمي للعنف.

ذهبا إلى منزل سليم باي، الذي يقع في مكان مناسب خلف محطة سيركجي، واستقرا في غرفة نوم خلفية. ومن هناك، سمعا أولى الصيحات القادمة من الشارع وتابعا أصوات المذبحة الفظيعة التي فجّرتها قراءة مرسوم السلطان. كانت المجزرة قد بدأت عند منتصف الظهيرة فأغلق كالوست باب الغرفة محاولاً أن يبعد زوجته عمّا يحدث هناك في الخارج.

كانت ليلة عصيبة، لم ينعما خلالها سوى بحماية سليم باي

وأسرته، الذين قاموا بكل ما في وسعهم ليهدؤوا من روع الضيفَين. قدموا لهما عشاء عظيماً وقضوا الليلة يروون حكايات تركية. لم ينفع ذلك في نسيان ما يجري، لكنه كان كافياً ليشعرهما بالحماية في تلك الساعات العصيبة.

التقى عقربا ساعة الحائط عند رقم اثني عشر، فتنهد كالوست عميقاً كي يستجمع شجاعته، ثم وقف وتوجه إلى مُستضيفيه.

- منتصف النهار - قال - حان الوقت.

ألقوا نظرات خاطفة من النوافذ ولاحظوا أن الصيحات قد خفّت في الشوارع، كما توقعوا ذلك أيضاً. كان المعتدون قد انسحبوا إلى بيوتهم وأماكن أخرى ليستعيدوا قواهم ويستمتعوا بوجبة الغداء. كان الوقت مناسباً كي يحاولا فكّ الحصار.

وضع كالوست مرة أخرى قطرات المُنوّم في حليب الطفل. عندما نام الصغير، لفّتهُ نونوفار في ملاءة من حرير وخبأته داخل السجاد التركي. كان ضرورياً أن يخبآه حتى لا يعطيا الانطباع بأنهما زوجان هاربان؛ لأن ذلك قد يشي بأنهما من الأرمن.

وعندما صار كل شيء جاهزاً، لم يضيع الزوجان وقتاً. ودّعا مُستضيفيهما الأتراك وخرجا إلى الشارع.

- ليحفظكما الله! - قال سليم باي لحظة عانقهما في الباب - وليكن هو من يهديكما إلى حكمته التي لا تنتهي!

ومشى الاثنان في الطريق بأكبر قدر من التستر. مرتدياً بدلة «سافيل رووْ» التي تشد جسده، كان كالوست يحمل السجاد على ذراعيه، والابن مخبأ بداخله ملفوفاً في ملاءة من حرير، بينما كانت نونوفار تحتفظ بالرزمة متوازنة فوق رأسها على الطريقة الشرقية. كانا

يتفحصان الطريق ويلقيان نظرات في كل الاتجاهات، يخشيان أن تظهر الحشود في أي لحظة وحين، لكن المسار حتى محطة سيركجي كان قصيراً فوصلا إلى وجهتهما دون حوادث تذكر.

- أين هو القطار؟ - سألته الزوجة عندما رأت رصيف المحطة والسكة المقفرة، وهي عاجزة عن ضبط اللهفة التي تعتمل في دواخلها - متى سينطلق؟

تأمل كالوست رصيف المحطة المقفر، فتملكه القلق، وشعر بتنفسه يصير ثقيلاً.

- إنه ليس هنا - لاحظ بإحباط. ألقى نظرة يائسة على الساعة المثبتة على حائط المحطة - من المرتقب أن يغادر «قطار الشرق السريع» المحطة على الساعة الثانية زوالاً - ثم تنهد من العجز - يعني، بعد ساعة ونصف - وكان العرق يتصبب منه وينزل قطرات متعرجة على صدغَيه - سوف... سوف يظهر القطار في انتظار ذلك، لا تقلقي.

ومع مرور الوقت وعقارب الساعة التي تتحرك ببطء يثير الأعصاب، أخذ المسافرون يملؤون جنبات الرصيف. ومع ذلك، لم يظهر للقطار أثر. وعلى الساعة الثانية زوالاً، حيث كان من المنتظر أن يغادر «قطار الشرق السريع» محطة سيركجي، كان خط السكة ما يزال مقفراً وترك نفاذ صبر الزوجين مكانه لفزع متزايد. كان كالوست يرقب دون توقف باب المحطة وبدأ يرى أعداداً متزايدة من الأتراك الذين يرقبون المحطة باهتمام ملأه الريبة. كان الزوجان الأرمنيان يختنقان وهما يشعران أن كل الأنظار تعريهما وتشي بهما. وكان على كل واحد منهما أن يقوم بجهد كبير كي يتمالك نفسه ولا يستسلم للفزع.

شعر كالوست بالتهديد والحصار، ولما رأى موظفاً يرتدي بدلة مستخدمي القطار استوقفه.

- ما ذا يجري، موسيو؟ أين القطار؟

هزّ الفرنسي كتفيه.

- أنا مندهش للأمر مثلكم تماماً، أيها السادة - اعترف قائلاً - كان عليه أن يصل قبل هذا الوقت!...

- لكن، هل سيأتي أم لا؟

- أتمنى أن يأتي...

لكن، حتى الساعة الثالثة زوالاً لم يظهر «قطار الشرق السريع» بعد. كان الحرّ أشد مما يطاق، لأنه كان شهر أغسطس على أي حال، وصدرَ من السجّاد هديل أفزع الزوجين؛ لا بد أن أثر المنوّم بدأ يزول عن الرضيع.

- من الأحسن أن نخرجه من السجاد - قالت نونوفار، قلقة - مع هذا الحر، يمكن أن يختنق هناك بالداخل.

راقب الزوج الفضاء من حوله، مُقيّماً كل الأخطار المتربصة بهما من كل جانب.

- هدئي من روعك - نصحها - راقبي الصغير، لكن لا تخرجيه من هناك. الأمر خطير جداً.

كان يكفي ملاحظة ما يجري داخل المحطة للتأكد من أنه كان من الضروري، فعلاً، اتخاذ أقصى درجات الحذر. كان حشد من الأتراك قد بدأوا يتسكعون في المحطة ويرقبون باهتمام مريع وعدوانية متزايدة المسافرين المتراكمين هناك في انتظار القطار الذي لا يظهر. أصبح التوتر واضحاً وعمّ القلق بين المسافرين.

أطلقت امرأةٌ صيحة.

تعالت فوراً ضجّةٌ في كل أرجاء الرصيف، ووسط كل تلك البلبلة قال أحدهم إن تُركيّاً قد حاول أن يجرّها إلى خارج المحطة، لأنه شك في أنها أرمنية. لم ينفع سوى تدخل كولونيل من البعثة الدبلوماسية البريطانية جاء ليودع أحد أصدقائه، فأشهر بحزْم مسدساً في وجه المعتدي، وفكّ المرأة البئيسة من أيادي تلك الحشود الهائجة.

في حركة غريزية، تجمع الركاب وتكدسوا أكثر فأكثر فوق رصيف المحطة. كان معظمهم من الأوروبيين، ولكنهم، مع ذلك، لم يكونوا غير مبالين بالأجواء العدوانية التي تخيم على المكان.

- آه، يا إلهي! - أنّتْ نونوفار - ماذا سنفعل؟ لقد أُلغيت رحلة القطار ونحن هنا! كيف يمكننا أن نعود إلى منزل سليم باي وهذه الحشود في انتظارنا؟ يا إلهي! يا إلهي! إن خرجنا من هنا، فإنهم سوف...

تعالى ضجيجٌ موقّع علّق كل الأنفاس والأحاديث وتحولت كل الأنظار نحو عمق خط السكة الحديدية. ظهرت قاطرة سوداء، تنفث نفخات كبيرة وكثيفة من الدخان من المدخنة، واقتربت تجر صفاً طويلاً من العربات الخضراء.

- أوفْ - تنهد كالوست مرتاحاً - وأخيراً!

كان «قطار الشرق السريع» يدخل إلى المحطة. كان عليهم، مع ذلك، أن ينتظروا أكثر من نصف ساعة حتى يتمكن الركاب القادمون للتو من النزول ويقوم مستخدمو النظافة بعملهم. كانت حشود الأتراك ما تزال عدوانية، لكن حضور رجال شركة القطار كان يؤمن شيئاً من الحماية للركاب.

على الساعة الخامسة زوالاً، جاء رئيس القطار إلى باب العربات وتوجه إلى المسافرين مبتسماً.

- En voiture, m'sieurs et dames !

تلتْ ذلك حركةُ حشد، فتقدم كل المسافرين متلهفين لمغادرة رصيف المحطة والاحتماء في العربات. كافح كالوست وزوجته كي يكونا من الأوائل. لم يفلحا، لكنهما تمكنا من الدخول وبحثا مباشرة عن ملجأ في المقصورة رقم 10، المخصصة لهما. كان أول شيء قامت به نونوفار ما إن أُغلق الباب أن أخرجت الطفل من داخل السجاد، في الوقت الذي كان الزوج ينزل ستائر النوافذ.

- احتفظي به مخبأ بين الكراسي - نصحها كالوست - إننا لسنا في مأمن ما لم ينطلق القطار.

دقائق بعد ذلك، تعالت صفارة رئيس القطار، فحدث ارتجاف، كما لو أن الآلات قد سعلت، ثم تحرك القطار، بطيئاً في البداية، ثم بسرعة أكبر فأكبر بعد ذلك، حتى ازدادت سرعته وتجاوز منطقة قصر السلطان ثم غادر القسطنطينية، التي كانت تتصاعد من منازلها المنتصبة هنا وهنالك بعض خيوط الدخان التي تشير إلى النهب المتواصل في الأحياء الأرمنية. كانت المذبحة الكبرى جارية، لكن الزوجين في المقصورة رقم 10 كانا، أخيراً، في مأمن.

12

كانت أبراج القلعة تنتصب شامخة فوق الميناء، والعلم النمساوي-المجري يرفرف على إيقاع هبات ريح متوالية، وهناك ألقى كالوست آخر نظرة قبل أن يضع قدمه فوق الخشبة ويلج السفينة الراسية في خليج تريستي الرائع. كانت سفينة تابعة للويد تريستينو، وهي شركة ملاحية في ملك أوهانس بيربيريان، والد نونوفار، مما يعني أنهما كانا كأنهما في البيت تقريباً.

كانت السفينة مكتظة بالركاب، أكثرهم من الأرمن الذين استطاعوا أن يفلتوا من المذبحة العظمى في القسطنطينية وكل أرجاء الأناضول. أخذ خادم من البحارة السيّد ساركيسيان وزوجته إلى جناحهما، مقصورة فاخرة في الجزء الأمامي الذي يُعتبر أرقى جناح في السفينة، وهناك ترك كالوست زوجته وابنه ليقوم بجولة ويستأنس بالسفينة.

كان خليج تريستي يبدو بحيرة شاسعة ذات زرقة عميقة تتناقض مع اللون النيلي الناعم في السماء. مراكب شراعية صغيرة تعبر المياه من حولها وصفوف من أشجار الصنوبر تحفُّ أنوفاً أرضية. من جهة، كان يُرى منزلٌ ضخمٌ من منازل مدينة تريستي، بسطحه ذي

اللون الآجوري، ومن جهة أخرى كانت تلمعُ جواهر هندسية صغيرة، مثل قلعة ميرامار التي تنتصب عند أحد الرؤوس البحرية مثل نتوء ضخم. كانت النوارس تنعق حزينة عند مؤخر السفينة، ربما تشتمّ بقايا الطعام، لذلك رمى إليها الأرمني ببضع قطع من الخبز.

نزل حتى بلغ الطوابق السفلية ومر عبر باب ولوج الركاب إلى السفينة. لحظتها، كانوا جميعاً بداخلها فأشار القائد إلى أعضاء الطاقم أن يسحبوا الخشبة ويستعدوا للإبحار. استجاب ثلاثة من البحارة لأمره وبدأوا يجمعون البنية التي تربط السفينة بالرصيف.

- انتظروني! - صاح صوتٌ في الرصيف - انتظروني!

التفت البحارة نحو تلك الوجهة كما فعل القائد. كان رجل ضخم، بلحية كثّة وحاجبَين كثيفَين، يجري عبر الميناء، يصيح منادياً ألا يذهبوا من دونه.

- لقد فات الأوان - قال القائد بحزم - كان عليه أن يأتي في الوقت. هيا بنا الآن، أيها الفتيان!

كانت عينا كالوسم مسمرتين في العملاق الذي يجري عبر الرصيف. كان ذلك الوجه مميزاً، حتى بعد سبع سنوات؛ إنه أربيار زينوفييف، المليونير الأرمني الذي قدمه له نوبل في باكو.

- انتظر! - قال بقوة - أيها القائد، لا يمكن أن تتركه في البرّ!

القائد كولنس، إنجليزي من برمنغهام تقاعد مؤخراً من صفوف البحرية الملكية البريطانية، حرّك رأسه رافضاً.

- وصل متأخراً. ثم إن السفينة مملوءة عن آخرها.

توقف المتأخر على حافة الرصيف، لاهثاً، وعيناه السوداوان تنتظران قراراً، إما أن تُرفع المرساة وتنطلق السفينة أو أن تنزل الخشبة ويسمحوا له بالدخول.

- ألا تفهم، أيها القائد! - زأر الأرمني، وهو يشير إلى العملاق هناك في الخارج - ذلك الرجل صديق كبير من أصدقاء صهري. يجب أن تسمح له بالدخول!

- ولكن هناك ازدحام كبير في السفينة!

- عليك أن تجد حلاً، لكن لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يبقى فوق اليابسة!

حدّق القائد إلى كالوست. لم يكن يستطيع تحديد علاقة مالك السفينة التي يقودها بالمسافر الذي وصل متأخراً، لكنه كان يعرف أن كالوست هو صهر المالك ورآه عازماً على مساعدة ذلك المسافر الذي وصل متأخراً. فلماذا يخاطر بوظيفة القائد المريحة؟

- أنزل الخشبة - أمر في النهاية أحدَ البحارة - دعه يدخل.

لكنه سرعان ما انتبه إلى تصرفات أربيار زينوفييف غير اللائقة. فما إن وطئت قدما الوافد الجديد سفينة لويد تريستينو حتى ألقى بصاقاً ضخماً أخضر على أرضية السطح وتفوه بكلمات نابية. كان يبدو كالمجنون وبقعُ دم يابس تزين ملابسه. لاحظ القائد كولنس ذلك عن كثب فندم على الإصغاء لكلام صهر صاحب السفينة، لكن الوقت كان قد فات للعودة إلى الوراء.

- أين هي مقصورتي؟ - سأل عملاق باكو، وهو يظهر يديه الضخمتين والدم ما زال أيضاً عالقاً بأظافره - قتلتُ بيديّ هاتَين تُركيَّين واضطررت لأجري أمام حشد من هؤلاء الوحوش كي أفلت بجلدي. يجب أن أتمدد فوق سرير لأرتاح. وإن كان لديكم كونياك أرمني وبضع فتيات مدورات يعجبهن اللهو، سيكون ذلك أفضل. أنا بحاجة لأروح عن نفسي.

حرّك القائد رأسه.

- أخشى أن تكون السفينة مملوءة عن آخرها، سيّدي - أخبره القائد بنبرة رسمية - لم يتبق هناك من مكان لأي أحد آخر - ثم أشار إلى كالوست، وهو إلى جانبه بالضبط - فقط تدَخُّل السيّد ساركيسيان هو ما جعلني أسمح بدخولك إلى السفينة. لكن، يجب أن تجد لك مكاناً هنا في السطح - ثم تأمل السماء الزرقاء الصافية - أحسن ما في الأمر أننا في شهر أغسطس والجو رائع هذه الأيام.

- عن أي سطح تتحدث؟ - صاح العملاق غاضباً - أنا أربيار زينوفييف، ملكُ النفط في باكو! أملك قصراً مغطى بأوراق الذهب، يا رجل! أنا من أغنى الناس في روسيا! فهل تقول لي إنه لا توجد مقصورة لي في هذه السفينة القذرة؟ أيّ هراء هذا؟

وقف الضابط البريطاني المتقاعد وقوفاً مستقيماً فيما يشبه حركة حربية، ثم رفع ذقنه لينظر إلى محاوره بعبارة ازدراء.

- آسف، سيّدي - قال بنبرة متكلفة - لكن، لم يتبَقَّ هناك من أماكن شاغرة. إن لم ترقك ظروف السفر وأردت أن تتراجع، فإنني أتفهم تماماً ذلك - ثم أشار إلى باب السفينة - سوف أصدر أوامر كي ينزلوا الخشبة من جديد حتى تتمكن من النزول وتبحث لنفسك عن وسيلة نقل تليق بمقامك.

- أي نزول ولا أيّ هراء! إنني أطالب بمقصورة! ثم أخرج من جيب سرواله حزمة من الأوراق المالية - كم تريد؟

عندما رأى القائد كولنس المال، احمرّ وجهه من الغضب.

- أولم تفهمني، يا رجل؟ - زأر القائد بنبرة خارجة عن

السيطرة - ليس هناك من مال في هذه الدنيا يمكن أن يغير هذه الحقيقة، هل فهمت؟ طاب يومك!

وما إن نطق الإنجليزي بهذه الكلمات حتى استدار وابتعد. لم يكن زينوفييف معتاداً على أن يتكلم معه الناس بهذه الطريقة فتقدم خطوة ليتعقّبه، لكنه رأى الرجل القصير الذي عاين ذلك النزال الكلامي يقف في طريقه.

- هدئ من روعك، كل شيء سيكون له حل - قال كالوست - سوف أجد لك مقصورة بل ربما جناحاً باذخاً، كن مطمئناً.

توقف العملاق ونظر إلى الأسفل، وحدقتا عينيه السوداوان تلمعان مثل لؤلؤتين وسط حاجبيه المشعرّين.

- من تكون أنت، أيها القزم؟

- أنا واحد من مُلّاك هذه السفينة - ردّ كالوست، مشوهاً الحقيقة - وعليه، فإنه لدي نفوذ على القائد. أعطيتُه أوامر كي يسمح لك بالدخول و. . . أتمنى أن أستطيع أن أجد لك مكاناً تستقر فيه. لن يكون الأمر هيناً، بالطبع. السفينة مملوءة عن آخرها، كما رأيتَ، والقائد انزعج منك بعض الشيء. لكني واثق أنه، بتحريك شبكة علاقاتي، سوف أجد لك مقصورة تستقر فيها.

هدّأَ هذا التدخل من غضب زينوفييف، الذي تفحّص مُحاوِرَه بنظرة أكثر فأكثر حيرة.

- أمر طريف، وجهُك ليس غريباً عني - قال في النهاية - ألم تأت قبل سنوات إلى قصري في باكو؟

علت وجه كالوست ابتسامة شعور بالسعادة.

- بالفعل، هو كذلك. زرتُ إقامتك رفقة السيّد نوبل خلال. . . حفلة خاصة جرت هناك - ثم مدّ يده ليصافحه - كالوست

ساركيسيان في خدمتك. كانت عائلتي تملك امتيازاً حصرياً لتزويد السكان بالكيروسين، وكنتُ شخصياً مستشاراً لحكومة السلطان في أمور النفط - ثم أشار إلى سطح السفينة - يملك صهري، بالإضافة إلى شركة الملاحة التي تندرج ضمنها هذه السفينة، واحداً من أكبر البنوك في القسطنطينية وفندق بيرا بالاس، حيث ينزل ركاب «قطار الشرق السريع».

مكتبة
t.me/t_pdf

همهم العملاق، راضياً.

- لقد رأيتُ أنني في رفقة جيدة!

- هذا أكيد - ثم أشار إلى دكّة فوق سطح السفينة - هلا تفضلت وجلست في ذلك المكان. سوف أحاول أن أجد لك مقصورة. سيكون الأمر صعباً لكني، سأفعل كل ما في وسعي.

من دون مربية ترضع الطفل وقد جف ثدياها هي أيضاً، حصلت نونوفار من إحدى النادلات على كأس حليب دافئ راحت تضعه قطرات على شفتي كريكور الظامئتين. كان الرضيع ملفوفاً في ملاءته الحريرية، بين ذراعي أمه، يشبع جوعه بعد كل محنِ الهروب الكثيرة من القسطنطينية.

فُتح بابُ المقصورة فدخل كالوست، أخذ الحقيبة التي اقتنوها في ترييستي والتي كانت تحت السرير ثم وضعها مفتوحة فوق الفراش.

- يجب أن تغادري المقصورة!

علقت المرأة حركتها فوق فم الطفل ونظرت بدهشة إلى زوجها.

- ماذا؟

كان الزوج قد بدأ يفتح الجوارير ويخرج منها الملابس، ثم أخذ يرتبها بسرعة في الحقيبة.

- يوجد على متن هذه السفينة واحد من أغنى الناس في روسيا! - صاح - تعرفتُ عليه في باكو. ثريٌّ فاحش! أرمني مثلنا وقد فاجأته أحداث القسطنطينية كما فاجأتنا! فتشتُ السفينة بكاملها بل وتحدثتُ مع القائد، لكني لم أجد له مكاناً شاغراً. يجب أن يشغل مقصورتنا.

كانت نونوفار تواجهه بنظرات غامضة، كأنها لا تفهم ما تسمعه.

- نغادر مقصورتنا؟ لأي غرض؟

كان الزوج جد منهمك في ترتيب الحقيبة حتى أنه لم يرفع عينيه.

- ليس لديه أين يأوي، كما قلتُ لك.

- هذه مشكلته هو، ليست مشكلتنا.

- الآن صارت مشكلتنا. عليك أن تغادري كي يدخل هو المقصورة.

زادت كلمات كالوست من اضطراب الزوجة، التي كانت تنظر إليه بحيرة.

- لكن... ونحن؟ سألته وهي تشير بحركة إلى الرضيع - أين سنذهب؟

- حسناً! سوف تذهبان إلى سطح السفينة! - قال وهو يشير بحركة نحو باب المقصورة - هناك مقاعد تحت الظل وهناك سوف تجدين مكاناً جيداً مريحاً. الجو حار، ألا تظنين ذلك؟ سيكون شيئاً

جميلاً السفر في الهواء الطلق. بل يقولون إنه صحي جداً. سوف يوافق الصغير.

- لكن... لكن... هل جننت أم ماذا؟ نذهب إلى السطح؟ أنا والرضيع؟ إلى سطح السفينة؟

- فقط لبضع ساعات... أتمنى ذلك. سأحاول أن أقنع القائد كي يجد لكما مكاناً أحسن.

- وأنت؟

- أنا؟ أنا سأبقى هنا في المقصورة مع ذلك الرجل من باكو. من المهم جداً أن أطور علاقة معه.

حركت المرأة رأسها، رافضة قبول ذلك الوضع غير المنتظر.

- هذا أمر لا معنى له! لن أخرج من هنا!

فقط في تلك اللحظة، توقف الزوج عن ترتيب الحقيبة ونظر إليها. حدّق إليها بنظرة تنويمية، وحاجباه مشحونان بالعزيمة.

- اسمعي، يا نونوفار - صاح بنبرة متوترة - هذه فرصتنا الكبرى، أتفهمين؟ إن الرجل الذي أساعده يسبح في المال. ثريّ لدرجة أنه بطّن جدران قصره بأوراق من ذهب، تخيلي! رأيت ذلك بأم عينيّ! أوراق من ذهب! هذا ليس وقت التردد، بل وقت العمل. من الضروري أن يتعاطف معي ويدين لي بخدمة، هل فهمت؟ هذا ضروري! مستقبلنا يتوقف على هذا الأمر! - ثم انتبه من جديد إلى الحقيبة ورتب آخر قطعة من الملابس - خذي كريكور واذهبي لتتخذي لك مكاناً فوق سطح السفينة! قد تجدين هذا سخيفاً، لكني أؤكد لك أن حياتنا سوف يتغير مسارها حسب الطريقة التي سنتعامل بها مع هذا الرجل.

وكما لو أنه لم يعد هناك من أمر يستحق القول أو النقاش، أخذ الحقيبة وغادر المقصورة على الفور.

دامت رحلة سفينة شركة لويد تريستينو الملاحية أسبوعاً، لكن المدة بدت مثل الأزل لآل ساركيسيان. لما رأى بنتَ صاحب السفينة مع رضيعها فوق السطح، وحاصره كالوست ليحل المشكلة، قام القائد بطرد أحد البحارة الصغار من مقصورته ووضع نونوفار وكريكور في ذلك الفضاء الضيق، الذي لا يبعد كثيراً عن جحيم بيت الآلات والمحركات، الذي تحول إلى فرن من الفحم المستعر. لم تكن تلك المقصورة مريحة، لكن كانت حلاً مقبولاً في تلك الظروف.

بقي كالوست في مقصورته الباذخة، يقتسمها مع زينوفييف الممتنّ لفعله. حصل تفاهم بين الأرمنيَّين، رغم التناقض الصارخ بينها، أو ربما بسبب ذلك؛ واحد ضخم والآخر صغير، واحد منفتح والآخر منطوي على نفسه، واحد فظّ والآخر مهذب.

- ماذا تريد أن تأكل في العشاء؟ - سأل كالوست رفيقه في الغرفة في الليلة الأولى، بينما كان يتأمل قائمة الأطباق التي جلبها من المطعم - هناك سمك أحمر مشوي وسباغيتي. إن كنت تفضل اللحم، هناك لحم بقر تَتَريّ أو دجاج بالرز.

كان العملاق يتمدد متكاسلاً فوق السرير، فرفع ذراعه وقام بحركة غاضبة.

- أي رداءة هذه! - قال محتجاً - ألا يقدم هؤلاء المتوحشون أي طبق أرمني؟ أليس هناك من خاكابوري أو خوروفات؟

ألقى كالوست مرة أخرى نظرة على قائمة المأكولات.

- أخشى أنهم لا يقدمون مثل هذه الأطباق. قائمة المأكولات أوروبية.

- بحق الجحيم! الأوغاد، إنهم لا يملكون أي شيء! لو كان معي سوطي هنا سيرون من أكون!

- لكن، يمكن أن أتكلم مع الطباخ - اقترح رفيقه الخدوم - ماذا تريد أن تأكل؟

- أنا؟ - ثم تنهد زينوفييف تنهيدة عميقة، شبه كئيبة - هل تعرف، أريد حقاً طبق كفتة! أريده فعلاً! - ثم مرّر لسانه على شفتيه - سوف يكون ذلك أمراً رائعاً!

جعل اسم الطبق كالوست يقف بقفزة واحدة ويخرج من المقصورة ويقول «سأعود بسرعة». بحث عن نونوفار وأخذها إلى طبّاخ السفينة كي تعلمه كيف يحضر الكفتة.

احتج الطباخ، وقال إن المسافرين يجب أن يحترموا لائحة المأكولات اليومية التي يقترحها المطعم، وإنه ليس من الممكن تحضير أطباق خاصة، لكن بفضل ورقة مالية من فئة خمسة فرنكات أكد في الأخير تعاونه في إنجاز الطلب. بعد نصف ساعة، كانت كرات اللحم المفروم التي تشكل الأكلة الأرمنية التقليدية يتصاعدُ دخانها من الطبق، يصاحبها كما ينبغي رزّ وسلاطة بيلاكي، بالإضافة إلى قنينة من الشامبانيا.

لم يرفض كالوست من طلب لرفيق مقصورته الغني. كان يضمن أن يقدموا له ما يرغب في أكله من أطباق، يحميه من لسعات البعوض ومن أشعة الشمس، يوفر له دائماً قنينة شامبانيا باردة على الدوام ويقرأ له بصوت مرتفع الجرائد التي يقتنونها في كل محطة

يتوقفون عندها أثناء الرحلة. ومع ذلك، لم يكن زينوفييف راضياً تماماً.

- أليس هناك من فتيات في هذه المزبلة؟ - قال مشتكياً في الليلة الثانية - كيف ينتظرون من رجل أن يتحمل رحلة كهذه؟ أيظنون أنني راهب أم ماذا؟

منشغلاً براحة زينوفييف ورضاه، نزل كالوست إلى طابق الدرجة الثالثة واقترب من فتاة إيطالية ذات ظروف متواضعة كما كان واضحاً، وطلب منها أن تقدم خدماتها الأنثوية إلى مسافر ثريّ مقابل عشرين فرنكاً. رفضت الشابة العرض في البداية. ماذا يظنُّ أنها؟ لكنها ترددت عندما وصل العرض إلى خمسين فرنكاً واستسلمت لما بلغ المائة.

- Va bene، حسناً! - تنهدت الإيطالية وهي تستسلم - سوف يسامحني الرّب...

قام كالوست نفسه بغسلها ثم عطرها وألبسها، مستعملاً لهذا الغرض أحسن فستان اقتنته نونوفار في تريستي. ثم قدم لها تعليمات مفصلة وبعدها فقط أخذها إلى المقصورة وتركها بين يدي زينوفييف لمدة ساعة.

بيد أن العلاقة بين الأرمنيَّين لم تتغذَّ فقط على هذا النوع من الخدمات. كلما لاحت له فرصة، وهو ما كان يحدث غالباً أثناء قراءة أي خبر في الجريدة، كان كالوست يوجه الحديث نحو الأعمال ويلمح إلى معارفه في هذا المجال وعلاقته بوزراء حكومة السلطان. ولكثرة ما تحدث عن الموضوع جعل زينوفييف يفكر فيه في النهاية.

- أتعرف شيئاً؟ - سأله الرجل الضخم عشية وصول السفينة إلى ساوثهامبتون، وهما على السطح يستمتعان بالهواء المنعش - لدي من النفط كميات لا تنقضي أبداً.

- هل تظن أنني لا أعرف؟ لا تنس أنني كنتُ في قصرك في باكو. شبه جزيرة أبشيرون شيء عجيب، أليس كذلك؟ المشكلة هي ما ستفتعله بالكيروسين الذي تصدره إلى الإمبراطورية العثمانية. لقد أفلست الإمبراطورية، كما يعرف الجميع. ومن يدير حسابات الإمبراطورية لجنة تصفية من البنوك الأوروبية. وفي أي يوم يمكن أن يتوقفوا عن دفع مستحقاتك. . .

- لا تحدثني عن هذا الأمر! أحياناً، أضطر لملاحقة هؤلاء اللصوص الأتراك كي يدفعوا لي ما في ذمتهم، ما رأيك؟ إنهم أوغاد! - ثم تردّد - لكن. . . ما الذي أستطيع أن أفعله؟ إنني بين أيديهم. الأتراك الملاعين!

- ابحث عن أسواق أخرى.

- حسناً، هذا أمر قولُه أسهل من فعْلِه! - ردّ العملاقُ - لدي ممثل في باريس يقضي كل الوقت في سرقتي. أحياناً، أعتقد أن الرجل أفظع بكثير من الأتراك! آه، هذا العالَمُ يعاني من اللصوص، أؤكد لك ذلك! اللصوص!

- لكن، لماذا أنت بحاجة إلى ممثل في باريس؟ إن مركز أوروبا في لندن، يا عزيزي! منذ سنوات وأنا أستثمر في بورصة لندن وأعرف جيداً ما أقول. لندن هي المكان المناسب للرهان بالأموال. إنه المركز المالي للعالم، هناك تُحترم القوانين وتسهر المحاكم على ضمان حقوقنا، إنها عاصمة أعظم إمبراطورية فوق الأرض ولا

يملكون قطرة نفط واحدة في كل أراضيهم الشاسعة. هذه، بحق، سوق مضمونة!

تلمّس زينوفييف لحيته الطويلة السوداء، مفكراً.

- حسناً. . . هذه نقطة جيدة - ثم فتح يديه في حركة تعبير عن العجز - لكن المشكلة أنني لا أعرف أحداً في لندن. وأنت تعرف أنه ينبغي أن نثق في الأشخاص. لا يمكن أن أصل إلى لندن وأتعاقد مع أول أبله يقف أمامي، أليس كذلك؟ إنني أتوجس من أولئك الإنجليز، ببدلاتهم الأنيقة وكلامهم المنمق، وهوسهم بأنهم أرقى من الآخرين وأشياء من هذا القبيل. أنا بحاجة لشخص من أهلنا وذوينا، يتحدث لغتنا ويعرف الوسط الذي يتحرك فيه. لكن، أين سأجد شخصاً بهذه المواصفات ليكون لي ممثلاً في لندن؟

- قد تكون بحاجة إلى شخص أرمني - اقترح كالوست بنظرة شاردة، كما لو أنه شخصياً لا يرى أي أحد يتمتع بهذه الخصائص - شخص تعرفُه جيداً، يا سيّدي، وله دراية بمجال النفط. وفوق هذا، يبدو من الأهمية بمكان أن يتوفر هذا الشخص على تجربة في المجال المالي، أليس كذلك؟

- حسناً، ليس من السهل العثور على شخص كهذا.

ثم رانَ صمتٌ فوق سطح السفينة.

- طبعاً، أنا سوف أستقر الآن في لندن ويمكن أنِ أبحث عن شخص بهذه المواصفات - لاحظ كالوست بأكبر قدر من الموضوعية في نبرة كلامه - صحيح أنه لن يكون لديّ كثير من الوقت الفارغ، لكني سوف أستأنف اتصالاتي في وزارة الخارجية وأنوي أن أعود لأستثمر في بورصة لندن. بفضل معرفتي في مجال النفط، أظن أنه سيكون من السهل أن أجد شخصاً يناسب هذه الوظيفة التي. . .

قفز العملاق قفزة واحدة، واضعاً حداً لخيط أفكار رفيق رحلته، وأشار إليه إشارة قوية بإصبعه.

- ولماذا لا تكون أنت؟

ارتسمت عبارة دهشة على محيا كالوست.

- أنا؟ أنا، ماذا؟

- أنت! أنت تكون ممثلي في لندن! ولم لا؟

- أنا؟

- نعم، بكل تأكيد! أنت تملك المواصفات المثالية! ثم إن هذه الوظيفة كأنها كانت تنتظرك كي يتمّ خلقُها!

خفض الأرمني القصير عينيه ورسم تكشيرة شك على شفتيه، وهو ما تعلمه مع تجار البازار الكبير أثناء التفاوض.

- آه. . . لست أدري.

جابت غيمةٌ من الخيبة وعدم التصديق وجه زينوفييف المتوحش.

- لا تقل لي إنك لا تريد!

أخذ كالوست نفَساً عميقاً وصمت قبل أن يجيب، كأنه يفكر في الأمر لأول مرة.

- لا يتعلق الأمر بعدم الرغبة في ذلك - قال في الأخير - في الحقيقة، لدي اتصالات ممتازة في الحكومة البريطانية وأنا على يقين أنني سأجعلك تربح مالاً كثيراً في لندن. المشكلة أن في ذهني خططاً مربحة جداً، ومهمة كهذه تتطلب تفرغاً كاملاً، كما هو واضح. لا أعلم إن كنتُ أتوفر على الشروط لـ. . .

- مائة ليرة! - قال المليونير الأرمني فجأة - أدفع لك مائة ليرة شهرياً لتكون ممثلي في لندن!

ذلك المبلغ المذكور خطف اللون من وجه كالوست. كانت مائة ليرة شهرياً مالاً كثيراً. هكذا، وجد نفسه أمام فرصة لا تصدق! لكن حدس التاجر المتمرن على المساومة في البازار الكبير كان يقول له إن ذلك لم يكن سوى بداية الحديث.

- هذا قليل - أكد بكل ما أوتي من برودة وتحكم في الذات، وهو ما نجح فيه؛ لأن وجهه ظل منيعاً تماماً. حان وقت اللعب بأوراق أقوى.

- يبدو لي أن مائة ليرة شيء جيد كتعويض أساسي، لكنني أفضل أن أشتغل مقابل... نسبة مئوية معينة.

تقوس حاجبا مُحاوِره الكثّين من الاندهاش.

- نسبة مئوية؟ ما هذا بحق الجحيم، لم أشتغل قط بنسبة مئوية! إنني أدفع لك أجراً جيداً، بحق الجحيم!

انزلقت أصابع كالوست فوق مائدة سطح السفينة.

- إن نظام النسبة المئوية هو الأمثل بالنسبة لمنتج مثلك، يا سيّدي - قال - إنْ بعتُ كثيراً من النفط أو بثمن أكبر، أربح أكثر. إنْ بعتُ كمّيات أقل أو بثمن أقل، تنخفض أرباحي. ويشكل هذا حافزاً قوياً كي أنجز أعمالك على أحسن وجه وأساعدك على ربح كثير من المال. مال إنجليزي، لاحظْ جيداً. من ذلك النوع الذي لن نلاحق الزبون كي يدفعه لنا، هل رأيت؟ من ذلك النوع الذي لا تنخفض قيمته...

ومن جديد، انغمست أصابع زينوفييف في لحيته وهو يفكر في الأمر. كانت تخامره شكوك كثيرة بخصوص الأداء عن طريق النسبة المئوية، لكن وجهة نظر مُحاوِره كانت تتوفر من دون شك على مزايا تستحق أن يوليها عناية أحسن.

- واحد في المائة - قال وهو يقبل هذا الطرح - أعطيك واحد في المائة عمولةً على كل المبيعات.

- عشرة في المائة.

فتح العملاق عينين جاحظتين.

- ماذا - قال مصدوماً - هل جننت؟ لا أحد يتلقى عشرة في المائة من العمولة! هذا أمر مبالغ فيه!

- ماذا تقترح، إذاً؟

- حسناً. . . يمكن أن أذهب معك حتى ثلاثة في المائة.

- ثمانية.

- لا تفكر في الأمر حتى! هذا جنون حقيقي!

- إذاً، قدم لي اقتراحك.

- أربعة في المائة.

- ستة.

حرّك زينوفييف رأسه بشدة معبرة.

- آه، لا! - صاح - ستة، هذا كثير. لا يمكن أن أقبل هذا. بأي حال من الأحوال!

شبك محاورُه ذراعَيه.

- اسمع، لقد تنازلتُ كثيراً. عشرة في المائة تبدو نسبة منصفة. لكن، بما أنني أتعاطف معك ولديّ رغبة في مساعدة واحد من أبناء بلدي في هذه الظروف العصيبة، فإنني أقبل بخفض عمولتي إلى ستة في المائة. إنك تعلم جيداً أن أربعة في المائة نسبة قليلة جداً. في الحقيقة، يتعلق الأمر بنصف مقترحي الأولي. والقبول بهذا يعني أنني أخسر ماء وجهي.

أخذ العملاق نَفَساً عميقاً وحدّق إلى الأفق، كما لو أن البحر يمكن أن يمدّه بجواب.

- إنني أتفهم تماماً ما تقول - اعترف - إذاً، لنحتفظ بنصف القيمة الأولية ولا نتحدث في الأمر أكثر من هذا.

- خمسة في المائة؟

- نعم. وهذا في حد ذاته كثير!

وبالفعل، كان ذلك أكثر بكثير مما قد يحلم به كالوست أبداً. كان الأرمني القصير يرغب أيما رغبة في أن يقفز من الفرح ويعانق كل الناس الذين يتجولون فوق سطح السفينة، كان يودّ أن يضحك ويقوم بشقلبات على امتداد السطح، لكنه تمالك نفسه، كتم تعابير وجهه، بل أبدى شيئاً من الغضب، كما لو أن تلك الصفقة لم تكن سوى خدمة يقدمها على مضض إلى صديق من أصدقائه.

- اتفقنا - قال جازماً - مائة ليرة شهرياً زائد عمولة بنسبة خمسة في المائة.

تصافحا وأُبرمت الصفقة.

الجزء الثالث

ملايين

«على ماذا تجبر قلوب البشر،
يا شرَه كسب المال اللعين؟»

فرجيل

1

ضغط رئيس الخدم على زرّ الصندوق ذي القضبان الحديدية، مثل قفص ضخم اهتزّ ثم بدأت رحلة النزول، محدثاً ضجيجاً خفيفاً بين الركاب. كانت نغمات البيانو تنساب بعيداً، وتمنح الأجواء لمسة رومنسية، بيد أن انتباه الركاب ظلّ مشدوداً تماماً إلى حركة الصندوق النازل.

- هذه أعجوبة! - لاحظ كالوست مبتسماً - أعجوبة حقيقية!

- إنه المستقبل مستر ساركيسيان - ردّ عليه رئيس الخدم - إن فندق سافوي يفتخر بامتلاك أول مصعد كهربائي في العالم. سيأتي يوم يتحرك فيه العالم كله بواسطة الكهرباء!

أطفأت هذه الملاحظةُ ما لاح من تعابير ارتياح على محيا الأرمني.

- هذا لن يحدث، يا عزيزي - قال محركاً رأسه - هذا لن يحدث. لو حدث هذا، من يشتري مني النفط؟

أكمل المصعدُ مساره ثم توقف بهزة نهائية. مدّ رئيس الخدم ذراعه ثم سحب القضبان الحديدية التي تشكلُ الباب، ليفسح الطريق أمام الضيوف. رفقة الراكبَين الآخرَين، وصل كالوست ونونوفار إلى

الطابق السفلي، حيث كانت موسيقى البيانو أقرب إلى الأسماع، ثم توجها إلى الصالة الكبرى حيث كان يجري الحفل الذي يقيمه فندق سافوي. كان هو يرتدي ملابس سهرة، كما تقتضي المناسبة ويليق بسيّد محترم يعاشر خيرة مجتمع لندن، أما هي فتلبس فستاناً مزركشاً بنفسجي اللون من باريس.

- موسيو ساركيسيان! - نادى صوتٌ من اليسار - موسيو ساركيسيان، من فضلك!

استدار كالوست فتعرّف الرجل ذي الجبهة العالية والشاربين العريضين بطرفيهما المقلوبين وهو يقترب منه.

- موسيو ريتز! - صاح - هنيئاً! لقد لاحظتُ أن الحفل رائع!

- أوه، ناديني سيزار، أرجوك - ابتسم الرجل. وألقى نظرة مزهوة على الصالة - إن حفل الاستقبال رائع، أليس كذلك؟ - ثم قرّب شفتيه من أذني مُحاوِره - هل تذوقت السلطعون؟ جاء خصيصاً من فلوريدا لتنشيط حفلنا هذا. أوه! إنه لذيذ للغاية!

- سوف أتذوّقه، من دون شك! نصيحةٌ من مَلِكِ أصحاب الفنادق ليست شيئاً يُستهان به!

- إنك طيب حقاً، موسيو ساركيسيان - قال ريتز وهو يحْمرّ خجلاً - أتمنى أن تقضي أمسية جميلة هنا برفقتنا!

كان الزبناء في الصالة من خيرة ما يمكن رؤيته في لندن. نساء الطبقة الأرستقراطية، اللواتي كن إلى غاية تلك الفترة تعارضن الظهور أمام الملأ، كنّ يملأن الطابق السفلي من فندق سافوي ويتحدثن بلكنات تشي بانتمائهن إلى الطبقات الراقية في إنجلترا. وتعالت همهمات أكثر حماساً في خلفية الصالة مشيرة إلى حضور

شخصية مهمة. سأل الزوجان اللذان وصلا للتو عن هوية الشخصية فهمس إليهما أحد الخدم.

- إنه أمير ويلز، أيها السادة.

وهو يتأمل المدعوين إلى الحفل، وخاصة نسبهم الأرستقراطي، ما كان من كالوست سوى أن يهنئ نفسه على الاختيار الرائع الذي قام به. كان ذلك هو أحسن مكان يليق بشغفه المتزايد بكل ما هو راقٍ وجميل.

عندما وصل إلى لندن قبل أربع سنوات تقريباً، سأل الأرمني عدة أشخاص عن أحسن فندق في المدينة وكانت كل الأجوبة تشير بالإجماع إلى فندق سافوي. والحقيقة أن الواقع كان يؤكد له كل يوم صواب اختياره. فبالإضافة إلى نوعية الزبناء، كان فندق سافوي يتوفر على ظروف لا تضاهى لاستقبال أحسن النزلاء، خصوصاً أنه كان أول فندق في العالم يتوفر على إنارة كهربائية كاملة. لكن الأهم من ذلك، أن المؤسسة كانت مجهزة بحمامات مزينة بالرخام وتتوفر على الماء الساخن في معظم الغرف، وهو ما لم يره أحد من قبل في أي مكان.

- ساركيسيان! - نادى عليه صوتٌ بلكنة أهل الطبقات الراقية في إنجلترا - ساركيسيان!

التفت كالوست نحو الصوت الذي يناديه فلمح الهيئة الأنيقة لفيليب بليك، الأمين المساعد السابق في وزارة الخارجية، الذي أصبح الآن برلمانياً وممثلاً لشركة روتشيلد النفطية. لقد أصبح بليك منافساً، ما دام يبيع في أوروبا ما تنتجه شركة روتشيلد من نفط في باكو، وهي تنافس بذلك نفط باكو الذي ينتجه زينوفييف الذي يمثله

الأرمني، لكن لا شيء من هذا أثر في العلاقة بينهما. بل، على العكس من ذلك، ساعد بليك كالوست كي يفهم بشكل أحسن تعقيدات تجارة النفط في أوروبا، وهو ما اتضحت قيمتُه في الحصول على عقود جيدة لصالح زينوفييف، مع ما يترتب عن ذلك من عمولات لفائدة ممثله. وكانت مُهمّةً أيضاً تلك الاتصالاتُ التي مدّهُ بها بليك من داخل المؤسسات الحكومية وما زوّده به من معلومات قيمة لاقتناء أسهم قد ترتفع قيمتها في البورصة.

- فيليب - ردّ الأرمني - كنتُ أبحث عنك!

أشار ممثل شركة روتشيلد إلى مائدة في خلفية الصالة.

- إنني هناك، يا صديقي! هاندريك وصامويل لن يتأخرا ولدينا الكثير مما سوف نتحدث عنه!

سحب الإنجليزي الزوجَين الأرمنيَّين نحو المائدة التي كان يجلس إليها، لكن نونوفار امتنعت.

- أوه، لا! - اشتكت وهي تدير عينيها عندما رأت ما ينتظرها هناك - مرة أخرى، حديث أعمال لا ينتهي!...

- لماذا لا تقومين بجولة في الصالة وتتحدثين إلى تلك البارونات هناك؟ قد تتسلين أكثر، ألا تظنين ذلك؟

- بكل تأكيد! - ردّت عليه. ثم رفعت يدها وأومأت - تسلّ أنت مع أصدقائك القدامى!

جلس رجلا النفط إلى المائدة، واتخذا مكاناً يسمح لهما بملاحظة مجموعات الضيوف الذين يدردشون في الصالة. قدّم بليك كأس ويسكي لصديقه ثم ملأ بعد ذلك كأسه.

- ماذا عن أسهم شركة رويال داتش؟ - سأله وهو يتذوق كأس ويسكي بقطع الثلج - كان ذلك فعلاً استثماراً جيداً، أليس كذلك؟

رفع كالوست كأسه، كما لو أنه يريد أن يحتفي بمُحاوره.

- كيف عرفت أن أسهمهم سوف ترتفع بهذا الشكل؟

- ساركيسيان، يا صديقي، أنت تعرف أنني أتحرك بشكل جيد، أليس كذلك؟ - ردّ الإنجليزي بابتسامة مفهومة - ما حدث هو أنه، عندما بدأ تداول أخبار بشأن ظهور مياه في آبار رويال داتش النفطية في سومطرة، نزلت أسهم الشركة إلى الحضيض. كانت فوضى عارمة، يا إلهي! كل الناس في السوق ظنوا أنها نهاية الهولنديين! كان نفط شركة رويال داتش يسير نحو الاستنزاف! لكني حصلتُ على معلومات سرية من سفيرنا في باتافيا تشير إلى أن الشركة بدأت عمليات تنقيب جديدة في مناطق واعدة جدة. أليس كذلك! لم يكن ذلك يتطلب أن يكون المرء عبقرياً ليدرك أن الأسهم، التي كانت وقتها في الحضيض، سوف ترتفع ارتفاعاً صاروخياً عندما يتم نشر خبر العثور على آبار نفط أخرى. كانت تلك لحظة مثالية لاقتناء الأسهم.

- فعلاً! - وافق الأرمني - أعترف أنه حين زوّدْتَني بتلك المعلومة، اقتنيتُ الأسهم بشيء من التوجس. كان الجميع يقولون إن شركة رويال داتش قد انتهت. لكن، حين تم الإعلان عن اكتشاف حقول نفط جديدة في سومطرة... أوف، يا له من ارتياح!

- ويا لها من أرباح، يا صديقي! كم جنيت من هذه العملية؟

ابتسم كالوست.

- مبلغاً مهماً من المال - اعترف قائلاً - لكن ما أخذْتَه أنت من عمولة كان جيداً، عليك أن تعترف بهذا...

- إنني لا أنفي ذلك - قال بليك وقد احْمرّ وجهه. ثم تململ الإنجليزي استعداداً لتغيير الموضوع. لم يكن الحديث عن الأرباح،

بكل تأكيد، موضوعه المفضل في أجواء اجتماعية - حسناً، في الأسبوع القادم تعال معي إلى وزارة الداخلية، هل توافق؟

أثارت الإشارة إلى وزارة الداخلية خوف الأرمني.

- لماذا. ما ذا حدث؟

- ألا تريد أن تصبح من رعايا صاحبة الجلالة؟ - سأله بليك، مندهشاً لما بدا من قلق واضح على مُخاطَبه - لا تنس أنني من أجلك حرّكتُ كل ما أملك من خيوط وكل ما لديّ من نفوذ...

- آه، نعم! - قال كالوست مرتاحاً - هل تقدمت هذه الإجراءات؟

- تقدمت؟ حسناً، في الأسبوع القادم سوف تأتي معي إلى وزارة الداخلية لإنهاء الترتيبات الرسمية. إن الإجراءات قد قطعت أشواطاً كبيرة! وصلت إلى النهاية، يا صديقي! بعد بضعة أيام، سوف تحصل على الجنسية البريطانية! ومن الآن فصاعداً لن يستطيع سلطانك أن يمسّ ولو شعرة من رأسك!

شعّت عينا الأرمني نوراً.

- يا له من خبر سعيد!

كانت الحفلة تمضي مبتهجة، تمتزج فيها الضحكات والموسيقى، عندما برز رجلان فجأة من الحشد واقتربا من المائدة.

- أوه، هذا رائع! - صاح بليك وهو يقف ليستقبلهما - وأخيراً، ها أنتما هنا!

كان الوافدان الجديدان هما هاندريك فان تيغلين وصامويل مارك. كان هاندريك فان تيغلين رجلاً قصير القامة، بعينين زرقاوين وابتسامة تكشف عن طقم أسنانه بكاملها. أصبح مؤخراً مديراً تنفيذياً

لشركة رويال داتش. أما صامويل مارك، فكان قصيراً بدوره ومكتنزاً، له حاجبان كثّان ونظرة متوترة. كان يهودياً وخلق شركة ملاحة أحدثت ثورة في مجال نقل النفط أطلق عليها اسم «شل»، احتفاء بتجارة والده في مجال المحارات التزينية.

- ما الجديد، أيها الصديقان؟ - حياهما الإنجليزي، وهو يقوم بدور المُضيف - تأخرتما، لكنكما وصلتما!

تصافح الأربعة، وبعد تحيات المجاملة، جلسوا إلى المائدة. تأمل كالوست محاوريه الثلاثة ولم يكف عن التفكير في أنهم كانوا هم الرجال الذين قد يدمجوه نهائياً في تجارة النفط. تمثيلُ شركة زينوفييف كان يشكل جواز سفره إلى ذلك العالم، لكن الأوراق الرابحة الحقيقية كانت بين أيادي فيليب، هاندريك وصامويل.

كان العالم تحت أقدامهم، رغم أن من يرى وجوههم الحادة قد لا يتكهن بذلك. بعد بضع لحظات من الحديث، أصبح واضحاً أن الوافدَين الجديدَين حضرا بمزاج ثقيل، بل وحزين.

- لكن، ما هذا؟ - قال كالوست متعجباً - إنكما في أحسن فندق في العالم حيث تقضيان ليلة نهاية السنة والانتقال إلى قرن جديد وتظهران هنا بوجه حزين كهذا؟

- سوف ندخل في سنة 1900، يا عزيزي - صحح هاندريك - أما القرن العشرون فلن يبدأ سوى سنة 1901.

- مجرد تفاصيل - ردّ الأرمني وهو يهزّ كتفيه، كما لو أن هذه المعلومة الدقيقة لم تكن سوى شيء لا أهمية له - هذه الليلة، نحن نودع القرن التاسع عشر ونلج القرن العشرين، إن كنت تريد أن تضع الأمور بهذا الشكل. المهم أن هذا يتعلق بأمر عظيم! فلماذا هذه الوجوه. . . الكئيبة؟

تنهّد هاندريك.

- إنهم الأمريكيون من يجعلوننا على هذا الحال - كشف الرئيس الجديد لشركة رويال داتش - هل رأيت آخر حيلة من حيل نسور شركة ستاندرد أويل؟

- أي حيلة؟ تخفيض الأسعار؟

- طبعاً! لو استمر الأمر على ما هو عليه، سوف تقودنا هذه النسور الكاسرة إلى الإفلاس! من يستطيع تحمل أثمان كهذه؟ إنهم يبيعون بأقل من ثمن التكلفة! عملية إغراق خالصة! يا إلهي، كيف يستطيعون وضع أثمان مدمرة كهذه؟ إن روكفيلير قرصان من القراصنة!

- لقد شرحتُ لك ألف مرة كيف يفعلون ذلك - قال كالوست - يقوم الأمريكيون ببيع النفط غالياً جداً في البلدان حيث يتواجدون لوحدهم في السوق ويخفضون الأثمنة كثيراً في البلدان التي يواجهون فيها منافسة. وما يحصلون عليه من أرباح في الأسوق الأولى يغطي ما يتعرضون له من أضرار في الأسواق الثانية وهكذا يربحون المنافسة. منذ سنوات وهم يقومون بهذا!

- حسناً، أعرف ذلك - ردّ الهولندي - ورغم ذلك، لا أكفُّ عن الاندهاش أمام هذه الأساليب. هل تعرف ما الذي ينبغي علينا أن نقوم به؟

- ما هي فكرتك؟

تململ هاندريك فان تيغلين في كرسيه، وبحركة مسرحية خاصة به، رفع قبضته في الهواء.

- Eendracht maakt macht !

- هاندريك، يا صديقي، كفّ عن هذا - طلب منه فيليب - لا أحد هنا يفهم لغة الأفاعي هاته!

- ذكرتُ فقط مَثَلاً من أمثال موطني - أوضح رئيس شركة رويال داتش - إن هولندا بلد صغير يملك إمبراطورية واسعة. فكيف تمكن من الحصول على ذلك؟ - ثم رفع مرة أخرى قبضة يده - Eendracht maakt macht ! أي، القوة في الاتحاد! هذا هو سر نجاح هولندا! وهناك يكمن سر مواجهة ذئاب شركة ستاندرد أويل! - ثم فتح يده - متفرّقين، سنكون مثل أصابع هذه اليد المنعزلة - ثم أحكم قبضة يده من جديد - متّحدين، سنكون أقوياء مثل هذه القبضة!

- هذا رائع، وقول جميل - لاحظ فيليب - لكن الأمريكيين ماضون في نسْف الطريق، الأوغاد! أليس هم من تحالفوا مع شركة نوبل في ألمانيا ليطردونا من هناك، نحن شركة روتشيلد، من تلك السوق؟

- هذه الحكاية مرت وانتهت! قال هاندريك - لا تنس أنه للقضاء على المنافسين الأمريكيين في ألمانيا، قامت شركة ستاندرد أويل بتخفيض الأثمان دون إشعار آل نوبل!

- أعرف ذلك - أكد ممثل شركة روتشيلد - تحدثتُ قبل أيام مع إيمانويل نوبل وكان الرجل مكسوراً تماماً، المسكين. كلما ذكرت له اسم ستاندرد أويل، كان البائس يرتعش من الغضب! ما أريد أن أقول هو أن الأمريكيين يقضون وقتهم في هذا النوع من الألاعيب لتفريقنا.

ثم شدّ الهولندي من جديد قبضة يده.

- Eendracht maakt macht !

- حسناً، حسناً... المشكلة، يا صديقي، هي كيف نمر إلى الأفعال...

كان صامويل مارك يتابع الحديث في صمت. لكن، حين بلغوا هذه النقطة، تململ صاحب شركة شل، غير مرتاح على ما يبدو.

- أنا... لدي شيء أريد أن أقوله لكم - قال متردداً - لا أعرف إن... كنتم ترغبون في الاستماع.

- ماذا؟ ماذا يجري؟

أخذ صامويل نفَساً عميقاً، واستجمع شجاعته ليطلعهم على الخبر.

- شركة ستاندرد أويل... تقدمت بعرض لاقتناء شركتي.

ظلت أفواه رفقاء المائدة مفتوحة وعيونهم جاحظة غير مصدقة.

- ماذا؟

- عرضوا عليّ أربعين مليون دولار - أضاف اليهودي القصير - حاوِلُوا أن تفهموا من فضلكم. إن حقول شركة شل توجد في بورنيو وتنتج نفطاً يُعد استخراجه عالي التكلفة. وانهيار الأسعار بدأ يضر بنا. لست أدري إن كنا قادرين على تحمل الوضع لمزيد من الوقت. من جهة أخرى، يتميز نفط بورنيو بتوفره على نسبة قليلة من الكيروسين ونسبة عالية من الوقود. ومصفاتنا لا تشتغل بشكل جيد - ثم قام بحركة تنمّ عن الضعف - وهذا العرض الذي تقدمه شركة ستاندرد أويل يمكن أن يكون هو خلاصنا.

- فقط الآن تخبرنا بهذا؟ - صاح هاندريك، ومزاجه الدموي الفوار ينفجر - كيف يمكن ذلك، يا صامويل؟

خفض صاحب شركة شل عينيه، في حرج.

- لم أملك الشجاعة...

- لقد سئمتُ من أساليب شركة ستاندرد أويل هذه! - صاح الهولندي - يهاجموننا بأسعار منخفضة وعندما لا يقضون على المنافس يشترونه! دائماً نفس الحيلة! ونحن كالسُّذج نصدق كلامهم!

- هل تصفني بالساذج؟

- لا تبع شركة شل إلى شركة ستاندرد أويل، يا رجل! توسّل إليه هاندريك، انضمّ إلينا! لقد اكتشفت شركة رويال داتش حقل نفط جديد في سومطرة وهي تتوسع. أصبحنا قادرين، لأول مرة، على مواجهة شركة ستاندرد أويل. إنها فرصتنا! لكن، لو اقتنى الأمريكيون شركة شل، سيكون ذلك كارثة! ستهيمن شركة ستاندرد أويل على كل شيء! فهل رأيت عواقب أمر كهذا؟

- لقد عرضوا عليّ أربعين مليون دولار، يا رجل! أربعون مليون دولار! هل لديك فكرة عن حجم هذا المبلغ من المال؟ وقد توسل إليّ أفراد عائلتي أن أقبل هذا العرض!

- لا أريد أن أعرف رأي عائلتك! - ردّ عليه رئيس شركة رويال داتش بفظاظة. ثم أشار إلى مُخاطَبه - أريد أن أعرف رأيك أنت! ما الذي ستقوم به؟

حائراً بين أحاسيس متناقضة وقلقاً بسبب الورطة التي تُمزّقه، علت وجهَ صامويل تكشيرةُ ألم.

- لا أعرف، لا أعرف! عقلي يقول لي أن أغتنم الفرصة قبل فوات الأوان. أما قلبي... - تنهّد - آه، لا أعرف ما أفعل! إنني في حيرة كبيرة من أمري...

سمّر هاندريك فان تيغلين عينيه الزرقاوين الواسعتين في صاحب شركة شل. كان يعرفه جيداً ويعلم أن لديه نقطة ضعف، حان الوقت لاستغلالها.

- أخبرني، يا صامويل - سأله فجأة - هل أنت إنجليزي أم يهودي؟

رفع صاحب شركة شل عينَين مصدومتَين؛ يكاد لا يصدق ما سمعه للتو.

- ماذا تحاول أن تقول؟ - قال محتجاً، وهو يرفع صوته - أنا يهودي، يا سيّدي! ولكني إنجليزي أيضاً! وأفتخر بذلك كثيراً! كيف تجرؤ على التشكيك في وطنيتي؟

- لأنك، أحياناً، لا تبدو كذلك - ردّ عليه هاندريك ببرودة - إنك تعرفُ، كما أعرفُ أنا أيضاً، أن النفط هو المستقبل. شركتك إنجليزية، وإن أنت بقيت متحكماً في شركة شل سيعني ذلك أن قسطاً مهماً من أعمالك سيذهب إلى إنجلترا التي تقول إنك تكنُّ لها كل هذا الحب. لكن، بسبب بعض الصعوبات الظرفية البسيطة، يبدو أنك مستعد لبيع شل إلى شركة ستاندرد أويل لتقدم بذلك كل هذه الأعمال إلى الأمريكيين. كيف يمكن لشخص أن يستعد ليحرم بلده من قسط شيء مهم وفي نفس الوقت يصيح في كل الاتجاهات إنه وطني؟ هذا الأمر لا معنى له! إنْ بعت شل إلى الأمريكيين، لن تكون وطنيتك سوى كلام فارغ! - ثم أشار إليه بإصبع اتهام - عليك أن تقرن الأقوال بالأفعال! قل إنك وطنيّ وتصرف كأنك كذلك!

- لكن، عليك أن تفهم مشكلتي - ألح صامويل وقد حاصره منطق تلك الحجج - إنني أعاني من تكاليف الاستخراج في بورنيو! وعلاوة على ذلك، ما أخزنه من نفط تعد تكاليف إنتاجه باهظة والأثمان في السوق مضرة في هذه الأثناء! مضرة حقاً! لن نستطيع البقاء!

- هذه مشاكل ظرفية.

- ليس الأمر كذلك - ألحّ صاحب شركة شل - ثم أشار إلى المصابيح التي تضيء قاعة فندق سافوي - هل رأيت إنارة هذا الفندق؟ كلها كهربائية. يمكن أن يكون سافوي هو أول فندق في العالم يستعمل إنارة كهربائية بشكل شامل، لكن قريباً، سوف تصبح كل المدن مضاءة بالكهرباء على نفس الشكل. انظر إلى برلين، على سبيل المثال! إن الإنارة بالكيروسين سوف تختفي. تماماً مثل الشمع والإنارة الغازية، فإن الكيروسين ينتج السخام، يحرق الأوكسجين ويتسبب في الحرائق. الكهرباء ليس فيها أي عيب من هذه العيوب. إنها المستقبل. وهذا يعني أن هذه المشكلة ليست ظرفية، بل هي مشكلة بنيوية.

شبك الهولندي ذراعيه.

- ليكن ذلك، سوف تعوض الكهرباء الكيروسين في الإنارة - اعترف - لكن، ألم تقل أنت نفسك إن النفط الذي تنتجه في بورنيو فقير بالكيروسين وغني بالوقود؟ ومستقبل النفط، يا عزيزي، هو الوقود بالتحديد! هل رأيت هذه العربات من دون خيل التي يخترعونها هذه الأيام؟ يوماً ما، سوف تكون كل العربات على هذا الشكل!

- تتحرك بالبخار.

- إنها تتحرك بالوقود! لقد أخذ الألمان يصنعون عربات من دون خيول، هذه. . . السيارات، كما يسمونها الآن، اعتماداً على مبدأ الاحتراق الداخلي. يبدو أنها أكثر نجاعة. ألم تر ما حدث في سباق باريس-بوردو؟ من أصل ست عشرة سيارة تشتغل بالوقود التي انطلقت، اجتاز نصفها خط الوصول. لكن، من أصل ثمان سيارات تشتغل بالبخار، فقط سيارة واحدة اجتازت خط الوصول. وكانت

المراتب الأولى كلها من نصيب السيارات التي تشتغل بالوقود. بعبارة أخرى، لقد انتصر الوقودُ على البخار! ولا تقتصر عواقب ذلك فقط على العربات من دون خيول، يا عزيزي. سيأتي يوم تشتغل فيه السفن بالوقود! سجل ما أقول لك! الوقود هو المستقبل!

ران صمت قصير في المائدة. ومن حولها كانت تعلو أجواء احتفالية، حيث كان عازف بيانو يؤدي قطعة مبتهجة بينما بعض الأزواج يحومون متراقصين في الصالة. كانت تُسمع ضحكات فرح وعمّ الحماس كل مكان، بيد أن الرجال الأربعة كانوا ينظرون إلى بعضهم بانشغال، كما لو أنهم في عالَم منفرد. اتكأ صامويل بمرفقه على المائدة، وضع رأسه في راحة يده ودَلَك وجهَهُ.

- والآن، يا إلهي! - قال مشتكياً - ماذا أفعل؟ هل أبيع إلى الأمريكيين أم أخاطر بالإفلاس؟

وجه الهولندي لكمة إلى المائدة جعلت الجميع يقفزون من الفزع.

- لا هذا ولا ذلك! - زأر - عليك أن تنضمّ إلى شركة رويال داتش! ! Eendracht maakt macht، وحدهُ الاتحاد يمكن أن ينقذنا! نضم الموارد، نتقاسم المصفات ووسائل النقل، نوفر بعض النفقات على نطاق واسع ونجعل الأسواق تستقر. هناك كثير من المال يمكن ربحه ونحن سوف نربحه، يا إلهي!

تنحنح كالوست.

- إن سمحتم، هذا لا يكفي - قال بنبرته الهادئة المعهودة، وهو يكسر صمتاً طويلاً - إن اتحاداً بين مختلف المنتجين الأوروبيين لن ينجح إلا إذا اقتحمنا الأسواق التي تحتكرها شركة ستاندرد أويل. وإلا فإن الأمريكيين سيظلون قادرين على الاستمرار في

استعمال ما يجنونه من أرباح في تلك الأسواق لمهاجمتنا بأسعار منخفضة في الأسواق التي ينافسوننا فيها. لكن، لو كنا حاضرين في كل مكان، سوف يفقدون هامش المناورة لشنّ هذا النوع من حروب الأثمنة.

- أنت على حق - قال هاندريك موافقاً - لكن، لا شيء من هذا قد يكون ممكناً إن بقينا متفرّقين. علينا أن ندمج أنشطتنا أينما استطعنا ونتعاون أينما كان ذلك ممكناً - ثم نظر إلى ممثل شركة روتشيلد - ما رأيك، يا فيليب؟

حرّك الإنجليزي رأسه.

- لا يمكن أن تستمر الأمور على ما هي عليه. هذه الحروب ستؤدي بنا إلى الإفلاس - ثم رفع رأسه ونظر إلى مُخاطَبه - يمكنك أن تعول علينا، يا صديقي.

التفت الهولندي نحو الأرمني.

- كالوست، ما رأيك في كل هذا؟ روسيا هي ثاني منتج عالمي للنفط، وإن أردنا أن نواجه شركة ستاندرد أويل، نحن بحاجة لمنتجين مستقلين من باكو. ما هو موقفكم؟

ظل وجه ممثل زينوفييف خالياً من أي تعبير، كأنه بائع من البازار الكبير في خضم عملية تفاوض.

- أنا مقتنع بأن التفاهم هو الأمر الذي يبدو معقولاً - قال في النهاية - إن المنتجين المستقلين في باكو سوف يصطفون إلى جانبكم، أستطيع أن أؤكد هذا. لكن في إطار نظام من التعاون.

التفت هاندريك، أخيراً، نحو صامويل، الذي كان ما يزال يدلك وجهه بأطراف أصابعه.

- وأنت؟ هل تبيع شركة ستاندرد أويل وتخون بلدك؟ أم تنضم

إلى شركة رويال داتش، في إطار شراكة إنجليزية-هولندية، وهكذا تنقذ شركتك دون أن تضطر لبيع روحك؟ من هو رئيسُك؟ روكفيلير أم الملكة فكتوريا؟

وهو يطرح الأسئلة بهذه الصيغة، كان الهولندي يعلم أنه يطلق رصاصة الرحمة على مُحاوره المهووس دائماً باستعراض حسّه الوطني. توقف صامويل مارك عن تدليك وجهه، رفع رأسه وحدّق إلى محاوره لمدة خمس ثوانٍ طويلة، ثم اتخذ قراره ومدّ يده فجأة.

- أنا معكم.

بعد زوال التوتر، والتوصل إلى الحل الذي يسمح لهم بمواجهة شركة ستاندرد أويل التي يملكها روكفيلير، استرخى الأربعة وبدأوا تدريجياً ينغمسون في أجواء تلك الليلة. أخذت الصالة الكبيرة تمتلئ بالأزواج الذين يرقصون على إيقاع جنوني تؤديه فرقة موسيقية صغيرة، بينما مجموعات من الضيوف يتحدثون بحماس وهم يتذوقون مأكولات خفيفة من المائد الطويلة التي تعرض أطباقاً حضّرها ثلة من أمهر الطباخين المستأجرين من فرنسا.

وهو يرى الحفلة من حوله، لم يجد كالوست بداً من التفكير في سخرية القدر. تلك السنة التي كانوا يودعونها شهدت موت أمه، وهو ما أكمل يُتْمهُ بعد موت والدَي زوجته في السنوات السابقة. كان هو ونونوفار الآن مستسلمَين لمصيرهما، لا يستطيعان أن يعولا على حماية أيّ كان، بل حتى البنك وفندق بيرا بالاس وسفن أوهانس العجوز أصبحوا في ملك إخوان زوجته. لكن، في الوقت نفسه، وطّد كالوست وظيفته ممثلاً لزينوفييف ووضع قدماً في عالم النفط. اتفاقُ تلك الليلة مع شركائه كان مهماً بدوره ويُبشّر بمستقبل زاهر

أيضاً لأعماله. كانت هناك، إذاً، أسباب وجيهة للاحتفال بما سيأتي من سنوات.

مع اقتراب منتصف الليل، ظهر مدير فندق سافوي، السيّد سيزار ريتز، وسط الحشد ثم وقف في وسط الصالة، فاتحاً ذراعيه ليثير انتباه الحضور ويضمن سكوت الجميع. ران في الصالة صمتٌ غير معهود. بحركات مسرحية، التفت ريتز نحو الحائط وأشار إلى الساعة الكبيرة التي جلبها بنفسه من سويسرا، موطنه الأصلي. كانت عقاربها تشير إلى الحادية عشر ليلاً وخمس وخمسين دقيقة.

- سيّداتي، سادتي - قال بنبرة مهيبة - ها قد وصلت سنة 1899 إلى نهايتها بعد خمس دقائق من الآن. ومعه أيضاً يرحل القرن التاسع عشر الحافل بالأمجاد، قرنٌ استيقظ خلاله العالم من الظلمات وعانق التقدم تحت القيادة المتنورة لبريطانيا العظمي وملكتها فكتوريا. أدعوكم لنقوم بتوديع يليق بهذا العام وبهذا القرن اللذين ينطفئان معاً في هذه الليلة المشهودة.

سُمعت بعد الصيحات من قبيل «hear! hear!»، كما يحدث في مجلس العموم البريطاني، وصاح آخرون «God save the Queen!». كما عزفت الفرقة الموسيقية مقاطع معروفة من أغنية Rule, Britannia! فتشكل كورال من المدعوين راح يرددها.

When Britain first, at Heaven's command,
Arose from out the azure main;
This was the charter of the land,
And guardian angels sang this strain:
"Rule, Britannia! Britannia, rule the waves:
Britons never will be slaves."

بعد ذلك، قام ريتز بعدّ الثواني الأخيرة من سنة 1899، وصاحبه من جديد كورال من الضيوف.

- خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد... - ثم انطلقت جوقة فوضوية من طقطقات الفلين المتطايرة من قنان الشامبانيا، كؤوس مرفوعة في الهواء، قُبلات وعناق. «سنة سعيدة!»، «سنة 1900 سعيدة!»، و«ليجلب القرن الجديد السعادة لكم جميعاً!».

ثم تعالت الموسيقى في الصالة صاخبة أكثر من أي وقت مضى، مع أزواج يتبادلون القبلات وآخرون يدورون في ساحة الرقص، والشامبانيا تتدفق من كل الكؤوس لتقطر على الأرضية. رجالُ النفط الأربعة، ثلاث قصار وواحد طويل القامة، لوحوا بكؤوسهم في حركة متزامنة، ورفعوا نخباً لذلك العهد الجديد الذي يلوح في الأفق.

- من أجل السنة الجديدة!

- من أجل رويال داتش شل!

وسرعان ما أمرهم كالوست أن يسكتوا وهو يصيح «صمتاً!»، بطريقة لطيفة، رافعاً كأسه ليغير النخب باتجاه شيء بدا له يتوافق بشكل أنسب مع المستقبل الذي كان يبشر به ذلك المرور نحو سنة 1900.

- من أجل قرن النفط!

2

اقتربت المربية، الآنسة كليمانس، تحمل مشطاً مبللاً ثم قرفصت أمام الصغير كريكور كي ترتب شعره الأسود، تدفع عرفه نحو الجانب راسمة خطاً جانبياً جميلاً. عدلت ياقة قميصه، ابتعدت منه مسافة شبر ثم تأملت بنظرة فاحصة الصغير ذي الخمس سنوات.

- ها أنت ذا! - صاحت راضية في النهاية. لكن سرعان ما علت جبهتما تجاعيد انشغال - هل أنت مستعد يا صغيري؟ هل حفظت جيداً؟

قال كريكور نعم بحركة من رأسه.

- نعم، آنسة.

وقفت المربية، دلّته على الباب وأشارت إليه أن يتقدم.

- هيا بنا!

كان الصغير يحب الآنسة كليمانس. كانت طُرق الفرنسية ناعمة، أكثر لطفاً من طرق المربية القديمة، ميس سوير الغليظة الطبع، التي تكلفت بتربيته حتى شهور قليلة قبل ذلك. كان الأبوان حريصَين على أن يقدما لملاكهما الصغير أحسن طرق التربية ووضعا

بالتناوب مربية إنجليزية وأخرى فرنسية حتى تصاحبانه ويكبر طليق اللسان في اللغتين.

لكن، منذ الوهلة التي تجاوز الباب وولج قاعة الجلوس، نسي كريكور مربيته وشعر بركبتيه ترتعشان كما لو أنهما من المُربى. أمامه، مثل لجنة تتطلع إلى مشاهدة العرض، كان والداهُ جالسَين فوق كرسي طويل، الأم تمسك بكلبها الصغير الأبيض، والأب يداعب شارد الذهن لحيته السوداء، وكلاهما محاط بضيوف التفتوا نحو الصغير، كما لو أن ابن المُضيفَين كائنٌ غريب ظهر للتو ليتحفهم بعرض من عروض السيرك. آه، كم كانت عصيبة تلك الصباحات! كان والداه قد اقتنيا المنزل قبل وقت قصير واتخذا من الابن قطعة أثاث إضافية.

أوقفته المربية بيدها، وأشارت إلى أنه في الوضعية الصحيحة وأنه يستطيع أن يبدأ، فابتلع كريكور ريقه وسكت. كان التوتر يصيب معدته بالألم وتحولت عيناه السوداوان اللامعتان نحو والده. وجهُ والده، بلحيته الداكنة وحاجبَيه الكثَّين فوق نظرة عابسة، كان يصيبه بالرعب فوق كل ما هو معقول. وكان يحدس، أيضاً، أنه لم يكن الشخص الوحيد في ذلك البيت الذي يشعر بالخوف في حضور ربّ الأسرة. المربية القديمة، والمربية الجديدة، والخدم، والطباخون، بل وحتى أمه، يبدو أنهم كانوا يتصرفون بشكل مختلف، باحترام أعمى فيه كثير من الخشية، كلما وجدوا أنفسهم أمامه.

- والآن، يا كريكور؟ - قالت الأم - متى ستبدأ؟

لفّ الصغيرُ يديه المتوترين في سرواله، شعر بفراغ يكنس ذهنه، وألقى نظرة متسائلة على المربية، كما لو أنه يستجدي مساعدتها.

- La lune - همست إليه كليمانس - était sereine. . .

آه! تذكر الكلمات الأولى، فتدفقت بقية القصيدة بشكل طبيعي مثل شلال.

La lune était sereine et jouait sur les flots,
La fenêtre enfin libre est ouverte à la brise,
La sultane regarde, et la mer qui se brise,
Là-bas, d'un flot d'argent brode les noirs îlots.

عندما سكت صوتُ الطفل الناعم المرتعش، ملأ سربٌ من التصفيقات الحماسية قاعة الجلوس، مصحوبة بعبارات «برافو!» و«رائع!» وأوضحت الآنسة كليمانس بصوت مرتفع أن الأمر يتعلق بقصيدة «ضوء القمر» للشاعر فيكتور هوغو، وهو ما أطلق تصفيقات جديدة، لكن، بعد ذلك، تشتت انتباه الضيوف، فأخذت المربية كريكور، مثل نجمة تشحب بعد لمعان قوي، ليعود إلى القاعة الصغيرة، ويستمتع بالحلوى، جزاء له على ذلك العرض القصير.

كل يوم أربعاء كان عرض من ذلك النوع يُنشّطُ حفلات الاستقبال التي ينظمها والداهُ في المنزل الذي اقتنياه مؤخراً في رقم 38 من هايد بارك غاردنز، وهي نفس الإقامة بالضبط التي كان كالوست قد تنبأ أمام عمه بأنه سيشتريها في يوم من الأيام. لقد تحقق الوعد في النهاية وكان آل ساركيسيان يسكنون في بيت أحلام ربّ الأسرة.

جرت العادة أن تتضمن الحفلات عرضاً شعرياً يؤديه كريكور، مما يجبر الصغير على حفظ قصيدة مختلفة كل أسبوع. في الأسبوع الماضي كانت قصيدة لبودلير، واليوم قصيدة لفيكتور هوغو، ومن

يدري أي قصيدة ستكون يوم الأربعاء القادم؟ لم يكن الأمر يروقه، بطبيعة الحال، لكن كانت هناك حلوى، على الأقل، تكافئه على المجهود وعلى كل ما يعاني منه وهو يحاول أن يحفظ تلك الجمل الغريبة التي يرددها مثل ببغاء دون أن يفهمها حقاً.

- كريكور!

جعله صوت والده يتجمد من الرعب. توقف الصغير فجأة والتفت إلى الوراء متصلباً، كما لو أن جسده كان قطعة خشبية، حتى نظر إلى وجه سيّد البيت. رغم أنه كان وجهاً قصياً كثير الغياب، كان والده يتعامل معه دائماً بشكل لائق، ومع ذلك كان يرتعش خوفاً أمامه؛ ربما كان البعد وما يُولّدهُ كالوست بين الخدم من رعب هو ما يجعله على تلك الحالة.

- نعم، سيّدي؟

دنا كالوست من الابن وانحنى إلى الأمام حتى يحدق في عينيه.

- سوف تكمل ست سنوات في الأسبوع المقبل، أليس كذلك؟

- نعم، سيّدي.

- إذاً، غداً صباحاً سوف آخذك إلى محلّ Swears & Wells - أخبرَهُ - سوف نخرج على الساعة العاشرة. أريدك أن تكون مستعداً كما يجب لتتلقى هديتك.

كان محلّ Swears & Wells، كما يعرف الصغير معروفاً أيضاً باسم «ملابس الرجال الشبان» أي، ببساطة، محل يبيع ملابس للفتيان. وإذا كان والده يريد أن يأخذه إلى هناك بمناسبة عيد ميلاده، فإن هذا لا يعني سوى شيء واحد: أن الهدية ستكون عبارة عن ملابس. لم يكن ذلك خبراً سعيداً حقاً، لكن ما الذي يستطيع أن يفعله؟

كانت حصة اختيار الملابس في محلّ Swears & Wells سريعة وفعالة، كما يحدث دائماً كلما تكلف والده بأمر. استقبل مستر ويلز شخصياً السيّد كالوست الذي اختار لابنه بدلة ذات أزرار، ومعطفاً قصيراً مع قلادة لؤلؤية، سروالين قصيرين وقبعة اسكتلندية من القطن من نوع «تام أوشانتير»، ذات ألوان زرقاء وخضراء مع ريشة بيضاء مثبته على جانبها.

- قفازان وعصا - قال مستر ويلز في الأخير، وهو يقوده نحو الجناح المخصص لذلك - إن أي سيّد محترم يقدر نفسه يستعمل عصاً وقفازين عندما يخرج إلى الشارع، سواء للمشي أو لركوب الخيل.

فُرضت عليه العصا فرضاً لكنه خُيّر بين قفازَين سوداوَين وقفازَين بُنّيَّين. اختار البُنّيَّين، وهو القرار الوحيد الذي اضطر لاتخاذه. أما كل ما تبقى، فاختاره صاحب المحلّ بمباركة من والده. كان دوره يقتصر على ارتداء الملابس والتزام الصمت.

ألبسوا الصغير كما ينبغي وأخذوه إلى مكان في هايد بارك قرب بيته الجديد. كانت هناك عدة خيول، لكن والده أخذه بالضبط نحو حيوان صغير القامة، أبيض به نقط سوداء على ظهره، كان حوذي الأسرة، مستر آشتون، يشده من الزمام.

- هل رأيت حصان البوني هذا - سأله كالوست - إنه ملكك! عيد ميلاد سعيد!

كانت لحظة سعيدة حقاً يوم تلقى كريكور حصان بوني بمناسبة عيد ميلاده السادس. سعيد لأنه كان أول حصان في ملكه، لكنه سعيد خصوصاً بتقارب والده منه، حتى لو كان ذلك تقارباً مؤقتاً. كان كالوست رجلاً منشغلاً، دائماً في أسفار عمل يعالج أموراً جدية

خاصة بعالم الكبار، لذلك لم يكن يراه في أغلب الأحيان. وفي الأيام النادرة التي لا يعود فيها متأخراً إلى البيت، كان يزور الابن في غرفته لبضع دقائق، لكن هيئته المتصلبة وإصراره على الالتزام بالواجب، بالإضافة إلى وجهه الصارم، كانت ترعب كريكور.

على الأقل، حصل على حصان بوني.

خلال تلك السنوات الأولى من حياته، كان وريث آل ساركيسيان يعيش قريباً من أمه. يراها حالَما يستيقظُ صباحاً، فيهرول نحو غرفتها ويرافقها في وجبة الفطور. ثم تأتي المربية تبحث عنه للقيام بواجبات الصباح التربوية، لكنه يعود ليبقى مع نونوفار ساعة الغداء. كان شيئاً رائعاً أن يتقاسم معها مائدة الأكل، رغم أن أمه كانت صعبة الإرضاء كثيراً وصارمة بخصوص ما يجب أن يأكله.

- الخضر، أولاً - كانت غالباً ما تقول - إنها مفيدة لصحتك. والجزر يمنحك عيوناً جميلة.

- ولكني أريد لحماً!

- فقط بعد أن تتناول الخضر، هل فهمت؟ هذا مفيد لك أنت.

المشكلة أن كريكور كان يكره الخضر اللعينة تماماً كما يكره تلك الحجة بأنها «مفيدة له». أي فائدة هذه؟ عن أي شيء كانت تتحدث أمه؟ تلك الخضر لم يكن لها أي مذاق! فكيف يجبرونه على ابتلاع فظاعة كهذه؟

وبعد عدة احتجاجات ونوبات بكاء وغضب، جاء اليوم الذي قرر فيه أن يتجاهل تعليمات أمه ويضع الخضر جانباً. يومها كان الأمر يتعلق بالملفوف، فمرّ مباشرة ليأكل اللحم. لكن أمه لم توافق على ذلك، فنهضت على عجل وأعادت اللحم إلى الصحن.

- أيها الطفل! لن تأكل اللحم إلا بعد تناول الخضر، هل سمعت؟ لا أريد هنا عصياناً لأوامري!

- ولكني لا أرغب في أكل الملفوف!

- لا أريد أن أسمع شيئاً كهذا! كُلْ!

كان الأمر صارماً والصغير يعلم أن للعصيان عواقبَ. كلما أساء التصرف، كانت الأم أو المربية توجه له بضع صفعات. كان ينال العقاب في كثير من الأحيان، كما جرت العادة وقتئذ، رغم أنه لم ينل قط عقاباً على يد والده. مهما يكن، لم يعد كريكور يخشى العقاب. فليست بضع صفعات أخرى هي التي ستقنعه بإدخال ذلك الملفوف اللعين إلى فمه.

- لن آكله!

قطّبت الأم حاجبها.

- حقّاً؟ - ثم قامت بإشارة نحو الآنسة كليمانس - لن يضع الطفل شيئاً في فمه ما لم يأكل الملفوف، هل فهمت؟ ولو قطعة بطاطس واحدة!

وعقاباً له على العصيان، كان كريكور ينتظر صفعات على مؤخرته أو حرمانه من تناول الحلوى لمدة أسبوع، لكن لم يحصل شيء من ذلك. لم تلمسه أمه، واكتفت بمنحه نصف يوم كامل من الصوم. بما أنه لم يأكل الخضر، لم يقدموا له أي طعام حتى ساعة تناول العصْرونيّة.

على الساعة الخامسة، وقت الشاي، حضر إلى المائدة ليتناول كعكاته المعتادة. كان يشعر بمعدته تستجدي الطعام وأحس بذراعَيه وساقَيه تتأرجح من الوهن. بلعاب يسيل من فمه، رأى الخادمة تظهر

في القاعة الصغيرة تحمل صينية الشاي، بيد أنه، وسط الفناجين، والإبريق وسلة الكعكات، لمح باستياء صحناً من الملفوف. ملفوف. ذلك الملفوف الذي وُضع مرة أخرى أمامه كي يأكله. وضع عينَين يائستَين على الخضر، شعر بالإحباط، وكان على وشك أن يستسلم، بيد أن شيئاً ما تحرك في روحه. كانت شرارة التمرد التي تؤجج إرادته، أو ربما كبرياءه، فتمنعه من التسليم بالهزيمة. قرر أن يظل ثابتاً.

- إنني لا أريد هذه الفظاعة!

كان يعرف أن أمه حريصة على راحته ويتطلع لما ستفعله. فهل ستلجأ أخيراً إلى الصفعات؟ كاد يرغب أن يكون كذلك، لأن الموضوع سينتهي فوراً بتلك الطريقة. رفع عينَين مُتحدّيتَين نحو نونوفار وانتظر أن تستسلم أمه أو تنفجر. طبعاً، لن تتحمل آلام عزيزها الصغير.

- يمكنكم أن تأخذوا هذا الملفوف إلى المطبخ - أمرت بنبرة باردة غير منتظرة - لن يأكل الطفل شيئاً آخر حتى وقت العشاء.

وهو يغالب دموعه بصعوبة، نهض كريكور من على المائدة واتجه نحو غرفته بخطى سريعة مطأطأ الرأس. واشتدّ به الجوع كثيراً حتى أنه، لما جلس على حافة السرير، راح يقضم الجلد الناتئ من أطراف أظافره. بعد ذلك، اكتشف أن الماء يهدئ شهية الأكل مؤقتاً فشرب منه الكثير. لكن الرغبة في الأكل ظلّت تعاوده لفترات قصيرة أكثر فأكثر، حتى صارت دائمة. كانت مقاومته ومعنوياته تقترب من النهاية.

في الليل، قبل أن يعود والده من أعماله، جلس إلى المائدة وهو في حالة كبيرة من الوهن. قدمت الخادمة الحساء، بيد أنه

اكتشف دون اندهاش أن هذه الأكلة لم تكن من نصيبه. وبدل ذلك، وامتثالاً لأوامر صاحبة البيت، وضعت الخادمة أمامه نفس الصحن مع نفس الملفوف، الذي أكله هذه المرة دون احتجاج، وبشيء من الشراهة، في حقيقة الأمر.

والغريب في الأمر أن الأكل أعجبه.

3

كانت الشمس تلمع في السماء بمزيج من الأصفر والبنفسجي، كما لو أن الأفق قد مزّقتْهُ ضرباتٌ قوية بفرشاة زيتية. كان كالوست قد استيقظ للتو وظلّ يتفحص الشارع من النافذة. أحياناً، كان يحدث له أن يرى فارساً يظهر أمام البيت معلناً عن «قدوم الملكة!»، وبعد ذلك بلحظات تمرُّ عربة الملكة فكتوريا باتجاه محطة بادنغتون، حيث كانت العاهلة تأخذ القطار إلى قصر وندسور. لكن، منذ عدة أسابيع لم يعد يرى الموكب الملكي؛ كانت إشاعات تقول إن الملكة، التي ظلت تتربع على العرش لأكثر من ستين عاماً، كانت مريضة، وهو الأمر، الذي إن تأكد، يفسر لماذا لم ير مرة أخرى مرور الموكب الملكي.

هي قد تسبقني، فكر الأرمني وهو يهز كتفيه بنوع من اللامبالاة. تثاءب وتابع طريقه نحو الحمام بخطى خفيفة، حتى لا يوقظ نونوفار. أفرغ متانته بسرعة ونظر إلى المرآة. لحيتُه كانت سوداء وتعبير تنْويمي يخيم على عينيه. غسل وجهه وأسنانه، ثم لفّ نفسه في رداء الحمام ونزل إلى صالة الرياضة.

- صباح الخير سيّد ساركيسيان - حياه الرجل البلجيكي الضخم الذي كان ينتظره عند الباب - هل أنت مستعد للتدليك؟

أجابه كالوست مدمدماً. خلع رداء الحمام وتمدد فوق المنضدة دون أن ينطق ببنت شفة. فور ذلك، نشر المُدلّكُ مستحضراً على جسده وبدأ يضغط على عضلات ساقيه بأطراف أصابعه. وبينما هو يخضع لحصة التدليك اليومية الصباحية، كان ذهن الأرمني يجول عبر آخر حدث، الزبون الجديد الذي يرغب في شراء نفط زينوفييف. لكن ذلك لا يتجاوز اقتناء رقم 38 في هايد بارك غاردنز، وهو البيت الذي كان يتواجد فيه في تلك اللحظة. ذلك البيت الذي طمع في اقتنائه قبل اثنتي عشرة سنة وصار اليوم في ملكه. فهل ثمة من قياس أفضل لنجاحه؟

- لقد انتهينا، يا سيّدي.

كان المُدلّك يعرف جيداً روتين زبونه وينفّذ حرفياً برنامج التدليك. كان يعرف ما يلي ذلك، وكل يوم نفس الشيء، لكن سيّد البيت لم يمتنع من تذكيره بالأمر.

- اذهب وهيِّئ الحمام.

بعد أن نهض من فوق المنضدة، بدأ كالوست ربع ساعته اليومية من الحركات الرياضية السويدية. منذ مدة كان يقول مع نفسه إنه سيعيش لمدة أطول من جده، كارنيغ ساركيسيان، الذي بلغ مائة وستة أعوام من العمر، بيد أن الحفيد كان عازماً على تجاوزه.

بعد حصة التمارين الرياضية، توجه إلى الحمام ليقوم بغسل جسده غسلاً شاملاً. كان الماء يتموج بهدوء في جفنة الحمام، حيث كانت الأملاح، والزبد والورود تطفو فوق سطح السائل. انحنى كالوست وغطس إصبعه ليتحسس درجة الحرارة. بدا له ذلك جيداً، لكن، محترزاً كعادته، وضع المحرار ليتأكد. لما أخرجه، لاحظ أن الزئبق كان يشير إلى درجتين.

- إن الماء ليس بارداً بما يكفي! - قال غاضباً - هل تريد أن تقضي على صحتي أم ماذا؟

أخذ المُدلّك على الفور سطلاً من الجليد وألقاه في حوض الحمام.

- عفواً، سيّد ساركيسيان - قال بقلق واضح - لا بد أنني قد أخطأت في تقدير الكمية.

- ينبغي ألا يتكرر هذا الأمر، هل سمعت؟ - حذره بإصبع ممدود - كم مرة ينبغي أن أقول لك إنني أريد الماء بدرجة حرارة مئوية واحدة؟ درجة واحدة، لا أقل ولا أكثر!

مع تقدمه في السن، أصبح كالوست لا يطيق عدم الكفاءة. صار أقل تسامحاً مع الأخطاء التي تثير حفيظته بسبب عيوب الطبيعة البشرية؛ كما لو أن عيوب الناس تهين حسّه الجمالي. من حسنات الفن أن الأشياء الجميلة تظل خالية من أي نقصان، راسخة في مظهرها، مصقولة حدّ الكمال كما لو أنها تحظى بمباركة الرّب. ويا له من تناقض كبير مع عدم كمال الإنسان! إذا كانت الحاجة في السابق تجبره على التواطؤ مع عيوب الناس، فإنه الآن، وقد صارت العمولات السخية التي يحصل عليها الآن من بيع نفط زينوفييف تملأ حساباته البنكية، كان يشعر أنه أكثر حرية ويربح مزيداً من الهامش حتى لا يتحمّل أخطاء البشر.

استمر الحمام لمدة خمس عشرة دقيقة أخرى. عندما انتهى من ذلك، ارتدى ملابسه وخرج إلى الشارع ليقوم بجولته المعتادة أثناء الصباح على طول هايد بارك. كانت هفوات البشر تشغل هواجسه، خصوصاً عندما تدخل في تناقض مع كمال الفن. لكن، لم يكن هناك من عيب يقلقه أكثر من عيب الشيخوخة. كان كالوست يشعر

أنه عازم على محاربة مسلسل تدهور الجسد. كان في سن الثانية والثلاثين، ورغم شعوره بأنه في أوج قوته الجسدية، كان يحدس أنه إن لم يفعل شيئاً فإنه قريباً جداً سوف يبدأ مسلسل تدهور الجسد، البطيء الذي لا رجعة فيه مع ذلك. ومن المستعجل إيقاف ذلك التدهور.

كانت المرأة جالسة برأس منحنية والرضيع عارٍ فوق ركبتها، تميل نحو رجل يرتدي ملابس حمراء على يمينها وعلى يسارها ما يشبه أسقفاً. فرك كالوست ذقنه وهو يتفحص الصورة. كانت المرأة هي مريم العذراء، بكل وضوح، والرضيع هو الطفل المسيح، لكن من يكون الرجل ومن يكون الأسقف؟

- **آنسيدي العذراء** - قال صوتٌ من خلفه - هذه اللوحة التي رسمها رافائيل مثال جيد على أسلوب الفترة الكلاسيكية من عصر النهضة. لاحِظْ كيف يبدو حقيقياً ذلك اللون الذهبي في اللوحة.

التفت الأرمني وميز الرجل الذي كان يتحدث. كان شاباً ذا شعر مشدود إلى الوراء وعينين زرقاوين صافيتين.

- عفواً؟

مدّ الغريب ذراعه.

اسمي كينيث بارك - قدّم نفسه - أنا الأمين الجديد لمتحف ناشيونال جاليري.

بدا الاسم مألوفاً للزائر.

- كينيث بارك؟ - قال متعجباً - سير كينيث بارك؟

تصافحا.

مكتبة
t.me/t_pdf

- هو بعينه - ابتسم أمين المتحف، وهو على ما يبدو مسرور لأن مُحاورَهُ تعرف على مرتبته فارساً - كيف حالك؟

- أنا . . .

- أنت كالوست ساركيسيان - سارع سير كينيث بارك بالقول كي يظهر له بدوره أنه يعرفه - شهرتك تسبقك، يا عزيزي. صديقُنا المشترك فيليب بليك كان قد حدثني عنك - ثم حول نظره نحو لوحة رافائيل - مع ذلك، لم يخبرني أنك تقدر فن الرسم. . .

وجالت عينا الزائر دون تركيز على لوحة **آنسيدي العذراء**.

- إنني أعشق كل شيء جميل - لاحظ - لكن، لا تخبر أحداً. هذا سر.

- بجدّ؟

تقوست شفتا كالوست ورسمتا ابتسامة على وجهه.

- إنني أمزح - ردّ الأرمني - هل تعرف، ولدت بحسّ جمالي في دواخلي. لكني وضعتُ هذا العشق جانباً منذ مدة. كانت لديّ أولويات أخرى. . .

- إن واقع الحياة العادية يفرض نفسه، أليس كذلك؟ أولاً، لا بد من كسب المال.

- إنني أرى أنك تفهمني. مع ذلك، تمكنت من ادّخار شيء من المال وأظن أنني سأفتح الباب من جديد لهذا العالم الذي أنجذب إليه أيما انجذاب. قبل قليل كنت أمرُّ من هنا في ميدان ترفلغار، رأيتُ متحف ناشيونال جاليري، شعرتُ لحظتها باندفاع فقررتُ أن أدخل.

- حسناً فعلت - صاح أمين المتحف بنبرة موافقة، وهو يفرك يديه - هل ثمة من شيء تحبه بشكل خاص؟

قام الزائر بحركة إشارة إلى اللوحة أمامهما.

- أعشقُ هؤلاء الكلاسيكيين. رافائيل، مثلاً - ثم أشار إلى عمق القاعة - لكنني أحب أيضاً هذه اللوحة لفان ديك أو تلك لهوغارت أو تلك لكونستابل التي توجد في الجهة الأخرى من القاعة.

- هل رأيت لوحات ويليام تيرنر وكلود مونيه في القاعة رقم خمسة عشر؟

- حسناً، هذه لم أرها.

وبعبارة «أوه، هذه لا بد أن تراها!» حازمة، أمسك سير كينيث بارك الزائر من مرفقه وسحبه على امتداد الممرات كي يذهبا معاً ليشاهدا أحسن لوحات متحف ناشيونال جاليري. بالإضافة إلى لوحات ويليام تيرنر وكلود مونيه التي وعده بمشاهدتها، أخذه أمين المتحف ليتفحص أيضاً لوحة **السفراء** للفنان هولباين، مُطرياً في هذه اللوحة على حب التفاصيل ورمزية الأشياء. ولما وجد نفسه أمام متخصص، رأى كالسوت أن الفرصة مواتية لطرح موضوع قديم لطالما أرقه منذ أيام الطفولة حين كان يقطع البوسفور باتجاه مدرسة روبرت يستمتع بتأمل مدينة القسطنطينية الغارقة في ضوء الفجر الدافئ.

- هذه اللوحة جميلة، من دون شك - قال مشيراً إلى لوحة هولباين. ثم تراجع خطوة إلى الوراء كأنه يريد أن يتأمل اللوحة من بعيد، ثم أطلق تنهيدة طويلة فيها شيء من الشعور بالإحباط - هل تعرف ما يحيرني؟ أنني أبقى مندهشاً أمام ما هو جميل. كيف يمكن لهولباين أن يسحرني بهذا الشكل؟ لكن، ليست هذه اللوحة فقط، إنه. . . كل شيء. ما الذي يجعل القذارة المهينة في الأحياء الفقيرة

من لندن تثير اشمئزازي والخضرة الهادئة في هايد بارك تحلق بي في الهواء؟ لماذا يؤثر في هذا الأمر؟ لأي سبب لا أظل غير مبالٍ بالجميل والقبيح؟ أي ميزة هذه التي تجعل بعض الأشياء تتركني في هذه الحالات؟

أومضتْ شرارةُ ضوء في الزرقة الهادئة لعيني الإنجليزي.

- آه، إنك تريد أن تعْرف ما هو الجَمالُ، يا سيّدي.

عاجزاً عن رفع عينيه عن بقية اللوحات في القاعة، كأنه يريد أن يأخذها كلها إلى بيته، عاد كالوست على عقيبيه وبدأ من جديد يقطع الممر بإيقاع من يتجول.

- بالفعل، هذا هو السؤال الذي يؤرقني.

رافقهُ أمينُ المتحف.

- هل تعرف، من خصائص الكائن البشري أنه يضفي طابعاً خاصاً على الأشياء - قال - فالناس لهم رغبة طبيعية في كل ما يجدونه جميلاً ويزعجهم كل ما يعتبرونه قبيحاً. يجدون الجمال في الأشياء التي تمنح الانسجام لحياتهم ومعنى لطريقة نظرهم إلى العالم، من رؤية سلسلة جبال عظيمة إلى بتلات ملونة فوق زهرة تتفتح في فصل الربيع.

أشار الأرمني إلى اللوحات المعلقة على الجدران.

- ويجدون ذلك في الفن أيضاً. . .

رسم سير كينيث بارك تكشيرة على وجهه.

- الفن ينتمي إلى فئة خاصة - أشار - طبعاً، عندما ينظر الناس إلى الطبيعة يتخذون موقفاً تأملياً. ينظرون إلى العالم كما هو فيظلون منبهرين بكل ما يرون أنه لا يهددهم. بركان يرمي حمماً مستعرة،

لبؤة تقطع السافانا لتقتنص حمار وحش، عاصفة تمزق الليل بالبروق، سماء تعج بالنجوم التي تتلألأ في عمق الفضاء مثل غبار يحترق.

- والفن؟

- أما الفن فليس شيئاً يوجد بشكل طبيعي في العالم، إنه بالأحرى من خلق الإنسان. الفن هو نتيجة فعل الإنسان عندما يحاول أن يسمو فوق شرطه الحيواني وينتقل من وضع المخلوق إلى صفة الخالق. يظهر الفن عندما يحاول أحدهم أن يُحوِّل الفعل الحيواني إلى موضوع ثقافي يمكن أن يصبح سامياً.

- ألا تبالغ؟

حرك أمين المتحف يده يلفُّ بها في الهواء، مشيراً إلى كل ما يحيط بهما.

- إن الإله فنان، يا عزيزي، لذلك فالفن فعل إلهي - قال حازماً - الإله هو الكائن الذي يخلق كل شيء، لكنه يظل محتجباً وراء خلقه، ألا يبدو لك ذلك؟ حسناً، لو تأملت الأمر فإن الفنان هو هذا بالضبط. يرسم الفنان لوحة، لكنه يبقى خالقاً غير مرئي وراء ما خلقه. ونفس الأمر ينطبق على الكاتب المسرحي أو الروائي، مثلاً. تصور أننا لسنا من لحم ودم، بل شخصيات رواية من الروايات؟

- آه، يا له من أمر عبثي!

- حسناً، تصور لو كانت تلك هي حالتنا. فماذا نكون نحن؟ مخلوقات، بطبيعة الحال. لكن، من يكون خالقنا؟ ذلك الروائي الذي تصورنا ووهبنا الحياة داخل صفحات الرواية. أي أن الروائي، سيكون خالقاً لأنه هو من جعل كل شيء ممكناً ونفخ فينا شرارة الحياة، رغم أنه ظلّ محتجباً وراء كل كلمة من الكلمات التي كتبها.

في الحقيقة، الحياة رواية ونحن مجرد شخصيات من تصور الفنان القدير، ذلك الإله.

وقف كالوست جامداً أمام لوحة للفنان سيباستيانو ديل بيومبو يظهر فيها المسيح وهو يبعث لعازار من الموت وسط حشد من الناس.

- عفواً، إنني لا أفهم.

- ينطلق أي فن من فعل حيواني يصبح موضوعاً ثقافياً وبعد ذلك عملاً فنياً. في حالة الرسم، نشأ هذا الفن من فعل قنص الحيوانات. كان الأشخاص البدائيون يمارسون القنص، كما تعرف. بعد ذلك، بدأوا يرسمون مشاهد القنص على جدران الكهوف لطرد شياطين القنص واستجلاب حسنات الآلهة. بمعنى أنهم جعلوا من فعل القنص موضوعاً ثقافياً. لم يكتفوا بذلك فحسنوا مشاهد القنص ليخلقوا مواضيع فنية مثل رسومات كهف ألتميرا، شمال إسبانيا. هكذا تحولت الثقافة إلى فن. كل فن ينشأ من الرقي بالثقافة، التي تنشأ بدورها من فعل حيواني. فالأكل فعل حيواني، لكن قَلْيَ شريحة لحم على طريقة «لحم العجل مع سرطان البحر بنكهة نبات الطرخون»، مع ما يصاحب ذلك من مذاق رفيع، يُعتبر فعلاً فنياً. هل رأيت؟

- أنت تقول لي إن الفن شكل معقد من أشكال الثقافة.

- تماماً - وافق سير كينيث بارك بحركة فيها كثير من التشديد - فالشعور بالبرد فعل حيواني، لكن نسج قميص من الصوف فعل ثقافي، تماماً كما أن خلق قطع ملابس من الموضة الراقية يعتبر فعلاً ثقافياً. إن مفهوم الجمال يتطلب المرور إلى مرحلة أسمى في التجربة البشرية، لا يعود فيها البقاء محل سؤال. فإنسان جائع ينظر إلى

بجعة تنزلق فوق مياه بحيرة «سيربنتاين» في هايد بارك، يرى طعاماً، وإنسان متخم، يرى نفس الطائر فينبهر لأناقته وللحسن الطبيعي لشكله، يندهش لبياض ريشه الناصع والتواء عنقه الرائع. ينظر إليه فلا يهمه من شيء سوى أن يسرّ نفسه بالتأمل الخالص في جماله.

جال كالوست بنظره عبر سلسلة اللوحات التي تزين القاعة حيث كانا، وهو مفتتن بغنى الألوان وتفاصيل كل شيء.

- بمعنى أنه - استنتج الزائر وهو يحرك رأسه مفكراً - لا يصير أي شيء جمالياً إلا إذا بلغ درجة أسمى من درجات الوجود الإنساني.

ابتسم أمين المتحف وفتح ذراعيه كما لو أنه يريد أن يعانق كل المتحف.

- مرحباً بك في عالم الفن.

4

ما وصلَ من أخبار عن عاصفة جنوب إيطاليا دفعته ذات صباح من الأسبوع الموالي إلى الهاتف، وهي الآلة التي ركّبها في البيت واتضحت فائدتها الكبيرة. اتصل بالمكتب ليطلع على مستجدات حركة «موريكس»، باخرة شركة شل التي تتحرك في البحر الأبيض المتوسط محملة بشحنة من باكو أرْسلها زينوفييف. بعد ذلك، اتصل بعيادة «هولبورن» وأمر الطبيب أن يأتي ليفحصه في البيت. طلب منه الطبيب أن ينتظر ساعتين لأنه كان لديه مريضان في الانتظار، بيد أنه لم يقنع مُحاورَهُ.

- تعال فوراً - أمره كالوست - لهذا أدفع لك كثيراً.

كان الدكتور أجيميان أرمنياً من المدرسة القديمة، بلحية بيضاء تعطيه هيئة رجل دين من الكنيسة الأرمنية المقدسة. أمام إلحاح ابن بلده الثري، لم يكن أمامه من بد سوى أن يؤجل فحص المريضين ويأخذ الطريق على الفور. ظهر في رقم 38 من هايد بارك غاردنز بعد عشرين دقيقة يحمل تلك الحقيبة الجلدية التي لا تفارقه.

- هل قمت بكل ما نصحتُك به؟ - سأل الطبيب بعد أن فحص المريض - بما في ذلك التمارين الرياضية؟

- كل صباح.

- والأكل؟

- أكلٌ جيد، لكنه قليل.

غمس الطبيب أصابعه في لحيته.

- إذاً، ما الذي يزعجك؟

بعد انتهاء الفحص، لبس كالوست مرة أخرى قميصه وسد الأزرار.

- هل ثمة من إكسير يحافظ على الشباب؟

ضحك الدكتور أجيميان، فظهرت الأسنان الذهبية التي تزين فمه.

- حسب علمي، لا وجود لهذا الإكسير.

- عندما كنتُ صغيراً، دخلت بالخطأ إلى حريم - حكى كالوست - كنت ذاهباً إلى المدرسة على متن واحدة من تلك السفن البخارية التي تعبر البوسفور، ولا أعرف كيف ولماذا وجدتُني في الجناح المخصص للحريم. جاء خصيٌّ تبعني وما إلى ذلك! لكن، بخصوص هذه الزيارة غير المتوقعة، قال لي أحدهم إن الباشوات لديهم دائماً في الحريم فتيات دون الثامنة عشر من العمر. يبدو أنهم يجدون أن العلاقات مع فتيات شابات تُطيل شباب الرجال - ثم حدّق إلى الطبيب بنظرة متسائلة - هل هذا صحيح، يا دكتور؟

وافق الدكتور أجيميان بحركة من رأسه.

- فعلاً، إنه كذلك - الأتراك لديهم نظرية، أظن أنها ثابتة علمياً، تقول إن ممارسة الجنس بين فتاة شابة ورجل أكبر سناً ينتج عنها انتقال الشباب إلى الرجل. بمعنى أن هذه الممارسة جيدة

بالنسبة للرجل. . . وسيئة بالنسبة للفتاة، طبعاً. هو يفوز بالشباب، وهي تخسره.

استمع الزبونُ باهتمام كبير. عندما سكت الطبيب، فرك كالوست يديه، كما يفعل كلما غاص في أفكاره. بعد ذلك، عدّل جلسته بقفزة واحدة، كما لو أنه عاد إلى الحاضر، ثم حدق من جديد إلى عينَي مُحاوره.

- لقد فهمتُ، يا دكتور.

بعد الغداء في مكانه المفضل في لندن، مطعم فندق كارلتون، مرّ إلى مكتبه، في سانت هيلين بليس، ليرى إن كانت هناك من مستجدات بخصوص سفينة «موريكس».

- إن «موريكس» بخير، يا سيّدي - أخبره روبيرت كوك، ذلك المحامي الشاب الذي سلّمه كالوست مهام تسيير الأنشطة اليومية في المكتب ويستشيره بخصوص الأمور المهنية - لكني لا أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن باكو، أخشى ذلك.

- ماذا تعني بهذا؟

مدّ إليه كوك ورقة طويلة طُبعت عليها حروف بارزة.

- انظر إلى هذا النص الصادر عن شركة Reuter's Telegram Company، سيّدي - قال - وصل ساعة الغداء.

مضطرباً، أمسك كالوست الورقة، وما أن شرع في قراءتها حتى شعر بصدمة في قلبه. كانت الجملة الأولى من البرقية مرعبة. «إضراب يشلّ باكو». وكان النص يقول «تظاهرات وإضرابات العمال أدّت إلى إيقاف نشاط صناعة النفط في القوقاز» ويخبر بأن الشرطة الروسية قامت بسلسلة من الاعتقالات. وتختم البرقية قائلة إن الوضع

«قد هدأ بعض الشيء، لكنه يظل قابلاً للانفجار» وتضيف «إن زعيم حركة الإضراب، يوزيب دجوغاشفيلي، المعروف لدى العامة باسم كوبا، هدد بالعودة إلى شلّ النشاط الصناعي كشكل من أشكال محاربة ما أسماه 'الاستغلال المتوحش للطبقة العاملة'».

- إن الأوضاع في روسيا تسير من سيِّئ إلى أسوأ - همهم الأرمني بين أسنانه، وهو يعيد الورقة إلى مرؤوسه - إن القيصر الحالي رجل أبله! بدل أن يجعل باكو تشتغل كما ينبغي، تركها تتحول إلى معسكر للعبيد بدأ يتطور إلى مشتل للمتمردين - حرّك رأسه - إن الأمور ستنتهي بشكل سيّئ هناك...

تلك المشاكل التي حملتها الأخبار شغلت كثيراً بال كالوست لدرجة أنه استغرق وقتاً طويلاً لينتبه إلى الإشارات التي كان يوجهها له كوك.

- هناك في الداخل رجل يدعى كتابدجي - قال الإنجليزي وهو يشير إلى غرفة الاستقبال.

ذهب كالوست إلى مكتبه وأمر بإدخال الزائر. قدّم الرجل نفسه بكونه الجنرال أنطوان كتابدجي، من جورجيا ويقوم بوظيفة مدير عام للجمارك الفارسية. بعد أن تبادلا بعض المجاملات وسألا بعضهما عما يعرف كل واحد عن القوقاز، كفّ الزائر عن اللف والدوران وشرح ما جاء لأجله.

- إن حكومتي، آسف لأقول هذا، تواجه بعض المشاكل في الخزينة - كشف الجنرال كتابدجي - وقررت أن تبيع رخص استغلال المناجم لجمع المال الذي يسمح لها بتجاوز ما تتخبط فيه من مشاكل.

- مشاكل؟ أية مشاكل؟

أحرجه السؤال، فابتسم المدير العام للجمارك الفارسية بخجل.

- لنقل إن الشاه رجل له عاداته الخاصة... كيف أقول لك هذا؟ عادات تبذير وإسراف.

- آه.

انحنى كتابدجي ليفتح محفظة يدوية أخرج منها وثائق رسمية كتبت بحروف عربية مع ترجمة إلى اللغة الفرنسية.

- كل ما في الأمر أنني كُلّفتُ بأن أجد من يشتري ترخيصاً لاستغلال النفط في بلاد فارس. والسعر الذي حددته حكومتي هو خمسة عشر ألف ليرة، تؤدى نقداً. نصحوني بك لأنك تشتغل في هذا المجال، ومقابل عمولة ظريفة لصالحي، يمكن أن تكون مهتماً بهذا الترخيص. فهل يكون الأمر كذلك؟

حكّ كالوست لحيته وهو يفكر في الاقتراح.

- أمهلني أسبوعين لأجيبك.

عرضُ ترخيص استغلال النفط في بلاد فارس تبخّر من ذهن كالوست لحظة ودّعه الزائرُ وغادر المكتب. منشغلاً بالأخبار المقلقة حول الإضرابات في باكو، نادى كالوست على كوك وأملى عليه نص برقية موجهة إلى زينوفييف يطلب منه فيها معلومات وتخمينات حول ما قد يقع على المدى القصير، والمتوسط والطويل، حتى يستعدوا لمواجهة أسئلة الزبناء. أفظع ما يمكن أن يقع هو أن يحدث انقطاع في التموين؛ وقد يكون ذلك كارثة. لحسن الحظ، كانت باخرة «موريكس» قد انطلقت قبل أن تقع كل تلك الأحداث. لكن، هل سيعود الوضع إلى طبيعته قبل الرحلة الموالية؟

وما لم يتوصل بردّ من زينوفييف لن يستطيع القيام بأي شيء.

هكذا، عندما خرج مرؤوسه ليرسل البرقية، أغلق كالوست على نفسه داخل المكتب وتفرّغ لمراسلات ذلك اليوم. كانت إحدى الرسائل، التي بعثها من القسطنطينية أحد أصهاره الذي ورث في بيرا بالاس، تحملُ خبراً مزعجاً. تقول إن سليم باي، الصديق التركي لوالده، قد وقع في مصيبة داخل البلاط فأبعدهُ السلطان.

- المسكين... - همهم.

أخذ ورقة وكتب رسالة تضامن إلى التركي، يعرض عليه المساعدة في كل ما يحتاج؛ فقد كان يدين له بكثير من الجميل كي ينساه في تلك الساعة العصيبة.

بعد ذلك، فتش مراسلات وكالة رويترز مع آخر الأخبار حول بورصة لندن. اهتم خصوصاً بتطور أسعار شركتَي رويال داتش وشل، اللتان كان هو عرّاب زواجهما واقتنى منهما حفنة من الأسهم. في هذه الجبهة، كانت الأمور تسير على أحسن ما يرام، لأن الأرباح كانت سخية. كان قد اقتنى الأسهم الأولى من شركة رويال داتش بثمن منخفض جداً، صفقة مربحة اقتناها بنصيحة من فيليب بليك. وفوق هذا، وبما أن حقول نفط شركة رويال داتش شل كانت في بورنيو وسومطرة، لم تتأثر أسهمها بأحداث باكو. لكن الشيء نفسه لا ينطبق على آل روتشيلد وآل نوبل، الذين يتوقفون على الإنتاج في القوقاز. كما هو شأنه أيضاً، من جهة أخرى.

طرق أحدهم الباب.

- ماذا هناك؟

أطلّ كوك برأسه الأشقر على المكتب.

- برقية، سيّدي - قال وهو يمد إليه ظرفاً - وصلت للتو.

- من باكو؟ - قال الأرمني مندهشاً - هل أجابني زينوفييف؟

- إنها من لاهاي.

إن كانت من لاهاي فلا يمكن أن تكون سوى رسالة من هاندريك فان تيغلين، أدرك كالوست. فتح الظرف وقرأ النص. كانت، بالفعل، رسالة من المدير التنفيذي لشركة رويال داتش شل يطلب منه اجتماعاً. كان هاندريك يقترح عليه أن يلتقيا في نقطة وسط بين إنجلترا وهولندا، وبما أنه يعرف حاجة الأرمني للتنقل إلى باريس شهرياً لمعالجة أمور بيع نفط زينوفييف في فرنسا، اقترح عليه أن يلتقيا رأساً لرأس في هذه المدينة بالتحديد.

عندما أخذ كالوست القلم وهو يستعد لتحرير برقية الرّد قاطعه ضجيج أصوات معدنية غزت المكتب، بعضها قريب، وبعضها بعيد. استغرب تلك الضربات الإيقاعية، فنهض وذهب ليطل على الشارع من النافذة. كانت بعض العربات قد توقفت وبدا بعض المارة مندهشين بدورهم. لحظتها فقط انتبه إلى أن الأجراس هي التي كانت تقرع.

- روبيرت!؟

- نعم، سيّدي؟

- اذهب لترى ما يجري.

عندما غادر المحامي الشاب المكتب، ألقى كالوست نظرة أخيرة من النافذة وعاد ليجلس. كانت الأجراس ما تزال تقرع، لكنه سرعان ما سها عما يحدث من حوله. أخذ القلم من جديد وحرر جواباً إلى هاندريك، فقبل الدعوة وحدّدَ يومَ، ساعةَ ومكانَ اللقاء. سيكون ذلك في الأسبوع الموالي، لأنه كان قد قرر مواعيد اجتماعات في باريس خلال تلك الفترة. بعد ذلك، أخذ ورقة أخرى وكتب رسالة ثانية يجب أن تُرسَل على شكل برقية أيضاً، موجهة إلى

مربيته السابقة وعشيقته في مارسيليا، الآنسة دوبري، التي ظلّ على اتصال بها من حين لآخر، طوال الوقت.

لحظة انتهى من هذا النص الثاني سمع طرقاً بالباب وأدرك أن مرؤوسه قد عاد من الشارع. كان عليه أن يسلمه الرسائل كي يذهب إلى البريد قبل ساعة الإغلاق ويبعثها على شكل برقيات.

- روبيرت؟ تعال هنا!

ظهر الإنجليزي في المكتب بهيئة مضطربة، شعره الأشقر أشعث ونظراته شاردة.

- سيّدي...

ظل كالوست مندهشاً لنظرات روبيرت التائهة.

- يا إلهي! - صاح قلقاً - ماذا يجري؟ هل حدث شيء ما؟

- الملكة... - قال المحامي الشاب متلعثماً - الملكة...

- ماذا حدث؟ ما الذي وقع؟

تقدم روبيرت كوك خطوتين بشكل آلي نحو المكتب وسقط بكل ثقله في كرسي مكتب رئيسه، تعلو محياه نظرة ذهول كبير وصدمة تُشوّه ملامح وجهه.

- ماتت الملكة فكتوريا.

5

كانت الأجواء في القاعة الكبرى مليئة بالحماس المكتوم، ومئات الأشخاص يستعدون للحدث العظيم. كان الرجال المحترمون يرتدون معاطف طويلة ويتحدثون فيما بينهم بنبرات وقورة، شواربهم ولحاهم رتبت بعناية كبيرة، حركاتهم شكلية ورسمية، بينما السيّدات يستعرضن أحسن ملابسهن التي تليق بالمناسبة، ونظراتهن تتوارى خلف المراوح القلقة.

كانت المربية تسحب كريكور الصغير من يده، فقام الطفل بمقارنة ملابس سيّدات الطبقات الراقية بلباس أمه، ورغم سنه الصغير وعدم درايته بأمور الموضة، فقد أدرك بكل فخر أن نونوفار كانت أكثرهن أناقة. ألم تكن، في نهاية المطاف، تقتني ملابسها من محلّ «الأخوات كالو» في باريس؟ وفي مثل هذه المناسبات الرسمية، بالضبط، تظهر الفائدة من التردد على أحسن خياط في أوروبا، بل وفي العالم.

- هيا، هيا! - قال الأب متذمراً، وهو يحث الخطى - إنهم على وشك أن يمروا!

فتح مستخدمو فندق كارلتون أجنحة عبر بحر من الضيوف

وقادوا أسرة ساركيسيان إلى شرفة إحدى النوافذ. جلس كالوست ونونوفار في كرسيَّين وُضِعا هنا، بعد أن دفعا مقابل ذلك ما يعادل وزنهما ذهباً، بينما ظل الطفل يرقب الشارع عبر الدرابزين. كان شارعا هايماركيت وبال مول، هناك في الأسفل، يعُجّان بالناس؛ وكان عددهم يعادل عدد ما حضر، قبل شهور، لمتابعة جنازة الملكة فكتوريا، وهو الحدث الذي عاينه آل ساركيسيان من نفس النافذة في فندق كارلتون.

تعالى الضجيج، وفور ذلك ظهر فارس في الشارع.

- The King's coming!، الملك قادمٌ - صاحَ.

ذلك الإعلان الذي أطلقه رسول القصر أثار حركة أصوات متوترة سرت عبر المتفرجين. اشرأبّ الناس بأعناقهم وحوّلوا عيونهم نحو عمق الشارع، وهم يستشعرون اقتراب الموكب. ومن شرفة الفندق، كان ضيوف كارلتون يفعلون الشيء نفسه.

- إنهم قادمون هناك! - صاح كريكور وهو يقفز - إنهم قادمون هناك!

وبالفعل، ظهر الفرسان في عمق الشارع، متأنقين في بدلاتهم القرمزية، وشفرات سيوفهم تلمع تحت شمس أغسطس الحارقة. اقترب الموكب من فندق كارلتون، وبدأت تُسمع الطبول ومزامير القربة. مرّ أوّلاً أفراد الحرس العسكري ببلادتهم الرسمية، أمام الفرسان الإسكتلنديين، ثم تلاهم الهنود، وتبعهم الأفارقة، وجاء بعدهم الجاركاز والغاليون. وفي الأخير، ظهرت العربة الملكية الفخمة يجرها أربعة خيول ويحيط بها رجال يمشون على أقدامهم. بداخلها كان الملك إدوارد السابع، بهيئته الضخمة، يلوح بيد نحو

رعاياه ويمسك بالأخرى الصولجان، بينما الإنجليز يردون تصفيقات متعالية وهتافات.

- God save the King ! - صاحت الحشود بحماس - God save the King !

ظل الصغير مركزاً عينيه على الوجه الذي يُلوّحُ بيديه، وعندما مرّ، في الأخير، التفت إلى الخلف.

- هل أصبح ملكاً، بالفعل؟

- نعم، يا كريكور - أكدت أمه، وعيناها ما تزالان ملتصقتين بالمنظار الصغير - لقد تم تتويجه للتو في كنيسة وستمنستر وهو يتوجه الآن إلى القصر.

كانت عينا الأب بدوره ما تزالان ملتصقتين بالمنظار، وهو يحتمي دائماً من الشمس تحت قبعته السوداء المعتادة. لحظتها، أشار إلى الأسفل.

- انظرا هناك! انظرا هناك!

التفت كريكور نحو الشارع وتأمل الموكب. كانت عربات تسير الواحدة تلو الأخرى، كلها أنيقة، وكلها مختلفة.

- ما هذا؟

- هناك، إنه قيصر ألمانيا، فيلهيلم الثاني، ألا تريانه؟ - قال الأب - إنه ابن أخ الملك، هل تعرفان هذا؟ - ثم أشار إلى وجهة أخرى - وهنالك عربة قيصر روسيا! لقد جاؤوا كلهم لحضور حفل التتويج!

كان موكب تتويج الملك إدوار السابع مؤثراً، ليس فقط لما واكب تأجيله من أحداث بسبب داء التهاب الزائدة الدودية الذي أصاب وريث التاج، بل أيضاً لأن الملكة فكتوريا عمّرت لسنوات

طويلة حتى أنه لم يبق في المملكة سوى القليل من الناس الذين عاينوا حفلاً من حفلات مراسيم التتويج. كما لو أن الملكة فكتوريا صارت جزءاً من الأثاث، فبدا للجميع أن تتويج ملك آخر غيرها شيء مدهش. بسرعة اختفى الموكب باتجاه قصر بكنغهام، وبعد انتهاء الاستعراض، تفرقت الحشود في دقائق معدودة.

يومها تناولوا الغداء في مطعم كارلتون، الذي يعرف كريكور أنه المفضل لدى والده، على نغمات فرقة تعزف على آلات وترية. كانت تلك هي أول مرة يأخذ فيها الزوجان ساركيسيان ابنهما إلى أحد المطاعم، لحظة مؤثرة بالنسبة للطفل. لما وجد نفسه هناك وسط الكبار، لم يجد كريكور بداً من الشعور بالفخر لأنه يتقاسم معهم مناسبة من ذلك القبيل. لقد عاين موكب التتويج وها هو الآن يتناول الغداء مع نخبة أهل المدينة، يستمع لأحاديثهم ويتقاسم معهم أطباق الأكل، كما لو أنه واحد منهم.

برافو!، لقد صار كبيراً.

في تلك الفترة، قرر الزوجان ساركيسيان أن المربية الفرنسية لم تعد هي المناسبة لابنهما وعوضاها بميس بروكواي، إنجليزية متوسطة السنّ تعتمد أسلوب المدرسة الفكتورية القديمة. كانت المربية الجديدة امرأة صلبة، لا تتوانى في فرض حصة «صحّية» من العقوبات على كريكور. تقوم بذلك كلما أساء التصرف، وهو ما كان يحدث، من وجهة نظرها الصارمة، مرة في اليوم على الأقل، لكنها وصلت لدرجة أنها ضربته مرة من دون سبب واضح.

- ماذا فعلتُ - قال لها الطفل مندهشاً بعد أن تلقى الصفعات الأولى - لماذا ضربتني؟

- لأن هذا في صالحك - أجابته بنبرة صارمة - حتى يكبر الرجل قوياً، ينبغي أن يتلقى تربية صارمة. انظر كيف كان الإسبارطيون!

بشكل غريب، ودون أن يفهم هو نفسه لماذا، تطور لدى كريكور تعلق خاص بهذه المربية. ربما فعل ذلك لأنها كانت تهتم به على الأقل اهتماماً مستمراً، عكس والده، ذلك الوجه الذي ظل قصيّاً على امتداد تلك السنوات من تشكُّل شخصيته. كان يراه مرة أو مرتين في الأسبوع، لكن ليس أكثر من هذا، ودائماً من بعيد، كأنه شبح فاتن ومرعب في الوقت ذاته، يخيم على حياته من حين لآخر.

وكانت فترات العطل هي الاستثناء، طبعاً. كُلَّ فصل شتاء، كان والده يكتري منزلاً في «كاب مارتان» في فرنسا، ويرسل الأسرة إلى هناك لبضعة أسابيع. في بعض الأحيان، كلما سمحت له الأعمال بذلك، كان كالوست يلتحق بنونوفار وكريكور ليقضي معهما بضعة أيام. ورغم ما كان يثيره فيه والده من خوف، فقد كانت تلك لحظات سعيدة بالنسبة للصغير. كانوا يتنزّهون على متن عربة ذات عجلات حمراء، وأحياناً يلقون نظرة خاطفة على «فيلا سيرنوس» حيث كانت تسكن أوجيني دي مونيتو، أرملة نابليون الثالث وإمبراطورة فرنسا سابقاً.

كالعادة، كانت ميس بروكواي هي من تتكفل بإعادته إلى الواقع عندما يعود إلى لندن.

- هذا البيت جد متواضع - كانت تقول المربية - ليتني أستطيع أن أشتغل في بيت غني فعلاً...

هذه الملاحظات ولدت في نفس كريكور قناعة غريبة. فأُسرتُه، رغم أنها تتردد على فندق كارلتون وتجاور من حين لآخر بيت آخر

إمبراطورةٍ فرنسيّة، كانت متواضعة بالفعل. أو ربما متوسطة الحال، في أحسن الأحوال. كان رقم 38 من هايد بارك غاردنز يوجد في الجهة الخاطئة اجتماعياً من المنتزه، لأنه بعيدٌ جداً عن بارك لين حتى يُعتبر منزلاً رفيع المستوى، وهذه نقطة لم تكن ميس بروكواي تكلّ من التنبيه إليها. كانت على حق، طبعاً. لأنه في ذلك البيت لم تكن هناك ولا خادمة واحدة مكلفة حصرياً بملابس الطفل!

وباعتبار شروط المنازل ذات المستوى الرفيع في بارك لين، لم تكن أسرة ساركيسيان، فعلاً، سوى أسرة متوسطة الحال. بل إن الجيران من الطبقة الأرستقراطية كانوا يتداولون بينهم معلومات مشينة تقول إن السيّد كالوست كان ينتقل إلى السيتي، وسط لندن، ليشتغل! تصوروا ذلك! كان العمل نشاطاً يثير الاشمئزاز بين أهل تلك المنطقة الراقية والأنيقة.

- يا له من أمر فظيع - سمع ذلك كريكور يوماً على لسان أحد اللوردات كان يتجول مع كلبه أمام رقم 38 - إن الأرمني البسيط يشتغل!

في مثل هذه الظروف، كيف يستطيع الصغير أن يكف عن التفكير في أنه من بين أكثر الناس تواضعاً داخل نخبة المجتمع البريطاني؟ ألمْ يكن والدُه هو من لم يسمحوا له بولوج نادي «سانت جيمس» لأنه، يا للفظاعة، رجل يزاول مهنة؟ فالناس الراقيون لا يُسيّرون أعمالاً؛ يعيشون على عائدات توفرها لهم ممتلكات أسرهم الكبيرة. فكانوا ينظرون بارتياب إلى الأغنياء الجدد، أو أغنياء الجيل الأول، ويعتبرونهم من العامة الذين يحاولون حشر أنفسهم في فضاءات اجتماعية لم تكن فضاءاتهم، بطبيعة الحال. ألا يعرف هؤلاء الناس البسطاء قدرهم ومكانهم؟

في الحقيقة، كان كريكور في تلك الفترة يجهل وجود أشخاص فقراء بالفعل على بعد بضع بنايات من المنزل. كان ابن أسرة ساركيسيان بالكاد يتردد على الفضاء المحدود جغرافياً بين هايد بارك وكينسغتون غاردنز، تحميه أسوار من الغنى وشبكة متداخلة من الأعراف الاجتماعية، فلم يكن يتصور أنه من الممكن أن يوجد أشخاص لا يملكون أي شيء. بالنسبة إليه «ألَّا يملك المرءُ شيئاً» هو أن يتوفر على منزل صغير نوعاً ما، يفصله سورُ حديقة عن منزل الجار كما هو شأن المنزل رقم 38 حيث يسكنون. أما الفقر المدقع، فتلك ظاهرة لم يسمع عنها قط. لذلك، وبعد أن سمع مرات عديدة لميس بروكواي تشتكي من تواضع ذلك البيت، واجهها في الأخير بنظرة تعيسة ونطق بكلمات تعبر عن ذلك الرأي المستسلم الذي توصل إليه.

- نحن فقراء.

مكتبة
t.me/t_pdf

6

كانت قائمة الطعام تلك الليلة في فندق ريتز، في قلب ساحة فاندوم، في باريس، موضوع فضول كبير بين عشاق المطبخ الراقي. كان يُقال إن مليونيراً أمريكياً طلب تحضير طبق غير مألوف للعشاء ولم يكن أحد متأكداً إن كان كبير الطباخين، أولفييه دابيسكات الشهير، في مستوى هذا الطلب.

وقد أدت الهمهمات حول هذا الطلب إلى إثارة اهتمام كالوست، الذي حدد عشاءه تلك اللية في فندق ريتز رفقة الآنسة دوبري. كان الأرمني هو أول من وصل وذهب ليتناول مقبلات في حانة المطعم. سأل المستخدمين عن الطبق، لكنهم كتموا السر وقالوا له إن عليه أن ينتظر ليرى. لكن ما أفاده أنه فاجأ السيّد سيزار ريتز لحظة مروره نحو صالة فاندوم ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام. اغتنم الأرمني الفرصة، واعترض طريقه.

– موسيو ريتز!

توقف المُضيف، ولما تعرف الشخص الذي نادى عليه، تهلل وجهه بابتسامة احترافية.

– أوه، موسيو ساركيسيان! يا له من شرف! يا له من سرور! هل جئت بدورك لتشاركنا هذه الأمسية الجميلة؟

- بكل تأكيد! شريطة أن تخبرني أي طبق ستقدمون هذه الليلة...

تلاشت الابتسامة المصطنعة، ورغم ما بذله ريتز من مجهود للحفاظ على مظهر عادي، لم يستطع أن يخفي شيئاً من الإحباط الذي غلف وجهه بلون شاحب.

- لا أستطيع أن أنطق ببنت شفة - ردّ، وهو يمرّر أصابعه على شفتيه كأنه يختمهما - وعدتُ أوليفييه بأنه هو من سيقوم بالإعلان عن الطبق الخاص بهذه الليلة.

استغرب الزبون تعابير الحزن التي علت وجه صاحب الفندق.

- ماذا بحق الجحيم، يا رجل! - صاح كالوست - هل هذا سبب يدعو إلى الحزن؟

قام ريتز بحركة تنم عن الإحباط.

- اللعنة، إذاً! لا شيء.

- هيا، أخبرني! ماذا يجري؟ لا تقل لي إنك حزين بسبب موت الملكة فكتوريا! لقد دفنوا المرأة، يا رجل! لا تنزعج! بل إن لدينا الآن ملكاً آخر!

أخذ المُستضيف نفَساً عميقاً ثم اقترب خطوة من ضيفه، حتى يستطيع الكلام دون أن يسمعه الزبناء الآخرون.

- آه، موسيو ساركيسيان، لا تمزح. هل تعرف، لدي مشاكل فقط! واحدة تلو الأخرى! - ثم تنهد بعد الإدلاء بهذا السر، وقد تقوس جسده في تعبير عن الانهيار - هل تذكر أنني كنتُ إلى غاية السنة الماضية في فندق سافوي؟ حسناً، لقد اتهمني أولئك الإنجليز الأوغاد بتحويل أكثر من ثلاثة آلاف ليرة من الخمور والمشروبان

الروحية و. . . سرّحوني من العمل! - ثم وضع يده على صدره في حركة درامية - أنا، سيزار ريتز! يا للخزي، يا إلهي! يا له من خزي!

وضع كالوست يده على كتف الرجل ليواسيه.

- نعم، لكن لقد مضى هذا الأمر وانتهى - قال ثم قام بحركة واسعة تشير إلى الفضاء من حولهما - في أقل من سنة، فتحت هذا الفندق الرائع هنا في باريس! إنه أحسن فندق في المدينة، وربما في العالم! هل تعرف ما أقول لك؟ لقد ربحت في هذه المقايضة!

- هذا صحيح - اعترف ريتز - لكن، ها أنا قد وقعت من جديد في المشاكل! حتى أنتقم من سافوي استحوذتْ على ذهني فكرةُ بناء أحسن وأفخم فندق في إنجلترا! - ثم رفع صوته، وازداد حماسه بشكل مفاجئ - أريد أن أشيد فندقاً في بيكاديلي كي أبين لأكلة اللحم أولئك ما هو فندق بكل ما في الكلمة من معنى! وأوغاد فندق سافوي سوف يموتون من الحسد ويندمون على اليوم الذي أهانوني فيه! آه، سوف يؤدون الثمن! - ثم انهارت كتفاه واستعاد نبرة من الخنوع - لكن، وا أسفاه! دخل المشروع في مأزق لأن التمويل يعوزني! إنه أمر مؤسف! لست أدري ما أفعل مع الحياة! منذ حكاية الخمور اللعينة تلك لم تعد البنوك الإنجليزية ترغب في أن تقرضني ولا سنتيماً واحداً كي أمول المشروع - حرّك رأسهُ - ما الذي أستطيع أن أفعله؟ الإفلاسُ يتربص بي!

أثَّرَ إحباطُ سيزار ريتز أيما تأثير في مُخاطَبه. منذ أيام فندق سافوي، تعرف كالوست على النظرة التجديدية لذلك السويسري في تسيير الفنادق. إن كان ثمة من شيء يحسن الأرمني تقييمه، من رحلاته الأولى على متن «قطار الشرق السريع» وزياراته اليومية إلى فندق بيرا بالاس الرائع في القسطنطينية، فقد كان ذلك بالضبط هو

الخدمات الراقية التي تقدمها الفنادق. ولم يكن هناك من بذخ أسمى مما يقدمه فندق ريتز في باريس.

- هل تريد حقاً أن تشيد في بيكاديلي أحسن فندق في لندن؟

- أرغب فعلاً في ذلك - ثم لمعت عينا ريتز - إنه مشروع عظيم، موسيو ساركيسيان! فندق على الأسلوب الكلاسيكي الجديد، مثل أسلوب لويس الرابع عشر، له واجهة باريسية على شاكلة واجهات بنايات شارع ريفولي. هل رأيت الفكرة؟ أوه، سيكون رائعاً! - ثم حرّك رأسه مرة أخرى، بشيء من الإحباط المتجدد هذه المرة - أحلام، مجرد أحلام! إنني لست سوى مسكين أبله...

قام مُحاورُه بحركة من شفتيه.

- كم تحتاج من المال؟

- الكثير.

- كم؟

خفض ريتز صوته.

- حوالي خمسمائة ألف ليرة - قال فيما يشبه الهمس، كأنه خائف من النطق بهذا المبلغ - هذا كثير، أعرف ذلك! ليس هناك أي بنك إنجليزي يريد أن يقرضني هذا المبلغ. إنني على حافة الخراب!

حكّ كالوست لحيته الكثة، مفكراً. بيد أنه لم يضطر للتفكير طويلاً، لأنه كان يثق بموهبة ريتز ولديه حدس بأن صاحب الفندق سيكون استثماراً رائعاً. ألم يره في العمل هناك في سافوي والآن في هذا الفندق بساحة فاندوم؟ كان من الصعب عليه أن يتصور رهاناً أكثر أماناً.

- إن أعطيتني حصة من الأرباح - قال ببطء، كأنه يقيس كلماته - أقدم لك المال الذي تحتاجه.

- عفواً؟

- كما سمعتَ، موسيو ريتز. أدفع لك الخمسمائة ألف ليرة التي تحتاجها كي تنجز المشروع.

حدّق السويسري إلى مُحاوره بقوة، محاولاً تقييم صدق تلك الكلمات.

- هل أنت جاد فيما تقول؟

- هل يبدو أنني أمزح؟ - ردّ عليه كالوست بتعبير يكاد يكون غير مبالٍ، كما لو أنه وعده للتو بحلوى بسيطة - تعال غداً إلى مكتبي حوالي الساعة العاشرة صباحاً كي نبرم هذا العقد.

بعد الدهشة الأولى، وبعد أن لاحظ أن الأمر لا يتعلق بأي مزاح، طفت الدموع في عيون ريتز. انهال السويسري على الزبون وعانقه كما لو أنه المسيح بلحمه ودمه.

- يا إلهي! يا إلهي! شكراً! شكراً! - كرّر - لا أعرف ما أقول! إنه هذا... أمر لا يصدق! رائع! كيف يمكنني أن أشكرك؟

لم يكن الأرمني من كبار المتعلقين بالاحتكاك الجسدي مع الرجال، لذلك تخلص فوراً من عناق مستضيفه.

- يكفي أن تجعل من ريتز أفخم فندق في لندن وتتقاسم معي الأرباح وفق نسبة استثماراتي - قال، ثم أشار إليه بإصبع، وهو عازم على أن يظفر منه بامتياز آخر - والآن، قل لأوليفييه أن يأتي إلى هنا كي يشبع فضولي ويخبرني ما هو طبق هذا الليلة.

أطلق ريتز قهقهة عالية، كفكف الدموع التي تبلل جفنيه، وبحركات رشيقة تميزه، قام بانحناءة كبيرة وهو ينسحب من الحانة

مشياً إلى الوراء، حتى لا يدير ظهره إلى راعيه غير المنتظر، ثم توجه فوراً إلى المطبخ.

- رغباتُك أوامر، موسيو ساركيسيان.

لم تنقض أكثر من دقيقتين. كان كالوست يبلل شفتيه بنبيذ بورتو عندما رأى أوليفييه دابيسكات يظهر في الحانة وهو يبحث عنه.

- موسيو ساركيسيان؟ - نادى عليه كبير الطباخين في فندق ريتز - لا أعرف كيف فعلت هذا يا سيّدي، ولكن موسيو ريتز في حالة من الحماس الكبير وأمرني صراحة أن آتي لأكشف لك مباشرة عن السر الكبير لهذه الليلة. هل تريد فعلاً أن تعرف ذلك؟

- إنني لا أرغب في شيء آخر غير هذا - ردّ كالوست - الإشاعات لا تنتهي. البعض يقولون إنه طير الدّراج الخاص، والبعض الآخر يؤكدون أن الأمر يتعلق بلحم إفريقي. نوّرني، من فضلك! إن الفضول يقتلني!

ألقى دابيسكات نظرة من حوله، حتى يتأكد من أنه ليس هناك من زبون يسمعهما، ثم دنا من الأذن اليسرى للأرمني.

- أنت تعرف شعاري، أليس كذلك - همس قائلاً - أُوفّر كل ما يطلبه الزبناء.

- أعرف ذلك. وماذا؟

- حسناً، هناك زبون أمريكي تحدّاني بأن أحضر له حساء بقوائم الفيل!

فتح كالوست عينين جاحظتين.

- عفواً؟

أطلق المسؤول عن المطبخ ضحكة متوترة.

- ما سمعته - قال - الرجل يريد حساء بقوائم الفيل. بما أنه سمع أنني أقدم للزبناء كل ما يطلبون، تحداني وطلب مني أن أحضر له هذا الطبق - ثم قام بحركة استعراضية من يده، كأنه ساحر يختم خدعة ويعرض ما توصل إليه على الجمهور - حسناً، سأقدم له الطبق هذه الليلة!

- ولكن... بحق السماء، كيف ستجد فيلاً، يا رجل؟ لا تقل لي إنك ذهبت لتقنصه في أفريقيا!

ضحك دابيسكات مرة أخرى.

- اضطررت لأذهب وأشتريه من «حديقة النباتات» - كشف، وهو يشير إلى حديقة الحيوانات في باريس - كلفني مبلغاً مهماً من الفرنكات، لا يمكن أن تتصوره، لكننا نعرف من سيؤدي الثمن، أليس كذلك؟ إنه الأمريكي.

عاد كبير الطباخين إلى انشغالاته التي كانت كثيرة في تلك الساعة، ثم ركز كالوست انتباهه على كأس نبيذ بورتو، لكنه لم يتمكن من ابتلاع ولو جرعة أخرى، لأنه حين استدار فوق الكرسي وجد حجم امرأة تقف مسمرة أمامه.

كانت هي الآنسة دوبري.

قُدّمت قوائم الفيل الأربعة في المائدة المستديرة التي جلس إليها مجموعة من المدعوين الذين جلبهم الزبون الأمريكي غريب الأطوار. لكن، وفق أوامر سيزار ريتز، جاء المسؤول عن المطبخ إلى المائدة قرب النافذة، حيث يجلس كالوست رفقة الآنسة دوبري، وبحركة لا تثير الانتباه وضع أمامهما صينية صغيرة يُخفي غطاءٌ محتواها.

- إنه جزء صغير من الطبق الذي قُدم للأمريكيين - همس دابيسكات - مع تحيات موسيو ريتز.

بفضول قوي، تذوقا معاً الطبق الغريب ومضغا اللحم بعناية فائقة وارتياب مضاعف. كان طعم قائمة الفيل غريب النسيج، بين القطن والإسفنج، لذا قررا ألا يأكلاه بالكامل واختارا أن يطلبا حساء محار أكد لهما كبير الطباخين أنه سيكون «رائعاً». انغمس العشيقان القديمان في أجواء البذخ داخل صالة فاندوم، حيث كان عازف بيانو يرتدي معطفاً طويلاً يؤدي ببراعة **من أجل إليزه**، تلك القطة الجميلة التي ألفها بيتهوفن، فاستطاعا، أخيراً، أن ينتبها لبعضهما البعض.

- كيف تمضي حياتك، يا آنسة؟ - سألها كالوست عندما هدأت الضجة حول طبق الأمريكي وقدموا لهما حساء المحّار.

- لا أعرف إن كان ما زال بإمكانك أن تناديني آنسة...؟

- ماذا؟ هل تزوجت؟

قامت بحركة تأكيد من رأسها.

- منذ أربع سنوات - كشفت - لكننا تطلقنا في السنة الماضية.

- وخلال كل هذا الوقت، لم تخبريني بأي شيء - اشتكى كالوست - ولو من خلال رسالة...

هزت الفرنسية كتفيها.

- لم أر من سبب للقيام بذلك - قالت مبررة تصرفها على مضض نوع ما - على أي، عدت إلى استعمال اسمي لما قبل الزواج، دوبري، رغم أن سني لم يعد يليق بلقب آنسة.

- مادام دوبري، إذاً؟

ضحكت بدلال، كاشفة عن أسنان مصطفة بيضاء. كانت تفوقه سناً بعض الشيء، لكن ثقل ثلاثين سنة ونيّف كان بادياً عليها. أصبح جسدها أكثر نحافة وفقد وجهها كثيراً من النضارة التي كانت تميزه في مارسيليا.

- أظن أن هذا أحسن.

- أما زلت تشتغلين في عالم النشر؟

- أوه، طبعاً! أشتعل اليوم لفائدة دار النشر هيتزل، لست أدري إن كنت تعرفها...

- أعرفها جيداً! - صاح الأرمني - من ذا الذي لا يعرفها؟ هم الذين ينشرون جول فيرن، أليس كذلك؟

- منذ أربعين سنة تقريباً - أكدت. منذ موت موسيو بيير-جول انتقل تسيير الدار إلى ابنه، لكنه كان بحاجة إلى من يساعده، المسكين، فجاء يبحث عني. إنني أشتغل الآن على الكتاب الجديد لموسيو جول فيرن، الذي سوف يصدر في السنة القادمة - ثم خفضت صوتها كمن يتقاسم سراً - سوف يسمى **الإخوة كيب**، وأتمنى أن يحقق نجاحاً كبيراً من المبيعات.

- آه، جيد! هذا جيد! - تردد - و... هل أنت سعيدة في عملك؟

تململت السيّدة دوبري في كرسيها؛ حدست أن ذلك السؤال كان مهماً وعليها أن ترد بجواب حكيم.

- الأدب كان دائماً يعجبني، طبعاً - قالت - لكن، من البديهي أنه لو ظهرت فرصة بتعويض أحسن، ينبغي أن أفكر في الأمر جيداً.

احتسى كالوست جرعة من النبيذ.

- إن لم يكن ذلك سراً - قال وهو يضع الكأس - كم هو أجرك؟

- مائة فرنك شهرياً. إنه ليس أجراً كبيراً، لكنه يغطي المصاريف، بل يبقى منه بعض الشيء.

دَلَك الأرمني لحيتَهُ بأطراف أصابعه، كما كانت عادته في مثل هذه المناسبات.

- أدفعُ لك عشرة أضعاف هذا الأجر إن قبلت الاشتغال معي.

فتحت الفرنسية فمها ثم أغلقته دون أن تنبس ببنت شفة، مندهشة أمام قيمة العرض.

- عشرة أضعاف؟ - سألته أخيراً، غير مصدقة - هل تريد، يا سيّدي، أن تدفع لي. . . ألف فرنك شهرياً؟

- هل يبدو لك هذا جيداً؟

أطلقت السيّدة دوبري قهقهة تنمُّ عن عدم التصديق.

- مقابل هذا المبلغ، أنام معك كل ليلة.

علت وجه كالوست بقايا ابتسامة.

- لقد انتهى ذلك العهد، أخشى ذلك - ردّ عليها - أنا بحاجة إليك لتشتغلي معي كاتبةً خاصة، إن صح التعبير. أنا بحاجة لشخص جدير بثقتي ينظم علاقاتي الاجتماعية. شخص يتذكر أعياد ميلاد كل الناس، يذهب ليشتري هدايا أقدمها إلى الناس، يتعامل مع معارفي، يرسل الأزهار. . . على أي، شخص يمكنه أن يدبر كل هذا الجانب من حياتي.

نظرت إليه الفرنسية بشيء من الارتياب.

- وتدفع لي ألف فرنك للقيام بهذا؟ يا إلهي! هناك الكثير من الأشخاص الذين يستطيعون القيام بهذا مقابل أقل من مائة فرنك!

- أنا بحاجة لشخص أثق به - شدّد كالوست - وهذه صفة أساسية نظراً لطبيعة حياتي الاجتماعية، وخصوصاً بسبب مسؤولية ليست. . . بالعادية، إن صح التعبير. إنها مسألة حساسة تقتضي كثيراً من الحس والتكتم.

علت تكشيرةٌ وجه مادام دوبري.

- عن أي شيء تتحدث؟

- عن موضوع. . . كيف أقول؟. . . طبي.

- لا تقل لي إنك مريض؟

حرك كالوست رأسه متضايقاً بعض الشيء لأنه لم يستطع أن يُبلّغ ما يريد قوله. كان عليه أن يستعمل الكلمات المناسبة، لكن، نظراً لطبيعة الموضوع، كانت تبدو له غير لطيفة.

- نصحني طبيبي الخاص بأن. . . على أي، هو يرى أنه. . . أنه. . . - ثم سكت عند منتصف الجملة. كيف يمكنه، يا إلهي، أن يقول ذلك بطريقة مقبولة؟ - حسناً، ما هناك هو أن طبيبي الخاص قال لي إنه عليّ أن. . . يعني، هو يرى أنه، لأسباب صحية محضة، قد يكون من النافع لي أن أكون على اتصال. . . كيف أقول؟ على اتصال مع فتيات شابات - ثم تنفس بعمق، مرتاحاً لأنه تمكن، أخيراً، من أن يقول ما يريد دون اللجوء إلى لغة مبتذلة. في الحقيقة، يجب أن تكون الفتيات في سن الثامنة عشر، أو أقل، من الأفضل. نصحني الطبيب بهذا. . . لنسميه العلاج، لأغراض صحية.

ظلت المربية السابقة صامتة للحظة طويلة، تحاول أن تستوعب مضامين ما سمعته للتو. ونظراً لحساسية الموضوع وحرج مُخاطَبها الواضح، فقد أدركت أن عليها أن تكون دقيقة في اختيار كلماتها.

- حسناً، أفهم أن الأمر ينطوي على انشغال بالصحة - قالت بحذر شديد - لكن، ما هو بالضبط الدور الذي يدور في ذهنك بالنسبة لي؟ لأنني لم أعد في سن الثامنة عشر، كما لا بد أنك قد لاحظتَ.

أثارت الملاحظة قهقهة متوترة من كالوست.

- بكل تأكيد - أجابها - ليس هذا ما أنتظره من كاتبة خاصة، كوني مطمئنة. ما أحتاجه هو شخص يقوم... كيف أقول؟ يقوم بترتيب هذه المسألة نيابة عني، لست أدري إن كنت تفهمينني.

كان وجه مادام دوبري يبدو مثل أبي الهول أمام اللغز وهي تفكر في معنى الحديث وتحاول قراءة ما بين السطور.

- أنت بحاجة لمن يبحث لك عن فتيات، أليس كذلك؟

احمرّ وجه الأرمني للطريقة الواضحة أكثر من اللازم التي عرضت بها الموضوع.

- حسناً، في الحقيقة، بطريقة ما هذا هو الأمر تماماً - قال متلعثماً، والعرق يرشح من وجهه - أنا بحاجة لأحد يتحدث معهن، يقنعهن، ويهيئهن، يعلمهن طريقة الكلام والتصرف، يرافقهن عند الطبيب... على أي، كل هذه التفاصيل التي لا أستطيع أنا القيام بها، طبعاً.

فكرت الفرنسية في الموضوع، وهي تتأمل الجوانب الأكثر حساسية في هذه المسؤولية.

- وكيف تنتظر مني أن أقنعهن؟ يعني، لا يمكن أن أقترب من فتاة وأقول لها... على أي، إنك فهمت، أليس كذلك؟ ما هي الحجج التي سأستعملها؟

- سوف تتوفرين على صندوق مصاريف خاص بهذا الغرض

- ردّ عليها مخاطبُها - سواء لإقناعهن أو لتسريحهن عندما يبلغن سن الثامنة عشر - ثم رفع راحة يده، كأنه يريد أن يشدّد على أمر معين - افهميني جيداً، هذا الموضوع مسألة طبية خالصة. إن طبيبي الخاص يلح على أن تكون الفتيات تحت سن الثامنة عشر حتى يكون لذلك مفعول علاجي ناجع.

- آه، بكل تأكيد - وافقت مادام دوبري، وهي تتظاهر بتصديق ما قاله - إنها مسألة. . . صحّة. فهمتُ تماماً.

خيّم صمتٌ محرج بين الاثنين. كانت القاعة الكبرى، حيث يجري العشاء، تعج بالحركة، وضجيج الأحاديث يختلط أحياناً بالقهقهات المتعالية، وبالقطع الموسيقية التي يؤديها عازف البيانو وفرقعات قناني الشامبانيا التي تُفتح. خلف النوافذ كانت الحديقة مضاءة بضوء وافر يمنح بريقاً خاصاً للقاعة الكبرى، التي زينت بدورها بنباتات جميلة وتماثيل ذات أسلوب كلاسيكي.

- إذاً؟ - سألها كالوست دون أن يتمكن من إخفاء شيء من القلق - هل تقبلين؟

ترددت معلّمتُه السابقة. ما كان يُطلب منها، في الحقيقة، وباستعمال عبارة فجّة، هو أن تمارس مهام «قوّادة خاصة». كان الأمر يتعلق بطلب غير منتظر، لكن ذلك لم يهنها. ألم تقم هي نفسها ببيع جسدها لهذا الرجل نفسه عندما كانا يعيشان معاً في مارسيليا؟ لم تكن المسألة الأخلاقية تشغلها كثيراً ومن الواضح أنه اختارها لهذه المهمة نظراً لكل هذه الاعتبارات. من جهة أخرى، كان هناك تعويض شهري من ألف فرنك، وهو مبلغ أكثر من كافٍ لتعيش في باريس مثل أميرة تخصص معظم أوقات يومها لقراءة الكتب، عشقها الحقيقي. فكيف لها أن ترفض فرصة كهذه؟

عادت أسنانها المصطفة البيضاء لتظهر خلف ابتسامتها التي ارتسمت بهدوء على وجهها، وتزيل التجاعيد الأولى عند زاويتَي عينيها.

- مَن هي أول فتاة ينبغي أن أجلبها وأطلب خدماتها؟

تمّ التفاوض على تفاصيل الاتفاق مع سيزار ريتز وتحديد مضامينه في مكتب كالوست في باريس. حرّر المحامون بنود الاتفاق وقامت مادام دوبري برقنه، ثم قرأه كالوست والسيّد ريتز ووقعا عليه. بعد ذلك، سلم الأرمني لريتز شيكاً من بنك National Provincial Bank of England بقيمة خمسمائة ألف ليرة. بعد الانتهاء من كل شيء، طلب الأرمني أن يتحدث على انفراد مع مَلِك صناعة الفنادق فخرج المحامون نحو قاعة الانتظار. وأرادت الكاتبة الخاصة أن تنسحب بدورها، لكن رئيسها أشار إليها أن تجلس.

- كنتُ دائماً متحمساً كبيراً للفنادق الكبيرة الباذخة - قال كالوست لضيفه - وقد كان لهذا الأمر وزن مهم في قراري بمساعدتك في هذا الظرف العصيب - توقف وابتسم بتكلّف - علاوة، طبعاً، على أنني أومن بأنك سوف تُشيِّد، يا سيّدي، في بيكاديلي أحسن فندق في إنجلترا، وربما في العالم.

- شكراً، موسيو ساركيسيان - قال ريتز - أنا متأثر لثقتك.

- من الأشياء التي طالما كنت أحلم بها دائماً هو أن أسكن في فندق يتم فيه التعامل دون عناء مع كل ما نحتاجه من تفاصيل ترتبط

بمشاكل الصيانة الخاصة بمن يقيم في بيته الخاص: مصباح يتعطل، عشب يحتاج للجز، أدوات مائدة فضية تختفي. . . على أي، كل هذه العوائق، إنها شيء مزعج! في فندق، لا يهتم الزبون بأي شيء من هذا. يكتفي بالاستفادة من الخدمات ودفع الحساب في النهاية.

- آه، من دون شك، إنه أمر عملي بشكل أكبر. . .

نهض كالوست من مكانه، اقترب من نافذة المكتب وألقى نظرة كئيبة على ساحة فاندوم. كان مكتب محاميه يقع في جهة من الساحة وفي الجهة الأخرى ترتفع أنيقة وطويلة واجهةُ فندق ريتز في باريس، وأمامه صف من العربات التي تترك الزبناء أو تأخذهم.

- فكّرتُ في أن أذهب لأسكن في فندق - كشف بينما كان يتأمل بناية فندق ريتز تتموج على حافة الساحة - وأحلُّ، علاوة على ذلك، المشاكل العملية لحياتي اليومية، وقد يساعدني ذلك في مجال الضريبة. فمداخيلي، كما يمكن أن تقدر، مرتفعة، والدولة تحاول أن تسرق مني كل ما تستطيع - وبدا أن الموضوع يحمّسه - لصوص! السياسيون، حثالة الجنس البشري، يستعملون مال الآخرين لأغراضهم الخاصة! إنهم ليسوا سوى طُفيْليّين حقراء! - ثم تنهد بعمق كي يهدأ - لكن، لو سكنت في فندق، يمكن أن أتخلص من أوغاد الضرائب هؤلاء. سأقول إنني عابر سبيل، وأقدم دليلاً على ذلك أنني أسكن في فندق؛ هكذا أحصل على منافع ضريبية مهمة - التفت إلى الوراء ونظر إلى مُخاطَبه - إنك قد فهمت قصدي، أليس كذلك؟

ابتسم ريتز.

- موسيو ساركيسيان، أعتقد أنك ترغب في أن تسكن في ريتز.

تقدم المستضيف خطوتين وعاد ليجلس في مكانه خلف المكتب.

- تماماً.

- ليس في الأمر من صعوبة تذكر - أكد الفندقي - سوف أحجز لك أحسن جناح في فندقي في بيكاديلي وسوف تلقى، يا سيّدي، معاملة، كما لو كنت... انظر، كما لو كنت ملك إنجلترا الجديد. كيف اسمه؟ إدوارد السابع، أليس كذاك؟

أشار كالوست إلى النافذة بإبهامه.

- يهمني أيضاً جناح هنا في فندق في باريس - قال مشدداً - سوف أضطر للمجيء كثيراً إلى هنا و...

- بكل تأكيد! - صاح ريتز، دون أن يتركه يكمل كلامه - ابتداءً من هذه اللحظة، سيكون أحسن جناح في فندق باريس محجوزاً لك على الدوام، سواء كنت هنا أو في الخارج.

ظنّ الفندقي أن الحديث قد انتهى واستعد للنهوض، لكنه انتبه من خلال هيئة مُحاوره أنه ما تزال هناك نقطة أخرى على الأقل ينبغي حلُّها. ولم يكن مخطئاً.

- في الحقيقة - قال كالوست مستأنفاً الحديث عن الموضوع - سوف يكون جناحي هنا في باريس مسكوناً على الدوام.

- نعم؟ - قال ريتز مندهشاً - هل ستأتي، موسيو ساركيسيان، لتعيش هنا في باريس؟ هذا رائع!

تململ الأرمني في الكرسي، منزعجاً شيئاً ما من الموضوع الذي ينبغي أن يعالجه.

- ليس لي أنا - قال مصححاً - إنني أفكر في أن أُسْكن في الجناح... سيّدةً.

قطّب السويسري حاجبَيه وألقى نظرة خاطفة على مادام دوبري،

التي كانت تتابع في صمت ذلك الحديث جالسة على كرسي قرب النافذة.

- آه! فهمتُ.

خفض كالوست عينيه، غير قادر على النظر إلى السويسري بينما كان يعرض عليه ما يجول في خلده، ثم قام بحركة إشارة إلى كاتبته الخاصة.

- هذه السيّدة التي أتحدث عنها سوف تقدمها لك مادام دوبري في الوقت المناسب وستسكن في الجناح لبضعة أشهر، أو سنة، إن كان ضرورياً. بعد ذلك، سوف تغادر هذه السيّدة الجناح ومكانها ستأتي... سيّدة أخرى، ستقدمها لك أيضاً مادام دوبري - ثم رفع عينيه، أخيراً - أتمنى ألا ترى أي إزعاج في هذا الإجراء. كما أتمنى أن يتمّ التعامل مع هذا الموضوع، الذي أؤكد لك أنه يتعلق بمسألة صحّية محضة، بكثير من السرية، سواء من جهتك كما من جهة كل مستخدمي الفندق.

بوصفه فندقياً ذا خبرة كبيرة، أدرك ريتز أنه قد يكون من غير اللائق التعمق في مزيد من التفاصيل، لذلك نهض من مكانه ومدّ يدهُ إلى راعيه.

- موسيو ساركيسيان، كن مطمئناً! - أكّد مع انحناءة - أنت يا سيّدي، أو أي شخص آخر يمثلك، رجلاً كان أو امرأة، سنتعامل معه ابتداءً من الآن كما لو أنه فرد من أفراد العائلة الملكية. إن فندق ريتز، عزيزي موسيو ساركيسيان، هو بيتك من الآن فصاعداً!

كما يحدث دائماً كلما ولج أي مكان، ملأ هاندريك فان تيغلين بالحماس والحيوية مكتب كالوست في باريس. قدمَ للتو من روتردام

وجاء على الفور من «محطة الشمال» حيث نزل، ورأسه يعج بالأفكار والمشاريع.

- يجب أن نتحدث عن وظيفتك في شركة رويال داتش شل - صاح الهولندي وهو يدخل مباشرة في صلب الموضوع - ماذا لو شغلتَ وظيفة في إدارتنا؟ نحن بحاجة لشخص مثلك، يتحرك بشكل جيد في القوقاز وفي الدوائر المالية، دائماً بتكتم. يمكن أن تعود علينا بمنفعة كبيرة.

علت تكشيرةٌ وجهَ كالوست.

- منصب إداري؟ أنا؟ - حرّك رأسه - لا، هذا لا يهمني.

عبر طيفٌ من الخيبة وجه الرئيس التنفيذي لشركة رويال داتش شل.

- لا تقل هذا! حين ضمنتَ تزويدنا بما يقدمه المنتجون المستقلون في باكو، كنتَ حاسماً يا سيّدي في عملياتنا. ولو لم يكن النفط الروسي إلى جانبنا، وحده الرّب يعرف كيف كنا سنواجه شركة ستاندرد أويل. لذا أرى أنه من المرغوب فيه تماماً أن تنضمّ إلى إدارتنا.

- لا أنوي شغل وظيفة إدارية أو في التسيير - شرح الأرمني - لكن هذا لا يمنعنا من التعاون بشكل وثيق لما فيه مصلحتنا المتبادلة. لا تنس أنني أكبر حامل لأسهم خاصة في شركة رويال داتش شل، نظراً لما اقتنيتُه من أسهم بأثمان زهيدة عندما كنتم تمرون بصعوبات في الإنتاج في سومطرة. لذلك، فأنا مهتم بازدهار الشركة وأعتقد أنني يمكن أن أكون مفيداً جداً لها.

- لكن، كيف يمكن أن تكون مفيداً لنا إن كنت ترفض أن تشغل وظيفة مسؤولية؟ هذا ليس له أي معنى!

مكتبة
t.me/t_pdf

اتكأ كالوست في مكانه واتخذ تعبيراً لطيفاً، بل وحالماً نوعاً ما.

- هل سبق لي أن قلت لك إنني أعشق الفن؟

- حكيتَ لي أنك تجمع السجادات، والقطع النقدية والخزفية - وافق هاندريك، دون أن يفهم معنى هذا التحول المفاجئ في مسار الحديث - وماذا؟ ما علاقة هذا بشركتنا؟ هل تريد أن تدير لنا مجموعة من القطع الفنية؟

تجاهل الأرمني نهكة التهكم التي كانت تُتبّلُ هذا السؤال الأخير.

- تُعتبرُ الهندسة واحداً من الفنون النبيلة - لاحظ - طبعاً، هذا النوع من الإبداعات لا يمكن جمعها. لا يمكنني أن أملك البارثينون أو برج إيفيل، مثلاً. لكن بإمكاني أن أستمتع بإبداع هندسي جميل.

قطّب الهولندي حاجبَيه، جاهداً في إدراك قصد مُحاوره.

- هل تريد أن تشيد لنا بناية؟

- نعم، بطريقة ما. أريد وضع تصور هندسة أعمال تكون مثالية. ولن أستطيع القيام بهذا وأنا أشغل أي وظيفة عادية، مثل مدير أو إداري. لو قمت بذلك، سأصبح مجرد بيروقراطي بسيط. والحال أنني فنان! المال والأعمال هي فني. هل تريد شركة رويال داتش شل أن أتعاون معها؟ حسناً، أتعاون معها. إنني رهن إشارتكم.

- لكن، بأي طريقة؟ إنك لا تقبل أي مهمة داخل هيكلنا التنظيمي...

- دعني أشرح الأمور على هذا النحو - اقترح الأرمني - لو

كانت شركة رويال داتش شل كائناً بشرياً، ستكون أنت الجسد وأنا الروح. أنت تسيّر المجموعة وكل جوانب الإنتاج والتوزيع وما يرتبط بذلك من متاعب. وأنا، من جهتي، أتكلف بكل الجوانب الفنية: أكتشف الفرص، أبحث عن التمويل وأنجز العمليات المالية. هل فهمتَ فكرتي؟

- حسناً... اشرح أكثر، يا سيّدي.

- تصور أنني أحدد شركة نفطية تمر بصعوبات، لكنها تملك رخصة استغلال مهمة. بما أنها لا تتوفر على أموال، فإن هذه الشركة لا تستطيع تمويل عمليات استغلال الآبار، أليس كذلك؟ يتمثل دوري في اكتشاف مثل هذه الحالات، وإقناع الشركات التي تمر بمثل هذه الأوضاع الصعبة أن تقبل بأن تشتريها شركة رويال داتش شل والبحث عن التمويل الضروري للحصول على التكنولوجيا التي تسمح باستغلال تلك الآبار. بعد أن أقوم أنا بوضع كل هذه الهندسة، تتقدم أنت، يا سيّدي، وتقتني هذه الشركات بثمن جيد، وبفضل ما حصلتُ عليه أنا من تمويلات تفاوضتُ بشأنها، تقوم بعمليات الاستغلال. أحصلُ على نسبة من الصفقة وتحصل شركة رويال داتش شل على رخصة الاستغلال - قال ثم قطّب حاجبَيه - ألا يبدو لك هذا زواجاً مثالياً؟

تهلل وجه الهولندي بواحدة من ابتساماته المُعدية.

- فكرة جيدة - اعترف - لم يكن هذا هو نوع التعاون الذي كان في ذهني، لكن من يدري ربما يكون أحسن هكذا.

تنحنح كالوست.

- وعلاوة على ذلك، إنني أتوفر الآن على اقتراح ترخيص

استغلال أود أن أعرضه على نظرك - سارع ليضيف - في الأسبوع الماضي، جاء إلى مكتبي في لندن ممثل للحكومة الفارسية يقترح أن يبيع لي رخصة التنقيب عن النفط في بلده بقيمة خمسة عشر ألف ليرة. هل أنت مهتم بهذا العرض؟

- خمسة عشر ألف ليرة؟ إنه مبلغ كبير...

- لكن العائدات يمكن أن تكون أكثر من ذلك بكثير... في حالة اكتشاف نفط في بلاد فارس، طبعاً.

- وهل فيها نفط؟

هزّ الأرمني كتفيه.

- لا أدري. بحثت في الموضوع واكتشفت أنه، قبل ثلاثين سنة، كان الشاه قد سلم تراخيص استكشاف لبارون رويتر، نفس الشخص الذي أسس وكالة الأنباء، لكن يبدو أن عمليات التنقيب لم تكن ناجحة.

علت وجهَ هاندريك تكشيرةُ ارتياب.

- هذا الترخيص فيه كثير من المضاربة، ألا تعتقد ذلك؟ - سأله - ومن الواضح أن جواباً ما كان في ذهنه - هل يريدون أن ندفع خمسة عشر ألف ليرة مقابل ترخيص لا نعرف عنه أي شيء؟ يبدو لي هذا صفقة مضاربين!

- إذاً، أنت لا تريده؟

حرّك الرئيس التنفيذي لشركة رويال داتش شل رأسه بقوته المعتادة.

- لا، على الإطلاق! أن نقتني شركة تمر بصعوبات مالية لاستغلال ترخيص نعرف أنه يتوفر على نفط، هذا شيء - قال

حازماً - وشيء آخر مختلف تماماً، أن نقتني ترخيصاً بشكل عشوائي. هذا يشبه لعب القمار في الكازينو. لستُ مهتماً.

- هل أنت متأكد؟

كانت حركة هاندريك فان تيغلين بيده شديدة وحاسمة.

- تماماً.

حرّكت الفتاة وركيها بشهوانية، نحو الأمام ثم نحو الخلف، ببطء في البداية، ثم بسرعة أكبر فأكبر بعد ذلك. دارت على نغمات الموسيقى المتسارعة، وفي اللحظة التي بلغت فيها إيقاعات فرقة «مابيل وشودوار» أوجها، أمسكت تنورتها القرمزية الطويلة ورفعتها بلا حياء، تستعرض فخذيها العاريتين. ارتفع ضجيج جامح بين الحضور، مع صيحات وصفير. كان الجمهور في ذروته. أدارت الفتاة ظهرها، انحنت ثم رفعت تنورتها مرة أخرى، فكشفت عن مؤخرتها قبل أن تغادر الخشبة مهرولة تحت وابل من التصفيقات.

- شكراً، سيّداتي، سادتي - صاح مدير الحفلة، رجل يرتدي معطفاً طويلاً وقبعة، قَفَز على الفور نحو الخشبة - كانت هذه الآنسة كلير الساحرة وعرض رقصة الكانكان الذي قدمته خصيصاً لزبنائنا الكرام - ثم قام بحركة مسرحية من ذراعه - والآن، يعتز كاباريه «الطاحونة الحمراء» بأن يقدم لكم آنسات «حانة الشيطان».

بدأ عازفو الفرقة عرضاً آخر من عروض رقصة الكانكان، فجاءت مجموعة من الراقصات المتنكرات في هيئات شياطين من الإناث، يرتدين ملابس حمراء وأذيال طويلة، وغزون الخشبة ثم بدأن يتحركن في تناغم، وفق رقصة فنية تدربن على أدائها من قبل.

- تلك!

أشار إصبع كالوست إلى واحدة من الراقصات، صهباء ذات هيئة شابة، لا بد أنها لا تبلغ أكثر من سبع عشرة سنة. جالسةً قرب مُشغّلها، في مقصورة من مقصورات «الطاحونة الحمراء» غير بعيد عن الخشبة، ركزت مادام دوبري المنظار على الفتاة التي كان يشير إليها الإصبع.

- أي واحدة؟ الثانية في الصف الأخير؟

- نعم، تلك الصهباء التي بوجهها نمشٌ.

حدقت الكاتبة الخاصة لمدة دقيقة في وجه الفتاة، حتى تسجله في ذاكرتها وعندما اقتنعت بذلك نهضت من مكانها، أخذت باقة الزهور والعلبة حيث لفت خاتماً من الماس اقتنته في ذلك الصباح من محل «كارتييه» في الشانزليزيه ثم ألقت نظرة أخيرة على مُشغّلها.

- سأتكلّف بالأمر - وعدتْهُ - عليّ أن أكون في غرفة تغيير الملابس عندما تغادر هذه المجموعة الخشبة.

- إن قبلت، لا تنسي أنني أريدها جميلة جداً - ذكّرها، وهو دائماً منشغل بالتفاصيل - ألبسيها أحسن ما تجدين في محلّ «الأخوات كالو»، هل سمعت؟ سيغطي صندوق الميزانية الخاصة كل المصاريف.

- كن مطمئناً. عندما تأتي إلى باريس في الشهر القادم ستجد كل شيء على ذوقك.

غادرت مادام دوبري المقصورة، وتركت كالوست لوحده. بلّل الأرمني شفتَيه بالشامبانيا وتفحص الصهباء التي كانت تقفز فوق الخشبة. فهل ستقبل الفتاة الجميلة عرضه؟ بما أنها راقصة في كاباريه «الطاحونة الحمراء»، فإن ذلك يدلُّ، من دون شك، على أنها فتاة متحررة، وبكل تأكيد منفتحة على تجارب جديدة، وعلاوة

على ذلك كان هناك خاتم من الماس لإقناعها، بالإضافة إلى وعد بتعويض سخي كل شهر، عرض بملابس من أحسن محل للموضة في أوروبا، محل «الأخوات كالو»، وحظوة السكن في جناح باذخ في فندق ريتز. فأي فتاة من تلك الفتيات لن تسلِّم ذراعها أمام فرصة كهذه؟ وهو، ألمْ يكن يطلب منهن أن يسلمنه ذراعهن؟

كان يطلب منهن جسدهن بكامله.

8

جلبت أصواتُ فتيان الجرائد الذين يجوبون هايد بارك انتباه كالوست. كان الأرمني قد غادر البيت في جولته الصباحية المعتادة، كما يفعل كل يوم عند تلك الساعة، لكنه عندما مرّ بالقرب من فتيان الجرائد لم يجد بداً من الشعور بالصدمة مما كانوا يصيحون به من أخبار وهم يلوحون بجرائد الصباح.

- مجازر في روسيا - صاح أحدهم - اقرأوا الخبر كاملاً في جريدة *The Times*!

- انظر إلى جريدة *The Daily Telegraph*! التّتار يخربون باكو! كل شيء في جريدة *The Daily Telegraph*!

أفزعته الأخبار التي كان يصيح بها فتيان الجرائد، فاقترب كالوست منهم وسلمهم حفنة من النقود ليقتني الجرائد. انجرف ذهنه مع العناوين، اتكأ على عصاه التي يتجول بها وترنّح في خطوات مترددة نحو أقرب مقعد عمومي، وسط هايد بارك، حيث جلس ليقرأ العناوين التي استرعت انتباهه. كانت الأخبار وخيمة.

كانت هناك إضرابات ومواجهات في كل أنحاء روسيا. صحيح أنه لم يكن أي شيء من هذا كله أمراً مستجداً. فالوضعية التي ظلت

تتصاعد منذ عدة سنوات، باتت خارج السيطرة تماماً قبل بضعة أشهر. حدث ذلك في شهر ديسمبر من سنة 1904، عندما وقع إضراب ومذبحة أمام القصر الشتوي للقيصر في سانت-بطرسبرغ، فأسفر ذلك عن سلسلة من الاحتجاجات عبر كل أنحاء البلاد. كما امتد التمرد إلى القوقاز وأحدث شللاً جديداً في العمل في حقول النفط في باكو. لكن الأمر الجديد الذي كانت تنشره الجرائد هو أن الحكومة الروسية، خوفاً من مضربي باكو، وزعت أسلحة على التّتار. وكانت النتيجة كارثية. انقلب التتار على الأرمن وقتلوا آلاف الأشخاص.

- إنه غبي! - صاح كالوست وهو يطالع الأخبار - هذا القيصر غبي!

كانت جريدة *The Daily Telegraph* تقول إن حقول النفط في باكو قد تعرضت للتخريب على يد التّتار، رغم أنها لا تقدم تفاصيل الحدث. بحث كالوست بتلهف عن مزيد من التفاصيل في *The Times*، لكن هذه الجريدة لم تأت على ذكر هذا الموضوع. وللتعويض عن ذلك، كانت تقدم تفاصيل عن عواقب الحرب بين روسيا واليابان، التي شنها القيصر في السنة الماضية في محاولة لصرف الانتباه والتي بدأت تتحول إلى كارثة أخرى بالنسبة لموسكو. كان الروس قد فقدوا بورت-آرثر، رأوا كيف دُمّر أسطولهم في بحر البلطيق قرب جزيرة تسوشيما وكيف تكبد جيشهم فقدان ثمانين ألف من الأرواح في موكدين. وكانت جريدة *The Times* تقول إن أفراد طاقم مدرعة بوتمكين قد تمردوا مؤخراً، على إثر تمردات بحرية أخرى وقعت في سيفاستوبول، فلاديفوستوك وكرونشتات، وإن الفوضى قد عمّت البلاد.

- روسيا تتعرض للنهب - همهم الأرمني مع تنهيدة طويلة - إنها النهاية.

بحزم مفاجئ، نهض من فوق المقعد العمومي في هايد بارك وعبر الشارع باتجاه البيت. يومها لم يحظ بجولته المعتادة. عندما دخل إلى رقم 38 من هايد بارك غاردنز وجد طبيبه الخاص في انتظاره؛ تذكر حينئذ أنه اليوم المحدد للقيام بالفحص العام الأسبوعي.

- ليس لدي وقت اليوم، يا دكتور - قال بنبرة صوت تدل على القلق - ألم تر الأخبار؟ يجب أن أذهب إلى المكتب على وجه السرعة!

وهو يراه على تلك الحالة، رفع الدكتور أجيميان حاجبه، منشغلاً.

- ماذا يجري؟

- باكو تحترق، ألا تعلم ذلك؟

قام الطبيب بحركة استسلام.

- آه، نعم. شيء فظيع! - لاحظ - لقد جن القيصر! هل رأيت أن الرجل قد سلّم أسلحة إلى التّتار؟

دون أن يتوقف، تابع كالوست سيره مباشرة نحو الغرفة وأشار إلى الطبيب أن يرافقه.

- أدري ذلك طبعاً - قال، وهو يشرع في خلع سترته - هم من خربوا باكو.

- تفاصيل ذلك في الجرائد مروعة. إنها تذكر خبر التّتار يحرقون حقول النفط ويطلقون النار بدم بارد على العمال، هذا. . .

توقف صاحب البيت فجأة والتفت نحو الطبيب، ينظر إليه كأنه يصعقه.

- ماذا؟ - قاطعه - أين كُتب هذا؟

هزّ الدكتور أجيميان كتفيه أمام إلحاح كالوست في السؤال وقوة نظراته.

- حسناً. . . في جريدة *The Observer*. ألم تقرأ ذلك؟

- كلا. ماذا تقول جريدة *The Observer*؟

- يبدو أن التّتار أضرموا النار في الآبار وفي رافعات التنقيب وأحدثوا جحيماً حقيقياً في كل شبه الجزيرة. بعد ذلك، حاصروا كل شيء وقتلوا كل الناس الذين حاولوا الهرب من ألسنة النار. البرقية التي تذكرها الجريدة تقول إن باكو تبدو مثل مدينة بومبي وهي تعيش آخر أيامها، تعمها النار، والدخان، وطلقات الرصاص، والانفجارات، وأشخاص يصيحون في كل مكان. يقولون إن الدخان الأسود لكثرة كثافته غطى وجه الشمس تماماً واستحال النهار ليلاً.

ظل كالوست مدة طويلة مسمراً في الممر، يحاول هضم كل تلك الأخبار. هل كانت آبار النفط تحترق؟ أي عواقب يمكن أن تكون لتلك الأخبار على حياته؟ هل يكون زينوفييف قد أفلت من كل ذلك؟ هل بقي ما يمكن بيعه من النفط؟

- يا إلهي!

استدار وتوجه نحو الغرفة، أكثر عزماً من أي وقت مضى. خلع ما كان يرتديه من ملابس وحشر نفسه في بدلة اقتناها من محلّ «سافيل رووْ». دون رغبة في معرفة المزيد، خرج على عجل من البيت وأخذته العربة مباشرة إلى سانت هيلين بليس، حيث كان

مكتبه. كان الوضع يبدو له خطيراً وهو بحاجة ليرسل برقية على وجه السرعة إلى زينوفييف ويطلب منه معلومات.

لكن، عندما عبر الباب ووضع عينيه على روبيرت كوك، لاحظ أن محاميه الإنجليزي الشاب كان يحمل ظرفاً بريدياً في يده. تجاهل عبارة «يوم سعيد» التي وجهها إليه مرؤوسُه، لأن اليوم كان فعلاً سيئاً، وانتزع منه الظرف. فتحه بحركات متلهفة، فمزق حواشيه بتوتر، والقلق ينخره. بسط ورقة البرقية وما جاء فيها من نص؛ وكما لاحظ من خلال معلومات المُرْسِل، فقد أُرسلت البرقية من باكو.

آبار مُدمّرة تجهيزات مخربة
انتهى النفط نقطة
اضطررتُ للهروب نقطة
أغلق التمثيلية نقطة زينوفييف

- حسناً، سيّدي، ماذا يجري؟ - سأله كوك.

بتنهيدة طويلة، وضع كالوست البرقية فوق المكتب ووجه إلى مرؤوسه نظرة تسحقها الخسارة والاستسلام.

- انتهى نفط باكو.

كانت أيام الأربعاء، على الساعة الخامسة زوالاً، موعداً إجبارياً لتنظيم حفلات استقبال في رقم 38 من هايد بارك غاردنز. منذ طفولتها تعودت نونوفار على حفلات الاستقبال الكبيرة، التي كانت إلزامية تقريباً في زخم الحياة الاجتماعية لأسرة بيربيريان بوصفهم أصحاب أكبر البنوك في الإمبراطورية العثمانية. اليوم، وقد

تزوجت، لم يكن في نيتها أن تتخلى عن تلك العادات التي تعتبرها ضرورية لكل من يطمح للاستمرار في تبوؤ مكانة بارزة في المجتمع.

- إنك صاحبة ذوق رفيع، سيّدة ساركيسيان - مدحها أحد المدعوين، شارل روبينشتاين، وكأس شراب روحي في يده - وحفلات الاستقبال التي تنظّمينها أكثر روعة من تلك التي كان ينظمها والدك، الذي حظيتُ بشرف معرفته.

- أوه، هذا لطف منك، يا سيّدي - قالت نونوفار وهي تحْمرُّ خجلاً، بينما كانت تداعب الكلب البيكيني الذي تحمله في حضنها - لكني أخشى ألا تكون هذه الحفلات في مستوى تلك التي كانت تقيمها والدتي!

كان عشرات المدعوين يتقاطرون على الصالة الكبرى في أحاديث خفيفة، يحتسون الشامبانيا ويتذوقون المقبلات، من حلزون مطهي مع كبد الإوز وطيور الأورطولان المحشوة على طريقة توليار. ظلت الطبقة الأرستقراطية العليا بعيداً عن متناول أسرة ساركيسيان، لكن المستضيفة كانت تملأ المنزل بضيوف ينتمون إلى دائرة المال والأعمال الراقية، وخصوصاً المصرفيين اليهود مثل روبينشتاين وآخرين، كلهم أصدقاء مقربون من الملك إدوارد السابع، بالإضافة إلى بعض الفنانين والدبلوماسيين، ناهيك، طبعاً، عمن يلعبون أدواراً أساسية في تجارة النفط التي يمارسها الزوج، مثل فيليب بليك أو هاندريك فان تيغيلن، الذي كان وقتها في رحلة عابرة إلى لندن.

كعادته، جاء صاحب البيت متأخراً. كان كالوست قد اطلع صباح ذلك اليوم على لائحة المدعوين، لكنه تعمّد ألا يظهر إلا عند منتصف الحفل؛ كان يعتبر ذلك أنجح طريقة للتصرف.

- سعادة السفير، كيف حالك؟ - قال الأرمني عندما ولج إلى الصالة الكبرى، وهو يحيي دبلوماسياً فرنسياً. بعد ذلك، التفت يميناً وصافح رجلاً يضع ربطة عنق، أمين متحف ناشيونال جاليري - أوه، عزيزي سير كينيث! أنت هنا؟ متى تأخذني لأشاهد لوحات أخرى؟ شروحاتك الفنية تثير شغفي! - وحين سمع الجواب كانت عينه قد نزلت على فتاة جميلة يتحلق حولها مجموعة من المعجبين - إيلالين! يا لها من مفاجأة! آه، كم أعجبني عرضك الموسيقي في ويست إند. . . كيف اسمه؟ *The Beauty of Bath*، أليس كذلك؟ كنتِ رائعة، يا عزيزتي! لكن أكثر ما أعجبني أن أرى اسمك مكتوباً بحروف بارزة على ملصق مسرح هيكس: إيلالين تيريس. آه، مستوى راقٍ جداً!

لا يمكن القول إن كالوست كان في بيئته. رغم أنه يجتهد ليكون اجتماعياً، فإن حفلات الاستقبال كانت تتناقض مع طبيعته المعادية للناس، مما يصيبه بتعب كبير. لكن، ماذا عساه يفعل؟ كانت أيام الأربعاء في بيته دائماً فرصاً كبيرة للحصول على اتصالات ذات نفوذ وتأثير، أمرٌ صار مهماً للغاية منذ أن انتهت شراكته مع زينوفييف. فنهاية جزء كبير من المنتجين المستقلين في باكو، الذين كان كالوست يمثلهم في أوروبا، شكلت ضربة لأرباح الأرمني. بيد أنها كانت مجرد ضربة، وليست رصاصة الرحمة. في الحقيقة، كان نفط روسيا بدأ يلعب دوراً ثانوياً في السوق الدولية، نظراً للأسعار المرتفعة الناتجة عن عدم الفعالية المزمنة في الاستغلال وعن الرسوم الجمركية الجديدة التي فرضها القيصر على نقل المنتوج، ومنذ مدة والأرمني يستكشف حلولاً أخرى.

- وأخيراً، أراك، يا صديقي! - صاح صوتٌ بلغة إنجليزية

متكلفة - أستطيع أن أقول إن المُستضيف هو أحسن شخص يجيد الهروب من هذا الحفل! يا لسخرية القدر!

لم يجد صعوبة في التعرف على من نادى عليه.

- فيليب! - صاح وهو يلتفت نحو الرجل الذي توجه إليه - ماذا إذاً؟ هل نتسلى؟

قوّس فيليب بليك حاجبَيه الأشقرين.

- إنني أشتغل لصالحك، أيها الوحش! - صاح - ما هذا، يا ساركيسيان! كنتُ قبل قليل أتحدث مع سفير رومانيا، وعلمت أشياء يمكن أن تثير اهتمامك - ثم أشار إليه بسبابته - والآن، تعال هنا!

كان الإنجليزي قد فك ارتباطه بعائلة روتشيلد وأعمالها ليستأنف مساره السياسي، فأصبح مؤخراً عضواً في البرلمان. مع ذلك، وكعادته، كان حريصاً على الحفاظ على مصادر معلوماته المالية، وما يحصل عليه من عمولات من الصفقات كتلك التي يقترحها على كالوست. لذلك، عندما سحبَ المُستضيفَ بالقرب من الوزير الروماني المفوض، لم يكن يقوم سوى بفتح فرصة صفقة جديدة له ولمَحْميّه الأرمني.

- لقد حدثوني كثيراً عنك، يا سيّدي - قال السفير الروماني عندما قدمه الإنجليزي إلى كالوست - لدرجة أنني طلبت من صديقنا المشترك، السيّد بليك، أن يحصل لي على دعوة لحضور هذا الحفل.

- بجدّ؟ - قال صاحب البيت مهتماً، وهو يحدس مستجدات - ماذا يحدث، إذاً؟

أطلق السفير قهقهة صاخبة.

- ما يحدث هو النفط! - صاح بمرح - ألن تكون مهتماً بحقولنا في والاكيا؟

- من حيث الاهتمام، أنا مهتم... لكني سمعت أن آل روتشيلد هم من كانوا يحتكرون تلك الآبار...

- بصيغة الماضي، تماماً كما قُلتَ! كانوا يحتكرون! لكن، للأسف! الاحتكارات ليست أمراً صحياً وحكومتي تريد أن تفتح والاكيا أمام مجموعات أخرى. إننا بصدد التفكير في إنشاء شركة أخرى لاستغلال نفطنا. سوف نسيمها أسترا-رومانا. المشكلة أنه يعوزنا رأس المال والخبرة - ثم أشار إلى مُحاوره - ومن هنا تدخل أنت على الخط، يا سيّدي. إن شئت، طبعاً - ثم انحنى نحوه - هل أنت مهتم؟

بشكل تلقائي تقريباً، زاغ نظر كالوست عن الدبلوماسي ومشّط الصالة الكبرى حتى توقف عند وجه هاندريك فان تيغلين، الذي كان يتحدث بحماس قرب الممر مع رئيس مكتب وزارة الخارجية.

- سأوافيك بجوابي في غضون هذا الأسبوع - قال وهو يودّع السفير بمصافحته - تشرفت بمعرفتك.

اختصر الأرمني الطريق وسط الضيوف، يوزع التحيات وعبارات المجاملة، ابتسامة هنا وكلمة هنالك، بل ويضطر أحياناً ليتوقف من أجل حديث قصير. وكانت المسافة بين طرفي الصالة الكبرى كبيرة إلى هذا الحد، لكنها في تلك المناسبة كانت تصير شاسعة. وأخيراً، بعد أن تعثر في حوارات قصيرة متتالية، استطاع أن يقترب من الرئيس التنفيذي لشركة رويال داتش شل وينتزعه من حوار كان يخوض فيه منذ دقائق طويلة مع بيروقراطي رتيب من وايتهال.

- لم أر قط حفلات استقبال يكون المستضيف هو آخر من يصل إليها - قال هاندريك مازحاً - كيف هي أحوالك بعد زينوفييف؟

- أحسن حالاً - ردّ كالوست - المشكلة ليست هي زينوفييف، بل روسيا. لا تنس أن آل روتشيلد وآل نوبل بدورهم يعرفون بعض الصعوبات في باكو. أتعرف ما أقول لك؟ من الأحسن لنا ألّا نعول على نفط القوقاز.

علت وجه الهولندي تكشيرةُ انزعاج.

- إن خسرنا الروس، يا عزيزي، نحن بحاجة لشيء ما يعوضهم. لن نصمد فقط بفضل آبار سومطرة وبورنيو. هل وضعت عينك على شيء آخر؟

أومأ الأرمني مؤكداً برأسه.

- رومانيا.

ارتسمت تكشيرةُ عدم تصديق على محيا هاندريك.

- هل تمزح معي؟ - ضحك - منذ زمن دراكولا الشيء الوحيد الذي يتقن الرومانيون استخراجه هو الدم!

احتفظ كالوست بوجه مستغلق، ليبرهن أنه لم يكن مازحاً.

- رومانيا، يا هاندريك، مصدر لا ينبغي الاستهانة به - قال مشدداً - هناك نفط كثير في سهول والاكيا وما أقترحه هو أن نلتهمها. إن خسرنا القوقاز، علينا أن نلجأ إلى منطقة كارباتيا. ليس لدينا من بديل آخر.

لكن رومانيا حسب علمي، تعتبر حديقة خلفية لآل روتشيلد - لاحظ الهولندي - فكيف تخطط للدخول هناك؟

خفض الهولندي صوته.

- أقترح أن ننخرط في إنشاء شركة رومانية - قال - لديّ علم بمخططات تسير في هذا الاتجاه. لكن عملية استخراج النفط مكلفة جداً والرومانيون لا يتوفرون على ما يكفي من الأموال. من هنا يمكن أن ندخل. إن كانت شركة رويال داتش شل مستعدة لتنخرط في هذا المشروع، أستطيع أن أحصل على ما يلزم من التمويل، كن مطمئناً.

- أين؟

أشار المُستضيفُ إلى شخص شارل روبنشتاين، الذي كان ما يزال يتحدث مع نونوفار وسط الصالة الكبرى.

- لا تنس أن لي عدة علاقات في مجال البنوك - ذكّره، ثم لزم صمتاً وظل يتفحص وجه مخاطبه - ما رأيك؟ هل نقتحم هذا المشروع؟

شبك هاندريك ذراعيه.

- كارباتيا، هيه؟ هل تظن أن لدينا مكاناً هناك؟

- مصادري تقول إن ذلك ممكن.

بعد لحظة تفكير، كشف الرجل القوي في شركة رويال داتش شل عن ابتسامة جذابة ووافق بحركة من رأسه.

- حسناً، لنقم بذلك.

أصبح السّفَرُ الروتيني إلى باريس يهدد بأن يصير مغامرة كلما رغبت نونوفار في مرافقة كالوست. وفي الآونة الأخيرة، أصبحت الزوجة تلح على أن تذهب معه خلال زياراته الشهرية إلى فرنسا.

كان الأرمني يتنقل إلى باريس بحجة متابعة أعماله، لكنه، في الحقيقة، كان يقوم بذلك أيضاً بنية اقتسام الفراش وملذات أخرى علاجية مع «الحسناء» التي تشغل الجناح المخصص له في فندق ريتز. أما نونوفار، فكانت تريد أن تتبضّع، تذهب إلى المسرح وتتجول في غابة بولونيا. قد تكون لندن مدينة إمبراطورية، لكنها كانت تبدو لها مغرقة في طابعها الريفي وبسيطة جداً، بعيدة كل البعد عن باريس الراقية والفنية.

كلما خرجت الزوجة وابنها في تلك الأسفار، كانت تتشكل في هايد بارك غاردنز حاشية حقيقية من الخدم، والحمّالين الذين يأخذون مختلف الحقائب، وطبّاخَين وفرّاش. كأنهم يخرجون في رحلة سفاري. كانت المجموعة تملأ ثلاث مقصورات في عربات القطار وتضمن مشهداً من الصياح والتوتر في المحطات والموانئ حيث كانوا يركبون أو ينزلون.

- آه، أنا بحاجة إلى أملاح! - كانت نونوفار تقول محتجة وهي تحرك مروحتها بشكل محموم - هذه الرحلات تهلكني! أوه، يا للفظاعة! شيء مرهق. . .

ما إن يصلوا إلى باريس حتى تذهب مادام دوبري لتستقبلهم في محطة القطار وتضع رهن إشارتهم عربتين واسعتين تقودهم إلى تلك الشقة الجميلة التي اقتناها الرئيس مؤخراً في الطابق الرابع من رقم 27 في كي دورسيه. تنزل نونوفار، رفقة كريكور والحاشية في تلك الشقة الفسيحة، بينما يتجه كالوست فوراً إلى جناحه الباذخ في فندق ريتز.

- لا تظن أنني بلهاء - قالت له الزوجة ذات مرة، بصوت بارد - أعرف جيداً ما يجري في ذلك الفندق!

احْمرّ وجه الزوج من الحرج.

- أؤكد لك أن... أن... على أي، أنها نصائح قدمها لي الطبيب - قال بتشديد مفاجئ، وهو يتغلب بصعوبة على التردد في أن يفاتح زوجته في موضوع في غاية الحساسية - حسب علمي، أنت لا تحتاجين لأي شيء، أليس كذلك؟

حدجتْهُ بنظرة غاضبة.

- فقط أريد أن تعرف أنني لست بلهاء.

كانت نونوفار تمضي معظم أوقاتها في باريس في اقتناء الملابس من «الأخوات كالو»، محلّ الموضة الكبير حيث يتركز أحسن الخياطين في فرنسا، فبدأ كالوست يشك أنه هناك علمت بوجود الفتيات المقيمات في فندق ريتز. ألم تكن مادام دوبري تقتني ملابس الفتيات الأنيقة من شارع تيتبو؟ ألم يكن المحلّ، رغم ذوقه الرفيع، وكراً لك الشائعات؟

كانا قد ولجا رواق أبّولو، في قلب متحف اللوفر، عندما توقف كالوست فجأة قرب تمثال إغريقي والتفت نحو كاتبته الخاصة.

- إن الفتاة التي تقيم الآن في جناحي قد تجاوزت سن الثامنة عشر - لاحظ كما لو أن الموضوع خطر عليه للتو - لقد انتهى أجل صلاحيتها. عندما أعود إلى لندن، اعملي، من فضلك، على التخلص منها.

حركت مادام دوبري عينيها محبطة.

- آه، لا! - صاحت، وهي تطلق تنهيدة - إنهن تُحدثن مشاكل لا توصف كلما طلبت منهن أن تغادرن الجناح. في المرة الأخيرة، اضطررت لأنادي على المستخدمين كي يخرجوا واحدة منهن إلى

الشارع. كان شيئاً مزعجاً للغاية، لا تستطيع أن تتصور ذلك! أتعرف ما يقع؟ تتعوّدُ الفتيات على حياة البذخ ويعتبرن ذلك حقاً مكتسباً! آه، شيء مزعج!

- لكن. . . - قال كالوست مندهشاً - ألا أدفع لهن تعويضاً عن التسريح؟

- هذا يلطّف الأمر، لا أقول العكس. عندما يريْن المال في أيديهن، بعضهن يتقبلن القرار برقة - تنهدت - لكن، في المرة الأخيرة. . . أوه كان ذلك عقاباً حقيقياً! أتمنى أن يكون الأمر أحسن هذه المرة. . .

- إن رفضت، أخبريها أنك لن تقدمي لها التعويض. هذا سيجعلها أكثر تعقلاً.

وافقت الكاتبة الخاصة.

- أنت على حق - قالت - وكم أدفع لها؟ المبلغ المعتاد؟

- نعم، عشرة آلاف فرنك. إنه مبلغ مهم، أليس كذلك؟

علت ابتسامة وجه مادام دوبري.

- أليس هذا مبلغاً مهماً؟ بهذا المال يمكن للفتاة أن تعيش حياة غنية! - قالت وهي تعض شفتها السفلى - وماذا عن تعويضها؟ هل وضعت عينَك على فتاة أخرى؟

وهو يستأنف المشي، وعيناه تجولان عبر تفاصيل الرسومات التي تزين السقف المقوس لرواق أبّولو، وضع كالوست يده في الجيب الداخلي لمعطفه وأخرج ورقة صغيرة زرقاء، من تلك الأوراق التي يحملها معه دائماً لتسجيل ما يخطر عليه من أفكار، ثم سلّمها لكاتبته.

- ذهبت هذا الصباح لتناول الفطور في مطعم بروكوب ولاحظتُ مستخدمة شابة تشتغل هناك - قال وهو يُحوّل انتباهه نحو الكاتبة - سألتُ عنها مدير المطعم، فأخبرني أنها تتحدر من منطقة نورماندي. لون بشرتها أبيض كالحليب، لم أرَ مثلها! تحدّثي معها وحضّريها كالعادة... زهور، مجوهرات من كارتييه وتلك الأمور الأخرى - ثم قام بحركة مفاجئة - لكن، لا تأخذيها إلى محل «الأخوات كالو»، هل سمعت؟ زوجتي تتردد على ذلك المحل وأظن أن هناك بداخله من أفشى لها أسراري وحدّثها عن... آه... علاجي. لا يليق أن تصادف نونوفار الفتاة هناك. لا أريد فضائح هنا!

قرأت محاورته العنوان الذي خربشهُ على الورقة الصغيرة الزرقاء لكنها وجدت صعوبة في فهم الكلمات الأولى.

- ما هذا؟

ألقى عليها كالوست نظرة خاطفة وابتسم، شارداً.

- إنه اسم الفتاة - قال وبريق يلمع في عينيه - اسمها أوجيني.

مكتبة
t.me/t_pdf

9

اجتازت العربة بوابة «أورلي فارم» فأطلّ كريكور من النافذة على البناية بألوان الطوب التي تشرف على المنزل الفخم المبني وفق أسلوب تودور المعماري. كان ثمة شيء ما مهيب في تلك الواجهة العظيمة والكئيبة. كانت مساحة عشب خضراء واسعة تحيط بالبناية وفيها يُرى شبان يرتدون ملابس بيضاء أنيقة يتدربون على ضربات الكريكيت فوق العشب المبلل.

- هل تعجبك المدرسة الجديدة؟ - سألته أمه عندما ترجّلا وتأملا الفضاء من حولهما - إنها جميلة، أليس كذلك؟ هنا تجري رواية ذلك الكاتب ترولوب. . .

لم تفارق عينا كريكور المفزوعتان واجهة مدرسة أورلي فارم.

- نعم، أمي.

هذا الجواب القصير كان يخفي دوامة من الأحاسيس التي تدور في صدره. وهي تحضره لولوج التعليم الثانوي، كانت ميس بروكواي تلح على فكرة أن تلك الخطوة كانت مهمة للغاية في حياته. «لا يلج التعليم الثانوي إلا من أصبح رجلاً صغيراً»، قالت له المربية، وهي تنصحه مرات متكررة بأن يواجه كل الصعوبات بوجهٍ

صارمٍ مهما كانت طبيعتها. وهو ما يعني أنه قد انتهى تباكي الطفل الصغير. بصفته رجلاً، أكمل اليوم عشر سنوات وسيذهب إلى المدرسة الثانوية، كان من واجبه أن يواجه الصعوبات دون تردد ولا تأثر زائد. وليس ذلك لأن كريكور كان يشعر أنه رجل بالفعل، بل إنه لم يكن يرى أدنى فرق مع الطفل الذي كانَهُ إلى حدود الليلة السابقة. كان الأمر يتعلق بإخفاء ما يشعر به من حزن، إذْ لأول مرة سيذهب ليعيش خارج البيت، وفق نظام داخلي وفي مكان لم يسبق له أن كان فيه قط.

بعد فترة انتظار قصيرة في الممر، استقبلتهما القيّمة على المدرسة، امرأة أربعينية نحيفة ومتوترة، لها شعر رمادي تسحبُه إلى الخلف مشدوداً على شكل كعكة. استقبلتهما القيّمة بعبارات روتينية وسرعان ما لمّحت لهما أن لديها انشغالات أخرى، ولهذا عليهما أن يسرعا في التوديع.

- هيا، قل وداعاً لأمك - حثته بحركة قلقة - ينتظرنا الكثير مما ينبغي أن نقوم به ولدينا قليل من الوقت.

كأن أحداً يدفعه دفعاً، التفت كريكور نحو أمه، وتذكر تعاليم ميس بروكواي، فرسم ابتسامة خفيفة، تكاد تكون غير مبالية، ثم مدّ يده إليها. اندهشت نونوفار قليلاً وهي ترى الابن يودعها بتلك الطريقة، من دون قبلة ولا عناق، بالكاد يمد لها يده في حركة رسمية كأنه غريب، لكنها قبلت الوضع وصافحته قبل أن تستدير وتغادر البناية.

آه، كم كان كريكور رجولياً! هل ودع أمه بمصافحة يدها؟ يا له من شجاع! أي دليل آخر يحتاجه ليثبت أنه قد أصبح من الكبار؟ لو أن ميس بروكواي رأته، ستكون فخورة به بكل تأكيد! وهو يشعر أنه

قد أصبح رجلاً كاملاً، وقف التلميذ الجديد في مدرسة أورلي فارم بطريقة متصلبة ورافق القيّمة إلى الطابق الأول، حيث قادته إلى الغرفة التي سينام فيها من الآن فصاعداً. كان الأمر يتعلق بحُجرة صغيرة، بها سرير، طاولة للكتابة، مغسلة ودولاب. فضاء ضيق جداً مقارنة بما اعتاد عليه في هايد بارك غاردنز. لكن، أي أهمية لهذا إن كان قد أصبح رجلاً صغيراً؟

وضع الحقيبة فوق السرير، دائماً بوجهٍ صارمٍ كما نصحته ميس بروكواي، اقترب من النافذة وأطل على الخارج بنظرة متعجرفة. آه، كم كان رجولياً! لمحَ أُمَّهُ هناك في الأسفل، تصعد العربة التي أقلعت ثم اختفت وراء البوابة. لحظتها فقط عاد إلى الواقع. ما كان يقع، كما أدرك حينئذ، لم يكن أحلام مراهق، بل واقعاً صعباً وقاسياً. لقد رحلت أمه وتركته. فجأة، غمره إحساس عميق بالوحدة وحين التفت نحو القيّمة انتبه إلى أن دموعاً كانت تنهمر على وجهه.

مضت الأيام الأولى في مدرسة أورلي فارم صعبة، خصوصاً أنه لم يكن معتاداً على العيش بعيداً عن فضاء الأسرة. لم تكن هناك من صرامة تنفعه في تلك الفترة. كان أبواه يأتيان لزيارته في نهاية الأسبوع، وهو ما شكل في البداية نقطة حاسمة في حياته، لكن، شيئاً فشيئاً، بدأ يتأقلم مع الأجواء الجديدة ثم اندمج في حياة تلميذ داخلي.

لم يكن من السهل كسب أصدقاء. بملامحه الأرمنية التي تميزه عن باقي التلاميذ، ذوي الملامح الشقراء، كان كريكور يبدو غريباً لزملائه. وفوق هذا كان يحمل اسماً غريباً ولا يشارك في الألعاب

المدرسية، وهو الحظر الذي فرضه عليه والده وكان يشمل لعبة الكريكيت مما يعيق اقترابه من الآخرين. لكنه تجاوز هذا الأمر أيضاً، في نهاية المطاف. بعد شيء من الوقت تقبلوه مثل شيء غريب وحميد بل وربط علاقة صداقة مع روجر، شاب إيرلندي يغطي وجهه النمش ولونه أصهب جداً لدرجة أنّ شعره كان يكتسي ألواناً برتقالية. أصبحا لا يفترقان داخل المدرسة. كان روجر يساعده في مادة اللغة اللاتينية، نقطة ضعفه، وهو يعوض له ذلك بمعارفه في اللغة الفرنسية، المادة التي ظهر أنه كان أقوى تلميذ فيها على صعيد المؤسسة بكاملها، هدية من الفترة التي كان يتلقى فيها تربية على يد الآنسة كليمانس، مربيته في فترة الطفولة.

لكن هذا التعايش بين الصديقين لم يكن دائماً على أحس حال. ذات صباح، طلب روجر من صديقه ليساعده على تحرير إنشاء باللغة الفرنسية في موضوع Promenade sur les Champs-Élysées. كان النص الأصلي الذي كتبه الصديق الإيرلندي ملوثاً بالأخطاء النحوية والإملائية حتى أن كريكور قرر أنه يستحيل إنقاذُ الإنشاء فوجد نفسه مضطراً لكتابته من الصّفر. سُلّم التمرين وكان كل شيء يبدو على ما يرام.

ويوم الاثنين الموالي، عند بداية الدرس، نادى الأستاذ براون على روجر إلى السبورة، وأمام كل التلاميذ، بدأ يسأله عن بعض الأمور الواردة في الإنشاء الذي قدّمه.

- في البداية، أثارت اهتمامي الجملة الثانية من إنشائك الرائع - لاحظ المدرس بنبرة غامضة. خفض عينيه نحو الورقة التي قدّمها التلميذ وعدّل نظارته فوق أرنبة أنفه - والآن، انظر إلى هذه اللؤلؤة التي صغتها هنا - ثم ضبط صوته وتحدث بأحسن لكنة فرنسية

يعرفها - Le tout dans un écrin d’écorce de pin recouvrant les pavés de la plus belle avenue du monde - نظر إلى التلميذ - جميل جداً، أليس كذلك؟

رسم روجر ابتسامة متكلفة.

- أوه. . . شكراً.

قام الأستاذ براون بحركات من شفتيه وهو يعيد في صمت قراءة الجملة التي تلاها جهراً للتو، كأنه يفكر في الموضوع. بعد ذلك، نهض من الكرسي، وسلّم الورقة للشاب.

- والآن، اشرح لنا ماذا يعني كل هذا؟

انذهل روجر أمام هذا الطلب. بل إنه ألقى نظرة متملصة نحو الخلف، كأنه يبحث عن إنقاذ، لكنه أدرك أنه في تلك الظروف كان مستسلماً لذاته. ابتلع ريقه وفحص الجملة التي خربشها على الورقة.

- هذا يعني. . . هذا يعني. . . أن، الشانزليزيه هي أجمل جادة في العالم.

- حسن جداً، حسن جداً - اعترف الأستاذ بنبرة موافقة خادعة - وماذا عن البداية؟ هل رأيت هذا التعبير؟ «Le tout dans un écrin d’écorce de pin»، ماذا يعني هذا بالضبط؟

من صُدغَي التلميذ نبعت قطرات عرق نزلت متعرّجة عبر وجهه كأنها تحاول أن تتجنب نقط النّمش. بعد أن نظفها بظهر يده، مرر روجر أصابعه عبر شعره وحدق في السطر المعني، كما لو أن حدّة النظرات كانت لوحدها كافية لفك شفرات معاني تلك الجملة الغامضة.

- إنه. . . إنه كل ما يوجد. . . في شجرة صنوبر في اسكتلندا.

سكت ونظر إلى الأستاذ بوجل، وهو يأمل بقوة أن يكون قد

قدّم جواباً مقبولاً ويتلهف ليعود إلى مكانه. بيد أن المُدرّس لم يبد مقتنعاً. طرق بأصابعه على خشب الطاولة، كأنه يفكر في الخطوة الموالية، وعيناه منغرستان في التلميذ. كان صمتٌ ثقيل يملأ القاعة وبالكاد يُسمع ذلك النغم المتوتر للأظافر وهي تنقر الخشب. بعد وقت بدا طويلاً لا ينتهي، تنفس الأستاذ بعمق وجال بعينيه عبر القاعة حتى توقف عند كريكور.

- ساركيسيان؟

خفق قلب الأرمني وقفز من صدره عندما سمع النُّطق باسمه فلاحظ الشاب أن عينَي الأستاذ قد وقعتا عليه.

- نعم، أستاذ؟

- سيّد ساركيسيان أنت صديق للسيّد روجر ديمبلي، هل هذا صحيح؟

- نعم، أستاذ.

- وربما أنت أحسن تلميذ في مادة اللغة الفرنسية في هذه المدرسة - ثم أشار بحركة إلى الورقة التي كانت بين يدي زميله - أتصور أنك تعرف ما تعنيه تلك الجملة.

- نعم، أستاذ.

نهض الأستاذ براون مرة أخرى من مكانه ومشى غير مبالٍ حتى اقترب من الأرمني. وقف متصلباً أمامه ثم انحنى إلى الأمام حتى بقيت عيناه الزرقاوان على بعد شبر واحد بالكاد من عيني كريكور البُنّيتَين.

- أنت من كتبت تلك القطعة النثرية، ألم يكن كذلك عزيزي ساركيسيان؟

شعر بالعينين القاسيتين تُعرّيانه وتتفحّصان الذنب الذي يلطخ روحه، فطأطأ كريكور رأسه وشعر بجفنيه يتبللان من التأثر.

- نعم، أنا من كتبتُها.

تحدث بصوت خافت، يكاد لا يُسمع، لكنه كان كافياً ليشكل اعترافاً بما حدث. أمر الأستاذ براون روجر أن يجلس واستُؤنف الدرسُ، لكن في النهاية أمسك المُدرّس التلميذين وأخذهما عند مدير المدرسة، السيّد كار المُوقّر جداً، وشرح له ما وقع. اطّلع المدير كما ينبغي على الموضوع، همس بعض التعليمات للأستاذ الذي خرج على الفور. بعد ذلك، أمر كريكور أن ينتظر خارج المكتب وبقي وجهاً لوجه مع روجر.

جلس الشاب الأرمني على كرسي عند الباب، وظلّ هناك ينتظر التعليمات وهو يفرك يديه بهوس. بعد لحظات، رأى الأستاذ براون يعود إلى مكتب المدير يحمل عصاً ضخمة في يده فأدرك أن صديقه سوف يمر بوقت عصيب. بعد ذلك، خرج المدرِّس من المكتب وانتبه كريكور إلى أنه لم يعد يحمل عصاً في يده.

فجأة، مُكسّراً ذلك الصمت المتوتر، سُمع صوتٌ قادم من المكتب المغلوق. كانت ضربات عصاً وأنين مكتوم صادر عن روجر الذي بدأ ينال عقابه. ثم توالت ضربات العصا، الواحدة بعد الأخرى. كانت في المجموع ست ضربات، تلتها صيحات أنين أكثر فأكثر قوة، حتى أن الصيحتين الأخيرتين كانتا صرختَين. بعد دقيقتين، فُتح الباب فظهر روجر يخرج من المكتب وهو يعرج، بوجه أحمر وعينين منتفختين من الدموع التي لم يقدر على إيقافها، يفركُ بيده مؤخرته التي تؤلمه.

أطلّ المدير من الباب.

- والآن، السيّد ساركيسيان.

بقلب منقبض وعقدة في المعدة استجاب كريكور لأمر المسؤول عن المدرسة وعاد ليدخل إلى المكتب مطأطأ الرأس. كان يعرف أن في انتظاره حصة عقاب مثل تلك التي نالها صديقه. رأى العصا فوق الطاولة فسرت قشعريرة في كل جسده. كان مصيره واضحاً. تذكر نظرة روجر وتكشيرة الألم على محياه وكيف كان يعرج عندما رآه يغادر المكتب فتمنى أن يمر كل شيء على أسرع وجه. فهل يكون قادراً على أن يحتفظ بثباته؟ شكّ في أن ميس بروكواي قد تصاب بخيبة لو كانت هناك ترقب ردة فعله أمام العقاب الوشيك.

أمسك المدير العصا ووضع التلميذُ يده على حزامه، وراح يفكه لينزل السروال ويكشف عن مؤخرته للعقاب. بيد أن المسؤول عن المدرسة، رغم وجهه المتجهم، فاجأه حين جلس في كرسيه خلف طاولة المكتب.

- إن الجريمة التي اقترفتُمانها معاً، سيّد ساركيسيان، جريمة فكرية شنعاء - بدأ المدير قائلاً - ممارسة النقل والغش. بل أسوأ من هذا، خيانة تامة للأمانة. يتعلق الأمر بتصرف فاسد، غير مقبول ولا يليق برجل محترم. لا مكان لأشياء من هذا المستوى في مؤسستنا. إن رجلاً محترماً ينبغي أن يتصرف دائماً بشكل مستقيم، يحترم قواعد التنافس الشريف ويحافظ على الأمانة مهما كانت الظروف - ثم ضبط نبرة صوته - طبعاً، كان تصرف السيّد ديمبلي هو الأكثر خطورة. في نهاية المطاف، هو من استفاد من هذا التدليس. لذلك نال عقاباً عادلاً وقاسياً. أما أنت، سيّد ساركيسيان، أتمنى أن تستخلص درساً من كل ما حدث. درس في كيفية التصرف داخل هذه المدرسة، بل أستطيع القول إنه درس في كيف يمكنك أن

تتصرف خلال حياتك بكاملها. ابتعد عن طريق الغش وخيانة الأمانة. كن رجلاً محترماً يليق بمؤسسة كبيرة كهذه - ثم أشار إلى باب المكتب - سأغض الطرف هذه المرة، على أمل أن تكون قد تعلمت شيئاً مما وقع. لكن، في المرة القادمة، لن تخرج من باب هذا المكتب، بل من باب المدرسة.

مرعوباً ومرتاحاً، قدم كريكور اعتذاراته، واعداً ألَّا يتصرف أبداً بتلك الطريقة. وبعد أن لم يبق له ما يضيف، نهض ليخرج. عندما بلغ الباب، نادى عليه المدير مرة أخرى.

- لا تظن أنك تفلت هكذا بسهولة، يا ساركيسيان - قال الإنجليزي العجوز - أتمنى أن أجد هنا فوق طاولة مكتبي أوراقاً يجب أن تكتب عليها عدة مرات المقطع الافتتاحي من **الإنياذة**.

- عفواً، سيّدي؟

تنحنح السيّد كار الوقور وبدأ يستظهر الأبيات الأولى من ملحمة فرجيل باللغة اللاتينية:

Arma virumque cano, Troiae qui primus ab oris
Italiam, fato profugus, Laviniaque venit
litora, multum ille et terris iactatus et alto
vi superum saevae memorem Iunonis ob iram;
multa quoque et bello passus, dum conderet urbem,
inferretque deos Latio, genus unde Latinum,
Albanique patres, atque altae moenia Romae.

- هل تريد أن أكتب هذا المقطع على ورقة، يا سيّدي؟

خفض المدير عينيه، أخذ قلماً وبدأ يخربش في بعض الوثائق،

منهمكاً فيما كان يقوم به. يبدو أن ذهن المسؤول عن المدرسة قد ظلّ شارداً في أفق قصيّ، لكن ذلك كان مجرد وهم، لأنه، بعد بضع ثوانٍ، كسَرَ الصمتَ المفاجئ الذي غرق فيه من قبل.

- اكْتُبهُ ألف مرة - أمره دون أن يرفع رأسه - طاب يومك، ساركيسيان.

10

كانت فرقة من عازفي الآلات الوترية تؤدي قطعة موسيقية في ركن الصالة الكبرى، وتلفُّ المطعمَ في أجواء راقية من الفخامة والذوق الرفيع. كان ثمة تأنق هادئ يحوم في الأجواء؛ فضاءٌ تؤطره الأعمدة، أرضيةٌ رخامية، سجاداتٌ طويلة، تماثيل ومرايا تزين الجدران وتؤثث الأركان، ممرات بأقواس تزينها الستائر، شماعدُ بلّورية، ونوافذ سقف بأسلوب «الفن الجديد» فوق خشبة المطعم.

- آه، يا لها من أناقة. . . !

جالساً إلى المائدة، تذوّقَ كالوست بمتعة تلك اللحظة العذبة الساحرة. كان ريتز قد فتح أبوابه قبل سنتين هناك في بيكاديلي ولم يجد الأرمني بداً من أن يشعر بأن الفندق كان نوعاً ما في ملكه. إن كان ماله هو ما جعل المشروع قائماً، ألا يمكنه أن يطالب بجزء من الأبوة؟ كان فندق ريتز في لندن من إبداعه، على شاكلة ما حدث في باريس، فكانت أحسن غرفة في الفندق، الجناح رقم 420، محجوزة دائماً له في الطابق الرابع، وهناك كان يقضي عدة ليالٍ.

مع ولوج هاندريك فان تيغلين إلى المطعم بقوة ثور في عزّ الهجوم تلاشى انسجامُ تلك اللحظة. كان الهولندي هو عكس

الأرمني. فالأول مندفع، والثاني محتشم؛ الأول مبتسم، والثاني صارم. بيد أن التناقض بينهما كان يشتغل على أحسن وجه. يستعرض هاندريك نفسه فيتوارى كالوست، الأول له جسد يلفت الأنظار والآخر له روح لا تراها الأبصار. لكن التعابير المشحونة لرئيس شركة رويال داتش شل يومئذ بدت لكالوست شيئاً يمكن الاستغناء عنه تماماً. لماذا ينبغي إفساد جو راقٍ بوجه عابس كهذا؟

- أخبرني، هل قرأت **الكتاب المقدس**؟

هذا السؤال الذي طرحه هاندريك، هكذا بشكل مفاجئ لحظة جلوسه، أصاب الأرمني بالدهشة.

- **الكتاب المقدس**؟ بأي غرض جئت تحدثني الآن عن **الكتاب المقدس**؟ - سأله وهو منزعج شيئاً ما - ما ينبغي أن نتحدث عنه هي الاستثمارات في الولايات المتحدة الأمريكية! فشركتنا لا تستطيع أن تقاوم فقط بفضل ما تنتجه من نفط في سومطرة وبورنيو. وقريباً، سنتوفر على نفط رومانيا، لكن هذا لا يكفي. يجب أن نقتحم بقوة السوق الأمريكية. ولهذا الغرض أقمتُ بعض العلاقات التي. . .

- ألم يسبق لك أن قرأت **المزامير**؟ - قاطعه الوافد الجديد، وهو يتحدث كأنه لم يسمع كلمة واحدة وكأن لا شيء كان ذا أهمية - ألم تهتم قط بهذا الأمر؟

كشّر كالوست وجهه مندهشاً.

- **المزامير**؟ أي كلام هذا؟ - ثم حدق في الوجه المنزعج للهولندي فأدرك أن ثمة شيئاً غير عادي في ملامحه.

- هل تشعر أنك في حالة جيدة؟ هل ثمة شيء ما؟

بحركة آلية، وضع رئيس شركة رويال داتش شل كتاباً ضخماً فوق الطاولة به صليبٌ يزيّنُ غلافَه. **الكتاب المقدس**.

- والآن، اقرأ هنا المزمور رقم 104، الآية 15، السطر الثاني.

ولما أدرك أن هاندريك كان يريد أن يثبت له شيئاً ما، أخذ الأرمني المجلد وتصفحه حتى وجد ذلك المقطع المذكور في **العهد القديم**.

- «وَخَمْرٍ تُفَرِّحُ قَلْبَ الإِنْسَانِ، لإِلْمَاعِ وَجْهِهِ أَكْثَرَ مِنَ الزَّيْتِ، وَخُبْزٍ يُسْنِدُ قَلْبَ الإِنْسَانِ» - قرأ بصوت مرتفع. ثم رفع رأسه - ما هذا؟

ظلّت عينا الهولندي الزرقاوان الواسعتان منغرستين في الأرمني.

- ما هو الزيت؟

- إنها زيت الزيتون. لماذا؟

وضع هاندريك إصبعه على الآية التي أشار إليها.

- هذه هي الرسالة التي توصل بها قبل أسابيع شخصٌ يدعى دارسي من طرف رجاله في بلاد فارس - كشف - أتذكر أنك حدثتني قبل سنوات في باريس عن جنرال عرض عليك ترخيصاً فارسياً بقيمة خمسة عشر ألف ليرة؟

- أذكر ذلك جيداً! - ردّ كالوست - وأنت وجدت أن الرهان ينطوي على مجازفة كبيرة وقلت إنك لست مهتماً - ثم عبس وجهه - لماذا؟ هل حدث شيء ما؟

- بعد أن تحدّثَ معك، يبدو أن هذا الجنرال التقى بالمدعو دارسي هذا وباع له الترخيص. أنشأ دارسي شركة نفطية صغيرة اسمها شركة النفط الإنجليزية-الفارسية وقضى كل هذه السنوات يحاول أن يجد نفطاً في بلاد فارس، على نفقة ممولين من اسكتلندا. يبدو أن الأمور كانت تسير بطريقة سيئة جداً إلى أن توصل دارسي،

فجأة، برسالة من أحد رجاله في الميدان يأمره بقراءة آية المزمور التي تذكر الزيت.

قطّب محاوُره حاجبيه، وقد بدا مذعوراً بشكل مفاجئ.

- لا تقل إنهم... وجدوا نفطاً!؟

تنهد الهولندي بعمق وأومأ مؤكداً بحركة من رأسه.

- وجدوا بحراً من النفط - أكد بملامح محبطة - في مكان قصي وسط الخلاء اسمه مسجد سليمان - ثم تنفس بعمق ونبرة إحباط - شركة النفط الإنجليزية-الفارسية هذه، سوف تخلق لنا كثيراً من المتاعب.

عندما سمع ذلك، ظلّ كالوست متصلباً وارتعش ارتعاشاً خفيفاً، كما لو أن الضغط ازداد في جسده.

- الذّنبُ ذنبك أنت! - صاح فجأة، غاضباً، مُحْمرّاً وهو يشير بإصبعه إلى مخاطبه - كان هذا الترخيص بين أيدينا! ذلك الجنرال التقى بي ليقدمه لي بثمن زهيد! والتقيتُ بك كي نستثمر في تلك الصفقة! وماذا فعلتَ أنت؟ رفضْتَها! - ثم قام بحركة تنمّ عن الإحباط والغضب - لا أعرف ما يمنعني من أن... أن... - وظلّ من دون كلمات تعبر عن ذلك الغضب الجامح الذي ينخر دواخله - كل الذّنب ذنبُك أنت! كله ذنبُك! هل سمعت؟

خفض رئيس شركة رويال داتش شل عينيه، متأثراً بثقل المسؤولية.

- وجدتُ أنها كانت مجازفة تنطوي على مخاطر، يا ساركيسيان - قال مبرراً موقفه - التنقيبُ يكلف مالاً كثيراً جداً، كما تعرف. ولم نكن نتوفر على أدنى مؤشر يدل على وجود النفط في بلاد فارس. فكيف كان بإمكاننا أن نستثمر؟ والقرار الذي اتخذناه

كان على أساس ما كنا نعرف وقتئذ وليس على أساس ما نعرفه اليوم. وما كنا نعرفه... كان لا شيء. كان اقتناء ذلك الترخيص بمثابة مقامرة.

كان الأرمني يشعر بالغضب والخيبة ويرغب في مواصلة الصياح في وجه هاندريك، لكنه ضبط نفسه. فلا شيء مما قد يقوله أو يفعله يمكن أن يغير الوضع. فالضرر تمّ وحصل وعليهم أن يتقبلوا ذلك. هو نفسه يتحمل قسطاً من المسؤولية. بما أن شركة رويال داتش شل لم تكن مهتمة بالصفقة، كان بإمكانه أن يقتني الترخيص من ماله الخاص. إن لم يفعل ذلك فلأنه لم يرغب في القيام به. وعلاوة على ذلك، تلك المنطقة من العالَم كانت تقع تحت مسؤوليته.

- حسناً... لا يمكن القيام بأي شيء الآن - قال مستسلماً - لنركز إذاً على ما هو في متناولنا - ثم نفخ، كما لو أنه يريد بذلك أن يحرر كل ما تركز من سموم في صدره - حسناً، علينا الآن أن نبحث عن مزيد من مصادر التزود بالنفط، أليس كذلك؟ أقترح الولايات المتحدة. ليس فقط لأن أمريكا تعج بالنفط بل لأنه يبدو لي من الأهمية بمكان أن نقتحم مناطق نفوذ شركة ستاندرد أويل. بفضل عائداتها الاحتكارية تقريباً في الولايات المتحدة، تقوم شركة ستاندرد أويل بتخفيض الأثمنة في أسواقنا، فتخلُق لنا مصاعب كبيرة.

- وهل ترى أن اقتحام السوق الأمريكية هو الحلُّ؟

- من دون شك. إن كُنا حاضرين هناك، سنكون في ظروف متساوية مع شركة ستاندرد أويل. وأصحاب هذه الشركة سوف يجنّون! لن يغمض جفن للسيّد روكفيلير!

- هذا الأمر كما تقوله يبدو جميلاً! - لاحظ الهولندي - لكن، كيف تخطط للقيام بذلك؟

- لقد درستُ كل شيء - قال كالوست - نبدأ من كاليفورنيا ثم ننتقل بعد ذلك إلى أوكلاهوما. أعرف أن هناك شركات نفطية صغيرة في تولسا تواجه صعوبات مالية كبيرة. فكرتي بسيطة. نصل إلى هناك، نقتني كل هذه الشركات ونجمعها في شركة واحدة - ثم فتح يديه - وها قد وصلنا إلى أمريكا!

بعد لحظة من التفكير، حرّكَ رئيسُ شركة رويال داتش شل رأسه موافقاً.

- هذه الفكرة بسيطة للغاية لدرجة أنها يمكن أن تعطي نتيجة

- استنتج.

أخرج الأرمني من جيبه حزمة من الأوراق. كانت كشوفات حسابات عدة شركات نفطية في تولسا. كان معظمها في المستوى الأحمر، لكنها جميعاً كانت تتميز بامتلاك تراخيص قانونية في مناطق بها نفط بكل تأكيد. بعد أن درساها معاً واحدة تلو الأخرى، قدّر الرجلان ثمناً معقولاً لكل شركة ثم قدّم كالوست مسودّة عقد كان محاموه قد أعدوه لاقتناء شركات في مثل تلك الظروف.

وبينما كان هاندريك يتفحّص مسودة العقد بعناية، عاد مخاطبه بذهنه بطريقة شبه آنية إلى بلاد فارس وما جاء منها من أخبار عن الاكتشاف الكبير في مسجد سليمان. كان من المستحيل ألا يشعر بالغضب وهو يفكر في الفرصة التي ضيعاها معاً بطريقة غبية جداً.

- أتعرف ما أفكّر فيه - سأله - تعلمتُ درساً من هذا الخطأ الفادح الذي ارتكبناه في بلاد فارس.

- إيه؟

ثم انتابته نوبة غضب مفاجئة، فوجه كالوست لكمة قوية إلى الطاولة حتى أن مُحاوره قفز من مكانه.

- لا ينبغي أبداً أن يتخلى المرء عن ترخيص بالتنقيب عن النفط!

ما أبداه كالوست من غضب بسبب تأخر الطبيب لمدة عشرين دقيقة لم يكن له حدود. لقد قرر منذ مدة أن يغادر المنزل ويستقر في فندق ريتز. لم يرق الأمر نونوفار، لكنها تقبلته؛ فالنساء الأرمنيات يعرفن أن عليهن طاعة الأزواج، وهي لم تكن استثناء. أحياناً، كان صاحب البيت يعود إلى المنزل ليقضي الليل هناك، وهو ما كان يقوم به كلما كان له موعد مع الدكتور أجيميان.

وكان ذلك هو شأن ذلك الصباح. لكن الطبيب لم يصل في الموعد فأثار الأمر غضبه واستياءه. ألم يكن الدكتور أجيميان يعرف أن الساعة قد اخترعت ليحترمها الناس؟ كيف يجرؤ ويتركه ينتظر؟ بيد أن غضب صاحب البيت من تأخر الفحص الطبي الروتيني خفّ بسبب ما لاحظه من دهشة على وجه الطبيب عندما ظهر أخيراً في المنزل.

- إنها ثورة! - صاح الوافد الجديد، مزهواً، وعيناه جاحظتين من الفرح المجنون - ثورة حقيقية! - ثم رفع يديه نحو الأعلى، كأنه يشكر السماء - وأخيراً، أصبحنا أحراراً! أحراراً! آه، الرّب عظيم!

وقف صاحب البيت جامداً على بعد ثلاث خطوات من الدكتور أجيميان، مندهشاً وهو يراه على ذلك الحال دون أن يفهم شيئاً.

- ماذا يجري، يا دكتور؟ هل سقط الوزير الأول أسكويث؟ هل هرب الملك إدوارد السابع مع عشيقته؟ هل ارتفعت أسعار النفط؟ - سأله بتهكم - أتمنى أن يكون كذلك. فقط شيء من هذا القبيل يمكن أن يبرر هذا التأخر غير المقبول!

رغم التوبيخ المبطن في هذه الكلمات، لم يخفّ حماسُ الطبيب.

- إذاً، أنت لا تعرف؟ - سأل وهو يحدق بقوة إلى زبونه - حدثت ثورة في القسطنطينية! انتصر تمرد الجيش! أعاد السلطان الدستور والبرلمان! أخيراً، وبفضل الرّب القدير على كل شيء، سوف يحظى الأجانب بمعاملة متساوية في تلك الإمبراطورية اللعينة!

- ماذا؟

- لهذا السبب تأخرتُ - قال الدكتور مبرراً نفسه، وهو دائماً متحمس - لدي زبون يشتغل في السفارة العثمانية هو من أيقظني هذا الصباح على هذه الأخبار! وجهت «جمعية الاتحاد والترقي» نداء إلى المتطوعين ليقدموا المساعدة للفيلق الثالث من الجيش فجاء الناس من كل حدب وصوب! أرمن، يهود، بلغار، أكراد، يونانيون، أتراك... تجمعوا كلهم وخرجوا إلى الشوارع. إنها فوضى عارمة في القسطنطينية! لأول مرة، اجتمع اليهود، والمسيحيون، والمسلمون ليحاربوا في خندق واحد! وانتصرت «جمعية الاتحاد والترقي»! وفُرضت، أخيراً، العلمانيةُ في الإمبراطورية العثمانية!

انتشر الخبر في منزل آل ساركيسيان، وأحدث هيجاناً وسط الخدم الأرمن. منذ عدة أيام كانت هناك أخبار عن التوتر المتزايد في الإمبراطورية العثمانية. كان الفيلق الثالث من الجيش، المنتشر في مقدونيا، قد تمرد وبدأ يزحف نحو القسطنطينية مطالباً بإعادة الدستور. وكان الجميع ينتظرون أن يسحق السلطان التمرد، لكن، على ما يبدو، تمكنت «جمعية الاتحاد والترقي»، التي تمثل «حركة العثمانيين الشباب» العلمانيين، من تعبئة الساكنة وإيقاف السلطان. فتحول التمرد إلى ثورة.

- هذا الأمر يمكن أن ينتهي بشكل سيِّئ - لاحظ كالوست بوجه كئيب - بشكل سيِّئ جداً.

نظر إليه الجالسون إلى مائدة الأكل، حائرين مندهشين. لقد نشرت «حركة العثمانيين الشباب» الحماس وسط أرمن لندن وكان ذلك العشاء في رقم 38 من هايد بارك غاردنز يجمع أهم شخصيات هذه الطائفة في إنجلترا، ونظم احتفالاً بهذا الحدث. لذلك أدهشت تلك الكلمات المشحونة بالتشكيك المدعوين.

- ماذا تقصد بكلامك، سيّد ساركيسيان؟ - سأله الأب أرتيسيان الذي كان يترأس كل أحد قداس الكنيسة الأرمنية في لندن - إن أفراد «حركة العثمانيين الشباب» سيعيدون العمل بالدستور، الذي ينص على المساواة بين كل العثمانيين، بغض النظر عن ديانتهم. فكيف يمكن لشيء كهذا أن ينتهي بشكل سيِّئ؟

جاء نادلٌ وصبّ الشامبانيا في كأس صاحب البيت، الذي تذوق منه جرعة وأشار إلى أنه استحسن السائل، ثم بدأت الشامبانيا تتدفق في كؤوس كل الضيوف الجالسين إلى الموائد.

- لا تنسوا ما حدث يوم أجبرت القوى العظمى السلطان على قبول دستور سنة 1876 - ذكّر كالوست بنبرة صوت هادئ - يومها كان عمري لا يتجاوز السابعة، لكن البعض منكم يكبرونني سناً ويتذكرون ما حدث بعد ذلك. فعلاً، أصبحت المساواة مبدأ دستورياً، لكن ما حدث في الواقع كان هو عكس ذلك.

هذا صحيح - وافقه الأب أرتيسيان، أكبر الجالسين إلى المائدة - لكن، ماذا تقصد بكلامك؟

- أريد أن أقول إن الأشياء التي تُنجز في اتجاه معين يمكن أن تؤدي إلى نتائج عكسية تماماً. إن دستور سنة 1876 وُضعَ لتمتيع

الجميع بالمساواة، بغض النظر عن الديانة، لكنه، في النهاية، استحال قمعاً أكبر ضد الأقليات. فكيف نكون متأكدين بأن إعادة الدستور الآن لن تؤدي إلى نفس النتيجة؟

- آه، لا - قاطعه الدكتور أجيميان، الذي كان حاضراً أيضاً بصفته أكبر طبيب ضمن أفراد الطائفة الأرمنية - إن «جمعية الاتحاد والترقي» حركة علمانية تتبنى الحداثة! الأمر مختلف تماماً! في النهاية، سوف يتم خلع السلطان عبد الحميد الثاني وستكون لنا ملكية دستورية. لقد تغير الوضع تماماً. وهذه الثورة تعني أن فكر الأنور قد وصل، أخيراً، إلى الإمبراطورية العثمانية.

- أتظن ذلك؟ إذاً، أخبرني، لماذا قام الفيلق الثالث من الجيش، الذي كان مرابطاً في مقدونيا، بالتمرد ضد السلطان؟

- حسناً، لأنه كان يريد إقامة ملكية دستورية!

- لكن، لماذا الآن؟ ولماذا تقوم بذلك بالضبط القوات العسكرية المتواجدة في مقدونيا؟ ما هو الحدث الذي أشعل شرارة هذه الحركة في هذه اللحظة بالضبط؟

نظر الأرمن الجالسون إلى المائدة إلى بعضهم البعض، دون أن يعرفوا ما يردُّون به.

- حسناً. . . ربما غضب أحدهم من السلطان، أظنُّ - قال الأب أرتيسيان - ليس من باب الصدفة أن يكون السلطان عبد الحميد الثاني معروفاً بلقب «السلطان الأحمر»! فالرجل تلطّخت يداهُ بالدماء! كان لا بدّ أن يقوم أحدهم بشيء ما، وهذا ما فعلته «حركة العثمانيين الشباب»!

أطلق كالوست تنهيدة عميقة، وهو منزعج. لأي سبب لم يكن كل الناس قادرين على رؤية ما كان يراه هو بكل وضوح؟ إن الأهواء

المخيمة على الأجواء كانت تمنع معظم الأشخاص من تأويل إشارات الزمن تأويلاً صحيحاً، كما لو أن ضباباً كثيفاً يخفي ما يتربص بمستنقع الحياة من تهديدات. لكن هو لم يكن ينقاد وراء الخداع.

- ألا تفهمون أن كل هذا له علاقة بلقاء ريفال؟ - سألهم - إذاً، دعوني أُذَكّركم بأن الإمبراطورية العثمانية صمدت كل هذا الوقت فقط لأن القوى العظمى لم تتفق أبداً حول مصيرها. فإنجلترا كانت دائماً تدافع عن الوحدة الترابية للإمبراطورية العثمانية كي تمنع روسيا من التهام المناطق ذات الأغلبية المسيحية، في الوقت الذي كانت فيه روسيا تساند تقرير مصير الشعوب المسيحية التي تعيش تحت نير الأتراك حتى تضمها أو تضعها تحت نفوذها. وقد ظلّ السلطان مرتاح البال طالما استمر عدم التفاهم ين هاتين القوتين. المشكلة أن الثورة المقدونية، قبل خمس سنوات، وما تلاها من قمع على يد الأتراك، دفعت إنجلترا إلى التساؤل حول وجاهة سياستها. كما تعرفون، التقى ممثلون عن إنجلترا وروسيا قبل بضعة أسابيع في ريفال واتفقوا على منح مقدونيا حكماً ذاتياً شاملاً.

- أستسمحك، ولكن ما علاقة كل هذا بثورة «حركة العثمانيين الشباب»؟

- ألا ترى، إذاً؟ لقد فرض لقاء ريفال على الأتراك فقدان مقدونيا. ولهذا السبب تمرد جنود الفيلق الثالث الذين كانوا مرابطين في مقدونيا بالضبط! ولهذا السبب أيضاً ساندتهم «جمعية الاتحاد والترقي»! مهما يقولون، هم في الحقيقة لا يريدون المساواة! هذا كلام لا يصدقه سوى الأغبياء! ما يريدون هو الحفاظ على إمبراطوريتهم العزيزة عليهم وتخليد هيمنة الأتراك على بقية الشعوب،

ولا شيء غير هذا! مع فقدان مقدونيا الوشيك، ترى مكونات «جمعية الاتحاد والترقي» والفيلق الثالث من الجيش أن السلطان ليس ناجعاً في الحفاظ على الإمبراطورية. لقد تغير النظام كما تغير الأشخاص، بيد أن المشكلة العميقة، يا أعزائي، ما زالت كما هي. فلا ينخدعنّ أحد بهذا الخصوص!

- هل تظن... أنه سيتسمر ما تعانيه طائفتنا من مشاكل؟

كان سؤالاً وجيهاً.

- لستُ أدري - اعترف كالوست - لكن لو كان هذا هو ثمن الحفاظ على الإمبراطورية، أظن أن شباب «حركة العثمانيين الشباب» سيدفعونه دون تردد.

11

بحركة مهذبة، دعا السفير العثماني ضيفه ليجلس على طرف الأريكة ثم جلس هو نفسه في مكانه المفضل. دخل خادم إلى المكتب يحمل صينية صغيرة دائرية ثم وضع فوق المائدة صحناً من البقلاوة وفنجانَين من القهوة التركية.

- لقد تغيرت أشياء كثيرة في القسطنطينية، سيّد ساركيسيان - قال السفير وهو يفرك يديه في حركة متوترة - مع ثورة «حركة العثمانيين الشباب»، وسقوط عرش جلالة الملك، السلطان عبد الحميد الثاني، أخيراً عانقت بلادنا الحداثة والملكية الدستورية.

- هذا ما أتمناه، أفندي - قال كالوست، وهو يخفي ارتيابه الذي يضرب به المثل خلف كلمات تناسب الظروف - يبدو، فعلاً، أن بلدنا يسير في الاتجاه الصحيح.

- آه، لا يخامرنّك شك في ذلك! أكد الدبلوماسي - إن «جمعية الاتحاد والترقي»، لستُ أدري إن كنت تعرف ذلك، حزبٌ يدافع عن العلمانية ويضم في صفوفه عدة معجبين بإنجلترا وفرنسا. وأخشى كثيراً أن جلالة الملك، كان تحت غواية ألمانيا، لكن هذا سيتغير الآن.

- أظن ذلك فعلاً، أفندي - وافق الأرمني - المستقبلُ هو إنجلترا، وليس ألمانيا.

- بكل تأكيد. شخصياً ألححتُ في القسطنطينية على ضرورة أن. . .

وشيئاً فشيئاً، تحولت كلمات السفير إلى ضجيج خلفية في ذهن الضيف. كان المونولوج يكرر مواضيع مطروقة ويعيد معلومات بائتة، والمستضيف يهذي متحدثاً عن أهمية الثورة وضرورة الحفاظ على تماسك الإمبراطورية وتعزيز علاقات جيدة مع القوى العظمى. كان كالوست يعرف جيداً ذلك الكلام، وبينما كان يومئ موافقاً بحركة من رأسه وهمهمات من حين لآخر، وجد نفسه يتأمل سجادات جميلة كانت تزين المكتب. كانت مجموعته الخاصة من السجادات تملؤه فخراً، لكنه بات منذ مدة يبحث عن شيء مختلف. لوحات الرسم. كان أمين متحف ناشيونال جاليري، سير كينيث بارك، قد أيقظ فيه الاهتمام بفن الرسم. كان دائماً يشعر بميْل كبير إلى الأعمال الفنية، لكن لم يكن ذلك أبداً لدرجة التفكير في الشروع في اقتناء مجموعة من اللوحات. بيد أن أمين المتحف، بشروحاته الحماسية، أثار شهيته لذلك.

- . . . تحت تأثير سليم باي، الذي ألحَّ على فكرة أنّ. . .

وهو يسمع السفير ينطق اسم صديقه التركي، قطع كالوست فجأة خيط أفكاره وكاد يقفز من فوق الأريكة.

- سليم باي؟ - اندهش وهو يعود إلى الحاضر - ماذا حدث له؟ أي شيء ألمَّ به؟

أوقف السفير عرضه، وقد فاجأه السؤال.

- إنه في الحكومة - كشف - ألم تكن تعرف ذلك؟

- ماذا؟

- هذا صحيح. كما تعرفُ بكل تأكيد، أن حظه قد ساء في حاشية جلالة الملك، السلطان، نظراً لارتباطه بجمعية الاتحاد والترقي. لكن، الآن، بعد أن وصلت الجمعية إلى السلطة، نادوا عليه ليقوم بمهامَّ في حكومة الصدر الأعظم.

- بلا مزاح! وأي حقيبة يتحمل؟

- حقيبة المالية - أوضح الدبلوماسي، مندهشاً لأن كل ذلك كان جديداً على مُحاوره - ألم تكن تعلم ذلك؟ إنه الوزير الجديد المكلف بميزانية الإمبراطورية العثمانية.

تلتْ دهشةَ البداية موجةُ حماس صامت. كان ذهن كالوست يغلي بالأفكار؛ فالخبر يغير كل شيء. مع وصول سليم باي إلى السلطة، من يدري أنه لن يستطيع أن يتجرأ ويحلم من جديد بالحصول على ترخيص استغلال النفط في بلاد الرافدين؟ وازداد حماسه عندما انتهي السفير العثماني من عرضه الطويل، فضبط حنجرته ودخل، أخيراً، في صلب الموضوع الذي استدعاه لأجله، وأخبره عن العرض الذي يقدمه له.

- في الحقيقة، جاءت الفكرة من سليم باي نفسه - قال الدبلوماسي - إنه يقدرك كثيراً ويعتبرك، لوضعك ومعارفك، الشخص المناسب لمساعدة الحكومة في المهام الوطنية الصعبة التي تنتظرها.

- أنا رهن إشارتكم، أفندي - أكد الأرمني، حائراً ومترقباً - خصوصاً إذا جاء الاقتراح من سليم باي، الذي أكنّ له تقديراً كبيراً.

- حسناً، يسعدني معرفة ذلك - ثم نهض المستضيف وذهب يبحث عن ورقة فوق طاولة المكتب. بعد ذلك، عاد إلى مكانه،

وواجه ضيفه - بالنظر إلى مؤهلاتك وكونك تقيم على الدوام في لندن، وفي باريس أيضاً، يسرنا أن نعيِّنك مستشاراً مالياً لدى سفارتَينا في العاصمتَين. لا أعرف، طبعاً، إن كانت مشاغلك الكثيرة تسمح لك بالقيام بهذه الوظيفة...

تفاجأ كالوست لهذا الاقتراح.

- أنا... - تردد - لم أعد أحمل الجنسية العثمانية. أصبحت مواطناً بريطانياً قبل عدة سنوات...

قام المستضيفُ بحركة من يده.

- نحن نعلم ذلك، وصدِّقْني إن قلتُ لك إن ذلك لا أهمية له بالنسبة لنا.

- آه، جيد... - تردد مرة أخرى، لكن للحظة واحدة فقط - إذا كان الأمر كذلك، يا أفندي، فهذا شرف لي!

ابتسم السفير.

- هذا يسرني كثيراً! - صاح. وعلى الفور، راح يفتش الورقة التي جلبها قبل ذلك من فوق طاولة المكتب - إن سليم باي يريد أن يذهب أبعد من ذلك. إن السيّد الوزير قد أرسل إليّ تعليمات في اتجاه أن تُصبح أنت مستشاراً مالياً للحكومة العثمانية نفسها. ماذا تقول لي بهذا الخصوص؟

كان الاقتراح على درجة كبيرة من الأهمية حتى أن الأرمني ظلّ صامتاً، يتأمل الإمكانيات الهائلة التي كانت تنفتح فجأة أمامه.

- اعتمدوا عليّ.

بعد ذلك بقليل، عندما خرج مسرعاً من السفارة العثمانية في لندن، شعر كالوست أنه بحاجة ليحتفل بتعيينه بطريقة رائعة. لكن

كيف؟ عشاء كبير؟ حفل استقبال؟ جولة في باريس يلتقي فيها مع خليلة تلك اللحظة؟ كل هذا كان جيداً، من دون شك، لكنه يبدو له مبتذلاً أمام ضخامة الحدث. كان فعلاً بحاجة ليحتفل بالحدث بطريقة غريبة، فريدة، لا تنسى.

لحْظتها تذكّر رواقاً فنياً كان سير كينيث بارك قد أشار له به قبل أسابيع، ويوجد في زقاق يتوارى خلف شارينغ كروس، قرب كوفتينت غاردن. ركب عربته وأعطى أوامر للحوذي.

– ميدان ترفلغار! بسرعة!

لم تكن المسافة طويلة جداً. قطعت العربة ويست إند حتى بلغت أوكسفورد سيركوس، نزلت عبر ريجنت ستريت، مرت بميدان لايسيستر وقطعت شارينغ كروس حتى وصت إلى ميدان ترفلغار.

حتى أثناء هذه الجولة القصيرة لاحظ مرة أخرى كيف كانت حركة النقل تتغير في لندن. كانت ما تزال تجوب شوارعها كل أنواع العربات التي تجرها الدواب، وخاصة الخيل والبغال، لكن عدد السيارات كان يزداد بشكل لافت. ومع ذلك كانت تجذب فضول الحشود المنبهرة بتلك العربات الغريبة التي تتحرك من دون أحصنة، محدثة ضجيجاً ودخاناً. أدرك كالوست أنه حانت لحظة معانقة المستجدات. في نهاية المطاف، ألم تكن تجارته تتعلق بمستقبل مثل هذه الآلات المعقدة؟ لذا كان عليه أن يعطي المثال ويقتني واحدة منها في أقرب وقت ممكن.

بعد بلوغ وجهته، ترجّل الأرمني وتسلق السلاليم حتى ولج متحف ناشيونال جاليري، حيث فاجأ سير كينيث بارك في مكتبه.

– اليوم! – قال دون مقدمات – سوف أقتني لوحة فرانشيسكو غواردي!

- بجدّ؟

لاهثاً من الحماس، قام كالوست بحركة حازمة وهو ينادي صديقه.

- اتبعني!

بنظرة انتصار تميز البائعين الذين يدركون أنهم يقبضون بأيديهم على الزبون، ارتدى أمين المتحف معطفه، عدّل القبعة فوق رأسه، وخرج وراء كالوست.

صعدا مشياً على الأقدام عبر شارينغ كروس، مرّا قرب المسارح عند مدخل كوفينت غاردن بملصقاتها المتلونة التي تعلن عن الأعمال المسرحية والعروض الموسيقية الفاتنة. كانت سماءٌ رمادية تلف أجواء المدينة، تغطي لندن بضباب أزرق بارد، فيتحول المارة إلى أحجام شبحية تظهر أحياناً ويبتلعُها الضبابُ القلق أحياناً أخرى. كانت بعض القطرات تنزلق في الهواء دموعاً هاربةً، بقعاً مبللةً ترقص على أهواء ريح مترددة، لكن الجميع يعلم أنها مجرد رذاذ عابر، دقيق وخفيف.

- ما الذي أصابك؟ - سأله سير كينيث، وهو يعدّل جناح معطفه ليحتمي من البرد الرطب - ما الذي أصابك لتقرر الشراء هذا اليوم بالضبط؟

- لنقل إن هذا اليوم كان جيداً بالنسبة لي. أريد أن أحتفل بذلك بطريقة خاصة، ويبدو لي أن لوحة غواردي مثالية لهذه المناسبة.

عبرا الطريق، يتعرجان بين سيارة يتصاعد دخانها وعربتَين،

وأصوات حوافر الخيل التي تُوقّع هدير المحركات الهائجة كأنها قطع موسيقية متعجّلة.

- إن قرار اقتناء اللوحة يدل على أنك تملك روح فنان.

وافق الأرمني على ذلك بحركة تكاد لا تُرى.

- اليوم، أكثر من أي وقت مضى، أشعر بالحاجة لأكون محاطاً بأشياء جميلة - اعترف - كأن سكينة داخلية تمنحني التوازن، لا أعرف كيف أشرح لك ذلك - ثم عضّ شفته السفلى - هل تعلم شيئاً غريباً؟ أظن أن الجمال يجعل مني شخصاً أفضل.

- غريبة هذه الملاحظة - قال الإنجليزي - هل تذكر أنني قلت لك مرة إن بركاناً يرمي حمماً أو لبؤة تصطاد يعتبران شيئين جميلين؟

- إنهما شيئان جميلان - أضاف كالوست وهو يرفع سبابته، ليظهر أنه قد استوعب الدرس - إن لم يُهدّدانا، بطبيعة الحال.

- تماماً! لو كانت الحمم تسقط فوق رؤوسنا، سيصبح البركان فظيعاً. لو جاءت اللبؤة تطاردنا، فستتحول إلى وحش مخيف. لكنه شيء رائعٌ مشاهدةُ منظر البركان يرمي الحمم أو اللبؤة تصطاد حمار الوحش، من مسافة آمنة وفي ظروف لا يشكل فيها البركان ولا اللبؤة خطراً علينا. وهذا يدل على أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الجمال والخير، وبين القبح والشر. إن ما يهددنا قبيح بطبيعته. أما الظواهر القوية التي لا تعرضنا للخطر فتبدو رائعة في كثير من الأحيان.

- يبيّن هذا أمراً طالما أدركته بالحدس - قال الأرمني - أن الجمال يرتبط بالخير.

- يرتبط الجمال بالمعنى، قبل كل شيء - ردّ سير كينيث، وهو يحث الخطى حتى يساير إيقاع خطوات مرافقه - من رسومات كهف لاسكو إلى المناظر الطبيعة في لوحات كونستابل، من قطع الفالس

التي ألفها تشايكوفسكي إلى قصائد كيتس، من نثر أوسكار وايلد إلى منحوتات ميكيلانجيلو، كان الفن خصوصاً بحثاً لا ينتهي عن معنى الحياة. إن تجربة الجمال هي التي تجعلنا نؤمن بأن العالم له هدف، وأن الأشياء تعلب دوراً وتشغل مكاناً خاصاً بها - وقف متجمداً وسط الشارع، مندفعاً بحماسه، ثم قام بحركة واسعة من ذراعه شملت كل ما يحيط بهما - عندما نتأمل اللآلئ العديدة التي تبرقع سماء الليل أو عندما نتوقف لنستمتع بتغريد طائر الزرزور الرخيم وسط أوراق الموز أو لنتأمل هذا الضباب الكامد الذي يلون أزقة لندن برماد ملغز، فإن دهشة التعجب التي تغمرنا تؤكد لنا أن العالم مكان خاص، وأننا نحن أيضاً، بوصفنا عناصر من هذا العالم، نتميز بالاستثناء، وننعم بمباركة لمسة إلهية كما لو كنا ننتمي بدورنا إلى ما هو إلهي. فالكون الذي يشمل هذه العجائب يشملنا نحن أيضاً، يأتي إلينا فنذوب فيه كما لو كنا ذاتاً واحدة. إن الجمال يؤكد لنا بشكل دقيق أن للحياة معنى. قد لا ندرك ما هو هذا المعنى لكننا نحدس بفضل الطابع المحسوس للجمال أنه موجود، ولذلك، صديقي العزيز، نشعر أنت وأنا، كما يشعر آخرون بكل ما هو جميل. عندما نبحث عن الجمال، فإن ما نبحث عنه في الحقيقة هو الهدف من وجودنا الذاتي.

استأنفا المشي وظلّا صامتين لحظة. كان كالوست يهضم ما سمعه للتو ويتفحص معنى الجمال، وعيناه لا تفارقان وصيَّهُ الفنّي مثل كلب لا يفارق سيّده. قُرب ميدان لايسيستر، عرّجا يميناً وتوغلا في أزقة متاخمة لكوفينت غاردن.

- يمكن أن نقول إذاً، سير كينيث، إن الجمال تعبير عن الإلهي.

- إن شئت - قال أمين متحف ناشيونال جاليري موافقاً - فمن خلال الجمال الطبيعي، نجد الإلهي في الكون ومن خلال الفن نعبِّر عن شرارة الإلهي التي تحتدم بدواخلنا.

- ألهذا يعتبر الجمال وجهاً من أوجه الخير؟

- إن كنت تؤمن بأن الله طيب، فربما يكون الأمر كذلك - ثم قام بحركة تشير إلى الشوارع من حوله - عندما أراد تشارلز ديكنز أن يظهر لنا ذلك البؤس المدقع لأطفال الشوارع هنا في لندن، كتب **أوليفر تويست**، رواية نعتبرها جميلة لأنها وقفت إلى جانب الخير وأجبرتنا على مواجهة الشر الذي يعيش بين ظهرانينا - علت وجهه تكشيرة - لكن، حذار، لا أظن أنه يجب أن يكون الفن مدافعاً عن الأخلاق، لأن هذا قد يجرده من الجمال.

وجاء الدور على كالوست هذه المرة ليتوقف وسط الشارع كي ينظر إلى مرافقه، واعتراضٌ يتشكّل في ذهنه.

- هذه فكرة مهمة - لاحظ - لكن، ألا تظنُّ أن هناك كثيراً من الأشياء الجميلة جداً يمكن أن تكون سيئة؟

- إن الجمال والخير مفهومان ذاتيان ونسبيان - قال سير كينيث بارك حازماً، وهو يستأنف المشي - كما قلتُ لك قبل قليل، إن كان شيء ما يهددنا نرى أنه مخيف. إن البركان الذي يقذف الحمم جميل عن بعد، لكنه فظيع إن هو عرّض حياتنا للخطر - ثم لزم صمتاً قصيراً - وصحيح، مع ذلك، أن هناك أيضاً أشياء جميلة ترتبط بالشر. ريتشارد فاغنر، مثلاً، كان موسيقياً عبقرياً، لكنه كان دائماً شخصاً متعصباً وعنصرياً، بل إنه دعا إلى اضطهاد اليهود. فكيف نستمتع بقطع أوبرا من تأليف شخص بغيض كل هذا القدر؟

- وهل تهمنا، حقاً، آراء فاغنر؟ - سأله الأرمني - هل ينبغي

لمعرفتنا بعيوبه أن تؤثر في تقييمنا لما ألفه من قطع موسيقية؟ لماذا لا نقبل بأن فناناً غير مثالي يستطيع أن يبدع عملاً مثالياً؟ إن كان الطيبون لوحدهم هم من يستطيعون إنجاز الأعمال الفنية، فقد يكون القديسون هم أعظم الفنانين على الدوام. لكن هذا هو ما لا يقع، أليس كذلك؟ حسب علمي، معظم الفنانين ليسوا بقديسين. . .

وقف أمين متحف ناشيونال جاليري متصلباً أمام واجهة تزينها عدة لوحات زيتية ومائية. وعلى الباب، لافتة تقول «محلّ ريتشاردسون».

- أصبْت! - صاح بابتسامة مشرقة - هذه الملاحظات التي أبديتها، عزيزي ساركيسيان، تدل على أنك تملك روح شخص ذوّاق للجمال.

التفت ودخل إلى المحلّ يتبعه كالوست. لم يضيعا الوقت وتوجها نحو الزاوية التي كانت بها تلك اللوحة التي عشقها الأرمني وظل يغازلها منذ أول زيارة. لكن، عندما وصلا إلى زاوية المتحف لم يجدا اللوحة في مكانها المعهود، فقلقا للأمر وتوجها فوراً نحو المسؤول عن الرواق.

- من فضلك - ناداه كالوست - أين ذهبت تلك اللوحة التي كانت هنا؟ لا تقل لي إنك قد بعتها!. . .

اقترب الرجل القصير من الركن المشار إليه وانتبه فوراً إلى اللوحة التي ذكرها الزبون.

- آه، هل تريد أن تعرف أين هي لوحة **منظر ميرا على نهر برينتا**؟ - ثم أشار إلى أعلى - سحبناها من هذا المكان ونقلناها إلى الطابق الأول. هل تريد أن تراها؟

- إن كان ذلك ممكناً. . .

صعد ثلاثتهم إلى الطابق الأول عبر سلاليم حلزونية محيرة، تشكل في حد ذاتها تحفة فنية صغيرة، وهناك وجدوا اللوحة، صغيرة جداً لكنها رائعة، قماش زيتي على الخشب يتجاوز حجمها راحة اليد بقليل. تأملها المسؤول عن الرواق بنظرة تقدير، كأنه كان مغرماً بدروه بذلك الإبداع الفني.

- اختيار رائع! - صاح موافقاً - إنها تحفة فنية من توقيع فرانشيسكو غواردي. فنان متميز، ألا يبدو لكما ذلك؟ عبقري يرسم مدينة البندقية!

اتخذ كالوست لحظتها ذلك القرار الذي نضج على امتداد وقت طويل.

- أقتنيها.

لم يكن يعلم بعد، بيد أن ذلك حدث هكذا، باندفاع كاد يتملكه يومئذ، لكنه، في الحقيقة، تطوّرَ ونضَج على امتداد عدة سنوات، منذ أن أعطاه والده تلك القطعة النقدية التي اقتنا بها أول ديكادراخما وحتى اللحظة التي التهمت عيناه لوحة فرانشيسكو غواردي رفقة سير كينيث بارك، فبدأ كالوست يجمع اللوحات الفنية.

12

كان ذلك الركن من هاي ستريت هو مكان كريكور المفضل كلما قام بجولة بعيداً عن محيط المدرسة. كان اسمه «كورنفلاور تي رومز». لكن أكثر ما كان يجذب الفتى، الذي أكمل ربيعه الرابع عشر الأسبوع الماضي، هو ما كان في الواجهة الزجاجية. أو، توخّياً للدقة، ما كان في الرفوف الخمسة التي تشكل تلك الواجهة السحرية.

- آه - تنهد صديقه روجر عندما مرا معاً لأول مرة بالقرب من «كورنفلاور تي رومز» - كعكات بالفراولة! - ثم مرر لسانه الشره على شفتيه - ميام، ميام!

ونفس الصورة جعلت لعاب كالوست يسيل. في كل رفّ كانت هناك اثنتا عشرة كعكة، كل واحدة بها ثلاث حبات من الفراولة وحصة مهمة من القشدة اللذيذة. آه، يا له من عذاب! أدخل الشابان يديهما في الجيوب بتلهف وأخرجا منها كل ما يملكان. كان الشاب ساركيسيان قد تلقى ليلة أمس علاوته الأسبوعية من ثلاثة بنسات وهذا ما جمعته أصابعه. فهل تكون ثلاثة بنسات كافية؟

- كل كعكة بالفراولة تساوي بنساً واحداً - قال لهما المستخدم عندما ذهبا يسألانه عند صندوق الأداء - كم تريدان؟

بفضل البنسات الثلاثة في جيبه، اشترى كريكور ثلاث كعكات، بينما اكتفى روجر بكعكتين، لأنه بالكاد كان يتوفر على بنسَين. التهما الكعكات في أقل من دقيقتين ثم عادا إلى الواجهة يسمران عيونهما فيما بقي من الكعكات. كانا يريدان منها المزيد، لكنهما لا يملكان النقود لذلك.

وهما ما يزالان يلحسان القشدة التي كانت تنزل نقطاً على ركني الفمَين، وجد كريكور نفسه يقوم بالحساب. كان بإمكانه أن ينظف رفوف الواجهة الخمسة من كل ما كان بها من كعكات بالفراولة، لكنه يحتاج لمبلغ مهم من النقود حتى يتسنى له ذلك. كي يلتهم كل شيء، قدّر، قد يكلفه ذلك ستين بنساً أي بمعدل بنس لكل كعكة، وهذا المبلغ، بمعدل ثلاثة بنسات في كل علاوة أسبوعية، قد يستغرق جمعُه فصلَين دراسيَّين كاملَين.

- لست أدري كيف - قال لصديقه بكل حدّة - ولكني أقسم أنني سأجمع كل هذا المبلغ وآتي إلى هنا لآكل الكعكات. سآكلها حتى آخر كعكة، سوف ترى!

لم يفعل ذلك قط. لكن الواجهة أفادته في تجريب قدرة تطبيق ما تعلمه في الحساب على الحياة الواقعية. فكل بنس كان يساوي كعكة واحدة. أدرك أن موهبة الحساب كان شيئاً غريزياً فيه.

كما تعلم أيضاً كيف يتعامل مع الحرمان، وهو ما لم يكن يعرفه يوم كان يعيش مع والدَيه. فرغم أنها داخلية خاصة بأطفال الأغنياء، كانت مدرسة أورلي فارم تفتخر بأنها تقدم تربية صارمة للتلاميذ. لم يكن يُنظر بعين الرضى إلى التلاميذ الذين يتلقون علاوة أسبوعية سخية من آبائهم، إذ سرعان ما تستدعيهم القيّمةُ وتنصحهم بأن يبدو اعتدالاً أكبر في صرفها.

وكان نظام التربية الصارم السائد في المؤسسة يتضمن أيضاً حمامات ماء بارد. كان الاستحمام عبارة عن عذاب حقيقي في فصل الشتاء، عندما تنزل درجات الحرارة تحت الصفر، لكن لحسن الحظ لم يكونوا مجبرين على الخضوع لذلك إلا مرة واحدة في الأسبوع. ومن أجل القيام بالاغتسال اليومي، كان تلاميذ النظام الداخلي يلجؤون إلى جرات ماء يستعملونها في مغاسل حجراتهم في عمليات سريعة غالباً ما تكون غير موفقة. ونظراً لهذه الظروف، لا يمكن القول إنهم كانوا يفوحون برائحة طيبة، لكن معظم التلاميذ كانوا يفضلون أن تصدر عنهم رائحة لاذعة على أن يخضعوا يومياً لحمامات قاسية بالماء المتجمد!

- إن الحمام البارد يشكل جزءاً أساسياً من تكوين شخصية رجل محترم - قالت القيّمةُ لكريكور عندما سألها عن الموضوع.

- عفواً؟ - قال الشاب مندهشاً - ما علاقة الحمام بشخصية الفرد؟

علت تكشيرة متعجرفة وجه القيّمة، كما لو أن هذا النوع من الأسئلة لا معنى لها، نظراً لبداهة الأجوبة.

- عجباً! - ردّت بشيء من الانزعاج - إن حياة فكرية غنية لا بد أن تكون مصحوبة دائماً بدرجة معينة من الحرمان الجسدي. كل الناس يعرفون هذا الأمر!

الموتُ غير المتوقع للملك إدوارد السابع، في مايو من سنة 1910، أجبر مدرسة أورلي فارم على إغلاق أبوابها مؤقتاً. أُرسل التلاميذ إلى بيوتهم، وهو ما سمح لكريكور بقضاء أول ربيع مع والدَيه منذ أن التحق بالثانوية.

تابع مراسيم جنازة إدوارد السابع من مُدرّج عمومي أقيم في إدجوير رود، وهو نفس المكان الذي تابع منه، بعد بضعة أسابيع، تتويج أمير ويلز، وهو الملك جورج الخامس الآن. لكن أهم شيء لم يكن هذه الأحداث المرتبطة بطقوس الملكية، بل زيارة تلقاها والداه في رقم 28 من هايد بارك غاردنز.

منذ مدة أصبح والدُه مستشاراً للحكومة العثمانية. وحدث أن أرسلت الإمبراطورية العثمانية إلى لندن ولي العهد يوسف عز الدين ليمثل السلطان في مراسيم تأبين إدوارد السابع وحفل تتويج جورج الخامس.

وتشريفاً لشخصية عظيمة كهذه، قرر كالوست أن يقيم مأدبة غداء في بيته. وخصص، بالطبع، مكاناً مشرفاً من المائدة الضخمة لولي عهد العرش العثماني. هو من كان يرأس الحفل، ونظراً لمقامه الخاص، كان هو أول من يتناول الطعام. بحكم معرفته بآداب السلوك العثمانية، أعطى صاحب البيت أوامره للخدم، جلس بهدوء إلى المائدة وظل ينتظر أن يحضر الطبق الأول.

فُتح باب الصالة وجاء الخادم يعرض أول صينية ويقدمها بصوت مرتفع.

- الطبق الأول من المقبلات - قال بشكل رسمي - كافيار من النهر الأسود.

وُضعت الصينية المملوءة ببويضات سوداء لسمك الحفش وسط المائدة، وهو المكان المناسب حتى يأخذ كل واحد قسطاً من الطبق بأقل إزعاج ممكن. وقبل أن يقوم أي أحد بذلك، توجه كالوست بإشارة إلى ضيفه المتميز وأعطاه حق الأولوية التي تعود له بحكم وضعه الملكي.

- تفضّل، يا صاحب الجلالة.

نهض يوسف عز الدين، اقترب من وسط المائدة، أمسك الصينية الكبيرة وحملها إلى مكانه. أخذ ملعقة وراح يأكل الكافيار مباشرة من الصينية، أمام اندهاش المدعوين.

- لم يكن سيئاً هذا الكافيار - كان كل ما قاله من تعليق - هل من مزيد؟

وأمامه، كانت الصينية تبدو الآن نظيفة.

لم يكن ذلك الحادث هو الوحيد الذي ينم عن غرابة أطوار السلطان القادم ولا عن مصائب ومتاعب الحياة الحافلة لمستشار الإمبراطورية العثمانية. كان مُقدّراً أن يأتي يوسف عز الدين إلى لندن ليعذب كل من يستقبله، وهو الأمر الذي لم يكن، في مثل تلك الظروف، يبشر بأي شيء جيد لمضيفه في تلك اللحظة.

نام ولي العهد تلك الليلة في منزل آل ساركيسيان. وفي الصباح، خلال وجبة الفطور، التي التهمها قبل الجميع كما كانت تقتضي شروط الامتياز المطلق، التفت فجأة نحو كالوست وصاغ طلباً على شكل أمر لا غبار عليه.

- خذني عند خياط - قرّر - يجب أن أشتري مجموعة من البدلات - ثم مدّ ساقيه وعرض قدميه - وأحذية أيضاً.

- بكل تأكيد، يا صاحب الجلالة - ردّ مستضيفه، بمجاملة دائمة - أي خياط تريد أن تذهب عنده؟

- لست أدري. من هو خياطك أنت؟

- أنا أعدّ ملابسي عند الخياط «ت. ف. فرينش» - قال وهو

يعرض العلامة الموضوعة على بدلته الخاصة - فنانُ المقصّ، إن سمحت لي بقول هذا. أظن أنك ستحظى بخدمة جيدة يا صاحب الجلالة.

وافق الأمير على الاقتراح وسرعان ما تشكل موكب لمرافقة جلالته عند الخياط. في تلك الفترة، كانت شوارع لندن قد بدأت تمتلئ بتلك العربات المعروفة التي يتصاعد دخانها وتتحرك من دون خيل، وتشير إليها الجرائد باسم سيارات. كان كالوست، طبعاً، ينظر بعين الرضى إلى تلك العربات، لأنه يرى في تلك الصناعة مستقبل تجارته النفطية، خصوصاً في وقت بدأت الكهرباء تعوض الكيروسين في الإنارة. هكذا، ومواكبة لتطور الأزمنة، قام آل ساركيسيان مؤخراً باقتناء سيارة جميلة من نوع «دولوني بيلفيل لاندوليت» ذات أضواء أمامية معدنية.

وعلى متن هذه السيارة بالضبط، سارت أسرة ساركيسيان وراء السيارة الدبلوماسية التي كانت تحمل الأمير، من نوع «كليمان-بايار» زرقاء، حتى شارع دوفر، حيث كان المحلّ المتميز للخياط «ت. ف. فرينش». وسط اضطراب تلك اللحظة، استطاع كريكور أن يتسلل إلى داخل السيارة ويختبئ قرب أمه.

عندما وصلوا عند الخياط، تابع صغير آل ساركيسيان ذلك المشهد الغريب الذي لعب دوره الرئيس ولي عهد التاج العثماني، بتواطؤ مدهش من والده ومن الخياطين الإنجليز. وكان الأمر أكثر حرجاً لأن مستر فرينش شخصياً هو من استقبل الأمير العثماني والمستشار المالي. بعد كل المجاملات الكثيرة، كما لو أن الزبون هو الملك جورج الخامس شخصياً، قاد الخياط المعروف يوسف عز الدين عبر محلّه وعرض عليه مجموعة من الأثواب وأنواع البدلات،

ثم دعاه، بانحناءات كثيرة وكلمات منمقة، أن يختار ما يحلو له. فاختار الأمير في النهاية بدلة كلاسيكية من نوع «أمير ويلز». ثم أخذ مستر فرينش زبونه المتميز إلى قاعة المقاس. وكالعادة، أمسك شريط القياس، ثم اقترب من الأمير ليأخذ المقاس.

- ماذا تريد أيها الكلب؟ - قاطعه جلالته بحركة صدّ عندما لمس الخياطُ ذراعه ليقيس الكمّين - كيف تجرؤ على القيام بهذا؟

تفاجأ الخياط، فتراجع خطوة إلى الوراء.

- ماذا؟ ما الذي فعلتُه؟

أشار يوسف عز الدين إلى الإنجليزي لكنه التفت نحو كالوست، كما لو أنه يشتكي.

- أرأيت ما فعله؟ لقد لمسني هذا الكلب! تجرأ ولمسني! كيف يمكن أن يحصل شيء كهذا؟

تردد الأرمني، وقد فاجأته مشكلة لا يفهمها.

- لكن، يا صاحب الجلالة، إنه الخياط! يجب أن يأخذ مقاسك. كيف له أن يصنع بدلاتك إن لم يستطع أن يلمسك؟

- ليأخذ مقاس الهواء!

- الهواء؟

- نعم - أكد السلطان القادمُ للإمبراطورية العثمانية - ليأخذ مقاس الهواء! أو يتدبر أمره كما يشاء، لكنه لا يمكن أن يلمس شخصي العظيم!

كانت الطريقة المقترحة غريبة نوعاً ما، بل إن كالوست نفسه وجد صعوبة في فهم كل تفاصيلها وشرحها للخياط. لكن، بعد الاستماع إلى توضيحات جديدة قدمها يوسف عز الدين تم اعتماد

طريقة مستجدة في قياس جسم الزبون. كان على مستر فرينش أن يمسك شريط القياس ويعلقه في الهواء أمام جلالته، ويقدر تقريباً قياسات الكُمّين، والظهر والحزام.

بعد الانتهاء من هذه العملية الغريبة، جاء الدور على الأمير ليطلب أحذية. قدموا له عدة نماذج، وبعد كثير من التردد، اختار في النهاية زوجين من الأحذية، سوداء وبنّية.

- هل تريد يا صاحب الجلالة أن تأخذ زوجاً من كل لون، أليس كذلك؟ - سأله الخياط - أم تريد زوجين اثنين؟

حرك ولي العهد رأسه.

- أريد ثلاثين زوجاً من كل شكل.

- عفواً؟ - قال مستر فرينش مندهشاً، وهو مقتنع أنه لم يسمع جيداً - تريد ثلاثة أزواج من الأحذية؟

- ثلاثين زوجاً من كل شكل - كرّر يوسف عز الدين - لأنني لا أنتعل زوجين من الأحذية أكثر من مرة واحدة. كل يوم أنتعل زوجاً جديداً من الأحذية لأول مرة. بفضل ثلاثين زوجاً من الأحذية من هذا الشكل سأتوفر على أحذية لمدة ستين يوماً. فكرة جميلة، أليس كذلك؟

لم يكن محلّ «ت. ف. فرينش» يتوفر على ثلاثين زوجاً من تلك الأحذية فاضطر الخياط ليبعث رسولاً إلى مُموّله كي يزوده بما كان ينقصه منها. وعندما كان موكب الأمير يتأهّبُ لمغادرة المحلّ عائداً إلى المنزل، استسمح كالوست صاحب الجلالة بوجه مستغلق ولجأ إلى سيارة «دولوني بيلفيل لاندوليت» حيث كانت زوجته وابنه. وما إن انطلق الموكب عائداً إلى رقم 38 من هايد بارك غاردنز، حتى وضع الأرمني يديه فوق رأسه وتنهّد يائساً.

- إن مهمة مستشار عثماني قد بدأ تهلكني! - تنهّد قائلاً - إن لم يكن بسبب ذلك النفط اللعين في بلاد الرافدين، أقسم أنني سأقتل هذا التركي!

13

كانت صورة بحر مرمرة وهو يعج بالسفن تعود بخيال كالوست إلى زمن الطفولة. مع مرور السنين، ورغم ما عرفه العالم من تحولات، يبدو أن أي شيء هناك لم يتغير قيد أنملة. كانت ما تزال تُرى تلك السفن البخارية التي تربط الضفة الأوروبية بالضفة الآسيوية من القسطنطينية ومراكب من كل الأحجام والأشكال تتجه نحو البوسفور أو تغادره، كأنها قوافل في صحراء ذات لون أزرق. قد لا يشكل المنظر في حد ذاته شيئاً جديداً، لكنه كان دائماً شيئاً عظيماً يشد الأنفاس.

- منذ متى ونحن نشتغل في هذا الأمر؟

كان سليم باي هو من طرح السؤال بعد أن أخذ نفساً معطراً من النرجيلة.

- بدأتُ أشتغل مستشاراً مالياً معكم سنة 1908، أليس كذلك؟

- أجابه كالوست - نحن في سنة 1911، وهذا يعني أنه قد مرت ثلاث سنوات.

تنهد وزير المالية.

- ثلاث سنوات، ورغم كل ما بذلناه من مجهودات لم نحصل

على أي شيء بعد! - صاح بشيء من الإحباط - رغم محاولتنا للاقتراب من إنجلترا وفرنسا، لم نتمكن من ذلك. خزائننا بحاجة لأموال جديدة ووحدهم الألمان يبدون مستعدين لمنحنا قروضاً. كيف يعقل هذا الأمر؟

هزّ الأرمني كتفيه.

- إنني أقوم بكل ما في وسعي، أفندي - قال - حصلتُ على قرض من بنك Crédit Mobilier، أليس كذلك؟ ليس ذنبي أن تقوم الحكومة الفرنسية بعرقلة العملية نظراً لما حصل من إخفاقات في البنك الإمبراطوري العثماني، هنا في القسطنطينية. وأخشى أن يكون الإنجليز أيضاً خارج هذه العملية. كلّفتُ صديقي فيليب بليك بهذا الأمر في الميدان، لكن مجزرة الأرمن في الأعظميّة سنة 1909، وما يتعرض له الألبان الآن من قمع لم يرُق لندن، أخشى ذلك.

- لكن جمعية الاتحاد والترقي لم يكن لها أي دخل في مجزرة الأعظميّة! - قال سليم باي محتجاً - كان ذلك من فعل المناهضين للثورة! وفي ألبانيا، نواجه انتفاضة! ماذا يردوننا أن نفعل؟

- أعرف، أعرف! لكن مثل هذه الأمور يكون ثمنها عالياً، أفندي. كيف يُنتظر من إنجلترا أن تقرض أموالاً للإمبراطورية العثمانية في هذه الظروف؟ عليك أن تفهم أن هذا الأمر يخلق متاعب لأي حكومة في لندن. الجرائد، الرأي العام... لا أحد قد يقبل بمساعدة الإمبراطورية العثمانية! وحكومة صاحب الجلالة لا تريد إحراجاً.

أطلق سليم باي من لسانه طقطقة تنم عن الخيبة.

- إن بقينا على هذا الحال، فإن العناصر الموالية لألمانيا في

حكومتي سوف يزداد نفوذها - لاحظ - إن المد الليبيرالي في «حركة العثمانيين الشباب» قد أوشك على نهايته. . .

- نعم، إنني أتفهم ذلك - قال كالوست. ثم لمح لحظتها إمكانية تلمع أمامه - سيكون جيداً أن نربط الإنجليز والفرنسيين ببلاد الرافدين. . .

- آه، لا تحدثني مرة أخرى عن موضوع النفط! حصل الألمان على وعد برخصة الاستغلال هذه ولا أرى طريقة لإلغاء ذلك. إنهم يشيدون لصالحنا خط السكة الحديدية نحو الأناضول ويمنحوننا قروضاً، وهو ما لا يقوم به الإنجليز والفرنسيون. في مثل هذه الظروف، لا أتوفر على حجج أواجه بها زملائي المؤيدين لألمانيا من جمعية الاتحاد والترقي. كل ما استطعت القيام به، بفضل ما وفرتَ لي من مال، هو أن أوزع على أعضاء الحكومة مبالغ مهمة من البقشيش حتى يمنعوا إصدار تأشيرات سفر لصالح المهندسين الألمان.

- وهذا في حد ذاته ليس أمراً سيئاً - لاحظ المستضيف - وماذا عن شركة النفط الإنجليزية-الفارسية؟ سمعتُ أن دارسي أخذ يبحث عن رخصة استغلال النفط في بلاد الرافدين. . .

ارتسمت أول ابتسامة على وجه التركي منذ أن حل بمنزل صديقه الأرمني.

- ليست لديه أي حظوظ للحصول على ذلك - قال حازماً - قدّمْنا له عدة وعود. إنه يغدق علينا بالبقشيش. بل إن الصدر الأعظم قدم له رسالة يعده فيها برخصة لكن ذلك مجرد كلام. لن يحصل دارسي على أي شيء.

- يسعدني معرفة ذلك. وماذا عن شركة ستاندرد أويل؟

- الأمريكيون؟ نفس الأمر. بعثوا إلينا أميرالاً بحرياً وعدنا بالقمر والنجوم. سوف نخدعه أيضاً بمسودة ترخيص. لا شيء يقلقك، يا صديقي العزيز.

اشرأبّ المستضيف بعنقه من فوق الكرسي ثم حوّل نظره نحو زورق شراعي جميل كان يقطع مياه بحر مرمرة، هادئاً وشامخاً.

- هذا جيد.

دقّ جرس الباب عند منتصف الزوال، بينما كان كالوست ما يزال يتحدث في الشرفة مع سليم باي. نزل رئيس الخدم السلاليم وذهب ليفتح الباب. وبعد لحظات مَثَل أمام صاحب البيت رفقة رجل نحيف أشقر، له شارب. كان فيليب بليك.

- لقد حدثتك مرات لا تحصى عن السيّد بليك، أفندي - قال كالوست بعد أن تبادلا التحية - إنه واحد من أهم حلفائنا. بصفته برلمانياً له علاقات مهمة في وزارة الخارجية البريطانية، جاء إلى القسطنطينية في مهمة خاصة.

التقط الإنجليزي الإشارة لأخذ الكلمة فعدل حنجرته ليتحدث.

- أخبركما أن حكومة صاحب الجلالة تعتبر أن صعود «حركة العثمانيين الشباب» تشكل فرصة رائعة لمواجهة تزايد نفوذ الألمان في الإمبراطورية العثمانية - قال بنبرته المتكلفة - تقرر العمل على تأسيس بنك بريطاني صرف هنا في القسطنطينية، باستعمال موارد ائتلاف مالي إنجليزي يجمع ثلة من أغنى الرجال في بلدي، مثل لورد ريفيلستوك ولورد هارينغتون.

- أي لورد ريفيلستوك تقصد؟ - سأله وزير المالية العثماني، وهو منبهر بتلك الأسماء - هل تعني أحد الإخوة بارينج؟

- تماماً - أكد بليك - نظراً لمعارف السيّد ساركيسيان في القسطنطينية، فإننا دعوناه لينضم إلى فريقنا بوصفه مستشاراً تقنياً.

- في رأيي، قطاعُ البنك في الإمبراطورية العثمانية ليس مربحاً - سارع كالوست ليوضح - إن البنوك الألمانية، والإيطالية والفرنسية تقوم بمجازفات تُعتبر غير مقبولة في إنجلترا. ربما قد يجد بنك إنجليزي عدة صعوبات ليشتغل في أجواء تنافسية شرسة.

- ننتظر ونرى - ردّ صديقه.

- هذا البنك. . . ماذا سيكون اسمه؟ - سأل سليم باي - في أي قطاعات سوف يستثمر؟

- إننا نفكر أن نطلق عليه اسم «بنك تركيا الوطني»، برساميل إنجليزية خالصة - أوضح بليك - تسعى إلى دعم مشاريع في قطاع الكهرباء والري في المناطق التي تعاني من شح المياه، مثل بلاد الرافدين.

- يبدو هذا جيداً جداً - وافق الوزير العثماني بملامح ارتياح على وجهه - لا أرى صعوبة في أن نوافق على مبادرة تستحق الثناء كهذه. إنها فكرة رائعة.

- رائعة جداً!

غير قادر على أن يترك فرصة تمر وهو يراها، تململ كالوست في كرسيه.

- هناك مجال أظن أنه سيكون مجدياً أن يتحرك فيه بنك تركيا الوطني - قال بنبرة هادئة، حتى لا يفزع الطرائد - أن يترشح للفوز بتراخيص النفط.

- يا إلهي، ساركيسيان! ها قد عدت مرة أخرى لذكر النفط

اللعين! - صاح الإنجليزي بحركة تنم عن الغضب - اللعنة! ألا تستطيع أن تفكر في شيء آخر؟

حدجه الأرمني بنظرة ممتعضة.

- هل تريدون الاستفادة من مساعدتي وخبرتي في القسطنطينية لإقامة هذا البنك؟ إذاً، مقابل ذلك، أنتظر منكم مساعدة بسيطة في مشروعي الصغير هذا. إنه ليس بطلب صعب، ألا تظن ذلك؟

في الحقيقة، كان يبدو طلباً معقولاً تماماً ولم ير بليك كيف يمكن أن يطرح أي اعتراض.

- تماماً - قال موافقاً وهو يستجيب للطلب - احك لي إذاً ما يجري.

- ما يجري هو أنني أعمل منذ سنوات بمعية سليم باي للحصول على رخصة نفط في بلاد الرافدين، دون جدوى - قال كالوست، وهو يحول نظراته نحو صديقه التركي كما لو أنه يطلب منه أن يشرح الأمور.

- الألمان، أصحاب «دوتشه بنك» أو البنك الألماني، الذي يبنون لنا خط السكة الحديدية بين الأناضول وبغداد، حصلوا من السلطان على حقوق التنقيب المعدني في الأراضي المجاورة لخط السكة الحديدية - شرح وزير المالية - حاولتُ أن ألغي هذا الأمر، لكن أخشى أن يكون اللوبي المساند لألمانيا داخل جمعية الاتحاد والترقي قوياً جداً. بفضل المساعدة المالية التي قدمها لي السيّد ساركيسيان، بالكاد تمكنت من نسف جهود هؤلاء الأشخاص.

- من هم هؤلاء الألمان الذين يقفون وراء المشروع؟ - سأل النائب الإنجليزي - هل قُلتَ «دوتشه بنك»؟

- تماماً - أكد سليم باي - إن المصالح الألمانية هي التي تعيق

محاولات السيّد ساركيسيان في الحصول على ترخيص. هم ينسفوننا ونحن ننسفهم. ولا أحد منا وصل إلى أي نتيجة.

- من الأفضل التوصل إلى تفاهم مع الألمان - قال كالوست على سبيل الاقتراح، وهو يلتفت نحو بليك - هل تظن أن بنك تركيا الوطني يستطيع القيام بهذه الوساطة؟

داعب صديقه الإنجليزي شاربه الأشقر بأصابعه، في حركة تأملية.

- إن لورد هارينغتون صديق شخصي لقيصر ألمانيا - لاحظ - وفوق هذا، ونظراً لما يتحمله من مسؤوليات في بورصة لندن، وما يتوفر عليه من معارف في الدوائر المالية العليا بألمانيا، بما فيهم فون غوينير، رئيس البنك الألماني. لا يبدو لي الأمر مستحيلاً.

اتّسم ردُّ فعل المسؤول التركي بالرضى.

- أظن أنها فكرة رائعة! - صاح - إن تحالفا بين البنك الألماني وبنك تركيا الوطني الذي تريدون إقامته سيوفر للسيّد ساركيسيان شروطاً جيدة للحصول على الترخيص. وسيعفي هذا الحكومة العثمانية من حرج أن تقول لا لأي طرف من الأطراف. بما أن كل المعنيين في مركب واحد، وبمساعدة قدر من البقشيش، سيكون من السهل الموافقة على هذا الترخيص الذي ذاع صيته.

أشار كالوست بإصبعه إلى سليم باي.

- وحتى يكون ذلك مجدياً، لا بد من شيء آخر إضافي - ذكّرَ - يجب أن نستحضر أنه، على إثر التقرير الذي أنجزتُه حول نفط بلاد الرافدين، اقتنى السلطان لحساب خزينته الخاصة كل الأراضي المتواجدة في الجهة، وخاصة في منطقة الموصل. وكانت فكرة

جلالة الملك هي أن يستولي على إيرادات التراخيص في حالة ما تم اكتشاف النفط. هكذا، تبقى الدولة العثمانية خالية الوفاض. لكن هذا غير ممكن، أليس كذلك؟

أدرك الوزير العثماني أبعاد تلك الملاحظة. إن ظلت منطقة النفط في ملك السلطان، لن يكون هناك من بقشيش لأي أحد إلا إذا كان للسلطان نفسه. وهذا، في الحقيقة، أمر غير ممكن. دون دفع أموال من تحت الطاولة، لا يمكن لأي أمر أن يسير.

- أنت على حق، تماماً يا عزيزي - اعترف - كعادتك، أنت تهتم بالتفاصيل - ثم أخذ مذكرته وخربش خطاً - سوف أبدأ على الفور عملية تشريعية لتحويل هذه الأراضي ووضعها تحت وصاية وزارتي. من جهة أخرى، هذه أحسن طريقة للتأكد من أن الألمان لن يكون لهم أي حق في أي شيء إن لم يتوصلوا إلى اتفاق معكم.

وأخيراً، لاحت معالم ابتسامة على محيا كالوست. كانت خطة العملية تبدو له مثالية. بوصفه مستشاراً للعثمانيين والإنجليز، كان في وضع مثالي؛ ينصح هؤلاء وأولئك بأن يفعلوا نفس الشيء، وهكذا يصلون جميعاً إلى حيث يريدهم أن يصلوا. في مثل هذه الظروف، كيف يمكن له أن يفشل؟

كأنه يجري مفاوضات مع نفسه.

نظراً لمسؤولياته الجديدة بوصفه مصرفياً ومستشاراً للحكومة العثمانية، وهو ما احتفى به باقتناء لوحة **فيلا دافري** للفنان كورو، دخل كالوست في إيقاع محموم من الأسفار. تضاعفت رحلاته إلى القسطنطينية على متن «قطار الشرق السريع»، يحمل دائماً جوازه البريطاني ورخصة عبور في حالة ما حدث شيء ما بشكل خاطئ، ثم

يعود إلى باريس ولندن. وكانت هذه الرحلات التي لا تتوقف سوى لفترات قصيرة من الراحة، تسهر على تنظيمها مادام دوبري بكل نجاعة.

كان هذا هو ما يجري خلال ذلك الأسبوع الذي ذهب خلاله ليستريح في «الكوت دازور» مع عشيقته، فتاة شقراء جميلة في السادسة عشر اسمها هيلين كان قد لمحها قبل شهرين في مسرح ريجان وهو يتابع إحدى مسرحيات موليير. كانت هيلين تتابع من القاعة ما يجري على خشبة المسرح، فاكتشفها كالوست وهو يتفحص الجمهور بالمنظار انطلاقاً من مقصورته. خلب عقله ذلك الشعر الذهبي المجعد من أول نظرة، فأغدق عليها بطوق شعر من الماس ليكسب حبها في المرة الثانية، ثم قامت مادام دوبري بالباقي، كعادتها.

- ضعوا رهاناتكم!

أثار صوت موزع أوراق اللعب حركة متوترة حول الطاولة، حيث كان عدة مقامرين يدفعون قطعاً نقدية فوق الأرقام التي يراهنون عليها.

- رقم أربعة عشر، أيها الجميل! - توسلت إليه هيلين، وهي تصفق مهتاجة - رقم أربعة عشر!

تردد الأرمني.

- أنت تعرفين أنني لا أحب القمار، يا حبيبتي!

كشفت الفرنسية الشقراء عن ابتسامةٍ متوسّلة.

- أوه، أيها الجميل! - توسلت إليه وهي تعبس بشفتيها القرمزيتين - هذه المرة فقط، هيا...

أخرج كالوست من جيبه قطعة نقدية ذهبية ووضعها فوق رقم أربعة عشر. كانت القطع النقدية من فئة عشرين فرنكاً هي المتداولة في القمار في كازينو مونت كارلو.

- حسناً، فقط هذه المرة.

حرّك موزع الأوراق عجلة القمار، وبعد بضع ثوانٍ ظلت الكويرة خلالها تقفز بين الأرقام التي تدور، خرج الرقم الفائز: سبعة عشر.

- أووووه!

لم يكن هناك من قمار آخر تلك الليلة. تجول الاثنان بين قاعات الكازينو، يستمتعان بالعواطف التي تنشأ وتموت حول مختلف الطاولات، وعندما حان الوقت، أشار إليها كالوست أن يتوجها نحو الباب.

- لدي عشاء مع صديق في الرواق - قال - اذهبي إلى الفندق واطلبي أن يقدموا لك العشاء في الغرفة. بعد ذلك، سألتحق بك ونذهب معاً لمشاهدة حفل الشهب الاصطناعية أمام الكازينو، هل توافقين؟

افترقا وتوجهت هيلين نحو «فندق باريس» الرائع، حيث كانا يقيمان، بينما توجه كالوست نحو رواق شارل الثالث. كان يموت رغبة وفضولاً لمعرفة ما قد يجلبه صديقه الإنجليزي من أخبار. فقد كان الرأس الوحيد من رؤوس المثلث الإنجليزي-العثماني-الألماني الذي لا يسيطر عليه كالوست مباشرة هو الألماني. لكن، بفضل خدمات فيليب بليك القيمة، كان لورد هارينغتون قد ذهب إلى برلين والتقى برئيس البنك الألماني. استقى رجل المال الإنجليزي معلومات جيدة حول مسألة النفط في بلاد الرافدين، وكان

الموضوع، حسب ما علمه الأرمني، ضمن جدول أعمال ذلك اللقاء.

كشف فيليب بليك عن نتائج حوار برلين خلال عشاء تلك الليلة، بعد أن عاد لورد هارينغتون إلى لندن. كان المطعم يعج خصوصاً بالدوقات الروس الكبار الذين أخذوا قطار سانت بطرسبرغ السريع، مليونيرات أميركيِّين ولوردات إنجليز. وهناك، في مائدة وسط هذا البحر من زبناء المجتمع الراقي الذين يترددون على رواق شارل الثالث، وجدهُ الصديقُ الذي وصل لتوه من لندن.

- وافق الألمان! - صاح بليك ما إن جلس إلى المائدة، وبريق حماس يلمع في عينيه - أؤكد لك هذا، بل إن لورد هارينغتون قال لي إنهم بدوا مرتاحين!

كان الخبر رائعاً، لكن الأرمني ظلّ يحتفظ بوجه مستغلق.

- كيف قلت؟ مرتاحين؟ بأي معنى؟

- يبدو أن البنك الألماني تنقصه الأموال لاستثمارها في التنقيب عن النفط وتمويل مشروع بناء خط السكة الحديدية في الأناضول - كشف - كل هذه العمليات مكلفة جداً، كما تعرف. لذلك، ما إن اقترح عليهم لورد هارينغتون تحالفاً حتى قبلوا على الفور. هم بحاجة لأموال من الأوساط المالية العليا في بريطانيا. منذ سنوات وهم يحاولون بمختلف الوسائل الحصول على دعم مالي من لندن، لكن هذا المسعى كان يصطدم تباعاً بعراقيل لأسباب سياسية. وهذه طريقة لتجاوز هذه المشكلة.

- آه، رائع! - قال كالوست مرتاحاً، هذا رائع!

ضحك البرلماني الإنجليزي.

- لم يكن الألمان مسرورين تماماً عندما حدّثهُم عنْكَ لورد هارينغتون - أضاف - منافستُك لهم على ترخيص نفط بلاد الرافدين أثارت انزعاجهم. بيد أن لورد هارينغتون، الذي زوّدتُه بمعلومات مفصلة قبل ذهابه إلى برلين، شرح لهم أنه من دونك أنت، أيها الصديق، لن يكون ممكناً أي تحالف. ليس فقط لأنك تشكل خيط الوصل بيننا وبين الحكومة العثمانية، ولهذا لا يمكن أن نستغني عنك، بل أيضاً لأن مجال النفط ليس من مهام بنك تركيا الوطني الجديد. هكذا، قبل الألمان على مضض.

تم الاحتفال بالخبر هناك في تلك المائدة بواسطة قنينة نبيذ من نوع «دون بيرنيون» فُتحت خصيصاً لتلك المناسبة. بيد أن الاحتفالات الحميمية كانت على حساب هيلين تلك الليلة.

- ينقصنا شيء واحد فقط - قال كالوست وهو يشعر بالرغبة في الاحتفال مع فتاته الفرنسية الشقراء - خلقُ شركة تُكمِل هندسة هذه العملية.

- حسناً، هذا أمر بديهي.

- نحن بحاجة لإقحام شركة رويال داتش شل في هذه الصفقة. في نهاية المطاف، هم من يملكون كل التكنولوجيا الخاصة بالتنقيب، والاستغلال، والنقل و. . .

- دع شركة رويال داتش شل خارج هذا الأمر حالياً - اقترح الإنجليزي - فقط قد تعرقلنا في هذه المرحلة. لنحافظ على كل شيء بسيطاً قدر الإمكان. هل لديك فكرة عن الاسم الذي سنطلقه على الشركة التي ستحظى بترخيص بلاد الرافدين؟

فكر الأرمني بضع ثوانٍ؛ ينبغي أن يكون الاسم قصيراً ومعبراً عن كل شيء.

- لماذا لا نسميها Turkish Petroleum Company؟

كلفت إقامة الشركة الجديدة كالوست أنهاراً من البقشيش، وأيضاً لأداء حصته المرتفعة في رأس مالها. أخذ البنك الألماني خمسة وعشرين في المائة من رأس مال شركة Turkish Petroleum Company، أداها على شكل حقوق استغلال المعادن في عشرين كيلومتر من جانبَي خط السكة الحديدية إلى الأناضول، التي قدمها السلطان خلال زيارة قيصر ألمانيا إلى القسطنطينية ثم وُزعت بعد ذلك بين باقي المساهمين في الشركة الجديدة. وكسب بنكُ تركيا الوطني خمسة وثلاثين في المائة بينما احتفظَ المستثمرُ الأرمني بأربعين في المائة، أداها نقداً بكاملها.

اثنان وثلاثون ألف سهم التي كانت من نصيب كالوست كلفتهُ مبلغاً كبيراً، اثنان وثلاثون ألف ليرة، لكن ذلك لم يقلقه. اقتنى معظم تلك الحصة ليبيعها قريباً إلى شركة من اختياره بثمن لا يسمح بأن يعاني من أي ضرر. بعد ذلك، كانت تُطرحُ مسألة النفط في حد ذاته. لم يكن قد تم أي اكتشاف بعد، لكن المؤشرات التي جمعها في التقرير الذي حرره قبل عشرين سنة لفائدة السلطان كانت تقنعه بأن الأمر يتعلق بمسألة وقت قبل العثور عليه.

- لديّ مجموعة أسهم من هذه الشركة الجديدة أريد أن أبيعها لشركة نفطية - قال كالوست، الذي جاء بعد أسبوعين، عائداً من جولته الناجحة في القسطنطينية والكوت دازور، والتقى في مطعم كارلتون في لندن بهانديك فان تيغلين - فهل تكون شركة رويال داتش شل مهتمة بشرائها؟

– هذا يتوقف على أمور معينة – قال الهولندي بشيء من الحذر – ماذا تضم هذا الشركة بالضبط؟

– نفط بلاد الرافدين. لا أقل ولا أكثر.

هذا التأكيد جعل هاندريك يقطّب حاجبَيه.

– هيّا كفى! – صاح بصوت ملأه التشكيك – إن الألمان هم من يملكون الترخيص.

– فعلاً، لكن ليس هذا هو كل ما في الأمر – وضح الأرمني – يملك الألمان حقوقاً على الأراضي التي يمر عبرها خط السكة الحديدية نحو الأناضول، لكن هذه الحقوق لم يسبق تأكيدها قط من خلال ترخيص رسمي. إنها مجرد امتياز مسبق. بفضل معارفي النافذة في القسطنطينية، تمكنتُ من أن أمنع منحهم هذا الترخيص.

– وما الذي تغيّر؟

– ما تغيّر هو أن الألمان، الذين كنتُ أقاطعهم ويقاطعونني، أصبحتُ معهم اليوم في نفس الشركة، Turkish Petroleum Company، التي أنشأناها مؤخراً. وأصبح معنا الإنجليز بدورهم، من خلال بنك تركيا الوطني. في هذه الظروف، أكد لي وزير المالية في حكومة «حركة العثمانيين الشباب»، وهو صديق قديم، أنهم سيمنحوننا رخصة استغلال النفط. هل تريد أن تنضم إلى هذه المجموعة أم لا؟

كان الهولندي ما يزال يُقيّم الموقف الذي ظهر أمامه.

– عن أي مبلغ تتحدث؟

– إنني أملك أربعين في المائة من أسهم هذه الشركة – قال كالوست – أبيع لك عشرين ألف سهم، مما يعني أن رويال داتش شل ستملك خمسة وعشرين في المائة من أسهم شركة Turkish

Petroleum Company. إنها حصة مهمة! البنك الألماني، بدوره، يملك خمسة وعشرين في المائة، وبنك تركيا الوطني خمسة وثلاثين في المائة، أما أنا، بتحقيق تنازلي عن عشرين ألف سهم، سأحتفظ بخمسة عشر في المائة.

تردّد مرة أخرى رئيسُ رويال داتش شل.

- وهل هناك حقاً نفط في بلاد الرافدين؟ ألسنا نجري وراء سراب؟

- هناك بحر من النفط ينتظرنا في بلاد الرافدين! - صاح الأرمني - ما هو شكُّك؟ عندما قمتُ بإنجاز ذلك التقرير لفائدة السلطان، قبل عشرين عاماً، كانت المعلومات التي حصلت عليها مُقْنعة جداً. إن تركتَ هذه الفرصة تمرّ، يا عزيزي، فإنك لم تتعلم شيئاً من فشلك الذريع في بلاد فارس، حين رفضت الترخيص وهو ما صنع ثروة شركة النفط الإنجليزية-الفارسية. لا تترك شيئاً كهذا يحدث مرة أخرى! إنها صفقة القرن بين أيدينا!

جالت عينا هاندريك الزرقاوان لحظة عبر قاعة المطعم ثم توقفتا عند عازف البيانو الذي كان يؤدي قطعة نمساوية معينة كان قد سمعها أثناء إحدى رقصات الباليه. بعد ذلك، حدّق إلى مخاطبه بابتسامة موافقة ومدّ له يده.

- لقد أقنعتني.

14

مكتبة
t.me/t_pdf

نزل صمتٌ مميت على قاعة الانتظار الضيقة عندما دخل رجلٌ يضع ربطة عنق بنفسجية له شارب طويل ومعقوف. كان كالوست وهاندريك جالسَين قرب النافذة يقرآن جريدة *The Times*، فتبادلا نظرات خاطفة وهما يتعرفان الوافد الجديد ويتظاهران أنهما لم ينتبها إليه، يدسّان رأسيهما أكثر في الجريدتين. بيد أن تلك المسرحية القصيرة المترجلة لم تدم طويلاً، لأنهما رأيا ذلك الحجم يدنو ليقف ثابتاً أمامهما.

- أنا ويليام دارسي - قدّم نفسه - رئيس شركة النفط الإنجليزية-الفارسية.

لم يكن هناك من مفرّ. أنزل الصديقان الجريدتين وأظهرا دهشتهما لأنهما رأيا شخصاً آخر في القاعة الصغيرة، كما لو أنهما لم ينتبها لدخوله.

- آه، مستر دارسي! - صاح الهولندي، وهو يرسمُ ابتسامة متكلفة ويمدّ يداً مترددة - سعيد بمعرفتك!

تبادل الثلاثة التحية ثم جلس دارسي إلى جانبهما وشبك ساقه اليمنى، مظهراً ارتياحه الكامل. ظل كالوست صامتاً بوجه مستغلق،

كعادته، تاركاً متاعب الحديث لصديقه الهولندي. فضّل أن يدرس حركات الوافد الجديد وتصرفاته فلم يرقه ما رأى. شعر به واثقاً من نفسه أكثر من اللازم، وهذا ربما إشارة إلى أن منافسهم في شركة النفط الإنجليزية-الفارسية كان يخبئ ورقة رابحة في كُمّه. فماذا تكون؟ حاول أن يقاوم ارتيابه الغريزي وقال مع نفسه إنه ربما يتخيل أشياء.

- هل جئتما أيضاً لحضور الاجتماع مع أميرال البحرية البريطانية؟ - سأل رئيس شركة النفط الإنجليزية-الفارسية - هل تعرفان إن كان الأميرال فيشر سيكون حاضراً؟

- يبدو أن الأمر كذلك.

كان جواب هاندريك مختصراً ورتيباً بما يكفي ليشير إلى أنه لم يكن على استعداد للخوض في أي حديث. ران صمتٌ مزعج في القاعة الصغيرة. بالكاد كان يسمع الأرمني والهولندي وهما يتصفحان نسختَيهما من جريدة *The Times*.

عدّل دارسي ربطة عنقه البنفسجية، وبعد صمت طويل ضبط حنجرته.

- علمتُ أنكما قد حققتما نجاحاً في الإمبراطورية العثمانية - لاحظ بنبرة ساهية، كما لو أنه يريد فقط أن يواصل حواراً عرَضياً - ما هو اسم الشركة؟ - ثم ضيّق عينَيه كأنه يقوم بمجهود للتذكر - Turkish Petroleum Company، أليس كذلك؟

بدا محاوراهُ منزعجَين شيئاً ما وعادا ليتبادلا نظرات قلقة.

- نعم - دمدم هاندريك، دون رغبة في إعطاء مزيد من التفاصيل - هذا هو الاسم.

- هل صحيح أن حكومة «حركة العثمانيين الشباب» سلمت رخصة استغلال لهذه الشركة؟

- هممم - ردّ الهولندي، وهو يحاول أن يبدو بأكبر قدْر ممكن من الغموض.

- كيف قلت؟

وبالفعل، لم يكن ليبدو أكثر غموضاً من ذلك.

- نعم...

دائماً بابتسامة واثقة مرسومة على محياه، غيّر دارسي السّاق وشبك ساقهُ اليسرى.

- منذ مدة وأنا في القسطنطينية أحاول الحصول على هذا الترخيص اللعين - قال - تعبت من مدّ العثمانيين بالمال وهم أغرقوني بالوعود. وفي الأخير...

ظل كالوست صامتاً ومستغلقاً، كما كان طبعه، بيد أن هاندريك، غير قادر على الحفاظ على تعابير غير واضحة، تكلف من جديد ابتسامة وهزّ كتفيه، كما لو أن لا شيء من ذلك يعنيه.

- إنها الحياة...

حرّك رئيس شركة النفط الإنجليزية-الفارسية رأسه موافقاً، معطياً الانطباع بأنه يتفق مع تلك السخرية المطبوعة في الملاحظة.

- أنت محق في هذا الأمر - وافق - لكن، لا شيء يمنع شركة النفط الإنجليزية-الفارسية من اقتناء قسط من هذه الشركة الجديدة. أليس هذا صحيحاً؟

ومرة أخرى، تبادل الصديقان النظرات، جد قلقين وهما يريان منافسهما يسمح لنفسه بكل تلك الحرية. كان ذلك الإعلان وقاحة. كيف يتجرأ على الذهاب إلى هذا الحد؟

- أخشى ألا تكون أسهمُنا للبيع - ردّ رئيس شركة رويال داتش شل بنبرة باردة - لكن، إن تحدثت مع البنك الألماني، ربما يقبلون بالتوصل إلى تفاهم معك.

أطلق دارسي قهقهة صريحة، كما لو أنه تابع للتو نكتة ما ضمن مشهد هزلي في عرض مسرحي.

- أنتما ظريفان!

لما سمع هذه الملاحظة، وجّه كالوست نظراته مرة أخرى إلى الجريدة وتظاهر بأنه مهتم ببرقية مؤرخة بتاريخ 3 يوليو من سنة 1911، قبل يومين، تقدم تفاصيل حول دخول السفينة المدفعية الألمانية «بانثر» إلى ميناء أكادير، موضوع يبدو أنه أثار حماس صاحب المقال. بيد أن ذهن الأرمني كان يعيد ليحلل بهوس تصرفات المنافس وما تلفظ به من كلمات في ذلك الحيّز القصير من الوقت. فاستنتج بكل وضوح أن دارسي كان يخبئ ورقة رابحة من دون شك. فماذا تكون هذه الورقة؟

في الوقت المحدد، فُتح باب المكتب فظهر رجل في الثلاثينات من عمره، يبدو طيباً وبين شفتيه سيجار يتصاعد دخانه، حيّا الضيوف وأشار إليهم أن يدخلوا.

كان المكتب فسيحاً، مع علم الاتحاد البريطاني خلف الطاولة وصورة للملك جورج الخامس معلقة على الجدار. إن قانون الحياة لا يرحم، فكّر كالوست وعيناه تقعان على صورة صاحب الجلالة؛ مات الملك، عاش الملك! كان رجل سبعيني، بشعر أبيض وبدلة داكنة تغطيها الميداليات عند الصدر، جالساً عند طرف مائدة طويلة

فوقف فجأة ليستقبل الرجال الثلاثة من عالم النفط ويدعوهم للدخول إلى المكتب.

- أيها السادة، أقدم لكم الأميرال فيشر - قال المستضيف الشاب - إنه واحد من أعظم قبطان البحر الذين جادت بهم هذه الأمة البحرية على مرّ التاريخ!

جلسوا جميعاً إلى الطاولة فتفحصهم كالوست جميعاً، واحداً تلو الآخر. لم يكن هناك الكثير ليضيفه عن هاندريك ودارسي أكثر مما كان يعرف، لذلك فحص بكل فضول محاورَيه الآخرَين. كان الأميرال فيشر معروفاً بطبعه المزاجي وحزمه القوي في التعبير عن قناعاته. كان يُقال إن الملك إدوارد السابع الذي توفي مؤخراً، أثناء جدل مع فيشر، قال له: «أودّ لو تتوقف عن التلويح بقبضة يدك أمام وجهي».

أما المُستضيف، فلم يجد له الأرمني من وصف يناسبه. كان أميرال البحرية البريطانية، وهي أعلى وظيفة مدنية تقع تحت مسؤولية البحرية، يبدو له شاباً يريد أن يبدو رجلاً كاملاً. كان ظريفاً ومنفتحاً، مع ميل ما نحو السمنة، لكنه يتمتع بنظرة متيقظة تشي بدهاء كبير وحس دعابة قوي.

- إن الموضوع الذي دفعني إلى دعوتكم اليوم إلى هذا الاجتماع له علاقة، كما تخمنون، بخيار استراتيجي ينبغي على البحرية البريطانية أن تتخذه - أعلن أميرال البحرية البريطانية وهو يفتتح الاجتماع - هل ينبغي لسفننا البحرية أن تستمر في استعمال الفحم كمحروق أم علينا أن نتحول نحو النفط؟

- النفط! - صاح على الفور الأميرال فيشر، وهو يخبط الطاولة خبطة مدوية براحة يده - إن القاعدة الذهبية التي أؤمن بها، مستر

تشرشل، هو أنه لا ينبغي لنا أبداً أن نسمح لأي كان أن يتجاوزنا! أؤمنُ إيماناً راسخاً أنه فقط بواسطة النفط سوف نستطيع أن نضمن. . .

لما رأى الأميرالَ مندفعاً في دفاعه الحماسي عن وجهة نظره القديمة، رفع أميرال البحرية البريطانية الشاب والطموح، يده ليوقفه.

- هدئ من روعك، سيّدي الأميرال! - قاطعه، كما يكبح خادم فرساً جامحاً - سوف أعطيك الكلمة، كن مطمئناً. دعني فقط أقدم لضيوفنا المسألة كما أراها، حتى نناقش الموضوع بشكل أفضل.

- آه، أستسمح - قال الأميرال فيشر وهو يحمرّ خجلاً - بكل تأكيد. . .

بعد أن استعاد السيطرة على الحديث، سحب أميرال البحرية البريطانية بكل هدوء نفَساً من سيجاره ثم أطلق سحابة دخان معطرة بأعشاب غريبة.

- إن حكومتنا، كما تعرفون، منقسمة بخصوص هذه المسألة - أكد، وهو يستأنف تحليلهُ - فوزير المالية، مستر لويد جورج، يعارض الاستثمار في بحرية تعتمد على النفط لأسباب مالية. ليست هناك من أموال تكفي لكل شيء. حتى نبني سفناً جديدة، ينبغي أن ننهي نظام المعاشات الذي وضعناه قبل سنتين فقط. حسناً، إن هذا، على أقل تقدير، قرارٌ. . .

- هل سنضع تفوُّق بريطانيا البحري في الشك بسبب العجزة؟ - قال الأميرال فيشر غاضباً - أهكذا تُبنى إمبراطورية في أيامنا هذه؟ أبهذه الطريقة. . .

- هدئ من روعك، سيّدي الأميرال - قال تشرشل مرة أخرى - دعني أكمل كلامي، من فضلك!

طأطأ الأميرال فيشر رأسه، مثل طفل فاجأه للتو متلبساً وهو يسرق الحلوى.

- أنا آسف.

سحبَ أميرال البحرية البريطانية نفَساً جديداً من سيجاره.

- يجب أن أقول إنني كنت أتفق مع السيّد لويد جورج لمدة طويلة. لكني غيّرتُ رأيي - ثم أشار إلى الجرائد فوق طاولة صغيرة بجانبه - لا أعرف إن قرأتم الأخبار. هناك سفينة مدفعية ألمانية دخلت اليوم إلى ميناء أكادير، في مناورة استفزازية بكل وضوح. لقد أقنعني هذا الحادث بشكل نهائي أن الألمان يتصرفون بطريقة تدعو إلى الحرب ويريدون أن يتحدوا تفوقنا في المجال البحري.

رفع الأميرال فيشر إصبعه.

- إن ألمانيا ستكون أكبر عدو لإنجلترا في السنوات القادمة - صاح - سجِّلوا ما أقول: عاجلاً أم آجلاً سوف نواجه بعضنا في حرب!

- حسناً، هذا هو أكبر تخوف لديّ - أومأ تشرشل موافقاً - ألم يكن الرومان هو من كانوا يرددون «Si vis pacem para bellum»؟ كانوا على حق! إن أردت السلم، فاستعد للحرب! إن نحن تجاهلنا التحدي الألماني قد نستيقظ يوماً على البرابرة عند أبوابنا. لذلك علينا أن نستعد للحرب كي نضمن السلم - ثم قام بحركة شملت كل مُحاوِريه - لهذا دعوتكم إلى هذا الاجتماع. ما حدث في أكادير أظهر لي أن الألمان يمارسون الهجوم. ولمواجهتهم، علينا أن نحدث تحولاً في بحريتنا. لكن، هل يكون النفط هو الحل فعلاً؟

فتح هاندريك فمه ليجيب، لكن قبل أن يصدر أدنى صوت كان الأميرال فيشر قد انفجر.

- النفط هو الوسيلة الوحيدة! - قال حازماً بقناعة قوية - لقد دشنت ألمانيا ما تسميه Weltpolitik، أو سياسة غزو العالم وقرر القيصر أنه حان الوقت كي تمتلك بلاده بحرية حربية في مستوى البحرية الحربية الإنجليزية. هذا أمر مرفوض تماماً! لا يمكن التشكيك في تفوق بريطانيا في البحار بأي شكل من الأشكال. وللحفاظ على هذا التفوق، علينا أن نعمل على تحديث سفننا.

- هذا أمر لا نقاش فيه، أيها الأميرال - سارع تشرشل ليقول - لكن ما على المحكّ هو أن نعرف إن كان ينبغي لبحريتنا أن تعتمد النفط محروقاً. وما هي، في نهاية المطاف، مزايا النفط؟

وقبل أن يسبقه الأميرال فيشر مرة أخرى، سارع رئيسُ شركة رويال داتش شل ليجيب، وهو يتلهف لاستعراض معارفه.

- يمثل النفط امتيازاً كبيراً، مستر تشرشل - أكّد هاندريك - إن سفينة تشتغل بالنفط تبلغ بشكل أسْرع سُرعَتَها القصوى من سفينة تشتغل بالفحم. وفوق هذا، فإن سرعتها القصوى تكون أكبر.

- إن أقصى سرعة تبلغها سفننا التي تشتغل بالفحم هي إحدى وعشرون عُقْدة - أوضح الأميرال - لكن الألمان يصنعون سفناً تشتغل بالنفط تبلغ سرعتها القصوى خمساً وعشرين عقدة. أثناء معركة ما، السرعة عامل حاسم، كما تعرف. لا يمكننا أن نترك الآخرين يتجاوزوننا!

- ثم هناك مسألة دوام الطاقة - أضاف الهولندي، منشغلاً بألا يترك الجواب يمر من دون تكاليف - إن سفينة نفطية تستطيع أن تستمر في أعالي البحار لوقت أطول من سفينة فحمية. وعلاوة على

هذا، يمكن تزويدها بالطاقة مرات أخرى في أعالي البحر، إن كانت المياه هادئة، وهو ما لا تستطيع السفن الفحمية القيام به.

لكن الأميرال فيشر لم يترك زمام الحديث يفلت من قبضته. في الحقيقة، كانت هناك معلومات حول جوانب عملية مهمة تتعلق بالمناورات العسكرية البحرية لا يتقنها أهل النفط، لذلك كان من السهل استعادة الكلمة.

- هل انتبهت، مستر تشرشل، إلى أن سفن الفحم تترك دائماً خط دخان أسود يتصاعد منها في الهواء؟ هذا الأمر يسمح للعدو بالانتباه من بعيد إلى اقترابها مما يُصعّبُ أي مناورة لمباغتته. لكن سفن النفط لا تطلق هذه الأعمدة من الدخان، مما يجعلها لا تُرى تقريباً من بعيد. إذا طوّر الألمان هذا النوع من السفن وبقينا نحن نستعمل الفحم، فإن سفننا الحربية ستكون عبارة عن طيور بطّ في سباق للرماية. ثم هناك مشكلة تزويد الأفران بالطاقة. هذه المسألة يسهل حلها في سفن النفط، ما دام المحروق يُخزن على شكل سائل ويكفي نقله إلى المحركات. وليس الأمر كذلك بالنسبة للفحم، كما تعرف! ثلث طاقم السفينة يشتغل على الدوام في تزويد الأفران بالفحم، مما يشكل هدراً في الرجال. وقد سبق أن حدث لنا خلال إحدى المعارك البحرية أن اضطررنا لسحب عدة رجال من المدافع وإرسالهم إلى المخازن للبحث عما يجب من الفحم لتزويد الأفران بالطاقة. هذا خطير ويمكن أن يضعفنا في لحظات حاسمة من المعركة. لكن، مع النفط تنتفي هذه المشكلة.

رفع أميرال البحرية البريطانية كلتا يديه معلناً استسلامه ثم حرك السيجار بشفتيه.

- لكن، ما حاجتنا نحن بالفودكا إن كنا نتوفر على الويسكي؟

خلّفَ هذا السؤالُ تقطيباً شبه متزامن للحواجب حول الطاولة.

- عفواً. هذه هي المسألة التي يطرحونها عليّ في الحكومة كلما تحدثتُ عن تحويل بحريتنا إلى النفط. لدينا جبال من الفحم في بلاد الغال، لكننا لا نملك ولو قطرة نفط واحدة في كل أرجاء إمبراطوريتنا الشاسعة. لماذا علينا أن نستبدل الفحم الذي نملكه بالنفط الذي لا نتوفر عليه؟

- أستسمحك، مستر تشرشل - قال هاندريك - لكن شركة رويال داتش شل تتوفر على تراخيص نفطية في عدة بقاع من العالم. نحن في ظروف مثالية لضمان التزويد بالنفط.

- شركة النفط الإنجليزية-الفارسية أيضاً - سارع دارسي ليقول - إن آبارنا في بلاد فارس تتوفر على كميات من النفط يمكنها أن تزود بحريتنا الحربية لعدة عقود!

كان جواب أميرال البحرية البريطانية سحابة من الدخان، ويبدو أنه يولي اهتماماً أكبر بسيجاره الذي كان يداعبُه بأصابعه.

- هذا جميل - قال دون أن يرفع عينيه - لكن، في حالة حرب، ماذا لو أن العدو قطع علينا منابع التزوُّد بالنفط؟ ماذا سنفعل، إذاً؟

هذا السيناريو المبالغ فيه أغرق الحاضرين في صمت مطبق. لقد كانت المشكلة حقيقية، كما يعرفون، ولا أحد يملك حلاً واضحاً. إلا إذا تم اكتشاف النفط في أراضي صاحب الجلالة، وذلك هو جوهر المشكلة.

- إن ما تقوله، يا سيّدي - همهم الأميرال فيشر - هو أنه إن نحن اخترنا النفط، سنجد نفسنا أمام مشكلة التزوُّد.

- تماماً.

ثم عاد الصمت، أكثر وطأة من أي وقت مضى. لحظتها، بدأ أحد الحاضرين يحرك رأسه، في حركة أخذت تتقوى.

- لا أرى هناك من صعوبة.

- عفواً؟

كالوست، الذي ظل غارقاً حتى وقتئذ في أكبر صمت مطبق، عدّل حنجرته وانحنى على الطاولة، ليزداد جسده بروزاً رغم صغر حجمه.

- ماذا تقول كلمات نشيدنا الوطني؟ - سأل بنبرة منمّقة - «Britannnia rules بريطانيا تسود!» أليس كذلك؟ إذاً، هنا الجواب. بريطانيا تسود!

- إنني لا أفهم - قال تشرشل - ما قصدك؟

ظل الأرمني الذي حصل على الجنسية البريطانية بوجه خال من أي تعبير، كأنه يضع قناعاً.

- حتى نسيطر على البحار يجب أن نتحول إلى النفط. لو سيطرنا على البحار، لا أحد يستطيع أن يقطع علينا منابع التزوّد بالنفط. هنا يكمن الجواب. إن الهيمنة على البحار تعد وسيلة وغاية في حد ذاتها. هل فهمتم؟

فهموا كلهم، طبعاً. كان رجُلا النفط الآخران والأميرال فيشر يبتسمون أمام بساطة هذه الحجج، لكن أميرال البحرية البريطانية كان ما يزال يفكر في المعادلة. كانت مسألة يصعب حلها.

- ما تقترحه هو أنه لو اخترنا النفط، فإن مشكلة التزوُّد ستجد الحل من ذاتها، ما دمنا نضمن الهيمنة على البحار - أطلق ببطء سحابة من سيجاره - هذا حلٌّ مُغْرٍ، من دون شك - ثم تحول بنظره نحو الأميرال فيشر - ما رأيك في هذا؟

وكان الجواب حماسياً كما كان متوقعاً.

- هيا بنا بأقصى سرعة إلى النفط!

ألقى ونستون تشرشل نظرة على ملاحظاته.

- إننا نتوفر على ست وخمسين سفينة مُدمّرة تشتغل بالنفط وأربع وسبعين غواصة - كما عدَّها - إن القرار يهم السفن البحرية من نوع «الملكة إليزابيث»، والسفن الكبرى التابعة لبحريتنا الحربية. علينا أن نصنع منها خمسة، لكن ليس هناك من قرار بخصوص نوع المحروق الذي سيتم تزويدها به. لو أنني اخترتُ النفط، فإننا سنقوم بخطوة لا رجعة فيها دون أن تكون مسألة ضمان التزوّد قد حُلّت نهائياً. هل تظنون فعلاً أنه ينبغي أن نمضي قدماً؟

أشار العسكري المخضرم إلى كالوست.

- أظن أن السيّد ساركيسيان قد حل لنا هذه المشكلة.

تحولت النظرات الذكية لأميرال البحرية البريطانية للحظات نحو الأرمني. بعد ذلك، نهض السياسي الشاب وذهب إلى طاولة مكتبه يبحث عن ورقة، جلبها إلى الطاولة وعرضها على الحاضرين. كانت هي الوثيقة التي تضم أمراً رسمياً ببناء خمس سفن بحرية تشتغل بالنفط. جلس بتثاقل في مكانه، نفخ كأنه يحاول أن يكتسب مزيداً من الشجاعة، أخرج قلماً من الجيب الداخلي لمعطفه، وبحركة سريعة خربش اسمه عند نهاية الوثيقة.

- أيها السادة - أعلن بأبّهةٍ من طبعه، وصوتٍ يجرجر الكلمات التي تتموج في ترانيم تكاد تكون موسيقية - إن البحرية الملكية لصاحب الجلالة قد اختارت النفط. وهذا القرار، كما تخمنون، له نتائج جمة. لن أعدها جميعاً، لكني سأولي اهتمامي لتلك النتيجة التي تعنيكم مباشرة. مسألة التزوّد.

- آه - قاطعه هاندريك - فيما يخص هذا الأمر. . .

رفع أميرال البحرية البريطانية يده البدينة، في حركة متعالية تهدف كبْح اندفاع الرجل الأول في شركة رويال داتش شل.

- مهما يكن ما ستقولون، إنني أراهن على النفط حتى قبل حلّ مسألة التزوُّد - أعلنَ وهو يرفع صوته ليُسكت الهولندي - وبذلك نعانق بحراً من الصعوبات - ثم وجه سيجاره نحو مُحاوريه - إن بريطانيا العظمى لا تتوفر سوى على مُزوّدَين اثنين هما شركة رويال داتش شل وشركة النفط الإنجليزية-الفارسية. أي أنتما معاً. فمن واجبكم أن تجدوا النفط، تخزنوه بأسعار معقولة، توزعوه بثمن زهيد وبانتظام في وقت السلم وبأمان تام وقت الحرب - ثم لزم صمتاً للحصول على وقع درامي - فكِّروا جيداً في الأمر - وكانت عيناه الماكرتان تقفزان بين هاندريك، كالوست ودارسي كأنه يعريهم - فهل أنتم في مستوى هذه المسؤولية؟

- بكل تأكيد - ردّ هاندريك بشكل حازم - إن شركة رويال داتش شل تتوفر على حقول نفط ووسائل نقل كافية لتزويد إنجلترا بما تحتاج إليه من نفط.

تحولت نظرات تشرشل نحو الأرمني، وأجبرته على الخروج من صمته المتيقظ الذي كان يقدره أيما تقدير.

- كما تعرف، أنا ألعب لوحدي - قال كالوست مدافعاً عن نفسه - لكني وضعتُ نصب عينيّ تراخيص استغلال جديدة سوف تعزز محفظة استثمارات شركة شل وتُطمْئن حكومة صاحب الجلالة.

- هل تشير إلى بلاد الرافدين؟

قطب رجل القسطنطينية حاجبيه، مندهشاً لأن أميرال البحرية البريطانية ذكر بالاسم ذلك الترخيص الخاص.

- حسناً. . . نعم.

تبادل تشرشل ودارسي نظرات مشحونة بالإيحاءات لم تغب عن انتباه رجُلِي النفط الآخرَين.

- لقد علمت أنه قد تم إنشاء شركة تدعى Turkish Petroleum Company، لاستغلال ما تزخر به بلاد الرافدين من خيرات نفطية - قال عضو الحكومة وهو ينظر إلى هاندريك وكالوست بعينَين صارتا فولاذيتَين فجأة - حسناً، أريد أن تقوما ببيع حصتكما إلى شركة النفط الإنجليزية-الفارسية.

فتح الهولندي والأرمني عيوناً جاحظة، وهما يشكان إن كانا قد سمعا جيداً.

- كيف؟

- إنه من مصلحة بريطانيا الاستراتيجية أن تتحمل شركة النفط الإنجليزية-الفارسية مسؤولية التحكم في هذه الشركة الجديدة. وعليه، فإنني سأكون ممتناً لكما إن فوَّتُّما ما تملكانه من أسهم إلى السيّد دارسي حتى. . .

عاجزاً عن التحكم في مزاجه، نهض هاندريك بشكل مفاجئ، وجسده يرتعش من الغضب.

- أبداً! - صاح - أبداً، هل سمعت؟ كيف تجرؤ على طرح هذا الاقتراح؟

- سيّد فان تيغلين، عليك أن تهدئ من روعك - قال المستضيف - من مصلحتك أن تتصرف وفق رغبة حكومة صاحب الجلالة.

- هل استدعيتني إلى هذا الاجتماع لتقول لي هذا الأمر؟

- حسناً. . . نعم.

بشكل مفاجئ، مدّ رئيس شركة رويال داتش شل يده ليصافح أميرال البحرية البريطانية المندهش، قام بحركة خفيفة تجاه الرجال الآخرين، ودون تأخير توجه بخطى حازمة نحو الباب.

- إن هذا الموضوع، بالنسبة لي، لا يقبل النقاش - قال حازماً - طاب يومكم!

رافقهُ تشرشل ودارسي بوجهَيهما وهو يعبُر المكتب، وكلاهما منذهلين لردّة فعله الحادة، وظلّ كالوست كعادته يحافظ على تعابير وجهه المستغلق، فيما كان الأميرال فيشر يبدو كأنه لم يدرك ما كان يجري. تجاهل هاندريك ردود فعلهم، ودون أن ينظر إلى الوراء فتح الباب بحركة فظّة وخرج مسرعاً من هناك.

15

كانت عودة كريكور إلى المنزل انتصاراً حقيقياً. كان قد أنهى دراسته بالحصول على نقط عالية وتلك كانت هي اللحظة المواتية للاستمتاع بذلك. ظل بضعة أيام في رقم 38 من هايد بارك غاردنز واغتنم ما بقي من إقامة صديقه روجر في لندن، قبل عودته إلى بلفاست، ليقضي بعض الأمسيات في ويست إند. كان الأرمني يريد الذهاب إلى المسرح، بينما يفضل الأيرلندي التردد على الحانات، لذا قسما وقتهما بين هذين الشكلين من التسلية لإرضاء كل واحد منهما.

لكن، عندما رحل روجر استقر نوع من الفراغ في حياة كريكور. كان متعوداً على نشاط مكثف وحياة مليئة بالمهام والواجبات، لذا أصابه الفراغ المفاجئ بشيء من الانزعاج. وكان والده، وقتئذ، ينتقل بين لندن والقسطنطينية، يعالج تفاصيل أعماله. وبما أن «قطار الشرق السريع» كان ينطلق من باريس، فقد كان كالوست يقضي هناك قسطاً مهماً من وقته، دائماً في جناحه في فندق ريتز في ساحة فاندوم، حيث يستمتع بخدمات حسناء تحظى بعناية مناسبة من مادام دوبري.

خلال عشاء في البيت أثناء زيارته الأخيرة إلى لندن، وبعد تقديم الحساء، لاحظ ربّ الأسرة نظرة منطفئة في عيني ابنه فأصابه القلق.

- ما بك يا كريكور؟ لماذا أنت على هذا الحال؟

كان الشاب يبلغ ست عشرة سنة وقتئذ، فهز كتفيه.

- لا، لا شيء.

- لا، هناك شيء ما. أراك بعيون عابسة. ما الذي وقع؟

تنهّد الابن.

- عاد روجر إلى بيته وبقيت هنا لا أجد ما أقوم به - قال ثم تنهد - هذه العطلة مَلَلٌ لا يُطاق...

تركت الحالة النفسية لكريكور والدَه منشغلاً. تناول كالوست الحساء في صمت، وهو يفكر فيما سمعه للتو. خلال دقائق طويلة لم يكن يُسمَعُ في قاعة الأكل غير أصوات أدوات الأكل ترتطم بالأواني الخزفية وهمسات نونوفار توزع أوامرها على الخدم.

وعندما حضر، أخيراً، طبق اللحم، كان ربّ الأسرة قد فكر في كل ما ينبغي أن يفكر فيه، لذلك قطع الصمت الطويل.

- ماذا تريد أن تدرس الآن؟ - سأله - وما هي الجامعة التي تنوي أن تلتحق بها؟

نظر إليه الابن وقد فاجأه السؤال.

- أكسفورد أو كامبريدج، طبعاً - ردّ كأنه يقول بداهة - هل هناك من جامعة أنسب لمن يتخرج من ثانوية أورلي فارم؟

- وأي تخصص تريد أن تدرس؟

- حسناً... أفكر في متابعة الدراسات الكلاسيكية. كل

تكويني كلاسيكي، وهو ما أشكرك عليه - كان يتحدث بنبرة حالمة - أتعرف، يعجبني كثيراً هوراس. آه، إنه رائع! كل ليلة، قبل أن أنام، هل تعرف ما أقوم به؟ أقرأ قصيدة من قصائد هوراس - ثم قام بحركة بلاغية، كأنه ممثل يقوم بإلقاء - Maecenas atauis edite regibus, o et praesidium et dulce...

- هيا! هيا! - قاطعه والدُه، الذي لم يكن مستعداً لسماع ذلك - كفى!

وبتعبير متحذلق، تظاهر كريكور أنه قد تفاجأ.

- ألا يعجبك؟

غرس كالوست الشوكة في شريحة لحم قدمها الخادم في صينية ونقل منها قطعة إلى صحنه.

- ما لا يعجبني - ردّ بشيء من الغضب - هي مشاريعك هذه.

تلك النبرة الحادة في الجواب جعلت الابن يقفز من مكانه.

- لماذا، يا سيّدي؟ ما العيب فيها؟

كان ربّ العائلة يقطع شريحة اللحم قطعاً صغيرة، لكنه أوقف العملية ووضع أدوات الأكل على الصحن حتى يركز تركيزاً كاملاً على الموضوع.

- لا أحد يعيش على الدراسات الكلاسيكية ولا على هوراس - قال حازماً بنبرة لا تدع هامشاً للنقاش - هذه أمور تليق بالهواة. الكلاسيكيون بالكاد يصلحون لأحاديث الصالونات. . . وربما لا يصلحون حتى لهذا الأمر - ثم حرك رأسه بشكل حازم - لا. لن تتابع أي دراسات كلاسيكية. ثم إنك لن تذهب إلى أوكسفورد أو إلى كامبريدج.

- عفواً؟ - قال كريكور مندهشاً، وقد اختفت الألوان من وجهه - أين سأذهب، إذاً؟

- في أيامنا هذه، من أراد أن يكون له شأن في هذه الحياة، يدرس ما له علاقة بالعلوم أو الإدارة - قال - لست أدري إن كنت قد انتبهت لذلك، لكن البلد الذي يحتل الصدارة في مجال العلوم هو ألمانيا. حسناً، هنا يبدو لي أنه يوجد مستقبلك الجامعي.

كان الشاب ينظر إليه مذهولاً.

- ماذا؟ ولكن أنا... لا أتكلم حتى اللغة الألمانية!

- حسناً، سوف تتعلمها، وكفى! - صاح كالوست - هل تشعر بملل في حياتك؟ إذاً، تجمع حقيبتك وأريد أن أراك في ألمانيا بأقصى سرعة ممكنة. سوف تقضي العطلة في تعلم اللغة الألمانية وبعد ذلك تتابع دراسة كما ينبغي. سوف أتحدث مع صديق لي ليتكلف بالتفاصيل.

- لكن... لكن...

عاد الأب ليمسك أدوات الأكل، لكنه قبل أن يوجهها نحو شريحة اللحم أشار بها إلى ابنه.

- غداً، يجب أن أذهب إلى باريس - قال - سوف تأتي معي.

كانت الحسناء التي تبعث النشاط في حياة كالوست سراً على كل لسان، لكن خلال إقامة ابنه في باريس حرص ربّ الأسرة على نقلها إلى غرفة مجاورة لجناحه، حتى يحافظ على المظاهر. كان الشاب قد كبر بما يكفي حتى ينتبه إليه والده، الذي كان يعتبر كريكور الوريث الطبيعي لأعماله. فكان من واجبه أن يهيئه لهذه

المهمة، تماماً كما كانت مادام دوبري تقدم تعليماتها للمُراهقات للقيام بوظائفهن العلاجية في جناح فندق ريتز.

وكان جزء من هذه التربية يمر عبر الفن. لذلك، قام في اليوم الثاني بأخذ ابنه إلى متحف اللُّوفر، يحاول أن يحفزه ليهتم بكل شيء جميل في الحياة.

- رجل محترم ينبغي أن يكون عارفاً متذوقاً - قال وهما يدخلان إلى المتحف الكبير - لا طعم للوجود من دون فن، ولا شعلة للحياة من دون جمال.

عبرا الأروقة من طرف إلى آخر، ودائماً كالوست يقدم ملاحظات موسوعية حول ما كانا يشاهدانه ويثير الانتباه للتفاصيل. كان كريكور يتابع الشروحات باهتمام فاتر، مهذب أكثر منه صادق، لكن فقط عندما وقفا أمام لوحة أوغوست كودر، التي تصور نابليون في زيارة لمتحف اللُّوفر، بدأ والده يكشف النقاب عن الجزء الموالي من التربية الباريسية التي خططها لابنه الشاب.

- كان نابليون يقول شيئاً سديداً عن النساء - قال كالوست وهما يتأملان تلك اللوحة التي تصور الإمبراطور وهو ينزل عبر سلاليم المتحف - «إنهن يصلحن للسرير وحوض الاستبراء، وليس لأي مكان آخر».

ضحك كريكور.

- هل كان نابليون يقول هذا؟

- كان يردده كثيراً.

أشار الابن إلى لوحة لفرانسوا بوشيه، بعيدة شيئاً ما، تظهر فيها امرأة عارية مستلقية على وسادات وما يبدو أنه نسيج مخملي أزرق.

- كما تصلح النساء للمُثُول أمام الفنانين، ألا تظن ذلك؟

لم يجبه كالوست على الفور. استأنف جولته وعاد إلى شروحاته حول ما يُعرض من أعمال فنية في متحف اللّوفر. لكن، عندما وصلا لاحقاً أمام تلك اللوحة الصغيرة لليوناردو دافنشي التي تظهر فيه الجوكندا بابتسامتها الملغزة، وقف جامداً وأدخل يده في جيبه ثم أخرج بطاقة صغيرة قدمها لابنه الشاب.

- إن الدكتور كيمهادجيان ينتظرك في عيادته - أخبرهُ - تجد عنوانه في هذه البطاقة. كن عنده هذا الزوال على الساعة الرابعة بالضبط.

كان هو طبيب العائلة في باريس، شخص يعرفه كريكور جيداً. لذلك فقد تفاجأ لتلك الحركة وما رافقها من أوامر.

- لكن، لما يجب أن أذهب لزيارة الدكتور كيمهادجيان؟ - قال مندهشاً - حسب علمي، أنا لستُ مريضاً...

ألقى الأب نظرة أخيرة على رائعة دافنشي وأدار ظهره، مواصلاً جولته عبر اللّوفر.

- اذهب لتعرف.

كان الدكتور كيمهادجيان رجلاً صغير الحجم وتزيد حدبة من قصر قامته. له لحية رمادية بارزة وأنف معقوف، ليكتمل وجه عجوز يبدو كأنه خرج من إحدى روايات تشارلز ديكنز أو فكتور هوغو. تقع عيادته في بناية قديمة من حي مونمارتر، متهالكة وداكنة. وبينما كان متوجهاً إلى هناك، كان كريكور يتساءل عن الأسباب التي دفعت والده ليرسله إلى طلب خدمات شخصية محيرة كهذه. لا يمكن أن يكون ذلك سوى لأصوله الأرمنية، استنتج أمام الأمر البديهي.

كانت السلاليم الخشبية في البناية تصرُّ عند كل خطوة، وبدون أي نفَس تقريباً بلغ الشاب الطابق الثالث، هناك حيث كان الطبيب الغامض يخبئ وكْرَه المظلم الذي يسميه عيادة. دقّ الجرس ففتحت له الباب عجوزٌ درْداء دعته لينتظر على مقعد متهالك خشي الشاب أن ينزل عليه بثقله ففضل أن يظل واقفاً. وحينئذ لم تكن تساؤلاته تركز على الأسباب التي دفعت والده للتشبث بخدمات ذلك الطبيب، بل عن سبب تواجده شخصياً هناك. إن لم يكن مريضاً، فلماذا جاء لزيارة الطبيب؟

- آه، ساركيسيان الشاب! - صاح الرحل ذو الظهر المقوس الذي تجسد أمامه في ردهة العيادة - ادخل، ادخل!

لبى كريكور الدعوة وتوجه نحو مكتب مستضيفه. توغل في فضاء مؤثث بذوق رديء. كانت هناك طاولة مكتب صغيرة، كرسيان، منضدة ونافذة تطل على كاتدرائية ساكري كور. تأكد من حالة الكرسي قرب الطاولة الصغيرة، فاستنتج أنه آمن بما يكفي، وبشيء من الخوف جلس فوقه.

- أعترف لك، يا دكتور، أنني أتنفس العافية من كل مسامّي - أعلن الشاب منذ البداية - لكن والدي ألح عليّ أن أزورك. . .

- آه، وحسناً فعل! - صاح الدكتور كيمهادجيان، وهو يفرك يديه بينما كان يجلس بدوره في مكانه - أتعرف، هناك أمور صحية تظل غير مرئية للعين وغائبة عن الحواس لوقت طويل. إنها هناك، لكنها تظل مختبئة، طبعاً. لذا من الأهمية البدء بمواجهتها، من أجل تحاشيها أو تأجيل بعض المشاكل، هل فهمت؟ في علوم الطب، نسمي هذا الإجراء وقاية - ثم رسم حركة قوية بذراعه - ينبغي التدخل قبل أن يكون ذلك ضرورياً! هذا هو شعاري.

- يبدو هذا جيداً جداً، لكن. . . أي مشاكل غير مرئية يمكن أن أعاني منها؟

أخرج الطبيب ورقة من جارور طاولة المكتب وألقى عليها نظرة خاطفة.

- إذاً، لنرى هذا الأمر - قال - أحتاج أولا لمعرفة سجلّك الطبي. حُمّى، إسهال، التهاب اللوزتين، مثل هذه الأشياء التي يعاني منها كل الناس في فترة ما من طفولتهم. احك لي.

تلَتْ ذلك حوالي عشرين دقيقة من الحوار استعرض خلالها كريكور مختلف الأمراض الخفيفة التي عانى منها، رغم أنه كان في كثير من الأحيان ينصح مُحاورهُ أن «يسأل أمه»، وعياً منه بأن نونوفار كانت مؤهلة أكثر للجواب على بعض الأسئلة. في نهاية المطاف، هي من رافقته في كل الأمراض التي عانى منها في وقت من الأوقات.

تواصل الحوار بنبرة فاترة، تتخلله تعليقات مازحة وحكايات جعلته ممتعاً بشكل غير متوقع. كان الدكتور كيمهادجيان متحدثاً جيداً، وبعد مرور شيء من الوقت، أخذت هيئته الديكنزيّة تتلاشى، خصوصاً مع الظهور المتزايد لحسه الدعابي ومعرفته الواسعة بأمور الحياة. ولم ينقطع تبادل الأفكار إلا عندما قام الطبيب، دون سابق إنذار ولا شكليات، بالخوض في موضوع حساس للغاية.

- هل ما تزال بكْراً؟

تفاجأ الشاب للسؤال، فاحمرّ وجهه. كان ذلك، حسب تجربته، يشكل مجالاً محرماً في الحديث مع الكبار. كان الجنس موضوعاً غالباً ما يظهر في تفاعله مع شبان في سنه وخصوصاً مع

روجر، الذي كان يتبادل معه انطباعاته حول الفتيات وطريقة ربط علاقات معهن، لكنه لا يتجاوز هذا الحد. كان الموضوع ينتمي إلى دائرة خاصة جداً تكاد تنحصر في حميمية الأغطية عندما ينطفئ الضوء ليلاً.

- هذا. . . - تردد محرجاً - على أي، لا يبدو لي أن موضوع. . .

- هل أنت بكْرٌ أم لست بكْراً؟ - ألح الدكتور كيمهادجيان بشكل طبيعي، كأنه يسأله عما تناول في وجبة الغداء - هل سبق لك أن عاشرت امرأة؟

انتبه كريكور إلى أنه كان يقدم صورة واهنة عن نفسه في تلك اللحظة فغيّر خطته.

- لا، لم أفعل ذلك بعد - قال دون أن يعرف إن كان يبغي له أن يفخر بذلك أو أن يخجل منه. ثم اتخذ نفس النبرة العادية لمُخاطبه - أتعرف، أظن أنني لم أصادف الشخص المناسب بعد.

وكان ذلك، على ما يبدو، كل ما كان محاورُه يرغب في سماعه. بمهارة مدهشة بالنسبة لشخص حركاته سجينة حدبته، نهض الدكتور كيمهادجيان من كرسيه، عبر المكتب وفتح الباب.

- أنا قادم.

استدار واختفى في الممر.

مكتبة
t.me/t_pdf

عاد الطبيب بعد عشرين دقيقة رفقة فتاة سمراء ترتدي فستاناً مزركشاً بالأزهار؛ كأنها الجميلة قرب الوحش. دخلت الفتاة إلى المكتب خلف الأرمني الأحدب بخطى مترددة ووجه خجول، كما لو أنها خائفة.

- هذه الشابة هي الآنسة أديل - قدّمها المستضيفُ - أمرتُ الآن مستخدمتي أن تطلب سيارة أجرة. طلبتُ من السائق أن يأخذ الآنسة أديل إلى ساحة لا مادلين، حيث ستجد محلاً يدعى «عند نينو». يتعلق الأمر بـ«منزل المواعيد».

لم يصدق الشاب ما سمعه.

- منزل الـ. . . - تمتم قائلاً - هل تريدني، يا سيّدي أن أذهب إلى. . . إلى. . .

- إنني فقط أنفذ ما تلقيته من أوامر صادرة عن السيّد والدك - أوضح الطبيب بسرعة، منشغلاً بإبعاد أيّ لُبس - لقد فحصت الآنسة أديل وأستطيع أن أؤكد لك أن كل شيء على ما يرام. ليس هناك ما يقلقك. عندما تصلان إلى محلّ «عند نينو»، ما عليك سوى أن تتوجه إلى مكتب الاستقبال وتطلب غرفة. لا تُظهر مضايقةً أو خجلاً، هل فهمت؟ تصرّف بشكل طبيعي جداً وتحدّث بكل ثقة وقناعة، مثل شخص واثق من نفسه. بعد الحصول على المفتاح، خذها إلى الغرفة - ثم بسط ذراعه معلناً عن نهاية الحديث - طاب يومك، سيّد ساركيسيان.

في أقل من دقيقتين، وجد كريكور نفسه في الشارع يركب سيارة أجرة متوجهاً إلى ساحة لا مادلين. تأخر كثيراً قبل أن يتجرأ ويتفحص وجه الآنسة أديل، التي لم ينظر إليها إلى غاية تلك اللحظ إلا شزراً. عندما حدق إليها، في الأخير، لاحظ أنها فتاة جميلة، بعينين واسعتين خضراوين كزجاج قنينة ونظرة عذبة يشوبها شيء من الحزن. كانت تحتفظ بعينيها مخفضتين، خجولة ومتواضعة، مما أصاب الشاب بالدهشة عندما اقتربتْ منهُ عند منتصف الطريق وطبعت قبلة مبللة على وجهه.

- أنت جميل، أنت. . .

برأس دائخ يدور، كأنه نزل للتو من أرجوحة جامحة، دخل كريكور إلى محل «عند نينو»، طلب غرفة وصعد إلى الطابق الثاني. لم يتذكر أن عليه أن يبدو طبيعياً أو أن يتكلم بقناعة، كما أوصاه الطبيب. تكلّم كما تكلّم وبدا كما بدا، لا يشغل بالَهُ غير تلك الفرنسية، التي كانت، بلمساتها وكلماتها الرقيقة، تجرّهُ إلى ما وراء باب الغرفة لتفتح له باب عالم جديد.

آه، كم كان رائعاً أن يكون للمرء أب مثل أبيه!

16

لم يكن كالوست يود الدخول في الحديث مع دارسي ولا يرغب في الكلام مع هاندريك بحضور خصمه، وبما أن الاجتماع كان متأخراً فقد أخذ نشرة جريدة ذلك الصباح، بتاريخ 17 يونيو من سنة 1913، وانغمس في القراءة. كانت الجريدة، فوق ذلك، تحمل مستجدات تثير اهتمامه أيما إثارة. على إثر الانتصار الذي حققته إيطاليا في الحرب ضد تركيا التي انتهت قبل عدة شهور ومكنت إيطاليا من الاستيلاء على طرابلس وبرقة العثمانيتين، استطاع تحالف الصرب، واليونانيين، والبلغار وسكان الجبل الأسود أن يلحق هزيمة بالأتراك في حرب البلقان. كانت الجريدة الصباحية تقدم معلومات عن المعاهدة التي وُقّعت بالأمس في لندن، وتشير إلى أن الإمبراطورية العثمانية قد فقدت تقريباً كل أراضيها في أوروبا.

- لا بد أن الأتراك قد جنّ جنونهم - همْهمَ...

منغمساً في أخبار الجريدة، تأخر الأرمني في الانتباه إلى أن ونستون تشرشل قد حضر أخيراً. حيا رجال النفط الثلاثة مستضيفهم وولجوا في صمت إلى المكتب. كان التوتر بينهم واضحاً وجاء نتيجة

لما يقرب من ثلاث سنوات من الضغوطات والنقاشات في الكواليس خلّفت ضغائن وتركت كدمات لدى الجميع.

كان أميرال البحرية البريطانية يبدو غير عابئ بتلك الأجواء بين رجال النفط، فجلس في كرسيه، ثم فتح ساقيه، وضع سيجاراً في فمه، وأطلق نفَساً لاذعاً وهو يتفحص في الوقت ذاته محاوريه بنظرة كلْب حراسة.

- لقد دعوتُ إلى هذا الاجتماع كي نحل بشكل نهائي كل الخلافات التي تفرقنا - قال على سبيل التمهيد - إن البحرية الملكيّة البريطانية، كما تعرفون، لم تعد تصنع سوى الطرّادات التي تشتغل بالوقود، وتقع على مسؤوليتي أن أتأكد من أن أمتنا لن تُحرم من هذه المحروقات وقت السلم وفي فترات الحرب على وجه الخصوص - خفض صوته، واتخذ نبرة كئيبة - لأن الحرب، أيها الأصدقاء، آتية - ثم أطلق سحابة دخان أخرى - لذلك علينا أن نتفاهم. على أساس أن مصلحة البلاد فوق كل شيء - ثم حوّل نظره نحو رئيس شركة النفط الإنجليزية-الفارسية - وليام، هيا قم بعرض وضعيتك.

عدّل وليام جلسته فوق الكرسي على أحسن وجه، وهو يستعد ليعيد فتح العداءات من جديد.

- إن حكومة صاحب الجلالة لا تجهل أن شركة النفط الإنجليزية-الفارسية هي فعلاً الشركة النفطية البريطانية الوحيدة - أكد بنبرة هادئة. وكان واضحاً أنه قد حضّر بعناية خطابه الخاص بهذه المناسبة - لا يمكن لبريطانيا العظمى أن تضع أمنها بين أيادي أجانب، هم، أبينا ذلك أم لا، يقومون. . .

- أجانب؟ - قال هاندريك غاضباً، وهو يدرك على الفور ما

كان ينوي منافسه أن يصل إليه - إن رويال داتش شل شركة إنجليزية هولندية مقرها في لندن، يا سيّدي!

- شركة إنجليزية هولندية - قال دارسي بشكل غامض، وهو يُشدّد على كل كلمة - يُسيّرها أجانب!

- أنا هولندي، لكني بصدد الحصول على الجنسية البريطانية - أوضح رئيس شركة رويال داتش شل - ورئيسنا الشرفي، السيّد مارك صامويل المحترم، مواطن بريطاني!

لوى الخصمُ أنفَه.

- آه، إنه يهودي!

- يهودي بريطاني!

أشار دارسي إلى كالوست.

- كما أن أكبر مالك خاص للأسهم في شركة رويال داتش شل، يجب أن أشدد على هذا، هو السيّد ساركيسيان، الذي هو أيضاً أرمني. أجنبي آخر!

قطّب كالوست حاجبَيه، وفي ثوانٍ معدودات احمرّ وجهه.

- المعذرة! - تدخل قائلاً - ولدتُ أرمينياً، لكني أعيش في لندن وحصلت على الجنسية البريطانية منذ عدة سنوات. وفوق ذلك، لا أرى أهمية لشيء كهذا في حديثنا!

قام دارسي بحركة مهادنة.

- لا تغضبا، إنني لا أريد أن أخدش أحاسيس أي كان. أنا فقط ألاحظ بعض الحقائق. إن شركة رويال داتش شل، كما يشير إلى ذلك اسمها، ذات أصول وارتباطات هولندية. رئيسها التنفيذي هولندي، رئيسها الشرفي يهودي وأكبر شريك ومالك للأسهم فيها أرمني. وكما نعلم جميعاً، فإن حكومة هولندا، نظراً للموقع

الجغرافي، غير محصنة أمام ضغوطات ألمانيا، البلد الذي دخلنا معه في مسار تصادمي وسنواجهه في حرب، في النهاية. إن تسليم تجارة النفط إلى شركة شل يعادل، بطريقة ما، تسليمها إلى الألمان. وهذا الأمر. . .

- كيف تجرؤ؟ - زأر هاندريك، وقد رفع صوته لدرجة توحي أنه كان على وشك أن ينفجر - هولندا أمة مستقلة وذات سيادة! لكن، حتى إن لم تكن كذلك، فهذا لا يغيّر في الأمر شيئاً، هل سمعت؟ إن مقر شركة رويال داتش شل في لندن! في نهاية المطاف، ليست ألمانيا هي من يتحكم في الدوائر المالية اللندنية! ومن جهة أخرى، فقد كان تحالف المصالح الهولندية والإنجليزية حاسماً في مواجهتنا لشركة ستاندرد أويل الأمريكية. من دون هذا التحالف كانوا سيسحقوننا وكانت إنجلترا ستبقى من دون أي شركة نفطية وخاضعة لأهواء السيّد روكفيلير - ثم وجه إصبع اتهام إلى خصمه - إن السيّد دارسي يستعمل طرقاً مشبوهة، إن لم نقل قذرة ودنيئة، بهدف. . .

رفع تشرشل يده السمينة في حركة كسلانة، تشبه تماماً صوته المتثاقل.

- هدّئا من روعكما - قال وهو يحد من الشجار بين الرجلين - لا تغضب، سيّد فان تيغلين، واترك السيّد دارسي يكمل فكرته، من فضلك.

- لكنه. . . لكنه اتهمنا بـ. . .

- دعه يكمل فكرته!

انحنى كالوست إلى الأمام ولمس ذراع شريكه مشيراً إليه أن يتحكم في نفسه. كان رئيس شركة رويال داتش شل معروفاً بدمه

الساخن، فتنهد بعمق وكبح على مضض عاصفة من الكلمات التي كانت تزدحم في حنجرته.

- كما كنتُ أقول، قبل أن تتم مقاطعتي بطريقة فظة، إن شركة النفط الإنجليزية-الفارسية هي الشركة النفطية الوحيدة التي تعتبر بريطانية مائة في المائة. نتوفر على حقول نفط شاسعة في بلاد فارس وقد استخرجنا هذه السنة ما يناهز ثمانين ألف طن من النفط، ونحن مُصمّمون على مضاعفة هذه الكمية في السنة القادمة - ثم قام بحركة تنم عن الإحباط وضبط صوته - لسوء الحظ، نحن نواجه بعض الصعوبات المالية الخطيرة. بل إن الوضع محبط، في الحقيقة. فالتنقيب عن النفط واستغلاله يتطلبان استثمارات كبيرة وأخشى أن تكون المؤسسات المالية قد بدأت تقطع علينا القروض. وما زاد الطين بلّة أن المصفاة التي أقمناها في عبدان أصبحت مصدراً لمشاكل كبرى.

- يؤسفني معرفة ذلك - قال تشرشل بصوت ثقيل - أتمنى ألا تضع هذه العقبات شكوكاً حول الشركة.

- أخشى أن يكون بقاؤنا على قيد الحياة موضع تساؤل. إلا إذا شاركت حكومة صاحب الجلالة بأسهم في شركة النفط الإنجليزية-الفارسية وقدمت لها دعماً مالياً، بالطبع.

خلق هذا الاقتراح حركة غضب لدى رئيس شركة رويال داتش شل.

- أوه، من فضلكم! لا تعرضوا علينا هنا مشاكل شركة النفط الإنجليزية-الفارسية! هذا مرفوض! إن لم تكن الشركة تملك من الأموال ما يسمح لها بالبقاء على قيد الحياة، لماذا توضع فيها الثقة كي تضمن التزويد بالمحروقات؟ هذا أمر سخيف!

- لو انهارت شركة النفط الإنجليزية-الفارسية، فلن يكون هناك من شركات بريطانية مائة في المائة في هذا المجال - ألحَّ دارسي متجاهلاً الهولندي ومكرراً نفس الفكرة دون توقف - وفي مثل هذه الظروف، لن يكون التزويد بالنفط أمراً مضموناً.

- إن شركة رويال داتش شل - صاح هاندريك - تضمن هذا التزويد.

- ولكن رويال داتش شل ليست شركة بريطانية مائة في المائة - ردّ خصمه - إن تمكن الألمان من ممارسة ضغوطات على حكومة هولندا، فستجد بريطانيا نفسها في ورطة.

- لا داعي لاستعمال الفزّاعات القومية أو الخرافات القديمة! فلندن هي مقرُّ شركة رويال داتش شل، وهي بالتالي بريطانية.

- إذاً، لماذا تسمى «داتش» أي الهولندية؟

- هل تضايقوننا الآن بسبب الاسم؟ وماذا لو. . .

ثم عاد المتنافسان ليتشابكا مثل ديكَين من ديكة المصارعة، مما أجبر أميرال البحرية البريطانية على التدخل من جديد. ضرب المُستضيفُ بكفّ يده على الطاولة، كما لو كان برلمانياً أثناء جلسة طرح الأسئلة في مجلس العموم.

- شيء من النظام، أيها السادة! - صاح وهو يرفع صوته مرة أخرى - شيء من النظام! - ثم ضرب تشرشل الخشب بكفّ يده مرات متتابعة حتى هدأ الرجلان. عندما انتهى الشجار وساد الصمت في النهاية، سحب المُستضيفُ نفَساً جديداً من سيجاره ورسم تعبيراً تأمّلياً على محياه، مثل قاضٍ يفكر في الحكم الذي يستعد للنطق به - إن السيّد دارسي على حق. بما أن بريطانيا العظمى تملك بحرية تعتمد على النفط محروقاً، يتعين عليها أن تضمن بقاء شركة نفطية

بريطانية خالصة ويجب عليها أن تتحاشى حالات الاحتكار في هذه السوق. وعليه، سوف أقترح على حكومة صاحب الجلالة أن تقتني واحداً وخمسين في المائة من أسهم شركة النفط الإنجليزية-الفارسية. وهناك أيضاً. . .

- هذا أمر مُخْزٍ! - قاطعه هاندريك، غير قادر على التحكم في نفسه لمزيد من الوقت - منذ متى كانت الحكومات تتدخل في تسيير التجارة؟ منذ متى كانت الحكومات تساعد شركات على حساب أخرى؟

- ما دامت هناك مصلحة وطنية، سيّد فان تيغلين.

- لكن، ألا ترى أن شركة النفط الإنجليزية-الفارسية تعاني من سوء تدبير؟ إن كانت تعاني من صعوبات مالية فلأن الأشخاص على رأسها لا يتوفرون على الكفاءة الكافية. فهل ستضع أمن بلادك بين أيادي أشخاص مثل هؤلاء؟

- إن جودة تدبير شركة النفط الإنجليزية-الفارسية، أخشى ذلك، ليست أمراً يهمك.

- إن كانت المشكلة تدفع الحكومة البريطانية للتدخل في تدبير الشؤون النفطية ومساعدة خصومي ضدي، فكن على يقين أن هذا الموضوع قد أصبح يهمني!

- أمر منطقي تماماً أن تقتني حكومة صاحب الجلالة أغلبية أسهم شركة النفط الإنجليزية-الفارسية، سيّد فان تيغلين - قال تشرشل متحجّجاً - كي تضمن الإمدادات بأثمان معقولة من المناسب تماماً أن تكون هيئة الأركان البحرية البريطانية هي مالكة منابع التزويد. . . أو أن تسيطر عليها على الأقل. إن كانت هناك مشاكل في التدبير، فإن حكومة صاحب الجلالة، بوصفها مالكة أسهم،

ستعين بعض العناصر لتسيير شركة النفط الإنجليزية-الفارسية وتحل المشكلة. وقد اتخذتُ قراري بهذا الخصوص.

- إنني أحتجُّ! - زأر هاندريك - هذه منافسة غير عادلة! الحكومة تساعد شركة ضد شركة أخرى! هذا وضع غير مقبول في سوق حرة!

وجّه أميرال البحرية البريطانية نظرة نارية إلى الهولندي.

- أنصحك بالاحتراز في كلامك - حذره - وقد لا نكتفي بهذا الأمر. عندما ستملك حكومة صاحب الجلالة أغلبية أسهم شركة النفط الإنجليزية-الفارسية سيكون عليها أن تتخذ قراراً بخصوص من سيزود مجموع البحرية الحربية بالمحروقات مستقبلاً. إنها صفقة مهمة، كما تعرفون. أودّ لو تقوم كل من شركة النفط الإنجليزية-الفارسية وشركة رويال داتش شل بتزويد سفننا، بل أود أن أشجع المنافسة بين الشركتين، لكن حتى يكون هذا الأمر ممكناً من الضروري أن تقوم شركة شل بشيء ما، من جهتها.

كانت الأمور قد بدأت تتجاوز هاندريك، الذي لم يعد لحظتها يعرف ما يقوم به أمام ما يبدو له تدخلاً غير مقبول في السير العادي للسوق. التفت جانباً وألقى نظرة يائسة على كالوست، كأنه يبحث عن مساعدة. بيد أن الأرمني ظل صامتاً، ولم يكن مردُّ صمته لعدم قدرته على فهم ما يجري، بل، على العكس من ذلك، كان لحظتها قد ربط كل ما سمعه طوال كل الاجتماعات، وأدرك كل شيء، لما يتمتع به من ذكاء.

- أيها السادة، إنكم تريدون أن تسرقوا منا بلاد الرافدين.

أضرمت هذه الكلمات الأولى التي قالها الأرمني نظرات استياء لا يمكن إخفاؤها من وجهَي تشرشل ودارسي.

- لا تُعبِّر عن الأمور بمثل هذه الكلمات - قال الرجل السياسي - لا أحد يريد سرقة أي أحد.

- لقد تابعت بانتباه كبير كل ما جرى خلال هذا المسلسل - همهم كالوست، وهو يتحدث بهدوء يتناقض مع هيجان تدخلات هاندريك. أشار إلى المُستضيف وإلى رئيس شركة النفط الإنجليزية-الفارسية - واتّضح لي أنكما متواطئان منذ البداية.

- آه، يا لها من حماقة!

- بل من المحتمل أنكما قد تدربتما مسبقاً على ما سيقوله كل واحد أمامنا - ثم قام بحركة في الهواء كأنه ينهي الموضوع - لكن لا شيء من هذا يهم. ما نحتاج لفهمه هو ما هو الالتزام الذي يمكن أن يحل هذا الوضع. ماذا تريدان على وجه التحديد؟

ضايق هذا السؤال تشرشل ودارسي. ولما أدْركا أن الأرمني القصير قد قوّض خطتهما، تبادل الرجلان نظرات خاطفة فيها حرجٌ واضطر أميرال البحرية البريطانية ليبتلع ريقه قبل أن يجيب.

- نريد بلاد الرافدين.

كان من الممكن أن يثير هذا الجواب ابتسامة كالوست، لكن ذلك لم يحدث؛ فالموضوع بالغ الجدية ولا يحتمل الضحك.

- كما أتيحت لي الفرصة لأشرح ذلك، هذا أمر كنت قد أدركته - واكتفى بهذه الملاحظة - لكن، أي أمر يدور في خلدَيكُما؟ ما هو شكل الصفقة التي تقترحانها؟

اتكأ المُستضيفُ على الكرسي وسحب نفَساً من سيجاره، كما يحلو له أن يفعل كلما شعر أنه يتحكم في الوضع. كانت السلطة تغريه وكان هو هناك ليمارسها؛ وعلى محاوريه أن يستعدوا لما

سيأتي. بسحابة رمادية من التبغ تحوم أمام وجهه، كأنها حية تتلوى في الهواء، انحنى على الطاولة وواجه كلاً من كالوست وهاندريك.

- إن المصلحة الوطنية للمملكة المتحدة تقتضي أن تقتني شركة النفط الإنجليزية-الفارسية كل أسهم بنك تركيا الوطني، أسهم شركة رويال داتش شل وأسهم السيّد ساركيسيان في شركة Turkish Petroleum Company - قال حازماً، وهو يتكلم بتثاقل حتى تُفهمَ رسالتُه كما ينبغي - لقد تحدثتُ هذا الصباح مع المسؤولين في بنك تركيا الوطني، الذين وافقوا على بيع حصتهم لشركة النفط الإنجليزية-الفارسية. وقد سارعوا، من جهة أخرى، إلى التشديد على أن مجال أشغالهم هو البنوك، وليس النفط. نِعْم الحُكماء. لذلك، أرجو أن تقوما الآن بالشيء نفسه وتبيعا أسهمكما إلى شركة النفط الإنجليزية-الفارسية.

وكما كان من السهل توقع ذلك، كان هاندريك المزاجي هو من أبدى ردّة فعل أكثر تأجّجاً.

- أبداً!

ألقى ونستن تشرشل نظرة باردة على الهولندي وقيّمه كأنه لا يعدو أن يكون ذبابة مزعجة، يسهلُ سحقها، مع ذلك.

- سيّد فان تيغلين، إن كنت تُقدّر فعلاً مصالح المملكة المتحدة، فقد حان الوقت لتبرهن على ذلك. بعْ ما لديك من أسهم لصالح شركة النفط الإنجليزية-الفارسية.

وقف رئيس شركة رويال داتش شل، وجسده يرتعش من الغضب.

- هذا أمر غير مقبول! كيف تجرؤان على أن تطلبا منّا مرة أخرى طلباً كهذا؟ سوف أرفع شكوى إلى حكومتي! لأن هناك شركة

هولندية جزئياً وتملك مساهمة قانونية في شركة بريطانية تتعرض لضغط غير قانوني كي تتخلى عن حقوقها! هذا أمر لا يمكن التساهل معه!

- آه! - صاح تشرشل بكل دهاء - إذاً، هي شركة هولندية...

- جزئياً. نصف هولندية، نصف بريطانية، كما لم أخف ذلك قط. وستكون حكومتي على علم بهذه المحاولة الحقيرة الجديدة لإبعادنا عن نفط بلاد الرافدين.

هزّ أميرال البحرية البريطانية كتفيه بشيء من اللامبالاة.

- إن هولندا لا تخيفني.

- ربما لا تخيفك أنت - ردّ عليه هاندريك ساخراً - لكن، كن على يقين أنها تخيف عدة مصالح بريطانية في مستعمراتنا، وخصوصاً رجال الأعمال البريطانيين ممن يملكون مقاولات في الهند الشرقية. لن تكون هذه المصالح راضية إن تعرضت لانتقام من حكومة هولندا.

كان سيجار المستضيف قد بلغ لحظتها نهايته. بحركات متثاقلة عن قصد، ذهب تشرشل يبحث في جارور عن علبة سجائر هافانية أخرج منها سيجاراً، قطع طرفه وأشعله بعود ثقاب. ترك الدخان المعطر يتبخر ببطء من فمه ثم عاد إلى مكانه، وعيناه شاردتان في نقطة غير محددة من القاعة.

- إذاً، ماذا تقترحان؟

- قَبِل بنك تركيا الوطني أن يبيع أسهمه لشركة النفط الإنجليزية-الفارسية، أليس كذلك؟ - ذكّره هاندريك وقد صار أكثر هدوء بعد أن لاحظ أن هجومه المضاد قد أتى أكله - إننا نتحدث

عن خمسة وثلاثين في المائة من أسهم Turkish Petroleum Company، وهي أكبر حصة في الشركة. إنها قيمة ضخمة. أقترح أن تكون هذه هي حصة شركة النفط الإنجليزية-الفارسية، وانتهى الكلام.

حرك تشرشل رأسه.

- خمسة وثلاثون في المائة، هذا لا يكفي - قال - إننا نريد السيطرة على الشركة.

ضرب الهولندي صدغَيه بالسبّابة.

- هل جننتُما!؟ - صاح - من سيبيع لكما الباقي؟

وقام المستضيفُ بإشارة نحو كالوست.

- سيّد ساركيسيان، أنت تملك خمسة عشر في المائة، أليس كذلك؟ سوف نأخذها. نضيف هذه الحصة لحصة بنك تركيا الوطني، فنحصل على خمسين في المائة. إن باعت لنا شركة رويال داتش شل واحداً في المائة من حصتها، سنبلغ أغلبية الأسهم.

علا العبوسُ جبين الأرمني.

- غير معقول! لأي غرض سأبيع لكما حصتي؟

- سيّد ساركيسيان، أنت مواطن بريطاني، أليس كذلك؟ عليك أن تقوم بهذا. نظراً لما يفرضه واجب المصلحة الوطنية، هذه هي إرادة حكومة صاحب الجلالة. فهلّا تفضلت ووضعت رهن إشارتنا هذه الأسهم التي تملكُها.

التفت هاندريك نحو شريكه.

- إنني أمنعك من بيع حصتك دون موافقتي، هل سمعت؟

- صاح الهولندي مشدداً بقوة. إن قمت بذلك فستكون قطيعة نهائية

بيننا! لن أسمح لشركة النفط الإنجليزية-الفارسية أن تسيطر على مقاولة تملك فيها شركة رويال داتش شل مصالح! لن يكون هذا أبداً!

وجد كالوست نفسه محاصراً بين نيران متبادلة فأخذ ينظر تارة إلى رئيس شركة رويال داتش شل وتارة إلى أميرال البحرية البريطانية.

- لكن. . . طبعاً لن أبيع. لماذا سأقوم بذلك؟ أنا من أنشأتُ شركة Turkish Petroleum Company! وأنا من وضعتُ هندستها وبناءها. وأنا من بحثت على حل للتفاهم مع الألمان، لتجاوز المأزق مع الأتراك والحصول على ترخيص لاستغلال النفط. هل تظنون أنني سأقبل أن أُطرد من شركتي الخاصة؟

- سوف أطلع حكومتي بما يجري - هدّد الهولندي، وهو يرفع إصبعه في الهواء - سوف يتم وضع حد لهذه اللعبة الحقيرة، ولا يهم من يتضرر من ذلك.

- تصرّفْ كما يحلو لك - ردّ عليه تشرشل - لكن، إن لم تقم شركة النفط الإنجليزية-الفارسية بالسيطرة على شركة Turkish Petroleum Company فسوف نمارس ضغوطات على الحكومة العثمانية كي تسحب الترخيص الذي منحته لهذه الشركة وتقدمه إلى شركة النفط الإنجليزية-الفارسية.

تكلّف رئيس شركة رويال داتش شل وأطلق قهقهة صاخبة.

- أريد أن أرى هذا! هل تظن أن البنك الألماني سوف يساير هذا الكلام؟ لن يقوم الأتراك أبداً بأي شيء ضد الألمان. والألمان ليسوا بأغبياء! لأي أسباب سوف يسمحون بخسارة تراخيص Turkish Petroleum Company؟

ساد الصمت حول الطاولة. كان الوضع قد بلغ باباً مسدوداً ولا يبدو هناك من مخرج لعملية شدّ الحبل. كان الرجال الأربعة يتبادلون النظرات، بيد أن الحجج يبدو أنها استنفذت. بدأ دارسي يجمع محفظته فحذا هاندريك حذوه. في تلك اللحظة، عندما كانت القطيعة تبدو وشيكة، تنحنح كالوست، كما يفعل دائماً كلما كان لديه شيء مهم يقوله.

- إن حصتي في شركة Turkish Petroleum Company كبيرة جداً بالفعل - اعترف - خمسة عشر في المائة تعني أنه يتعين عليّ أن أتحمّل خمسة عشر في المائة من مجموع الاستثمارات، وهو ما يشكل في مجال النفط، كما تعرفون، مبلغاً مالياً كبيراً. وعليه، فإنني مستعد للتنازل عن ثُلثَي حصّتي إن كان ذلك يساعد على تجاوز هذا المأزق.

قام الحاضرون على الفور بحساب ذهني.

- عشرة في المائة؟ - قال دارسي، متشجعاً - هل تتنازل لنا عن عشرة في المائة من مجموع خمسة عشر في المائة التي تملكها؟

- إن كان ذلك يساعد على حل هذه المشكلة، نعم.

تحوّل انتباهُ أميرال البحرية البريطانية ورئيس شركة النفط الإنجليزية-الفارسية نحو هاندريك.

- سيّد فان تيغلين؟

استغرق رئيس شركة رويال داتش شل وقتاً طويلاً في تأمل الفكرة، لكنه، شيئاً ما على مضض، أومأ موافقاً في الأخير.

- إن نسبة خمسة وأربعين في المائة تشكل عتبة أغلبية الأسهم لكنها ليست هي أغلبية الأسهم. يمكنُ أن أقبل هذا الأمر.

تعالى انفجار من التنهدات والابتسامات حول المائدة،

خصوصاً على وجهَي تشرشل ودارسي. لم تحصل شركة النفط الإنجليزية-الفارسية على ما كانت ترغب فيه، لكنها اقتربت جداً من ذلك الهدف. وقد تم التوصل إلى ذلك الاتفاق المستحيل.

- رائع! - صاح المستضيف وهو ينهض - سأذهب لأبحث عن قنينة سكوتش كي نحتفل بهذا الأمر!

لكن، قبل أن يبتعد أميرال البحرية البريطانية، رفع الأرمني يده وأوْقفه.

- لكن، لديّ شرط.

توقف تشرشل جامداً وسط الطريق وحدجه بنظرة ارتياب.

- شرط؟ أي شرط؟

- حتى لا يخدع أحدٌ أي أحد آخر، أشترط بند حقوق حصرية - قال كالوست - أن يلتزم كل حاملي أسهم Turkish Petroleum Company بألّا يبحثوا عن النفط إلا في إطار هذه الشركة. وأي اكتشاف في الأراضي العثمانية يقوم به أي مساهم يعادل اكتشافاً يقوم به كل المساهمين. ولا يُسمحُ لأي أحد بالبحث عن النفط في الإمبراطورية العثمانية خارج إطار شركة Turkish Petroleum Company.

انتقلت نظرات رجل السياسة متسائلة بين رئيسَي شركتَي النفط، كأنه يستشيرُهما. تبادل دارسي وهاندريك النظرات، ولما لم يجدا من حجج تمنع ذلك، أرخيا أكتافهما، ورسما حركات تأكيد برأسَيهما ووافقا على الأمر.

- بندٌ مقبول.

عندما انتهت الصفقة، توجه ونستون تشرشل إلى درج المكتب بحثاً عن قنينة سكوتش وصبّ السائل الذهبي في أربع كؤوس بلورية

وزعها فوق الطاولة. ورفع أربعتهم نخباً لازدهار Turkish Petroleum Company، ثم التفتوا نحو صورة الملك جورج الخامس داخل إطار معلق بالحائط، وأطلقوا صيحة «God save the King!» ثم عبّوا الويسكي جرعة واحدة.

وهو يضع الكأس على الطاولة، مسح هاندريك فمه بظهر يده ثم التفت نحو شريكه الأرمني.

- انظر إلى الأمر من جانبه الإيجابي، يا ساركيسيان - قال بضحكة ارتياح - انطلاقاً من الآن، أنت هو «السيّد خمسة في المائة»!

مكتبة
t.me/t_pdf

17

امتلأ محجّ بوبلسدورفر بحشد من الناس يقضون أوقات فراغهم، كما يحدث كل يوم أحد صباحاً، في ذلك الشارع المركزي من مدينة بون. وبينما هو يتجول في ذلك الشارع المزدحم، انتاب كريكور إحساس بأنه في إنجلترا أخرى أكثر انضباطاً. كان الأصدقاء يصادفون بعضهم البعض، يلوحون بالإشارات، يتبادلون النظرات مع الفتيات ويُحيّنون أخبار بعضهم البعض.

- يبدو هذا مثل استعراض كنيسي - لاحظ الشاب الأرمني وقد اعتراه إحساس حنين مفاجئ - في هايد بارك يكون الأمر هكذا أحياناً.

كان يسير في محجّ بوبلسدورفر رفقة بيتر، صديقه المجري في الكلية، وهما يقتنصان معاً صورة أنثوية جميلة كأنهما باحثان عن الذهب يمشّطان سرير نهْر يعدُ بالكثير.

- إن النساء الألمانيات جميلات - اعترف بيتر - لكني لم أر بعد أجمل من فتيات بلدي - وتنهد - آه، بودابيست هي بودابيست!

كان معظم الحشد الذين يعج بهم الشارع أفراداً من الجيش، من ضباط وجنود ثكنات بون، الذين يخرجون لقضاء يوم الإجازة. كان

الرجال الذين يرتدون البدلة العسكرية ويسيرون في مجموعات صغيرة، يضعون على رؤوسهم قبعات أو خوذات، أو يمشون فرادى في حديث مع فتاة. كلما صادف الجنود ضابطاً يتنحّون جانباً ويؤدون التحية العسكرية بحركة مفاجئة ويظلون جامدين كأنهم تماثيل حتى يبتعد من يعلوهم درجة في السلم.

- هؤلاء الألمان - همهم بيتر بنظرة احتقار. إن الثقافة العسكرية لهؤلاء الناس سوف تقودنا يوماً ما إلى مأساة، سوف ترى! بعد سنوات قليلة و... بوووم!

- هذا هو رأي والدي أيضاً - لاحظ كريكور بشيء من اللامبالاة، وهو يلتفت ليتأمل شقراوَين لهما ضفائر مرّتا بجانبه تتبادلان ضحكات شابة - يمضي وقته يقول إن ألمانيا تنمو أكثر من اللازم وقد أصبحت تشكل تهديداً وأن هذا سينتهي بشكل سيِّئ. متشائم، على أي حال.

- بل قُل إنه صاحب رؤيا.

كان الصباح قد طلع مشمساً وانتشرت حرارة شهية في الشارع، داعية المتنزهين يوم الأحد للاستمتاع بوقت الفراغ. جلسا في رصيف حانة وطلبا جعتين، شرباها وهما يتأملان المدينة تمر في استعراض أمامهما، بينما نسيم عليل يلطف أجواء الصيف.

في لحظة ما، حدقت عينا كريكور في شعر أشقر كان يقترب من جهة اليسار. كانت فتاة ذات جمال مثير، من ذلك النوع من الفتيات اللواتي يقاطعن مشيته في الشارع، لكنه سرعان ما انتبه، ربما بشيء من الحسد، إلى أن الألمانية كانت مصحوبة برجل يضع خوذة، جندي كانت تتحدث معه بحماس تتخلله ضحكات كثيرة. تابع بنظرات ساهية ذانك المحبوبين اللذين كانا منغمسين في حديثهما

حتى أن الجندي صادف ضابطاً ولم ينتبه للأمر، فلم يقدم له التحية.

- Halt !

قفز الجندي مفزوعاً من صيحة «توقف!» التي أطلقها الضابط، كما فعل كريكور. رأى من بعيد الضابط يدنو من المرؤوس ووجهه يحمرُّ غضباً، يصيح في وجهه بقوة حتى أن اللعاب كان يبدو رذاذاً متطايراً، شده من أنفه ولواها، كما لو أن الجندي ذا الخوذة كان دمية، ثم وجه عدة ركلات إلى مؤخرته. كل هذا أمام محبوبة ذلك البئيس وأمام لامبالاة حشد الناس، الذين تابعوا سيرهم غير عابئين بما يجري. وبقي لديه انطباع بأن مثل هذا المشهد شيء عادي في تلك الأماكن. بعد نهاية تلك الإهانة أمام الملأ، ابتعد الضابط وعاد الجندي بالقرب من الفتاة، ليستأنفا الحديث عند النقطة التي تركاها فيه كما لو أن أي شيء غير عادي قد وقع.

- ألم أقل لك ذلك؟ - لاحظ بيتر، وهو يحرك رأسه مستنكراً الأمر - إن هذه الثقافة العسكرية سوف تؤدي بنا إلى الهلاك...

تبين أن الحياة والتعليم في ألمانيا كانا يختلفان اختلافاً كبيراً عمّ اعتاد عليه كريكور في إنجلترا. بفضل معارف والده، الذي اقتنى قطعاً أثرية مصرية من معبد الكرنك فخوّل له ذلك ربط علاقات مع أهم الشخصيات المهتمة بعلم الآثار المصرية، حصل الشاب على مسكن في منزل الأستاذ فيلكين، الذي يعتبر أكبر مختص في العالم في مجال دراسة لفائف أوراق البردي الفرعونية.

لم يكن يحدث أي شيء مهم في منزل الأكاديمي المرموق، لأن الأستاذ كان يقضي سحابة يومه قرب لفائف أوراق البردي النفيسة، لكن الأمر لا ينطبق على ما يجري في الجامعة. في تناقض

صارخ مع المجتمع الألماني، كانت ضوابط الدراسة في الجامعة متساهلة بشكل مدهش. لم تكن هناك من طريقة لضبط حضور الطلبة لمتابعة الدروس ويكفي أن يتسجلوا عند بداية الفصل ليدّعوا أنهم يتابعون دراستهم في الكلية. إن لم يحضر الطالب للدروس فلا أحد يكترث لذلك. بل لم تكن هناك امتحانات، وللحصول على نقطة يكفي أن يقدم الطالب بحثاً في المادة التي يدرسها.

- لا تغرنّك كل هذه المظاهر - حذره بيتر منذ العام الأول عندما تعرفا على بعضهما - إن الألمان يعيشون فقط من أجل العمل، وإن انتبهت جيداً، فإن زملاءنا الألمان لا يتوقفون عن الدراسة إلا عندما يضطرون للأكل، يذهبون إلى المرحاض أو للنوم - ثم علت وجهه تكشيرة كأنه يستسلم في نقطة ما - حسناً، أحياناً يتجولون في محجّ بوبلسدورفر أو يرتادون الحانات ليشربوا الخمر. باستثناء هذا، يعملون كل بقية الوقت.

لم تكن الطريقة الألمانية تعجب الأرمني. رغم أنه لم يكن يخشى العمل، كان كريكور يرى أن المرء يعمل ليعيش، وليس العكس. وبناء على ذلك، كان الشاب يعيش في بون في انسجام مع ما يدعو له. ليلاً، كان غالباً ما يتردد على حانات المدينة أو المقاهي المطلة على نهر الراين، خصوصاً أنه كان يصادف هناك أكثر النساء انفتاحاً لمصاحبته. لم تكن الألمانيات اللواتي ترددن على هذه المحلات غير مباليات تماماً بجاذبية أجنبي تعج جيوبه بالماركات، كما كان حال كريكور في الأيام التي تتلو توصله بذلك المبلغ الذي كان والده يرسله إليه شهرياً دون تأخير.

بفضل تلك العلاوة الشهرية تمكن الطالب الشاب من جلب انتباه هيلغا، أولاً، ثم مارغاريتا، شهوراً بعد ذلك. كانت الفتاتان

ألمانيتين شقراوين بدينتين تنطقان بكلام فاحش وتتميزان بعادات متفسخة، كلتاهما تفضلان الشراب الألماني والشامبانيا الفرنسية الغالية التي كان الغاوي المفتون يغدق بها عليهما بكل سخاء.

وقد انتهت كل هذه المغامرات بفزع كبير عدة شهور بعد ذلك، عندما توصل كريكور بوثيقة تحمل الخاتم الرسمي للرّايخ يخبرونه فيها أن عدالة صاحب الجلالة، قيصر ألمانيا، وعلى إثر دعوة قضائية لتحديد هوية الأب توصلت بها مصالحهم، قررت أن تحكم عليه بأداء خمس ماركات كل أسبوع للسيّدة هيلغا هيلمان لفائدة كل واحد من أبنائها الثلاثة الذين ولدتهم مؤخراً. ثلاثة صغار أبرياء هم غاسبار، وبالتاسار وملكيور، ثلاثة ملائكة من السماء تمّ نسب أبوتهم إلى السيّد كريكور ساركيسيان، مواطن يحمل الجنسية البريطانية ويعيش حالياً في مدينة بون.

- ماذا؟

ردّ الطالب الشاب بفزع مفهوم عن حكم محير كهذا. مشوش البال، لا يعرف ما يفعل وهو يرى مستقبله المزهر قد زاغ عن مساره دون أن يمهله وقتاً، ويتخيل والده يحرمه من الإرث وينهال عليه بشتى أشكال الشتائم وكل أنواع العقاب، ذهب ليرى الأستاذ فيلكين، الذي كان يسكن في بيته منذ أن وصل إلى بون، فعرض عليه المشكلة وهو على شفى أن ينفجر باكياً ثم طلب منه النصيحة.

- والآن؟ - كان يردد في يأس، مشفقاً على حظه العاثر - ماذا سأفعل، سيّدي أستاذ فيلكين؟ كيف يمكنني أن أنجو من هذه المصيبة؟ هل تظن أنه يجب أن أطلب تدخل أحد المحامين؟

لم يجبه عالم أوراق البردي المرموق على الفور. وفياً لدقته الأكاديمية المعروفة ولعبقريته في فحص التفاصيل، خص الأستاذ

الوثيقة الرسمية بنفس العناية الدقيقة التي يوليها لقراءة الوثائق الهيروغليفية التي يعشقها أيما عشق. وبعناية فائقة فحص الوثيقة الرسمية، فدرس فيها كل فاصلة ونقطة وحلل تراكيبها النحوية حتى تمكن في النهاية من إماطة اللثام عن جُزيْئة مشبوهة في الطرف الأعلى من الورقة، ويتعلق الأمر بشيء غير عادي في ختم الرّايخ.

- كم من الأشخاص كانوا على علم بعلاقتك بالسيّدة هيلغا هيلمان؟ - سأله الأستاذ - أعني أشخاصاً من محيطك المقرب، بطبيعة الحال.

- فقط صديقي بيتر - أكد كريكور - رغم الليالي الخمرية في الحانات، كنت دائماً حريصاً على التكتم. وبيتر شخص متكتم بطبعه.

ارتسمت ابتسامةٌ على محيا الأستاذ فيلكين.

- لا تشغل بالك بهذا الأمر - قال، وهو يعيد الورقة لكريكور - لو كنت مكانك لذهبت لأتحدث مع هذا الصديق.

- لماذا؟ ما علاقته مع هذا الأمر؟

- إن غاسبار وبالتاسار وملكيور - ذكّرهُ عالمُ ورق البردي المرموق - هي أسماء المجوس الثلاثة. بعبارة أخرى، إنه لا داعي لتنزعج، إلا إذا كنت شخصية من شخصيات **الكتاب المقدس**.

- ماذا؟

صارت ابتسامة مضيفه متفهمة ثم تحولت نظرته المرحة نحو الوثيقة التي كان كريكور يمسكها بيديه المرتعشتين.

- إن هذا، يا سيّدي، ليس سوى مقلب من مقالب المراهقين.

18

خلال ذلك الصباح الساخن من يوم السبت لم يكن يجري من حديث سوى عن اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند وزوجته في أحد شوارع سراييفو. كان الموضوع يملأ الجرائد الألمانية بصفحات نارية ودموية وبمطالبات بالعدل والانتقام، ولا حديث في شوارع بون سوى عن الدرس الذي ينبغي للنّمساويين أن يلقنوه للصرب عقاباً لهم عن ذلك الفعل الشنيع.

كان كريكور يذكر أنه سبق أن رأى الضحية في لندن وهو يمثل إمبراطور النمسا والمجر في موكب جنازة الملك إدوارد السابع وحفل تتويج الملك جورج الخامس الذي تلا ذلك، لكنه لم ير في الموضوع أي شيء مثير أكثر من ذلك. لقد مات ولي عهد إمبراطورية النمسا والمجر. وماذا بعد؟ مات أمير، وسرعان ما سيتقدم أمير آخر ليشغل مكانه. لماذا كل هذا المَرَج؟ أي أهمية يمكن أن تكون لهذا الحدث في حياته هو، رغم ما أصاب شخصياته الرئيسية من مأساة؟

غير مبالٍ بالموضوع الكبير الذي كان يشغل ألمانيا في تلك اللحظة، والذي يعتقد أنه سرعان ما سيطويه النسيان في دوامة الحياة التي لا تتوقف، فضّلَ الشابُّ الأرمني يومئذ أن يقوم بجولته المعتادة

على صهوة الجواد قرب ضفاف نهر الراين. كان النهار قد بدأ جميلاً، وكثير من الناس يتجولون بمتعة فوق الأعشاب المغطاة بالندى، بعضهم يتأمل طيور البطّ التي تجدف في خرير مياه النهر، وبعضهم يستمتعون بالشمس التي تلامس الغابة بنَفَسها الدافئ.

بعد أن اجتاز صفاً من أشجار البلوط، صادف الفارس شابة سمراء تمشي قرب ضفة النهر وتتحدث مع امرأة أكبر سناً. لاحظ أنها كانت جميلة جمالاً غريباً ومألوفاً لديه، لكنه لم يجلب انتباهها، فتجاوز إحباطَهُ العابر، ورفع نظره الشارد نحو النهر. فجأة، وبحركة مفاجئة من رأسه، حرّك أذنيه. ما لفت انتباهه، بالإضافة إلى جمال السمراء الطبيعي، هو أنه فاجأها وهي تنطق، وسط همس حوار يتناهى إلى مسامعه من بعيد، بكلمتي «يريك» و«هيورانوتس»، اللتين كان يعرف من خلال أحاديث والديه أنهما تعنيان «أمس» و«فندق» في اللغة الأرمنية.

حين تعرّف الكلمتين المألوفتين لديه، سحب الشاب على الفور اللجام ليوقف الفرس ويعود أدراجه. قاد فرسه بخطى خفيفة، واقترب من المرأتين. حين دنا منهما، انحنى نحو السمراء التي جلبت انتباهه.

- Entschuldigung, meine Damen - قال بأحسن لغة ألمانية يعرفها، وهو يعتذر عن المقاطعة - هل أكون مخطئاً أم أنكما كنتما تتحدثان باللغة الأرمنية؟

حدقت إليه المرأتان بدهشة.

- بالفعل، كنت أتحدث باللغة الأرمنية مع أمي - اعترفت الفتاة بلغة ألمانية غير واثقة - كيف عرفت ذلك؟

تهلل وجه كريكور بابتسامة مشرقة.

- لأن والديّ أرمنيان - كشف، وهو يتحدث بلغة أرمنية معيبة، تعج بالأخطاء وتشوبها لكنة بريطانية قوية - وأنا شخصياً أدين بدين الكنيسة الأرمنية المقدسة، رغم أنني أحمل الجنسية البريطانية.

أبدت الأم والبنت سعادتهما للتعرف على أحد أبناء أرضهما في مكان غير متوقع مثل ضفاف نهر الراين، بل إن الجميع يستبعد تماماً احتمال مصادفة أرمن في تلك الأماكن. بعد تبادل كلمات مجاملة مع الغريب، قدمت الاثنان نفسيهما: أرشالوس كينوسيان، الأُمّ وبنتُها مرجان. كما أخبرتاه أنهما كانتا في زيارة إلى بون لأسباب صحية.

- زوجي يعاني من مرض الرئتين، المسكين - كشفت الأُمّ - يوجد هنا في بون متخصص أردنا أن نستشيره. جئتُ أنا وابنتي كي نساند زوجي هاغوب.

- أنا رهن إشارتكما فيما تريانه ضرورياً - أكد كريكور بلمسة تليق برجل محترم - الأرمني يجب عليه دائماً أن يمد يد العون لأرمن آخرين، خصوصاً في أرض غريبة، ألا تظنان ذلك؟

تبادلت أرشالوس وابنتها نظرات عابرة مليئة برسائل مضمرة.

- أشكرك على لطفك - قالت - لحد الآن، لسنا بحاجة لأي شيء - ترددت الأم لكن مرجان همست كلمة في أذنها ولكزتها بلمسة من مرفقها لتحثها على الاستمرار حتى النهاية - أتعرف، غداً نقيم حفل غداء على شرف الطبيب الذي يعالج زوجي. لماذا لا تنضم إلينا؟ ستكون الأطباق أرمنية. . .

ظلت الاثنتان تنظران إليه، مترقبتين. كانت الدعوة غير متوقعة، بيد أن كريكور أدرك أن دروباً كانت تنفتح أمامه لولوج أماكن مهمة، وسمراء من دون شك.

- بحق السماء، هذا شرف لي - قبلَ الدعوة وهو يلقى نظرة سرور على المرأة الشابة - لن أضيع حدثاً رائعاً كهذا مقابل أي شيء آخر في هذا العالم.

كان آل كينوسيان قد اكتروا بيتاً يطل على نهر الراين، غير بعيد عن المكان حيث صادفت المرأتان ابن أرضهما. كان منزلاً ذا أسلوب قوطي، بسقف مدبّب وواجهة بيضاء تتخللها دعامات خشبية، كما كان مألوفاً في البنايات الألمانية التقليدية. كان هناك تشابك من أزهار اللبلاب تعانق النوافذ، كما لو أن الطبيعة استحوذت على ذلك العمل البشري، وسقيفة تغطيها النباتات بأطرافها المعلقة في الهواء.

كان كريكور يموت رغبة ليرى مرة أخرى تلك السمراء التي بادلته النظرات، فوصل قبل الموعد بخمس عشرة دقيقة ووجد البيت في قمة الحركة والنشاط. كانت المرأتان قد أغلقتا عليهما في المطبخ لوضع آخر اللمسات على الوليمة، لذلك استقبله هاغوب كينوسيان. كان المستضيف هو الرجل الذي جرّ معه المرأة والبنت إلى ألمانيا، وبما أنه يتمتع بوضع ربّ الأسرة، وهو مريض فوق ذلك، فقد كان مستلقياً فوق الأريكة يرتشف كأس كونياك أرمني.

- ما الذي يقوم به أرمني في هذه الأرض؟ - سأله هاغوب، بعد أن قدم كأس كونياك آخر لضيفه - أتمنى ألا تكون مريضاً أنت أيضاً...

كان تنفُّس هاغوب متقطعاً تتخلله وقفات قصيرة. كان واضحاً أنه يعاني من صعوبات في التنفس وهو ما يعرقل انسياب كلامه، بيد أن ذلك لم يكن يشكل عائقاً يشوش على مُخاطَبه.

- أنا لست مريضاً، طبعاً لا - ردّ كريكور وهو يلقي نظرات نوعاً ما محتشمة نحو المطبخ محاولاً أن يلمح مرجان - جئت لأدرس الهندسة في الجامعة.

أيقظت هذه المعلومة شرراً في عيني المستضيف.

- آه، الهندسة! يوماً ما، عندما تصبح أمتنا الأرمنية المقدسة مستقلة، سوف نكون بحاجة لمهندسين، لأشخاص مؤهلين يستطيعون أن يضعوا البلاد على رجليها!

- وهل تظن حقاً أن ذلك اليوم سوف يأتي؟

- ألن يأتي؟ - صاح هاغوب بنبرة تكاد تكون غاضبة لأنه رأى أرمنياً يشكك في الأمر - بحق السماء، إذا كان الصرب، والبلغار، واليونانيون، ومواطنو الجبل الأسود، والمقدونيون، والألبان، وكل هؤلاء الناس يتخلصون من براثن الأتراك، لماذا لا نقوم نحن بذلك؟ لماذا يجب أن نكون مختلفين؟

كان السؤال بلاغياً، لكن كريكور ظن أنه ربما يكون له جواب.

- لأن أرمينيا تقع في آسيا، وليس في أوروبا - لاحظ - لا أدري كيف سيكون ردّ فعل الأتراك أمام أي نوع من تطلعاتنا...

- طبعاً، لن يعجبهم الأمر! وماذا بعد؟ بفضل ما تقدمه لنا القوى الغربية وروسيا من مساعدات، لن يستطيعوا القيام بأي شيء. وفوق ذلك...

- السياسة، لا - قالت الزوجة من باب المطبخ، وهي تقاطع حديثهما. إننا هنا للاحتفاء بالدكتور هيميل، وليس لمناقشة مثل هذه الحماقات. لا بد أنه على وشك أن يصل - ثم أشارت إلى الباب - بقيت خمس دقائق على الموعد المحدد وأنت تعرف مدى هوس الألمان بدقة المواعيد...

- آه، معك حق يا أرشالوس! - ثم ألقى نظرة من حوله، ليتأكد - هل كل شيء جاهز؟

اختفت المرأة وراء الباب. كانت قد عادت إلى المطبخ فصار صوتها يأتي من بعيد.

- تأخرت مرجان قليلاً في تحضير «الخورابيا»، لكن ما دامت الحلويات تُقدّمُ بعد الأكل فلا أهمية لذلك. عشر دقائق أخرى، ويكون كل شيء جاهزاً للتقديم. اخرج هناك إلى الشارع لانتظار الدكتور هيميل.

تغير الجو بالنسبة ليوم البارحة وصار كئيباً. كانت سماءٌ ملبدة تغطي نهر الراين بألوان معدنية، فضية هنا ونحاسية هنالك، بل حتى الخضرة اكتست طابعاً حزيناً وعابساً. كان نسيم بارد ينزل عبر النهر، مزعجاً ورطباً، يسوط الأوراق التي تترنّح في الهواء كأنها فراشات مشاغبة. قام الأرمنيان، الأول شاب والآخر متوسط السن، برفع ياقتي معطفيهما حتى يحتميا بشكل أحسن من ريح الشمال، وظلا يتفحصان الشارع في انتظار الضيف الرئيسي.

- من أين تتحدر أنت، سيّد ساركيسيان؟

- ولدتُ في القسطنطينية - ردّ كريكور - لكني ترعرعت في إنجلترا، التي هرب إليها والديّ ولم أتجاوز بعد بضعة أسابيع من عمري. أتعرف، جئت إلى هذه الدنيا خلال المذابح التي حدثت سنة 1896.

- آه، أذكر ذلك جيداً. كان شيئاً فظيعاً - ثم لزم صمتاً، ربما لأنه تذكر ما وقع في تلك السنة وكل الأقارب والأصدقاء الذين

فقدهم على يد الأتراك - ومن أين كان يتحدر والداك؟ من القسطنطينية أيضاً؟

- عائلة والدي وعائلة أمي تتحدران من قيصريّة. إنهما...

فتح هاغوب عينين جاحظتين.

- قيصريّة؟ يا إلهي، نحن أيضاً من قيصريّة!

- بجدّ؟ يا لها من صدفة...

ضحك صاحب البيت.

- إن الصدفة شيء من عمل الرّب عندما لا يشاء أن نرى يده - ردّ - شيء كهذا لا يمكن أن يكون إلا من فعل القدر، يا عزيزي. أنا مقتنع أن... انظر، ها هو الدكتور هيميل قادم هناك.

كانت دقيقة واحدة تفصل عقارب الساعة عن الواحدة زوالاً عندما ظهر في الشارع رجل بدين بلحية غير كثيفة يرتدي بنطالاً بحمّالات، يضع على رأسه قبعة خضراء جبلية على طريقة أهل بافاريا ويحمل عصاً في يده. كان هو الدكتور الذي يعالج هاغوب، دقيقٌ في موعد الغداء دقّةَ مواعيده حين يزوره المرضى في عيادته.

كان للوجبة التي حضَّرها آلُ كينوسيان طعم مألوف في حاسة ذوق كريكور. قدّمت ربّةُ البيت حساء «أرغاناك» وطبق «كشوش» من اللحم التهمهُ الضيفُ الأرمني بحماس واضح بينما أكله الألماني بتردّد مُتخفٍّ. كان واضحاً أن الدكتور هيميل يفضل نقانق أرضه على تلك الأطباق الشرقية الغريبة، لكنه يتحلى بما يكفي من اللياقة حتى لا يعترف بذلك.

وبطبيعة الحال، دار الموضوع الرئيسي للحديث حول الوضعية

الدولية الخطيرة الناتجة عن اغتيال الأرشيدوق وزوجته قبل بضعة أيام، مما خلق توافقاً حول المائدة بأن «الحكمة ستنتصر» وفي الأخير «سيدرك الجميع أنه ليس بالحروب تُعالج الأمور».

كما كان طبيعياً، ركز الزوجان المستضيفان كل اهتمامهما على الطبيب. ففي نهاية المطاف، هو من كانا يدينان له بالصنيع ومن أجله أقاما ذلك الغداء، لكن كريكور ومرجان، غير عابئين طبعاً بالتوتر الدولي وتفاصيل مشاكل هاغوب الصحية، كانا مهتمين ببعضهما البعض، ولو في حدود ما ينتظر منهما من حذر واحتراز. ظل الشاب يوجه للفتاة طيلة وجبة الغداء نظرات متقطعة، لكنها مباشرة بشكل صريح، ردّت عليها هي بضحكات خجولة ونظرات متخفية نوعاً ما.

استمرت لعبة الغواية حتى موعد التّحلية، عندما تناول الحاضرون حلويات «الخورابيا» التي حضّرتها مرجان نفسها فأثْنى عليها الجالسون إلى مائدة الأكل أيما ثناء. لكن، عند نهاية الوجبة، تحول حديث الأبوين نحو الشاب بطريقة تنم على أن الزوجين لم يكونا ساهيين كما يبدو عما كان يدور بين الشابين على مائدة الأكل.

- هل تعرفين من أين تتحدر أسرة كريكور؟ - سأل هاغوب زوجته، وهو يلقي بالموضوع للنقاش - من قيصريّة.

- بلا مزاح! - قالت أرشالوس متعجبة - هذا رائع! - ثم ألقت نظرة متفحصة على الضيف - ما هو لقب عائلتك؟

- ساركيسيان من جهة أبي - قال كريكور بنبرة محايدة - وبيربيريان من جهة أمي.

ترك ذكر هذا الاسم الأخير الزوجين بفمين فاغرين وعيون جاحظة.

- بيربيريان؟ لا تقل لي آل بيربيريان أصحاب. . . أصحاب بنك القسطنطينية وفندق. . .

- فندق بيرا - أكمل الشاب جوابها - بيرا بالاس. هم بذاتهم. وكان جدي هو من أمر ببناء الفندق.

بعد الصدمة التي خلفها هذا الاكتشاف، كادت السيّدة كينوسيان أن تصفق بيديها من الحماس، فهزها الاندفاع هزاً لم تتمكن معه من كبح نظرة نحو ابنتها، كما لو أنها تريد أن تتأكد من أنها قد سمعت بدورها هذا المستجد المثير. يا له من صيد ممتاز هذا الشاب!

- آه، هذا غريب! - صاحت - أعرفهم جيداً! إنهم ناس. . . كيف أقول، ناس يملكون. . . ما. . . أوه. . . سمعة - ثم التفتت نحو زوجها - أنت تعرف بعض آل بيربيريان، أليس كذلك؟

- نعم، أعرف بعضاً منهم في الغرفة التجارية لقيصريّة - قال الزوج موافقاً، وكان بدوره منبهراً بأصول الشاب، رغم أنه ردّ فعله كان أكثر اعتدالاً - في السنة الماضية فقط كان لنا اجتماع وتبادلت معهم بعض الانطباعات. أشخاص من مستوى عالٍ، من دون شك.

وتناول الحديث خلال دقائق طويلة حياة آل بيربيريان وما أنجزوه في مجال المال والأعمال، وما حققوه في حقلي الفندقة والملاحة. لا يمكن القول إن كريكور كان متضايقاً تماماً من ذلك؛ بل إن الموضوع يمكن أن يساعد على تعزيز موقعه في تلك العائلة ويكون ضمانة بأن آل كينوسيان لن يضعوا أمامه عراقيل مزعجة وغير ضرورية في تقربه من الجميلة مرجان. ألم تكن أمها تنظر إليه كما لو أنه قد صار فعلاً صهرها؟ بكل تأكيد، لن يضر هذا بحظوظه في الظفر بالفتاة. فأي أرمنية من قيصريّة، بل ومن أي ركن من أركان

الإمبراطورية العثمانية، يمكن أن تزدري اهتمام واحد من آل بيربيريان؟

لم يكن من الضروري أن يكون المرء ذكياً ليدرك أن حدس كريكور كان مبنياً على أساس. عندما انتهت وجبة الغداء، ثم ودع الضيفان وخرجا إلى الشارع، لم يعد انتباه الزوجين المستضيفين مركزاً على الطبيب، بل على الآمال التي ينطوي عليها الشاب الذي ودعهما.

- تعال إلى بيتنا من حين لآخر - قال له هاغوب عندما انطلق الشاب نحو الشارع - زرنا دائماً.

وكانت الزيارةُ هي الأمر الذي لم يكف كريكور عن القيام به في الأسابيع الموالية. عندما تسمح له الدراسة بذلك، وخاصة عن نهاية الأسبوع، كان يقوم بجولة خاطفة إلى البيت القوطي المطل على نهر الراين ليقضي ساعات جميلة مع آل كينوسيان. فصار من المتعودين على البيت وأصبحت أرشالوس تُحضّر كل يوم بقلاوات تقدمها له كلما طرق الباب.

أصبحت الزيارات روتينية، رغم أنها كانت تنطوي على شيء من العذاب في بعض الأحيان. كان الزوجان المستضيفان يقومان بكل ما في جهدهما من مجاملات لإرضاء الزائر الشاب، وكان كريكور يقدر كل هذه العناية، وخاصة حلويات البقلاوة المعتادة. لكن، ما كان يريده حقاً هو أن يجد فرصة ليختلي بالفتاة. كانا يتبادلان النظرات، لكن الأبوان لم يتركاها لحظة واحدة رفقة الشاب من دون مراقبة. أدرك كريكور أن عليه أن يتحلى بالصبر؛ فأهل قيصريّة من الأقاليم النائية ويتميزون بتقاليد محافظة عميقة. ألم يكن

الأرمن في المناطق القروية هم من لا يسمحون للعروس برؤية زوجها قبل يوم الزفاف؟ أما هو، فقد كان محظوظاً لأنهم سمحوا له بتقاسم نفس القاعة مع مرجان. فماذا يريد أكثر من ذلك؟ أن تتصرف هي مثل هيلغا أو مارغاريتا؟ لو فعلت، لن تكون هي مرجان، بكل تأكيد.

وكانت الأمور على تلك الحال، عندما عاد كريكور، شهراً بعد ذلك، ليزور منزل نهر الراين ويقوم بزيارة أخرى كلها أمل في قضاء بضع لحظات على انفراد مع الشابة. قضى بضع ليالٍ لا يجانب النومُ جفنَه، يفكر فيها ويعيش كل اللحظات بعيداً عن مرجان كما لو أن شيئاً ما ينقصه في هذه الحياة، وهو إحساس يتلاشى عندما يكون بجانبها.

لكن، بعد أن استقبلتهُ يومها أرشالوس وهي على عجلة من أمرها، انتبه إلى أن الأسرة كانت تجمع أغراضها في صندوقين كبيرين وُضعا وسط القاعة. بحث عن مرجان بعينيه، لكنه رآها مطأطأة الرأس فأدرك أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام.

- ما الذي يجري؟ - سأل بشيء من القلق - هل حدث شيء ما؟

كانت المرأتان منهمكتين في العمل، لكن هاغوب كان يبدو فقط كأنه يتظاهر بجمع بعض الوثائق.

- أخبرني الدكتور هيميل هذا الصباح أنه لا يستطيع أن يقوم بأي شيء آخر من أجلي في هذه اللحظة - كشف - قال إنه ينبغي أن نعطي بعض الوقت للعلاج كي يبدي مفعوله ونصحني أن أعود إلى هنا في العام المقبل للقيام بتقييم وضعيتي الصحية ووضع برنامج علاجي جديد. بل إنه يرى أن مناخ أرمينيا يمكن أن يكون مفيداً لهذا

النوع من مرض الرئة - ثم نظر من حوله - هذا المكان بارد ورطب أكثر من اللازم، ولذلك من الأحسن أن أتابع العلاج هناك في البيت وألا أعود إلى مدينة بون إلا إذا كان ذلك ضرورياً.

- ماذا يعني هذا؟

أخذ هاغوب نفَساً عميقاً وأطلقت رئتاه الواهنتان صفيراً طويلاً غير مضبوط.

- هذا يعني، يا عزيزي ساركيسيان، أننا سنعود إلى قيصريّة - أعلن - بحلول يوم غد.

تلقى كريكور الخبر بقوة لكمة نزلت عليه بشكل مفاجئ. فقد تعرف للتو على مرجان، كان مولعاً بها فبادلته الاهتمام. وماذا يحدث الآن؟ والد الفتاة يستعد ليعود إلى الإمبراطورية العثمانية آخذاً معه الأسرة، وخاصة الفتاة. كيف يعقل أن يتحايل عليه القدر بمقلب كهذا؟

حدجَها بنظرة يأس مفاجئة، كأنه يوجه إليها توسلاً صامتاً، بيد أن مرجان لم ترد على نظرته هذه المرة. خفضت جفنَيها، كانت الأحداث قد تجاوزتها فاستدارت لتُخفي شعورها. بيد أن حركتها لم تكن سريعة بما يكفي فاستطاع الشاب أن يكشف عن دمعة هاربة تفور من ركن عينها اللامعة. لحظتها، عندما انتبه إلى أنه سيفقدها وأن ذلك يهزّ كيانها بقدر ما يهزّ كيانه أيضاً، أدرك كريكور في النهاية الحقيقة الفظيعة.

كان مغرماً بها ولا يعرف متى سيراها مرة أخرى.

مكتبة
t.me/t_pdf

نهاية

تنزلقُ دمعة مريرة على وجه مرجان اللَّبني حين تلتفتُ إلى الخلف لآخر مرة وتحدقُ إليّ بعينَيها اللامعتَين، تريد أن تطبعني في ذاكرتها كما لو أنها تراني لآخر مرة. مجرّدُ نظرة لكنها تعطي الانطباع بأنها وداع أبدي. أحاولُ أن أتحرّر من ذهولي وأدنو منها، أجري نحوها، لكن كأن قوة خفية تكبحني، تشلُّ حركتي، بل وتمنعني من أن أتقدم خطوة واحدة. أراها تُحرّكُ شفتيها اللحيمتين وتهمهم اسمي...

- كريكور!

... أشعرُ بالغضب. أريدُ أن أصيح وأناديها، «مرجان!»، أمسكها وأضمها إلى جسدي، أمنعها من ولوج القطار الذي سيأخذها إلى أماكن أخرى، سيحملها إلى القسطنطينية، سيختطفها مني بعيداً، لكني لا أستطيع أن أتحرك، لا أستطيع أن أتكلم، ولا حتى أن أقوم بإشارة. شيء ما يُكبّلني، فأظل مشلولاً، عاجزاً، غارقاً في المشاعر، حواسي مخدرة، جسدي دائخ، وعقدة في حلقي. أراها تدير ظهرها بحزن، ببطء، ببطء شديد، وتبتعد في موقف استسلام، تصعد مطأطأة الرأس إلى عربة القطار، تختفي وراء

الباب فأشعر بالغضب، والهجران والضياع. أشعر أنني غارق في الأسى وأن الحنين يدمرني.

ثم تصيحُ مرة أخرى.

- كريكور!

اقتحمَ صوتُ اسمي على لسان امرأة وعيي في النهاية فقفزتُ من مكاني، مندهشاً ومرهقا.

- ماذا؟ ماذا؟ - همهمتُ منذهلاً - ماذا حدث؟

ذلك الجسد الذي كان أمامي بدا في لحظة ما مشوشاً، لكن الصورة سرعان ما اتّضحت معالمها فرأيتُ مادام دوبري تستند إلى حافة سريري، بقميص نومها، تنظر إليّ بقلق.

- سمعتُ صيحة ففزعتُ - قالت بنبرة مشفقة - صغيري المسكين، كنتَ تبكي...

مرّرتُ يدي على وجهي ولاحظتُ بالفعل أنه كان مبللاً، خصوصاً عند زاويتَي العينَين.

- هل كنت تحلم بتلك الفتاة التي تعرفت عليها في بون؟

- نعم.

داعبت مادام دوبري شعري، بلطف وحنان، كأنها أُمٌّ تواسي ابنها المريض.

- لقد ضربَتْ قلبَك بقوة، أليس كذلك؟ - همست. ورغم نبرة السؤال، فقد كان قولُها تأكيداً - هل تحلم بها كثيراً؟

وضعتُ عينيّ على رزمة الأوراق المرقونة التي كانت منتشرة فوق السرير؛ بل إن بعضها انزلق نحو الأرض، ترسمُ مستطيلات بيضاء فوق السجاد وأرضية غرفة فندق أفيش. كانت إحدى

الأوراق، الأولى منها، عند قدمَي مادام دوبري، والعنوان بحروف بارزة يقول **رجل القسطنطينية**.

- كان ذلك... كان ذلك بسبب قراءة مذكرات والدي - شرحتُ لها، وأنا أرسم إشارة نحو الأوراق المتناثرة من حولي - يا للحماقة! نمتُ وأنا أقرأها...

انحنت كاتبةُ والدي العجوز والتقطت بعضاً منها.

- وماذا، إذاً؟ - سألتني، وهي تركز نظرها الفضولي على السطور المرقونة بالآلة الكاتبة - ما رأيك في الكتاب؟

- إنه يحكي كيف كانت طفولته وشبابه، كيف اهتم بالمال والأعمال والفن. كيف بدأ يتسلق مدارج الحياة، ويحكي عن اضطهاد الأرمن من لدن الأتراك، وعن النساء و... و...

رفعت مادام دوبري عينيها فجأة وحدّقت إليّ بانتباه كبير، كأنها تتفحصني.

- الـ.. النساء؟ - قالت متلعثمة، يشي بها شيءٌ من القلق في صوتها - ماذا كتب عنهن؟

- كل شيء. كتب كل شيء.

- بما في ذلك...

- كل شيء.

احْمرَّ وجهُ المرأة العجوز، محرجة بما تتضمنه نبرة جوابي الحازمة وهي تدرك أنه لم تعد ثمة من أسرار بيننا. كنتُ أعرف دورها الحقيقي في حياة والدي.

- اسمع، يا كريكور، أريد أن أقول لك إن كل ما كنتُ..

- أنت لست مجبرة على تقديم أي تفسير - قاطعتُها - أعرف أن والدي لم يكن قديساً، رغم أنه لا يسعني سوى أن أعترف أنني

صُدمت لبعض الأشياء التي قرأتُها في رجل القسطنطينية - وهززتُ كتفيّ - لكن، في هذه الظروف، لا شيء من هذا يهم حقاً - ثم وجهتُ نظرة متسائلة نحو الباب - كيف حالُه؟

تنهّدت الفرنسيةُ، محبطة.

- أخشى كثيراً أنه عاد ليغرق في الغيوبة مرة أخرى.

ران صمتٌ ثقيل بيننا. كان الدكتور فونسيكا واضحاً في تشخيصه وكنا معاً ندرك جيداً أن الموت يحوم حول والدي وأنه سيأخذه معه قريباً. من المحتمل ألا يستفيق مرة أخرى من غيبوبته؛ كان منذوراً للموت في غرفته داخل الفندق، هنا في لشبونة، المدينة التي اختارها لقضاء آخر سنوات حياته المتقلّبة.

أمسكتُ الأوراق المتناثرة فوق السرير وبدأت أرتبها.

- مُدهشٌ جداً كم من الأمور كان يعرف عني - لاحظتُ - كيف يصف طفولتي بل وحتى الطريقة التي تعرفتُ بها على مرجان تتميز بدقة محيرة.

- لقد قلتُ لك إنه قد اكتشف دفتر يومياتك. وعلاوة على هذا، استأجر خدمات محقق خاص للنبش في ماضيك.

- بجدّ؟

- كان يريد أن يعرف عنك كل صغيرة وكبيرة، حتى يربط قصة حياته بقصة حياتك. لم يسمح لأحد بالاطلاع على ما كتَب. أنت أول من يقرأ النّص.

كانت رزمة أوراق رجل القسطنطينية قد اكتملت. عدّلتُ حواشي الأوراق، صففْتُها بعناية، ثم انْكبَبْتُ على طاولة جانب السرير، حيث كانت الرزمة الثانية من الأوراق. أخذتُها واستبدلتها بالرزمة الأولى.

- أظن أنني لن أتمكن من النوم بسرعة - لاحظتُ، وأنا أتأمل الرزمة الثانية من الأوراق التي كانت يداي تداعبانها بنفاذ صبر مدهش - سوف أقرأ بقية الحكاية.

ما قلتُه جعلَ مادام دوبري تدركُ أنني كنتُ أرغب في البقاء لوحدي. بتلك الأناقة المتكتمة التي تميزُ تصرُّفاتها، حتى وقد تقدم بها العمر، عدّلتْ لباس النوم ثم استدارت لتغادر الغرفة.

- سأذهب لأنام، يا عزيزي، قالت - أراك غداً.

خرجت إلى الممر وأغلقت الباب بلطف، فتركتني لوحدي مع الجزء الثاني من مذكرات والدي. كانت قطرات المطر القوي ما تزال ترتطم بالنافذة، تنقر الزجاج بشراسة. كانت تمطرُ دون توقف في لشبونة، وهو ما يزيد من دفء غرفتي في فندق أفيش. عدّلتُ الوسادات واتكأت عليها، وجّهتُ الضوء الأصفر المنبعث من مصباح طاولة جانب السرير، وضعتُ فوق حجري رزمة الأوراق وأخذتُ توازني لأستأنف القراءة. مرّرتُ عيْنيّ على الورقة الأولى، وببهجة مسكوبةٍ في تنهيدةٍ مُتعةٍ مُبكّرة، استمتعتُ بما تنطوي عليه الصفحات والعنوان من وعود.

مليونيرٌ في لشبونة.

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة
telegram @t_pdf

جوزيه رودريغيش دوس سانتوس

رجل القسطنطينية

«في التجارة، كما في الحب، كل شيء مباح»

هذا أحد المبادئ التي امتثل بها «رجل القسطنطينية» الذي وُلد في إمبراطورية عثمانية منهكة وأصبح، بفضل حبه للمغامرة وقوة طموحه، من أغنى رجال العالم وأكثرهم نفوذاً.

تستمد هذه الرواية الرائعة مادتها من أحداث حقيقية وتحكي المسيرة المدهشة لهذا المغامر، الدبلوماسي، رجل الأعمال وعاشق الفنون، وتبوح لنا بسرِّ ارتقائه الهائل، وتأخذنا معه عبر أزقة بازار إسطنبول المتعرّجة، إلى أولى حقول النفط في الشرق الأوسط، مروراً بمارسيليا، لندن، وباريس... حيث نصادف شخصيات من قبيل إيمانويل نوبل، سيزار ريتز ونستون تشرشل، كما نعيش معه بعض الاضطرابات التاريخية ونتلقى، مفتونين، درساً لا يفنى: المعرفةُ هي القُوّة.

هذا الدرس الجميل في الحياة والتاريخ يضعنا أيضاً أمام مسألة لطالما أرّقت «رجل القسطنطينية» وطرَحَها سؤالاً وهو على فراش الموت: ما هُو الجَمَالُ؟

فلنسافر، إذاً، في هذا العالم من الجَمَال ولنكتشف العالم العجيب للكاتب البرتغالي جوزيه رودريغيش دوس سانتوس الذي يُعدّ من أعظم كُتّاب الرواية في الأدب العالمي الحديث، والملقَّب عن حق بـ «دان براون البرتغالي».

ISBN 978-9920-657-11-2
9 789920 657112

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com